المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

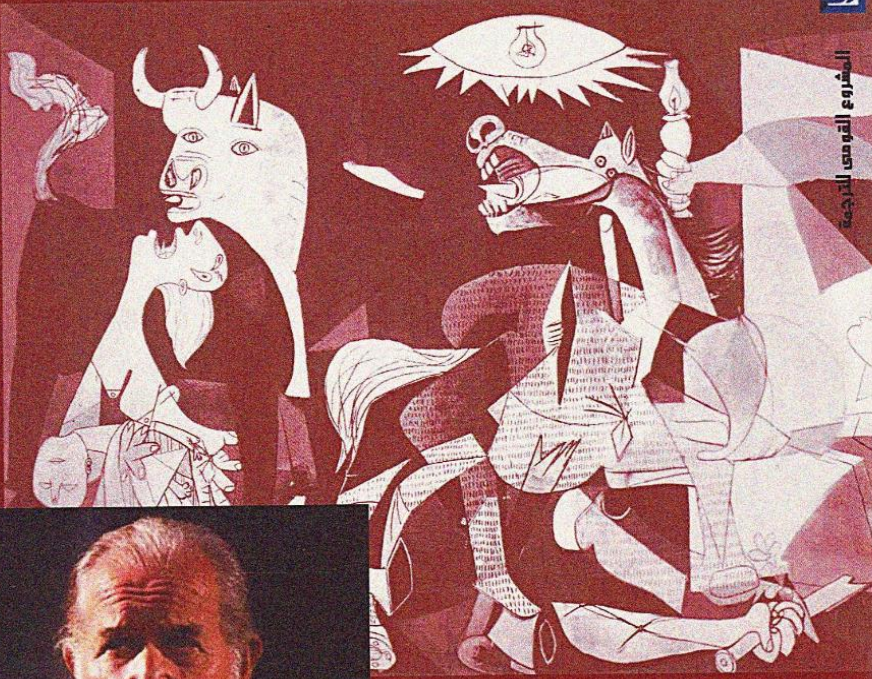

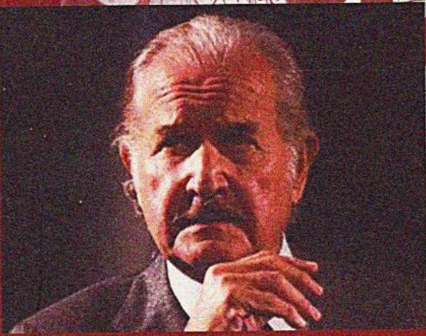

كارلوس فوينتس

المرآة الدفينة

ترجمة: على إبراهيم منوفى

2003

المرآة الدفينة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2003
- المرآة الدفينة
- كارلوس فوينتس
- على إبراهيم منوفى
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

THE BURIED MIRROR: Reflections on Spain & the New World
By: Carlos Fuentes

Copyright © 1992 by Carlos Fuentes
Arabic Translation © 2012, National Center for Translation
By arrangement with the author
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

المرآة الدفينة

تأليف: **كارلوس فوينتس**
ترجمة: **على إبراهيم منوفى**

2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فوينتس؛ كارلوس

المرآة الدفينة؛ ترجمة: كارلوس فوينتس؛ ترجمة: على إبراهيم المنوفى

ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٢

٤٤٤ ص؛ ٢٤ سم

١- إسبانيا - تاريخ

(أ) المنوفى، على إبراهيم (مترجم)

(ب) العنوان ٩٤٦

رقم الإيداع ٢٠١٢/٢٠٣٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-704-925-2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

مدخل 7

الفصل الأول: العذراء والثور 13

الفصل الثانى: غزو إسبانيا 29

الفصل الثالث: إعادة غزو إسبانيا (حرب الاسترداد) 51

الفصل الرابع: ١٤٩٢م عام الحسم 81

الفصل الخامس: حياة عالم الشعوب الأصلية وموته 95

الفصل السادس: الغزو وحرب الاسترداد فى العالم الجديد 119

الفصل السابع: العصر الإمبراطورى 155

الفصل الثامن: العصر الذهبى 179

الفصل التاسع: الباروك فى العالم الجديد 205

الفصل العاشر: عصر جُويَا Goya 229

الفصل الحادى عشر: نحو الاستقلال: الكثير من الأقنعة والمياه العكرة .. 261

الفصل الثانى عشر: سيمون بوليفار وخوسيه سان مارتين 279

الفصل الثالث عشر: زمن الطُّغَاة 295

الفصل الرابع عشر: ثقافة الاستقلال 315

الفصل الخامس عشر: الأرض والحرية 339

الفصل السادس عشر: أمريكا اللاتينية 355

الفصل السابع عشر: إسبانيا المعاصرة 377

الفصل الثامن عشر: الناطقون بالإسبانية فى الولايات المتحدة 391

المراجع 407

شكر واجب 439

مدخـــل

فى الثانى عشر من أكتوبر عام ١٤٩٢، رست سفن كريستوفر كولومبوس على شواطئ جزيرة صغيرة تقع فى نصف الكرة الأرضية الغربى، وكانت حملة هذا البحّار تمثل انتصار الافتراض على الواقع؛ فقد كانت الدلائل البديهية تشير إلى أن الأرض مستوية، أما الافتراض فكان يقول بأن الأرض كروية؛ وهنا راهن كولومبس على الافتراض، وعلى ذلك فلما كانت الأرض كروية يمكن الوصول إلى الشرق بالإبحار صوب الغرب، لكنه أخطأ فى بلوغ جغرافيته، إذ ظنّ أنه وصل إلى آسيا؛ كانت رغبته أن يصل إلى أرض اليابان الرائعة، التى كانت تسمى Cipango، وإلى الصين، وكان اسمها Catay، واختصار الطريق الذى كان يسلكه الأوربيون للوصول إلى هناك بالالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ثم الاتجاه شرقًا حتى المحيط الهندى وجزر التوابل.

لم يكن هذا أول خطأ أو آخر خطأ فى الاتجاه نحو الغرب، ففى هذه الجزر، التى أطلق عليها كولومبس "جزر الهند"، أقام هناك أول تجمعات سكانية أوربية فى العالم الجديد، وشيد الكنائس الأولى، وفيها أقيمت أوليات الطقوس الدينية المسيحية، غير أن الرحّالة البحّار لم يجد ضالته، ذلك أنه لم يعثر على هذه الثروات الضخمة التى حلم بها؛ وكان عليه أن يبتكر قصة اكتشافه لثروات ضخمة فى الغابات وغابات اللؤلؤ والذهب، وأن يرسل هذه المعلومات إلى إسبانيا؛ وإلا فإن من رعته، الملكة إيزابيل، ربما تظن أن استثماراتها (وإيمانها) بهذا البحار من جنوة لم تكن إلا خيالاً مجنونًا وخطأ صراحًا.

لكن كولومبوس قدم لها أكثر من الذهب، قدم لها رؤية "للعصر الذهبى" كانت قد بدأت؛ فهذه الأرض كانت أرض اليوتوبيا، وكانت الزمن الجميل للإنسان الطبيعى.

اكتشف كولومبوس الجنة على الأرض واكتشف ذلك الإنسان البَرىَّ الطيب الذى كان يقطن فيها؛ فلماذا إذن وجد نفسه مضطراً ليرفض على الفور اكتشافه، ويهاجم الناس الذين انتهى للتو من وصفهم بأنهم "شديدو الألفة لا يعرفون الشر ولا يقتلون الآخرين أو يشعلون ناراً أو يمسكون سلاحاً"، فأخذ يصطادهم ويستعبدهم ويرسل بهم إلى إسبانيا فى الأصفاد؟

فى بداية الأمر، رجع كولومبوس خطوة إلى الوراء، صوب العصر الذهبى؛ لكن سرعان ما تمخض عن تصرفاته تحطم ذلك الفردوس على الأرض، وأن البدائيين الطيبين الذين رآهم عشية أمس، هم "طيبون ليرسل بهم إلى إسبانيا ويجعلهم يعملون ويفلحون الأرض ويفعلون كل ما كان ضرورياً".

واعتباراً من هذه اللحظة أخذت القارة الأمريكية تعيش بين الواقع والخيال، وعاشت طلاقاً بائناً بين المجتمع المثالى أو الطيب الذى نرغب فيه والمجتمع غير المثالى الذى نعيش فيه فى واقع الأمر. لقد أصررنا على الأمل فى اليوتوبيا لأننا تأسسنا من اليوتوبيا، ولأن ذكريات المجتمع السعيد تكمن فى جذور أمريكا وكذلك فى نهاية الطريق كغاية وتجسيد لآمالنا.

بعد خمسمائة عام على رحلة كولومبوس طلبوا منا أن نحتفل بالمئوية الخامسة لهذه الرحلة التى لا شك أنها كانت واحدة من الأحداث الكبرى فى تاريخ البشرية، وكانت البشارة التى أعلنت مجىء العصر الحديث والوحدة الجغرافية لكوكب الأرض. غير أن الكثير منا معشر المتحدثين بالإسبانية فى الأمريكتين نتساءل: هل هناك بالفعل ما نحتفل به؟

عندما نلقى نظرة على ما يحدث فى الجمهوريات فى أمريكا اللاتينية مع نهاية القرن العشرين، فإن هذا يدفعنا للإجابة بالنفى عن السؤال المطروح؛ ففى كاراكاس ومدينة المكسيك وليما وريو دى جانيرو نجد أن المئوية الخامسة لاكتشاف أمريكا تأتى ونحن نعيش أزمة عميقة، هناك التضخم الاقتصادى والبطالة وعبء الديون الخارجية الذى يتجاوز الحد؛ والفقر والجهل اللذان يزدادان، وتهاوى القدرة الشرائية وتدنى

مستويات المعيشة. هناك شعور بالإحباط وضياع الأحلام والآمال التى تحطمت، وديمقراطيات هشة وتهديدات بانفجارات اجتماعية.

ومع هذا أعتقد أنَّ لدينا ما يمكن أن نحتفل به رغم مشاكلنا الاقتصادية والسياسية، فالأزمة الحالية التى تمر بها أمريكا اللاتينية قد أثبتت أن أنظمتنا الاقتصادية والسياسية هشّة؛ فقد سقط الكثير منها سقوطًا مدويًا، كما أن الأزمة أوضحت أيضًا عن شىء ظل ماثلاً، وهو شىء لم نكن واعين له بالكامل طوال العقود السابقة التى كانت تتسم بالازدهار الاقتصادى والفوران السياسى، وهو شىء ظل ماثلاً أمام أعيننا رغم كل الكوارث التى عانينا منها؛ إنه الموروث الثقافى، وهو الشىء الذى أبدعناه ونحن فى غاية السعادة وفورة المشاعر الجياشة والتحدى؛ إنها الثقافة التى استطعنا إبداعها خلال القرون الخمسة السابقة بصفتنا أحفاد الهنود، والسود والأوربيين، فى العالم الجديد.

الأزمة، التى أصابتنا بالفقر وضعت الثروة الثقافية أيضًا فى أيدينا، ولفتت انتباهنا إلى أنه لا يوجد أى من أبناء أمريكا اللاتينية، ابتداء من نهر برابو(*) حتى "رأس أورنوس" Cabo de Hornos(**)، إلا وهو وريث شرعى لجميع جوانب التراث الثقافى عندنا؛ وهذا هو ما أريد أن أكشف النقاب عنه من خلال هذا الكتاب، أى ذلك التراث الذى يتجلى، ابتداء من الكتل الحجرية فى شنشن إيتثا C.Itza وماتشو بيتشو حتى التأثيرات الحديثة للسكان الأصليين فى الرسم والعمارة؛ وكذلك ابتداء من عصر الباروك خلال الفترة الكولونيالية حتى نصل إلى الإبداع الأدبى المعاصر لكل من خورخى لويس بورخس وجابرييل جارثيا ماركث، إضافة إلى تعدد الوجود الأوربى فى نصف الكرة الأيبيرى ومن خلال شبه جزيرة أيبيريا والبحر المتوسط والثقافة الرومانية واليونانية والعربية واليهودية، وحتى الوجود الإفريقى – إفريقيا السوداء – بتفرّده وآلامه؛ ويشمل

(*) أقصى نقطة وصلوا إليها فى الشمال.

(**) أقصى نقطة فى اليابسة فى جزيرة جنوب شيلى.

ذلك أيضًا ما نجده، ابتداء، فى كهوف ألتاميرا وحتى الجرافيت فى لوس أنجلوس، ومن أوائل المهاجرين خلال مضيق بيرنج Bering(*) حتى آخر عامل لا يحمل مستندات هويته، يكون قد عبر الحدود ليلاً بين المكسيك والولايات المتحدة.

ثقافات قليلة فى العالم تمتلك هذا الثراء وتلك الاستمرارية اللذين ليس لهما مثيل، فمن خلال تلك الثقافة يمكن لنا معشر أبناء إسبانوأمريكا أن نحدد هويتنا وهوية إخوتنا وأخواتنا فى هذه القارة، ولهذا نعيش دراما كبيرة وهى عدم قدرتنا على تحديد هوية سياسية واقتصادية يمكن مقارنتها بغيرها من الهويات. وأشك أن الأمر صار على هذا النحو لأننا حاولنا أو فرضنا - بشكل يزيد عن الحد - أنماطًا للنمو دون أن يكون لذلك وشائج بواقعنا الثقافى، ومن هنا أيضًا فإن إعادة اكتشاف القيم الثقافية ربما يساعدنا، مع شىء من الجهد وبعض الحظ، على العثور على الرؤية الضرورية للتلاقى بين الثقافة والاقتصاد والسياسة؛ وربما كانت هذه هى مهمتنا خلال القرن الحادى والعشرين.

نجد إذن أن هذا الكتاب غايته البحث فى مسألة الاستمرارية الثقافية التى يمكن أن تفصح عن اللاوحدة الاقتصادية والتشرذم السياسى لعالم الدول الإسبانوأمريكية. الموضوع شديد التعقيد والإثارة للجدل، وسوف أحاول أن أكون منصفًا فى مناقشتى له، غير أننى سوف أتحدث بحماس ذلك أن الموضوع يخصنى كإنسان وككاتب وكمواطن من المكسيك التى تقع فى أمريكا اللاتينية وأكتب باللغة القشتالية.

وعند البحث عن بصيص ضوء يقود، فى ليل ممزق غير واضح المعالم، للروح الثقافية والسياسية والاقتصادية للعالم المتحدث بالإسبانية، وجدته فى المكان الذى يضم الأطلال التوتونكية Totonacas(**) فى تاخين وفى بيراكروث وفى المكسيك. وبيراكروث هى الولاية التى ولدت فيها أسرتى، وكانت ميناء الدخول للتغيير، وفى آن،

(*) مضيق مائى فى أقصى شمال المحيط الهادى.

(**) سوف يتحدث عنها المؤلف لاحقًا.

المأوى الدائم للذات المكسيكية؛ ومن هنا دخل إلى المكسيك كل من الغزاة الإسبان والفرنسيين والأمريكيين؛ وهنا أيضًا نشير إلى أن الثقافات القديمة فى هذا البلد وهى ثقافة الأولميك Olmecas(*)، جنوب الميناء، والتى يصل عمرها إلى ٣٥٠٠ سنة، وثقافة التوتونيك، فى الشمال، والتى ترجع إلى ألف وخمسمائة عام، كانت لها جذورها أيضًا هنا.

عُثر فى مقابرها التى تقع فى أماكن العبادة على مرايا مدفونة كان الغرض منها، على ما يبدو، إرشاد الموتى فى رحلتهم إلى العالم السفلى. هى مرايا مقعرة وصدئة ومصنفرة وبها نتفة من ضوء وسط الظلمة. غير أن المرآة المدفونة ليست مجرد جزء فقط من خيال السكان الأصليين الأمريكان. وهنا نجد أن الشاعر المكسيكى/ القطلانى رامون شيراو R.Xirau، عنون أحد كتبه بهذا العنوان "المرآة المدفونة"، فى محاولة لإحياء موروث من موروثات البحر الأبيض المتوسط غير البعيد كثيرًا عن السكان الأصليين فى الأمريكتين. إنه مرآة، مرآة تنظر إلى الأبيض المتوسط انطلاقًا من الأمريكتين، ومن المتوسط إلى الأمريكتين. هذا هو العمق والمغزى من وراء هذا الكتاب. على هذا الشاطئ من الأطلنطى نجد المرايا من معدن البيريت الأسود، عثر عليها فى هرم تاخين فى بيراكروث، وهو مكان غريب، واسمه يعنى "البرق". وفى هرم نيتشوس الذى أقيم بارتفاع ٢٥ مترًا على قاعدة مساحتها ٣٥م٢، نجد أن به ٣٦٥ نافذة مفتوحة على العالم، ولا شك أنها ترمز لأيام السنة؛ أما على الشاطئ الآخر من الأطلنطى فهناك ما يسمى "بفارس المرايا"، إبداع ثربانتس، الذى يحارب دون كيخوته، محاولاً علاجه مما هو عليه من جنون؛ وكان هذا الفارس العجوز، دون كيخوته، يمتلك مرآة فى ذهنه، عليها تنعكس صفحات كل ما قرأه، وما يعتبره هذا المجنون المسكين انعكاسًا أمينًا للواقع.

(*) سيرد تفصيل ذلك لاحقًا.

وغير بعيد عن المكان، نجد فى متحف البرادو، فى مدريد، أن بيلاثكيث يرسم نفسه، وهو يرسم ما يرسمه فى واقع الأمر، وكأنه أبدع لنفسه مرآة، غير أننا نلاحظ فى خلفية اللوحة وجود مرآة أخرى تعكس وجود الشهود الحقيقيين للعمل الفنى وهما أنت وأنا.

وهنا نتساءل عما إذا كانت مرآة بيلاثكيث تعكس من على الشاطئ الإسبانى المرآة الدخانية لإله الليل فى ثقافة الأثتيك المسمى تِثْكاتْليبوكا فى اللحظة التى يزور فيها الثعبان المجنح، كِيتثالكواتل Quetzalcoatl، إله السلام والخلق، ويقدم له هدية عبارة عن مرآة. وعندما تنعكس صور الإله الطيب فيها تتحقق ذاته الإنسانية ويسقط مفزوعاً، فقد سلبته المرآة ألوهيته.

فهل سيجد كِيتثالكواتل طبيعته الحقيقية الإنسانية والإلهية، فى منزل المرايا، الذى هو معبد الرياح الأسطوانى الشكل، فى هرم طولتيكا فى تيوتيولكان Teothualcan، أو فى المرآة الاجتماعية القاسية المسماة "مرآة الأهواء" لجويا، حيث يصبح الغرور مثار سخرية، ولا يستطيع المجتمع أن يخدع نفسه عندما ينظر إلى نفسه فى مرآة الحقيقة؟ هل كنت تظن أنك كنت الفارس؟ انظر، لست فى حقيقة الأمر إلا قرداً ذا ذنب طويل.

ترمز المرايا للواقع والشمس والأرض والجهات الأربع والسطح وما تحت الأرض وكل الرجال والنساء الذين يعيشون على ظهرها، كانت تدفن المرايا فى مخابئ فى مختلف أنحاء الأمريكتين، لكنها الآن معلقة بأجساد أبسط المشاركين فى الاحتفالات فى جبال البيرو أو فى الكرنفالات الهندية فى المكسيك، حيث يرقص الشعب وهو يضع الريش أو يعكس صورة العالم من خلال جزازات الزجاج فى أغطية الرأس. نجد إذن أن المرآة هى الأكثر تعبيراً عن ذات أكثر جدارة، مقارنة بالذهب الذى قدمه السكان الأصليون، فى صورة مقايضة، للأوربيين. ربما لم يكونوا على حق، أليست المرآة انعكاساً للواقع مثلما هى مشروع للخيال؟

ك.ف. (كارلوس فوينتس)

الفصل الأول

العــذراء والثــور

تلقت الأمريكتان، من خلال إسبانيا، تراث البحر المتوسط، فإسبانيا ليست مسيحية فقط بل عربية ويهودية ويونانية وقرطاجنية ورومانية وبها مسحة من القوطية والغجرية. وربما لدينا موروث قديم أكثرة قوة فى كل من المكسيك وجواتيمالا وإكوادور وبيرو وبوليفيا، أو كان لدينا وجود أوربى أقوى فى الأرجنتين أو شيلى، كما أن التراث الزنجى هو الأقوى فى الكاريبى وفنزويلا وكولومبيا مقارنة بما هو موجود منه فى المكسيك أو باراجواى، إلا أن إسبانيا تعانقنا جميعًا، فهى بشكل ما الملتقى المشترك لنا، وإسبانيا، الوطن الأم، هى ماهية ذات بُعدين توليديين، أى تجمع بين الأب والأم فى وحدة واحدة، تحوطنا بحرارتها التى تصل إلى درجة الاضطهاد، والأسرية الخانقة، ومهدهدة المهد الذى تستكنّ فيه كهدايا تعميد موروثات العالم المتوسطى واللغة الإسبانية والكاثوليكية والتراث السياسى التسلّطى، لكن أيضًا إمكانية تحديد ماهية موروث ديمقراطى يمكن أن يكون بالسليقة جزءًا منا وليس مجرد نمط جرى اشتقاقه من النماذج الفرنسية أو الأنجلوأمريكية.

أعطتنا إسبانيا التى جاءت إلى العالم الجديد على متن مراكب المكتشفين والغزاة نصف كينونتنا كحد أدنى، وبالتالى ليس بمستغرب أن يكون نقاشنا مع إسبانيا مكثفًا سواء فى الماضى أو الحاضر، فهو نوع من النقاش مع أنفسنا، وإذا ما كنا نصنع السياسة من خلال حوارنا مع الآخرين، كما يلاحظ دبليو.ب. يتس W.B. Yeats،

فمن خلال نقاشنا مع أنفسنا نبدع الشعر، وليس بالضرورة أن يكون هذا الشعر مقفى دائمًا أو دقيق الوزن بل غالبًا ما يميل إلى غنائية شديدة الدرامية وناقدة؛ قد تصل إلى السلبية والقتامة، كأنها واحدة من لوحات جويا، أو أنها شديدة القسوة كأنها واحدة من لقطات أفلام لويس بونيويل؛ فالمواقف المؤيدة أو المضادة لإسبانيا وثقافتها وتراثها أضفت الألوان على مناقشات حياتنا السياسية والثقافية، فيراها البعض كأنها العذراء المصون ويراها البعض الآخر كأنها اللعوب القذرة؛ واستغرقنا وقتًا حتى أدركنا أن علاقتنا بإسبانيا شديدة التأزم، على شاكلة علاقتنا بأنفسنا نحن، وشديدة التأزم مثل علاقة إسبانيا بنفسها، إذ هى علاقة لا حل لها، وأحيانًا ما تكون مقنعة، وأخرى شديدة اللاتسامح، وشديدة الازدواجية، ومنقسمة على نفسها بين الخير والشر المطلقين. إنه عالم من الظلال والضياء مثلما نجده فى حلبة مصارعة الثيران، وغالبًا ما نظرت إسبانيا إلى نفسها بنفس المنظور الذى نظرنا به إليها، فمعيار كراهيتنا مماثل تمامًا لمعايير حبنا، لكن أليست هذه إلا طرائق لتسمية الشغف؟

هناك صدمات نفسية تحدد العلاقة بين إسبانيا وأمريكا الإسبانية، وبالطبع نجد أن أولها غزو العالم الجديد الذى يعتبر أصل هذا التعارف الرهيب الذى يولد من وجودنا فى لحظة خلقنا، حيث نتحول إلى شهود على اغتصاب ذواتنا، لكننا شهود أيضًا على الفظاعات والشفقات المتناقضة التى شكلت جزءًا من إدراكنا ووعينا، فلا يمكن فهمنا معشر الإسبانوأمريكيين دون هذا الوعى المكثف للحظة التى وضعت فيها بذرة الحمل بنا كأبناء لأم مجهولة، كما لو أننا مجهولو الاسم، إلا أننا واعون تمامًا لأسماء والدينا. إنه ألم رائع يؤسس للعلاقة بين أيبيريا والعالم الجديد، وهو مخاض يحدث مصحوبًا بمعرفة كل ما كان عليه أن يموت حتى نولد نحن: ازدهار الثقافات الأصلية.

فى عقولنا أنماط كثيرة لإسبانيا، فهناك إسبانيا "الأسطورة السوداء"، أى إسبانيا محاكم التفتيش وإسبانيا اللامتسامحة وإسبانيا المناهضة للإصلاح الدينى، إنها رؤية حركها التحالف بين الحداثة والبروتستانتية، حيث اختلطا واندمجا فى

تعارض دائم مع إسبانيا وكل ما هو إسبانى. وسرعان ما نجد إسبانيا الرحالة الإنجليز والرومانسيين الفرنسيين، وإسبانيا مصارعة الثيران وإسبانيا كارمن وإسبانيا الفلامكنو. هناك أيضاً إسبانيا الأم التى ينظر إليها من خلال أحفادها خلال العصر الاستعمارى فى الأمريكتين، إنها إسبانيا غير واضحة الملامح، الخاصة بهذا الغازى الفظ والقديس المبشر، وهذه الصورة هى التى يقدمها لنا الرسام المكسيكى دييجو ريبيرا فى لوحاته الحائطية.

تكمن مشكلة الصور النمطية، بالطبع على المستوى الوطنى، فى أنها تضم بذرة من الحقيقة رغم أنه أسهم فى دفنها. فهل يجب أن تموت البذرة حتى يبزغ النبات؟ الأمر هو ما نجده أمامنا، إذ يتسم بالوضوح والجلبة أحياناً، غير أن السياق المولد للنص قد زال، وهنا نجد أن عملية إعادة تصور سياق المكان المشترك يمكن أن تكون مدهشة بقدر ما تكون خطيرة. فهل نقوم ببساطة بتقوية الأكلاشيه؟ يمكن الحيلولة دون هذا الخطر عندما نحاول أن نعكس صورتنا نحن كأفراد مواطنة ما أو ثقافة بعينها، وبالنسبة لجمهور أجنبى سيرى المعانى العميقة لأيقوناتنا الثقافية من مثل عدم التسامح ومن القسوة، والأداء المبطن، وسيتساءل من أين تأتى هذه؟ ولماذا توجد - بالفعل - واقعية ومثابرة؟ أى تلك المعانى العميقة الأيقونية الثقافية، ومن أمثلة ذلك اللاتسامح والقسوة وما يختبئ وراءهما. من أين تأتى إذن هذه الحقائق؟ لماذا هى إذن حقائق مُلِحّة؟

أجد أساسين للسياق الإسبانى، أولهما هو أن كل مكان مشترك ينكره نقيضه، فإسبانيا الرومانسية والفريدة التى صوّرها بايرون وبيزت **Bizet**، على سبيل المثال، تتعايش وجهاً لوجه مع تلك الأشكال القاسية الملامح، شبه المعتمة، والأرستقراطية التى نراها فى لوحات كل من الجريكو وبيلاثكيث؛ وهذه الأخيرة تتعايش بدورها مع الأشكال، المتطرفة والمتمردة على أية قولبة أو تعريف، التى أبدعها جويا أو لويس بونيويل؛ أما الثانى الخاص بالثقافة الإسبانية فهو ما نراه فى الحساسية الفنية الإسبانية وفى قدرتها على أنها تجعل من غير المرئى مرئياً، من خلال التكامل بين ما هو هامشى وما هو فظ وما هو مستبعد، داخل واقع هو فى المقام الأول واقع الفن.

غير أن هذا الإيقاع والثراء الناجمين عن هذا الكون من المتناقضات هو ثمرة واقع إسبانى جوهرى للغاية، يتمثل فى أن ليست هناك دولة أوربية أخرى، اللهم إلا روسيا، تعرضت للعديد من الغزوات وموجات المهاجرين إليها.

الرمال الإسبانية:

تشبه خريطة أيبيريا جلد ثور، ممتدة كأنها جلد طبلة، مليئة بالمسالك التى خلفها الرجال والنساء الذين بهتت ملامحهم حيث لا نكاد ندركهم هنا فى أمريكا الإسبانية، غير أن الرسالة واضحة وهى أن هوية إسبانيا متعددة، فقد تم نحت وجهها بأيد كثيرة من أيبيريين وسلت ويونانيين وفينيقيين وقرطاجنيين ورومان وقوط وعرب ويهود.

ربما أخذ قلب الهوية الإسبانية ينبض حتى قبل أن يبدأ التاريخ منذ ٢٥ ألف عام أو ثلاثين ألف عام فى كهوف بلدة ألتاميرا أو بوسو **Buxo** أو تيتو بوستيو **T. Bustillo** فى مملكة كانتابريا فى إقليم أستورياس. وقد أطلق عليها الكاتب ميجل دى أونامونو ضلوع إسبانيا؛ ورغم أنها اليوم قد تبدو فى شكلها حديثة جداً وكأنها إحدى منحوتات جياكومتى **Giacometti**(*)، فمنذ آلاف السنين مرّ إسبان من هنا، بالقرب من المداخل واحتموا من البرد ومن الحيوانات المفترسة، وتمكنوا من الحفاظ على مساحات كبيرة لإقامة طقوسهم فى هذه الكاتدرائيات التى تقع تحت الأرض: فهل كانت طقوساً لاسترضاء الآلهة؟ أو طقوس مبتدئين؟ أو كانت إذعاناً للطبيعة؟

وبغض النظر عن هذه الأطروحات، نجد أن الصور الأولى أو النقوش الأولى التى تركها الإسبان الأوائل هنا تظل مصدر استغرابنا؛ إنها الأيقونات الأولى للبشرية، وما يثير المفاجأة هو أن نعثر بينها على توقيع، على شكل كف الإنسان وعلى صورة قوية تعكس القوة والخصوبة الحيوانية. وإذا ما كانت كف الإسبانى الأول توقيعاً جريئاً على

(*) باولو جياكومتى: إيطالى (١٨١٦-١٨٨٢).

الحوائط البيضاء للإبداع فقد أصبحت الصورة الحيوانية مع مرور الزمن مركزًا لطقوس قديمة فى حوض البحر المتوسط، تمكنت من تحويل الثور إلى رمز للقوة والحياة. من الواضح أن ما نراه فى الصورة التى نجدها فى الكهوف الإسبانية هو الثور البرى bisonte؛ ورغم مرور القرون، ما زال الحيوان يحتفظ بألوانه الزاهية المائلة إلى اللون البنى وكذا الحوافر السوداء التى تحدد شكله، والثور ليس وحده، إذ نعثر أيضًا على صور لخيل وخنازير برية ومنابع أنهار.

هناك أمران يلفتان انتباهى عندما أزور كهوف ألتاميرا، أحدهما القبة التى نجد فيها صور الثيران البرية فقد ظلت غارقة فى الظلام منذ بداية العصر الحجرى، أما الأمر الثانى هو أن هذا الكهف اكتشف فقط منذ عام ١٨٧٩م على يد طفلة عمرها خمس سنوات واسمها مريم سانتوولا M.Santuola كانت تلعب بالقرب من مدخل الكهف؛ ومن خلال الظُلمة التى ليس لها قرار فى ألتاميرا يظهر الثور الإسبانى الذى سرعان ما يسيطر على الأرض حتى يومنا هذا. ويمتد تصويره ابتداء من الثيران الراقدة فى أوسونا Osuna، التى ترجع إلى العصر الأيبيرى والقرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، وحتى التصوير الرائع، فى عصر السلت، للثيران الحامية فى جيساندو Guisando(*)، وهى صور يمكن أن تكون ممهورة بتوقيع برانكوزى Brancusi(**)، وكذلك حتى الثور الأسود الذى نجده اليوم فى اللوحات الإعلامية فى كافة أنحاء شبكة الطرق فى إسبانيا التى تدعو إلى تناول مشروب البراندى إنتاج أوسبورنى Osborne. غير أن التصوير الحديث للثور الإسبانى ربما نجده متوجًا فى الرأس المأساوية لهذا الحيوان والتى هى عنوان الليل البشرى فى لوحة الجرنيكا لبابلو بيكاسو.

فهل رأت الصغيرة ماريا سانتوولا، أو دورثى، فى أرض أوز T. de OZ، أو أليسيا فى "بلاد العجائب"، صورة ميثولوجية، أى حيوان بلدة "بالاثوتى" الذى يراقبنا وهو قابع فى تلك الصالات المَنيفة فى المتحف الوطنى للآثار بمدريد. هذا الحيوان، "حيوان بالاثوتى"،

(*) بلدة فى محافظة أبيلا. (إسبانيا).

(**) نحات رومانى (قسطنطين برانكوزى ١٨٧٦-١٩٥٧).

هو ثور ذو رأس إنسانى، حيث يربط مباشرة بين ثقافة الثيران فى إسبانيا ورمالها الثقافية الكبرى، ألا وهى حوض البحر الأبيض المتوسط. وفى جزيرة كريت، تلك الجزيرة التى يعتقد أنها كانت الأصل فى موضوع مصارعة الثيران، نجد ثوراً هو الإنسان ونجد إنساناً هو الثور "القنطور": **Minatouro**، وربما نجد أن كافة التنويعات والاشتقاقات من الرمز الخاص بالثور ليست - فى البداية والنهاية - إلا نوعاً من الحنين إلى عملية "التحول الثيرانية" **Tauromorfosis** التى كانت فى البداية، أى أن نملك ناصية القوة والخصوبة التى عليها الثور إضافة إلى ما عليه الكائن البشرى من ذكاء وخيال خصب.

كان سكان البحر الأبيض المتوسط يقتربون من الثور ويرونه زميلاً فى اللعب ويتأرجحون على ظهر الحيوان مثلما ورد فى الوصف الذى أخذناه من جزيرة كريت، حيث يقفز الفارس على الثور أو يسافر صورة وهو على ظهره، مثلما نرى فى اقتناص الإله زيوس لأوربا، وهو متخفٍ فى صورة ثور، أو الإعلاء من شأن العنف فى نظرية نشأة الكون عندما يتحول الرمز إلى شكل نجمى هو الثور **Taurus**، أو مجرد موضوع حب عندما كانت أوربا واعية للمداعبات الشغوفة لثورها.

كان تيسيو **Teseo** هو المصارع، البطل القومى فى أثينا، الذى فاز على القنطور **minotauro**. أما هرقل، معاصره، فهو الذى حمل أسطورة الثور إلى إسبانيا؛ واستطاع، مثل تيسيو أن يقتل ثوراً بلفحة نار فى كريت؛ لكنه يرحل إلى إسبانيا ويسرق قطيعاً من الثيران الحمراء الخاصة بالعملاق خيريون **Gerion** ذى الأجسام الثلاثة، ويعود به إلى اليونان، وحتى يتمكن من هذا كان عليه - هرقل - أن يجتاز المضيق بين جنوب إسبانيا وإفريقيا، ومن هنا كان اسم ذلك المضيق، "أعمدة هرقل". غير أن الاسم يضم ما هو أبعد من التسمية الجغرافية، إذ نجد الرابطة والشق الخاص بواحد من أقدم الطقوس البشرية، ألا وهو الموت الطقسى للحيوان المقدس. وهنا يظهر هرقل نبله بأن أعاد جزءاً من القطيع إلى إسبانيا كتعبير عن عرفانه للحفاوة التى قوبل بها هناك، وابتداء من تلك اللحظة أقر الملك كريساور **Crisaor** طقساً سنوياً فى إسبانيا لثور يتم التضحية به تكريماً لهرقل.

هرقل ليس إلا رمزاً لمواكب الشعوب التى قدمت إلى إسبانيا وشواطئها منذ أقدم العصور، وقد أسهمت هذه الشعوب كافة فى تشكيل روح وجسد إسبانيا، وليس هذا فقط بل امتد إلى أحفادهم فى العالم الجديد، فقد وصل الأيبيريون الأول منذ ما يربو على ثلاثة آلاف عام وبهم اكتسبت شبه الجزيرة اسمها الدائم، كما تركوا صورة الثور وهو يحرس مسالك القطعان ويحمى طريقًا يقودنا حتى أول مكان متسع ومشترك فى إسبانيا، أى إلى حلبة صراع الثيران. لكن المكان المشترك يعنى بالتحديد أن يكون مكانًا للقاء والتعارف ومكانًا نتشارك فيه مع الآخرين، لكن ما الذى يوجد ويتم التعرف عليه فى حلبة الثيران؟ نجد فى المقام الأول السكان أنفسهم، وهم فقراء قرويون ومعزولون فى جغرافية قاسية ولا مبالية؛ فى حلبة الثيران يجتمع أهل القرية، على ما كان ذات مرة طقسًا أسبوعيًا، يتمثل فى التضحية بثور مساء الأحد، وكان هذا يمثل أفول شمس الطقس الوثنى فى القدّاس المسيحى. إنهما طقسان يوحدهما بعد التضحية لكنهما مختلفان من حيث توقيت التنفيذ فى أثناء النهار، فالقدّاس صباحى، أما مصارعة الثيران فهى عظة مسائية. القداس هو عبارة عن حلبة مصارعة تحت أشعة الشمس أى دون غموض التوهج، أما مصارعة الثيران فهى قداس من الظلال والضياء مخضب بالشفق الوشيك.

فى حلبة مصارعة الثيران يلتقى الناس بأنفسهم ويجدون رمز الطبيعة، أى الثور الذى يجرى حتى مركز الحلبة وهو يشعر بالفزع بالهروب إلى الأمام، مُهدَّدًا لكنه مهدِّد أيضًا، يعبر الحد الفاصل بين الشمس والظل الذى يفصل بين الليل والنهار، وكأنه فاصل بين الحياة والموت. يخرج الثور جريًا ليلتقى بغريمه الإنسانى، المصارع وهو يرتدى حلة المصارعة المدججة بالبريق.

من هو مصارع الثيران؟ هو – من جديد – أحد أبناء القرية. ورغم أن فن مصارعة الثيران كان قائمًا من زمن هرقل وتيسيو، فإن النمطية الحالية التى هو عليها اليوم ترجع إلى منتصف القرن الثالث عشر؛ وفى تلك اللحظات تحولت مصارعة الثيران من كونها رياضة مقتصرة على الأبطال والأرستقراطيين إلى مهنة شعبية. وكان العصر

الذى عاش فيه جويا عصر الأرستقراطية الهائمة على وجهها، أى الوقت الذى كانت فيه الطبقات العليا تلهو فيه بتقليد الشعب وأخذت ترتدى أقنعة مصارعى الثيران والممثلات، الأمر الذى أعطى لمثل هذا الصنف من المهن قوة كبيرة تضارع تلك التى يتمتعون بها اليوم؛ فمصارعو الثيران الإسبان أصبحوا رموزًا شامخة مثل إلفيس برسلى أو فرانك سيناترا فى زماننا، فهم مثل هؤلاء، يمثلون انتصار الشعب.

غير أن مصارعة الثيران هى احتفالية جنسية، وعلينا ألا ننسى هذا، ففى أى مكان آخر يمكن للرجل أن يتخذ أوضاعًا جنسية مثيرة اللهم إلا إذا كان فى حلبة المصارعة، هناك الزركشة الواضحة التى عليها حُلة المصارعة، وهناك البنطلون الضيق وبروز الأعضاء التناسلية والإليتان منكمشتان، والأعضاء التناسلية مضغوطة والخطوات المختالة والمنادية وفورة الأحاسيس والدم. فالمبارزة تسمح بهذه الغطرسة التى لا تصدق وهذا الاختيال الجنسى؛ جذور المصارعة عميقة وغامضة؛ وعندما يتعلم شباب القرية مصارعة الثيران فكثيرًا ما يستطيعون فعل ذلك ليلاً وخلسة، وربما يجتازون نهرًا وهم عرايا، أو فى حقول الحسك، وهم يرتعدون، ويدخلون مزرعة الغنى دون إذن منه ليتعلموا مصارعة الثيران الممنوعة عليهم، خفية وبشكل غير مشروع فى أحلك ساعات الليل ظلمة. وعادةً ما رأى هؤلاء المصارعون الصغار نوعًا من الرغبة فى هذا الصنف من اللقاءات، ذلك أنهم عندما منعوا من رؤية الثور ليلاً، يقومون بمصارعته وهم شديدو القرب منه، ويتحسسون ويخمنون الشكل الذى عليه الحيوان، ويشعرون بجسده الدافئ والعدوانى المضاد لجسد المصارع الصغير، الذى يتعلم بهذه الطريقة تمييز ملامح الشكل والحركات وما يعنى لمناوئه.

المصارع الشاب هو أمير الشعب، وهو أمير فانٍ، يمكن له فقط أن يقتل، ذلك أنه يعرِّض نفسه للموت، فمباراة مصارعة الثيران هى باب يفتح على إمكانية الموت وتخضع لمجموعة محددة من القواعد، ويفترض أن الثور – على شاكلة الثور الميثولوجى "القنطور" **Minotauro** – قد ولد وهو مسلح تسليحًا كاملاً بكافة المواهب التى حبته بها الطبيعة، وعلى المصارع أن يكتشف نوعية الحيوان وما حبته به الطبيعة حتى يتحول

لقاؤه مع الثور إلى لقاء طبيعى فى احتفالية طقسية وسيطرة القوة الطبيعية. وقبل كل شىء على المصارع أن يعبر عن كفاءته إزاء قرون الثور ويرى أين تكمن قوته، ثم سرعان ما يمر أمام هذه القرون؛ يتمكن المصارع من الوصول إلى هذا من خلال طريقة وحيلة معروفة وهى "اللعب بالحظ"، الذى هو محور فن مصارعة الثيران. وإذا ما أردنا أن نعبر عن هذا بلغة فيها بساطة نقول إنه يستخدم عباءة المصارعة بفن حتى يتمكن من السيطرة على الثور بدلاً من أن يتركه على هوى غرائزه، فمن خلال العباءة وحركات القدمين والجسد يتمكن المصارع من إجبار الثور على تغيير الاتجاه وأن يتجه نحو مساحة الصراع التى يختارها المصارع، يقدم الساق إلى الأمام، أما الفخذ فهو إلى الوراء، ويدعو الثور باستخدام العباءة، نجد فى هذه اللحظة أن الثور والمصارع يتحركان معًا حتى تنتهى حركة المرور بالكامل، وهى عبارة عن اللحظة المثيرة، فى تواصل كأنهما تمثال واحد، حيث الثور والمصارع مترابطان حيث يعطى كل واحد منهما للآخر سمات القوة والجمال والمخاطرة، هما يمثلان صورة لزمن لا حراك فيه ودينامى. إنها اللحظة الأسطورية التى يتم إحياؤها، أى إن الإنسان والثور معًا مرة أخرى فى "دهليز مينوس **Laberinto de Minos**"(*) هما الشىء نفسه.

مصارع الثيران هو البطل المأساوى للعلاقة بين الإنسان والطبيعة، وهو الممثل فى احتفالية تستلهم محاولتنا العنيفة للعيش على حساب الطبيعة، وهنا لا يمكن لنا أن ننفى استغلالنا للطبيعة ذلك أنها الأساس نفسه لعيشنا، فالرجال والنساء الذين رسموا الحيوانات فى كهف ألتاميرا كانوا يعرفون ذلك الأمر جيداً.

تنزع إسبانيا عنّا قناع نفاقنا المتزمت فى علاقتنا بالطبيعة وتحول ذكرى أصولنا ومحاولتنا العيش والبقاء على حساب ما هو طبيعى إلى احتفالية ذات قيمة وذات فن وربما الخلاص أيضاً. ففى يوم الأحد، يوم الاحتفال ببعث المسيح، فى حلبة المصارعة

(*) هو اسم أسطورة تتعلق بالملك الثانى من الملكين اللذين يحملان اسم مينوس وحكم جزيرة كريت واستطاع تكوين قوات بحرية سيطرت على بحر إيجه.

"لامايستراتنا" فى إشبيلية، يبدأ موسم مباريات مصارعة الثيران. وفى الوقت الذى يظهر فيه فريق المصارعة على وقع مقطوعة موسيقية هى **Paso doble** لتكريم عذراء مكارينا **Macarena** نجد أن الحلقة التى تمتد من مصارعة الثيران حتى رقص الفلامنكو والطقوس للعذراء والعودة إلى ابنها الذى يحظى بالحماية ومصارع الثيران، تنغلق على ذاتها.

وأيًا كان وجه مصارع الثيران فى تلك الأمسية الخاصة، فإننى أتذكر دومًا ذلك المصارع الرائع بدرو روميرو الذى رسمه جويا، فالرسام يعكس لنا صورة المصارع بملامحه النبيلة التى تتمثل فى فكه الثابت وخدوده المشدودة والفم الصغير والمزموم والأنف المستقيم بدقة والحواجب المفصولة عن بعضها والجبهة الوضّاءة، وعلى صدره تظهر خصلات شعره الفضية. لكن العينين هما بؤرة الاهتمام، عينين مملوءتين بالقوة والحنان، يداه طويلتان، نحيلتان وقويتان، يرتدى عباءة مخملية وردية قاتمة وجاكتًا أزرق وصديريا رماديًا، الأمر الذى يضفى على القميص الكتانى بياضًا غير عادى. تقدم اللوحة فى إجماليها انطباعًا غير عادى يعكس الهدوء والجمال الذكورى الذى يشعر به المرء ويخشاه وفى الوقت ذاته يحسده الرسام نفسه.

رسم جويا بدرو روميرو عندما كان هذا فى الأربعين من عمره، وقد بدأ روميرو مصارعة الثيران على الطريقة الحديثة فى حلبة رنده، وتمكن طوال حياته من قتل ٥٥٥٨ ثورًا من ثيران المصارعة، ومات وهو يبلغ من العمر ثمانين عامًا دون أية ندبة لجرح فى جسده.

ويمكن القول بأن جسد بدرو روميرو، ذلك المصارع الكامل، الرجل الذى لم يَسل دمه على رمال الحلبة لا يستحق الدموع السوداء للأمهات العذراوات فى إسبانيا، لكن المسيح، ذلك الرب الذى مات مصلوبًا والذى أصيب جسده، فى اليدين والجبهة والقدمين والركبتين والأضلاع، نعم يستحق هذا الشعور بالألم من قبل الأمهات وهذا ما تقدمه إسبانيا بوفرة.

تماثيل الأمومة:

يلاحظ أن تماثيل الأمهات فى إسبانيا موجودة بكثرة الواحد بالقرب من الآخر فى متحف الآثار بمدريد، فهناك "سيدة باثا"، حيث جرت الحفائر فى مقبرتها بالقرب من غرناطة عام ١٩٧١م. تجلس على كرسى قابل للمقارنة بكرسى العرش، وحمامة فى اليد تحرس إلى جوار مقابر أجدادها ووارثيها، يداها مرصعتان بالخواتم وهى رمز سلطة الأمومة، ترتدى ملابس أثيرية ودائمًا ما ترأس لحظة ميلاد شعبها ووفاته؛ يُنظر إليها على أنها إلهة جنائزية، كما أنها ظلت مدفونة طوال أربعة وعشرين قرنًا الأمر الذى يجعلها مهيأة لتأخذ لقب "ربة الأرض".

غير أنه بالقرب من هذه الأمومة نجد دومًا الشخصية الخلابة "سيدة إلش"، فالبطاقات الخاصة بها (ربما جرى إيداعها فى أى لحظة بين القرنين الثانى والخامس)، لها ملامح مثيرة للقلق سواء كانت جسدية أو رمزية، ومع هذا وصلت إلينا هذه القطعة وكأنها نموذج لفن إسبانيا الأيبيرية، تكاد تكون الجيوكاندا الإسبانية؛ كما أن التأثيرات اليونانية واضحة للغاية فى الوجه، إذ نلمح التوازى والواقعية وحسن التوزيع ورهافة الخطوط. لكن إذا ما كانت سيدة كلاسيكية فهى شخصية ذات رقة أخّاذة، وما يكسر هذا التوازن الفنى الإغريقى هو تلك الزخارف الشرقية الفخمة التى نجدها على تاجها ونجدها فى أقراطها وعقودها، ترتدى طرحة وتزدان أذناها بدائرتين كبيرتين وكأنهما عبارة عن مِسْمعَين قديمين يربطان بينها وبين موسيقى إقليم هى وحدها التى تفهمها وتسمعها. فهل ذلك الإقليم هو السماء، أم الأرض، أم الجحيم؟ يبدو أن "سيدة إلش" لا تلقى بالاً للترهات. ومن الناحية الجنسية نجدها وفيها نزق ووصيفة وعاشقة ولهانة وراهبة، ويمكن لمن يراها أن يتصورها فى أى من هذه الأدوار.

ومع هذا فإن الملمح الأكثر إثارة للحيرة فيها هى أنها تعانى بعض الحوَل. وهذا ملمح قديم من ملامح الميول الجنسية السرّية، حيث تنظر المرأة الحولاء نظرة ثابتة بعين أفعوان، قاتلة النظرات. تكسر "سيدة إلش"، تلك الغانية المخيفة، نقاءها الكلاسيكى بهذا الحوَل وهذه الموضة المثيرة حيث تعيدنا إلى تلك الحقيقة البسيطة القائلة بأن كافة

الأمهات على وجه الأرض غامضات، وحنونات وصارمات وأمهات وعاشقات وعذراوات ومثيرات. وكلهن شخصيات ذات خصوبة غير نقية مثل الأمهات الغامضات فى البانتيون الأثتيكى.

نجد أن الإلهة الأم لكوكب الأرض، كواتليكوى Coatlicue، أبناءها من الآلهة التى هى رموز للألم والقسوة فى أشد صورهما، وفى المكسيك القديمة نجد المعادل للإلهة فينوس وهى الإلهة Tlazolteotl التى تمثل النقاء ومضاده؛ إنها الإلهة التى تلتهم الزبالة حتى تنظف الأرض.

نجد إذن الشخصية العذرية التى سيطرت على حياة إسبانيا وأمريكا الإسبانية طوال ردح طويل من الزمن، وسلطة واسعة ليست بعيدة عن هذه الشخصيات القديمة من الأمهات فى كل من أوربا والعالم الجديد، غير أننا نجد فى إسبانيا فى أثناء الاحتفاليات الكبرى فى عيد الفصح، وفى إسبانوأمريكا، من خلال الاتصال الذى جرى إحياؤه بالديانات الوثنية، تحول هذه الشخصية إلى أم مثيرة للقلق وغامضة ترتبط مباشرة بإلهات الفجر حفيداتها.

أثّرت المسيحية، بقوة، الخيال الإسبانى، فهناك الإله الأب خالق الأرض، وهناك الابن، المسيح المخلّص الذى عانى الآلام ومات من أجلنا ومن أجل خلاصنا، ومعهما نجد من جديد صورة الأم، مادونا التى تهب الحياة والحماية. يتحد الابن والأم فى المسيحية من خلال الآلام والسرّية، إنه السرّ الأعظم، وهو سرّ نفخ الروح، فقد ولد المسيح من أم عذراء وبالتالى فهو هدف الإيمان، وعن الإيمان قال ترتوليانو أحد أوائل الكتاب فى المسيحية: "هذا حقيقى لأنه غير معقول"، ومعنى هذا أننا يجب أن نؤمن رغم أننا قد لا نفهم.

هذه التحولات الدينية والجنسية للروح الإسبانية تبلغ أقصى تجلياتها من الآلام والشفقة فى الاتصال القائم بين العذراء وابنها. فهى الواقع الذى نجده فى المحور المثير للقلق والصوفى والحسّى بين كافة المشاهد الإسبانية ألا وهو أسبوع الآلام فى إشبيلية.

فهناك أكثر من خمسين تمثالاً للعذراء مريم يتم السير بها فى احتفالية تمتد وتسير فى أنحاء المدينة بين خميس العهد والجمعة الحزينة حتى يوم السبت، يوم البعث أو صلاة المجد لله فى الأعالى، وفى كل حى من الأحياء نجد الرجال من كافة الفئات الاجتماعية يسيرون فى جماعات وطوائف، كل يكرّم عذراءه ويعلنون التوبة باسم المسيح وأمه، وكل تائب يحمل صليبًا ويحمل شمعًا ويرتدى الملابس التى حددتها جماعته.

وعلى مدار العام، ومن جيل لجيل، نرى طوائف المصابغ والشمع ونسّاجى الكتان والقائمين على أمر التطريز باستخدام خيوط الذهب، وقد شغلوا الطيلسان والعباءة والتنورة والطرحة والمعطف والرداء لهذه الثلة من النساء، وهن عذراء الروثيو، وسنيورا دى لوس رييس، وعذراء مكارينا، وعذراء تريانا. ويقوم الحمالون وهم يضعون الأكمام بحمل المعبد الطافى للعذراء ويطوفون به فى شوارع إشبيلية، يحملونه على أكتافهم ويسيرون حفاة، لا يراهم أحد، بين تنورات العذراء، فى حماها وحمى العبق المقدس يحملون أم الرب.

أما هى فلا شك أنها محور كل هذا الاهتمام، فوجهها محاط بكوفية ذهبية ووجهها بلون ضوء القمر تخترقه دمعات غليظة سوداء، تتوجها عمامة شمسية لها شعاع كأنه سكاكين، تقبض على وردات ذابلة وتضمها إلى صدرها وتلفها العباءة المثلثة الشكل التى تنسدل من الأكتاف حتى القدمين، والعباءة مطعمة بالعاج والأحجار والميداليات على شكل زهور وتشبيكات كأنها حيّات من معدن.

ما هو مغزى هذه الاحتفالية "المتعددة الألوان" وهو المسمى الذى أطلقه عليها خوسيه أورتيجا إى جاسيت؟ هل هذا صنف من النرجسية الجماعية، وبفضلها تقوم إشبيلية بإقامة احتفاليتها الخاصة بها ثم تتحول بعد ذلك إلى أنها المشاهد لها، أم أن الأمر ببساطة يتمثل فى أن إقليم الأندلس يمتص العناصر الثقافية الناجمة عن العديد من الغزوات - اليونانية والرومانية والعربية - ثم يقوم بصهرها جميعًا فى بوتقة واحدة هى مشاعره الدينية ووثنيته المقدسة؟

هذه الاحتفالية هى لعبة أيضًا، ومن هذا المنظور فقط يمكننا أن نفهم التى تتبع العذراء أينما ذهبت: "جميلة! جميلة!" ويتجلى هذا المعنى بقوة فى هذه الأغنية الغجرية:

تاه الطفل الإله

وأخذت أمه تبحث عنه

فوجدته على شاطئ نهر

يلعب مع الغجر

نهر من الأصوات:

أما الموضع الثانى المشترك فى إسبانيا فهو رقصة الفلامنكو، فالفراغ المخصص يكاد يكون مقدسًا ومقتصرًا على الغانية كارمن، الربّة فى حركة، حتى يمكن أن تقوم بالرقصة.

فى هذا المشهد الراقص نجد المغنين وعازفى الجيتار من الرجال يقومون بدور، يعزفون على القيثارة، ويقومون بالإعداد والتهيئة والتنغيم، بينما النساء يجلسن ويصفقن تصفيقًا إيقاعيًا، يمكن أن تكن فتيات بلغن سن الزواج أو نساء نحيفات أو عجائز ممتلئات لكنهن جميعًا مفعمات بالحرارة يشجعن رقصة الفلامنكو بتصفيقهن والضرب بأقدامهن على الأرض. لكنهن فوق كل اعتبار الراقصات الجميلات، وهن طويلات القوام سوداوات العيون والشعر، ممتلئات، الشعر أحيانًا ما يكون غير منتظم غير أنه من المعتاد أن يكون ممشطًا نحو الخلف ومتوجًا بمشط فى الأعلى؛ يرتدين الأولان **Olanes** والستان والحرير والمطرّزات والكورسيهات المعقدة والملابس الداخلية التى لا يتخيلها أحد والجوارب والشيلان والأنشوطات والقرنفليات وأمشاط تثبيت الشعر. لا تفقد ملابسهن السمت الذى عليه، غير أن الشعر أحيانًا ما يتمايل نحو الأمام أو الخلف أو ينساب أو ينفرط عقده وكأننا أمام رأس ميدوزا فى أثناء الرقص. جاء رينرر ماريا ربكله لمشاهدتهن فى رنده وقال بأنهن يرفعن أذرعهن "كأنهن حيات مذعورات".

هؤلاء الراقصات يأتين من كل فج عميق؛ نجدهن وهن يرقصن فى بومبى Pompeya، وأخريات منهن من قادش؛ كُن روح روما الإمبراطورية. ويحدثنا مارثيال Marcial(*) عن "بهلوانيتهن الخبيرة"، بينما يصفهن جوفينال بأنهن "أصبن بحمى التصفيق فسرى ذلك فى أجسادهن حتى المؤخرة"، أما لورد بايرون فقد رآهن على أنهن "وصيفات السماء من السمراوات"؛ غير أن هناك رحالة إنجليزى آخر - ق ١٩ - أقل ميلاً إلى الوصف وأكثر منه إلى العظة أشار أنه رغم أن الرّقصات فى إسبانيا غير حسنة المقصد فإن الراقصين هم من أصحاب العفاف. وعندما يتعلق الأمر بإقليم الأندلس فالكلمة الأخيرة وقول الفصل هى لفيدريكو جارثيا لوركا، إذ يقول بأن الغجريات نصفهن من البرونز ونصفهن الآخر من حلْم، ويرى الراقصات بأنهن نساء أوقفهن القمر.

وعلى هذا المنوال نجد أن الفلامنكو ليس إلا تابعًا يدور فى فلك الغناء الفلامنكو أى الغناء ذى الطابع العميق jondo، أى نهر الأصوات كما عرّفه بذلك ذات مرة جارثيا لوركا. الرقص هو القمر يدور حول الشمس التى هى مركز الكون بالنسبة لهذا الصنف من الغناء، وهو نهر من الأصوات، وغناء شمس يضرب مباشرة فى ضفيرتنا الشمسية بقوته القديمة وجاذبيته، إنه عملية مهجنة تجذب نحوها، أو تدور فى فلكها، أكثر من خمسمائة تنويعة موسيقية مختلفة ابتداء من الأذان للصلاة على الطريقة الإسلامية وانتهاءً بالرومبا التروبيكال، وتقوم بتحويلها كلها وتغييرها حتى تفصح عن النغمات الفلامنكية المستكنة فى الأعماق، أى غناء المواقف الإنسانية الشديدة الحميمية من الحب والغيرة والانتقام والشجن وفقدان الأمل والرّب والموت والأم. ويلاحظ أن هذا "الغناء العميق" يستولى عليه وعلى مجامعه نوع من القدرية المحتومة، وفى أثناء تصاعد نغماته تفقد المفردات شكلها اليومى وتتحول بالفعل إلى الأغنية النهر والنبع الذى يعبر عن الانفعالات التى يصعب الإفصاح عنها، وأحيانًا ما نرى الفلامنكو وهو يتجاوز قالبه

(*) ماركو باليريو مارثيال (٤٠-١٠٤م): شاعر إسبانى لاتينى يتسم شعره بالسخرية.

المرتجل ويتحول إلى شيء يشبه الصرخة؛ وقد قيل إن هذه الصرخة لا تأتى من تحت الكلمات بل من فوقها، إنها الصرخة فى المكان الذى تصبح فيه الكلمات غير كافية، فهى روح ما يُغنى من خلال الفلامنكو، ويصبح هناك صوت للانفعالات الغامضة وغير المسيطر عليها.

مرة أخرى نجد أن بؤرة الرقص الفلامنكو و"الغناء العميق" هو البعد الجنسى، وفى بؤرة هذا الأخير نجد المرأة، المُرَاودة التى تتدثر بالكامل فى ثنايا الثوب الغجرى الذى يهمهم، والتى تلتحف بالشال وترقص وهى تنتعل حذاء عالى الكعب وكأنها تطفو بين أشرطة الشعر غارقة فى قماش الأولان **Olanes**؛ تقدم راقصة الفلامنكو النقيض، لكنها، فى آن، تقدم تكملة لملمح إسبانى آخر وإسبانوأمريكي ألا وهو الرغبات الجنسية التى تتوارى خلف الشوق إلى القداسة وهذا ما تعكسه أشكال العذراوات اللاتى يشاركن فى الاحتفاليات فى شوارع إشبيلية خلال أسبوع الآلام.

إنها الحسية التى تكبلها المشاعر الدينية غير أنها ترتقى من خلال الحُلْم الصوفى، وعلى أرض هذا المسرح، فى إشبيلية، يعود "الغناء العميق" للظهور فى سياق دينى، تتوقف الأرجل عن السير عندما يهل رجل على الناصية أو امرأة من شرفة المنزل، ويلقيان بالعبارة الغنائية، فى حب العذراء، بنغمة فيها عشق وحميمية، فالعذراء تعطى القوة والحماية، ومنبع قوتها الحب، هى معروفة بشكل حميمى، تعيش فى إشبيلية السنة كاملة، وكأنها أحد أفراد العائلة، إنها عذراء مكارينا حامية مصارعى الثيران، تبكى موت وقدر أبنائها جميعاً.

ومن خلال كل هذا نجد أن نص المكان المشترك، الإسبانى والإسبانوأمريكى، يقدم لنا فى نهاية المطاف سياقًا اجتماعيًا حسّيًا وخيالاً جنسيًا لعلاقات فيها حساسية مع الطبيعة والروح، وعلى أساس هذا الإطار ينبغى أن ينمو ما نطلق عليه "تاريخ" إسبانيا وإسبانوأمريكا.

الفصل الثانى

غـــزو إسبـــانيا

لا ينفصل مصير إسبانيا عن مصير حوض البحر المتوسط، فالبحر، بدرجة ما، يبدأ عند إسبانيا وينتهى أيضًا هناك؛ يتم دخول حوض البحر المتوسط من المحيط الأطلنطى عبر إقليم الأندلس، وقبل كريستوفر كولومبوس لم يكن يأتى أحد من الأطلنطى متوجهًا نحو البحر المتوسط. وعلى مدى قرون طويلة كانت إسبانيا الباب الوحيد للخروج من المتوسط، لكن هل كان هناك شىء بعد "بحرنا" **Mare Nostrum**؟ "بحرنا" هى الكلمة التى نطلقها معشر الذين نحن من أصول لاتينية على هذا البحر، وكان يتم الدخول إليه من بين أعمدة هرقل. وقبل شق قناة السويس لم تكن هناك وسيلة للخروج منه. واليوم نجد أن باب الدخول والخروج من هذا البحر يطلق عليه مضيق جبل طارق تخليداً لذكرى هذا القائد البربرى الذى غزا إسبانيا انطلاقًا من الأراضى الإفريقية عام ٧١١م. ومسمى "جبل طارق" بالنسبة للعالم الحديث يرتبط بجبل طارق ويرتبط بشهادات التأمين، كما يرتبط بشكل قوى بالسياسة البريطانية بجعل البحر الأبيض المتوسط مفتوحًا للتجارة وحركة الملاحة، لكنها سياسة تجاوزها الزمن فى زماننا هذا مثلها مثل أمور إنجليزية أخرى، غير أن جبل طارق يذكرنا بأنه على مدى قرون كان "بحرنا" المركز الجغرافى الذى تلتقى فيه كل من أوربا وآسيا وإفريقيا حيث حدث تلاقح وإثراء بين ثقافاتها من فلسفة وأدب وسياسة وتجارة وحروب ودين وفن، فلا يمكن أن نفهم أى وجه من وجوه الحضارة المشتركة لكل من أوربا وإفريقيا وآسيا دون البصمة التى خلفتها شطآن "بحرنا".

كان يمكن لرجل البحر الأبيض المتوسط أن يجرؤ ويسبر أغوار الشواطئ الإفريقية جنوب الحوض، لكن الاتجاه نحو الغرب لم يكن هناك شيء إلا الخوف والغموض، لم يكن هناك "بحرنا" (كما يطلقون على المتوسط) بل كان هناك بحر الظلمات: **Mare Ignotum**.

ومعنى هذا أن إسبانيا في حقيقة الأمر قد تحولت إلى ما يمكن أن نطلق عليه مسمى "الحارة السدّ" لحوض البحر الأبيض المتوسط. كان من الممكن التحرك نحو الغرب، حتى إسبانيا، والتوقف هناك، فلم يكن هناك حينئذ شيء وراء إسبانيا وأحد بروزات شبه الجزيرة الأيبيرية التي أطلق عليها، وعن حق، رأس نهاية العالم **Finisterre**. نجد إذن أن الثقافة الإسبانية في أعلى تجلياتها كانت محكومة بهذه النهاية أو الحد، أو قوة الطرد الداخلي من حيث الموقع الجغرافي، والوصول إلى إسبانيا كان يعني البقاء هناك فلا يوجد بعدها شيء آخر اللهم إلا رحلة العودة إلى المشرق من حيث أتى المرء.

هذه الحركة المزدوجة أسهمت في تشكيل ثقافتين إسبانيتين، إحداهما ثقافة زراعية عميقة الجذور أدارت ظهر إسبانيا للبحر، وكانت هذه ثقافة الأيبيريين، فالإبره، أو نهر الأيبيريين كان مقر سكنهم، لفظة **iber** معناها نهر أي بالإسبانية **rio**، وبالتالي فنحن أمام طِباق على طريقة جيمس جويس عندما نقول إن أصل إسبانيا هو **iber-rio**؛ فقد جاء الأيبيريون إلى شبه الجزيرة منذ حوالي أكثر من ألفي عام قبل ميلاد المسيح، من الجنوب، وقبل تسعمائة عام على التوقيت الميلادي التقوا بالسّلت الذين قدموا من الشمال واختلطوا بهم وشكلوا ثقافة "السّلت أيبيرية" التي أصبحت قلب الحضارة الزراعية الضاربة بجذورها في إسبانيا وظلت حية حتى يومنا هذا؛ إنها ثقافة الرعاة والقرى والفلاحين والغرائز القبلية التي تتغذى على اللحم والجبن والخبز، وأخذت عزلتها تزداد مع الوقت الذي نجد فيه الشواطئ الإسبانية المطلة على البحر المتوسط من قطالونيا حتى إقليم الأندلس تتحول على عُقد حبّاته قرى أجنبية وحواضر وموانئ تجارية؛ هذا الوجود في حوض البحر الأبيض المتوسط، من المنظور التجاري أكثر منه من المنظور

السياسى، كان زمامه فى يد الفينيقيين قبل ميلاد المسيح بألف عام، فقد أسهمت مراكبهم فى خلق الأساطير الكبرى للثقافة الإسبانية الثانية، أى ثقافة حوض البحر المتوسط، الثقافة الرحّالة إلى العالم الخارجى، إنها ثقافة هرقل والثيران وثقافة التجارة والاتصال التى يقودها "كبار التجار" من التارتسيين Tartesos(*) الذين أشار إليهم حزقيال Ezequiel. لكن هذا المسمى يعنى أيضًا نهاية العالم والخوف من الكارثة والتنبؤ بعدمية جديدة لا يسمع فيها إلا صيحة واحدة "إنها مراكب التارتسيين... فقد خارت قواكم". ومع ميلاد المسيح، دخلت إسبانيا بصيحة واحدة إلى الكتاب المقدس، كما أن إسبانيا فى نهاية المطاف هى ثقافة اللامركزية، و"الحارة السدّ"، والمكان الذى يتم الفرار إليه، على شاكلة ما فعله يونس بالهروب من التارتسيين، من "وجود الربّ".

إنه الهروب التوراتى ليونس بعيداً عن وجود الرب، ويمكن من خلال هذا أن نتمثل مغزى أو رمزية قائمة، هو انطواء إسبانيا على نفسها سواء إسبانيا الجبلية والزراعية والقبلية فى الداخل أو فى محاولتها كسر الطوق الذى فرضته على نفسها وتواجه البحر والمراكب وتحدى عالم هناك يتجاوز أعمدة هرقل حيث تغرق الشمس فى الأفق. هذه القصة الخاصة بالغزو التى تستهوى القوة الأجنبية وتوجه مقاصدها إلى إسبانيا سوف نراها متكررة من خلال إسبانيا فى العالم الجديد، إذ تحدد الردّ الإسبانى على تحدى الآخر - ثقافة أراجوا فى الكاريبى وثقافة الأثتيك فى المكسيك والكيتشوا **quechua** فى بيرو - على مدار خبرات قرون طويلة، عندما كانت إسبانيا هى البلد الذى يتعرض للغزو.

هو غزو حميد، ذلك أن الفينيقيين، ومن بعدهم اليونانيين، قد اقتصروا على إنشاء مراكز تجارية على الشواطئ ولهم مناطق تأثير محدودة فى موانى قادش وملقة، وبالتالى ازدادت عزلة الثقافة البدائية السلتية الأيبيرية وأخذت تتكون ثقافة أخرى هى ثقافة البحر الأبيض المتوسط، أى ثقافة مزارع العنب وحقول الزيتون والمنتجات البحرية

(*) شعوب عاشت فى شبه جزيرة أيبيريا قبل العصر الرومانى.

والغلال ودوران رأس المال والحياة الحضرية. وهنا نجد أن غيبة التطور الحضرى فى الداخل هو الوجه الآخر للعملة، المتمثل فى ازدهار المراكز التجارية وتواجد الفينيقيين واليونان فى إسبانيا.

مدينة محاصرة:

لم تعد عملية غزو الآخر لإسبانيا مجرد عملية تجارية محضة عندما أصبح حوض البحر الأبيض المتوسط مسرحًا لأزمة حربية كبرى تواجهت فيها دولتان قويتان هما قرطاجنة وروما، إفريقيا وأوربا، والأرض والبحر، والفيل والمركب. فعندما رحل اليونانيون عن إسبانيا حضر القرطاجيون وروما وتهيئوا للغزو وإقامة تحالفات، وحولوا إسبانيا إلى قاعدة للاعتداءات المتبادلة بين القوتين الأعظم فى ذلك العصر. ها نحن نرى هانيبال، ذلك القائد الشاب لجيش قرطاجنة، يقوم بالتجهيزات اللازمة لمعركته الأخيرة ضد روما، فيحوِّل إسبانيا إلى القاعدة التى انطلق منها فى ملحمته جنوب فرنسا وجبال الألب حتى إيطاليا؛ غير أنه بعد أن هزم الرومان عند بحيرة تراسيمينو Trasimeno(*) أخذ يعانى من قلة الإمدادات فما كان عليه إلا العودة إلى ملاذه الإسبانى، وبذلك تتأكد شكوك الرومان والقائلة بأنه بدون غزو إسبانيا من المستحيل غزو قرطاج، ومن هنا نجد أن انتصار هانيبال فى إيطاليا هو الذى لفت انتباه روما إلى إسبانيا، ومع وصول روما وصلت المكونات الأكثر استمرارية فى الثقافة الإسبانية، فهناك اللغة والقانون والفلسفة ورؤية تاريخ العالم والاتصالات، وارتبط كل هذا بشكل أبوى بالتواجد الإسبانى لروما، ويتأسس بناء على هذا الواقع الجوهرى للمدينة.

ظلت روما على مدار سنوات طويلة التجربة التى تتوجت بغزو إسبانيا على يد قوة أجنبية، أى قبل الغزاة المسلمين ٧١١م، وقبل عمليات الغزو الإسبانى للعالم الهندى الأمريكى بعد عام ١٤٩٢م. إنها تجربة فريدة ذلك أنه إذا ما تمكنت إسبانيا عمداً من

(*) تقع فى إيطاليا فى إقليم أومبريا مساحتها ١٢٩كم^2.

القضاء على ثقافات كانت موجودة سلفًا واجتثتها وهى فى عمر الزهور ودمرت الصالح والطالح وأحلت نمطًا من الثقافة محل آخر بشكل عنيف، فإن التجربة الإسبانية مع الرومان كانت عكس ما فعلته تمامًا فى ذلك العالم الجديد، فقد أقامت إيطاليا فى إسبانيا حكومة ومؤسسات عامة عضوية ودائمة وأتت بأفكار للوحدة والتواصل الإنسانى فى مجاله الأوسع حيث كانت قبل ذلك إما غير موجودة أو شديدة الضعف، وفعلت روما ذلك من خلال الحياة الحضرية.

وعلى مدار هذه التجربة نشأت عدة تقاليد أسهمت ليس فقط فى تجسيد نمطية الثقافة والمؤسسات والحالة النفسية وردود الفعل الحيوية الإسبانية، وإنما امتد ذلك إلى أحفادها - إسبانيا - فى الأمريكيتين.

وبغض النظر عن التنميط الوطنى، آنذاك، كان يوجد هناك عدد ليس بالهين من التجارب ذات الدلالة التى أسهمت فى إبداع تراث إسبانى وإسبانوأمريكى، وكان ذلك، على الأقل، ابتداء من سيطرة الرومان على شبه جزيرة أيبيريا. غير أن أفضل تعبير عن هذا التراث هو اللقاء مع الآخر، معه أو معها، أى الذين ليسوا مثلك ومثلى؛ وبالنسبة لهذا اللقاء على المستوى الأيبيرى الأصيل نجد أن كافة الحوليات الأجنبية تتوافق فى القول بأن شعوب إسبانيا كانت - طبقًا لكلمات تروجو بومبى فى كتابه "Historiae Phillipicae" - قوية وعاملة وبسيطة، أى أقوياء وبسطاء، أى إنهم شعب قوى، لكنه فردى لدرجة كبيرة وهذا ما تعلمه الرومان بسرعة عند غزو شبه جزيرة أيبيريا عام ٢٠٠ قبل الميلاد، حيث أدركوا أن الجيوش الأيبيرية كانت مقدامة وشجاعة لكنها غير فعالة لأن كل رجل كان يحارب بمعزل عن الآخرين ويقاوم الانخراط فى وحدات أكبر أو طاعة القادة غير الموجودين أو العمل بقواعد مجردة. إذن نجد الخصوصية الإقليمية - سواء كانت جيدة أم غير محمودة - هى الملمح الرئيسى للأمة الإسبانية على مدار الزمن، وهى التى أدركها الرومان سريعًا؛ وقد أطلق عليها إسترابون "الكبرياء المحلى" وخرج بخلاصة مفادها أن الشعوب الأيبيرية لا يمكن أن تتحد فيما بينها لمقاومة تهديد أجنبى.

كان الأيبيريون يشعرون بجاذبية عميقة للأرض والقرية والمشهد العام المورث جيلاً بعد جيل، ومن هذا انبثق أمران أساسيان أولهما أن الأيبيريون لم يكونوا جيدين فى العمليات الهجومية وأنهم كانوا بحاجة إلى قيادة موحدة غير قادرين على خلقها، وهذه بالتحديد كانت إحدى المزايا فى التنظيم الحربى الرومانى. أما الأمر الثانى، المكمل للأول، هو أن الأيبيريين كانوا فى غاية المهارة فى الدفاع عن أنفسهم بشكل متفرق وبذلك يضعون عراقيل جمة أمام الغزاة، فبدلاً من هزيمة جيش نظامى الأمر الذى يجعلهم يعلنون النصر وجد الرومان أنفسهم أمام موقف يحتم عليهم القتال فى متواليات القرية وراء الأخرى وكل واحدة من هذه تطالع القوات الرومانية بالعديد من طرائق المقاومة الممتدة.

أدى هذا الموقف بدوره إلى توليد موروث آخر، وهو أن الإسبان اكتشفوا أن مكمن قوتهم فى الدفاع، وابتداء من هذه النقطة رفضوا تكوين جبهة مقاومة مرئية تقف أمام الغازى، وبدلاً من هذا ابتكروا حرب العصابات، حيث الهجمات المفاجئة التى تقوم بها مجموعات صغيرة وتقوم بذلك ليلاً، أى هناك جيوش ليلية، لا تُرى فى أثناء النهار، تنتشر تنفذ إلى القرى الكائنة فى السفوح الرمادية للجبال، إنه الانتشار والهجوم المضاد، وحرب العصابات أى الحروب الصغيرة المحلية ضد الحروب والمعارك الكبرى للغزاة، بقيادة الفيالق الرومانية.

هو أمر شديد الخصوصية، حرب العصابات، الفردية؛ وقد كتب بلوتارك أن القادة الإسبان كانوا يحيطون أنفسهم بمجموعة من الموالين لهم يطلق عليهم "المتضامنون" الذين يهبون حياتهم فداء لحياة قائدهم ويموتون معه؛ ولما جرى اكتشاف أن الأيبيريين يرفضون الفيدرالية وأنهم يشعرون بالولاء فقط لأرضهم وقادتهم، تمكن الرومان من هزيمتهم بطريقة تشبه تلك التى استخدمها الإسبان فى هزيمة الأثتيك والإنكا، إذ بفضل التفوق التكنولوجى تمكنوا من ذلك إضافةً إلى الموارد الأخرى التى تمثلت فى جمع المعلومات الاستخباراتية، فعندما أدرك الإسبان أن الشعوب المكسيكية كانت لوحة فسيفساء، دون تحالفات كبرى اللهم إلا الولاء للمكان والقائد، تمكن كورتيس من هزيمة الأثتيك بالطريقة نفسها التى تمكنت بها روما من هزيمة الأيبيريين.

كانت التكلفة عالية، إضافةً إلى أنها أفصحت عن ملمح آخر هو الشرف، فالإحساس العارم بالشرف فى إسبانيا يضرب بجذوره فى ولائه للأرض والقائد، وفى أثناء الحرب ضد روما أطلق على المكان نومانثيا Numancia(*) وعلى القائد بيرياتو Viriato.

قاومت نومانثيا الغزاة الرومان طوال خمس سنوات حتى أصبحت فيتنام الإسبانية بالنسبة لروما، وأصيب الجيش الرومانى بانهيار معنوياته نظرًا لعدم تحقيق النصر، واحتج الرأى العام فى روما بشدة على الاستمرار فى حرب أتت على موجات متتالية من شباب المحاربين، ورفض مجلس الشيوخ إرسال المزيد من القوات، وعندما تلقى إستبيون بوبليو كونيليو، الفتى الأصغر فى أسرة عريقة، قيادة القوات لهزيمة هذه القرية العنيدة الفردية والمحاربة، نومانثيا، لم يزودوه بمزيد من القوات، فقد كان عليه أن يكتفى بالقوات الموجودة على الأراضى الإسبانية؛ عندئذٍ راهن على هذه المغامرة، فجمع المال وحشد القوات وأحاط نفسه بالحرس الشخصى المكون من ملوك آسيويين وأفارقة ومن بينهم الأمير النوميدى (نسبة إلى إقليم فى شمال إفريقيا) الذى يدعى يوجورتا، وهو الأمير الذى حاول بعد ذلك تحرير شمال إفريقيا من روما، وأتى إلى أرض المعركة مع نومانثيا وهو يصحب معه اثنى عشر فيلاً. ويفترض أنه تعلم على هذه الأرض عدة تكتيكات من حروب العصابات قام بعد ذلك بتطبيقها عندما تمرّد على سلطان روما. حارب إستبيون وسط رفقة جيدة خاصةً وأنه صحب معه فرقة من الأصدقاء المميزين لكتابة تاريخ هذه الحملة منهم المؤرخ الكبير بوليبيو والشاعر لوسيليو وعددًا لا بأس به من كُتّاب الحوليات والسياسيين الشبان، ولم يكد يصل إلى نومانثيا حتى طهّر الجيش من العاهرات والمتخنثين والنواب وقُرَّاء الطالع، وأمر الجنود أن يبيعوا كل ما لديهم من أمتعة تزيد عن الحد وأن يقتصر ما لديهم منها على حلة نحاس وطبق وألا يأكلوا أى شىء آخر اللهم إلا اللحم المسلوق؛ كان أستبيون ينام على كومة من القش، ورفض أن ينام جنوده على أسرّة أو أن يُعنى بهم متخصصو التدليك.

(*) تقع فى محافظة صوريا Soria (إسبانيا).

ويحكى الشاعر لوسيليو أن جرى سحب عشرين ألف موس وأداة نتف الشعر من الجنود، كما كان على الجنود أن يقوموا بتدريبات شاقة منها المشى، وفى صيف وخريف عام ١٧٤ ق.م. صدرت لهم الأوامر بحفر خنادق ومخابئ، وأقاموا دائرة تبلغ تسعة كيلو مترات من الأسوار لتطويق المدينة أى مضاعفة قطرها. وأحيطت المدينة بأسوار يبلغ سُمكها مترين ونصف وارتفاعها ثلاثة أمتار مع برج كل ثلاثين متراً، وأصبح تعداد الجيش الذى جرى تحديثه، خمسين ألف رومانى، وهنا لم يكن أمام نومانثيا إلا أن تواجه صورة مزدوجة لها، ورفض إستبيون الهجوم وأجبر أهل نومانثيا الذين لا يزيد عدد قواتهم عن ستة آلاف رجل على الهجوم أو أن يموتوا جوعاً.

فى أثناء النهار كان سيد الحرب اللاتينى يراقب الإشارات التى تأتيه عبر المرايا، أما ليلاً فكان يراقب النار، وكان يرتدى دائماً عباءة من الصوف للتعبير عن حزنه على عدم أهلية الجيش الرومانى، كما أن قواته التى خضعت بالكامل للنظام والتعليمات أخذت تتشح بالسواد على طريقة قائدها؛ وتعاون الجميع على إجبار نومانثيا على أكل الجلود أولاً ثم لحوم البشر من الذين يموتون والمرضى والضعفاء، لكن نومانثيا لم تستسلم وظل الأمر كذلك حتى عام ١٣٣ طبقاً لما ورد فى كتاب "الحرب الأيبيرية" لأبيانو Apiano(*).

انتحر أغلب السكان... أما من بقوا على قيد الحياة... فقد خرجوا فى مشهد غريب ورهيب، فأجسادهم قذرة أصابها الهُزال والرائحة الكريهة، أظافرهم طويلة وشعورهم شعثاء وملابسهم مثيرة للقرف؛ ربما كانوا يستحقون الشفقة لما هم عليه من وضع سيئ، لكنهم يستثيرون الخوف فلا زالت تُلمح على وجوههم ملامح الغيظ والألم والإنهاك.

وإذ لم تك نومانثيا مماثلة لما حدث فى الماسادا Masada اليهودية - كما قال البعض فى هذا المقام - فإنها أصبحت رمزاً للعديد من التقاليد التى انصهرت فى القالب

(*) مورخ يونانى، ولد فى الإسكندرية، وعاش خلال القرن الثانى الميلادى.

الأصيل لإسبانيا، وهى تقاليد غير مقتصرة على إسبانيا وحدها بالطبع لكن اكتست بصبغة خاصة وجرى تكثيفها وإبرازها من خلال أحداث التاريخ الإسبانى وثقافته وكذلك من خلال هذه التفريعة التى عليها العالم الإسبانى فى الأمريكتين.

كان القائد العسكرى هو تجسيد لمفهوم الكبرياء، وبالتحديد لفظة القائد **Caudillo**، كما عرف عنها بعد ذلك، وهى لفظة متخذة من لفظة عربية. اجتمعت فى شخص بيرياتو **Viriato** سمات ملامح الشرف والفردية وحرب العصابات والولاء للأرض وللقائد، وهو شخص ظهر بعد سقوط الحاكم الرومانى جالبا **Galba**، حيث أدى فساده الفاضح فى أثناء حكمه لإسبانيا إلى نوع من إتاحة الفرصة للمقاومة الإسبانية لاسترداد أنفاسها عام ١٣٩ ق.م. وحتى يستكمل بيرياتو استعداده لحرب عصابات طويلة الأمد قام بتنفيذ إستراتيجية خيبة الأمل، بالعمل على الهروب، ووضع الطُّعم بذلك للقوات الرومانية، والتمكن من هزيمتها من خلال عنصر المفاجأة، ثم الاختفاء فى شعاب الجبال التى لم يكن يعرفها أحد إلا هو، وتمكن من إنهاك روما لكنها أيضًا أنهكته. وبعد ذلك بثمانى سنوات طلب الصلح وحصل عليه بطريقة مشرفة، فقد أعلنت روما أنه صديقها، ثم سرعان ما تخلصت منه على يد ثلاثة من أعز رسله. تم حرقه فوق كومة من الحطب، ولم تكن هناك وسيلة لهزيمته إلا عن طريق الخيانة؛ تحول إلى رمز تكرر بعد ذلك مرات عديدة على مدار تاريخ إسبانيا وإسبانوأمريكا، غير أنه كان رجلاً له شخصيته الفذة، وقد وصفه المؤرخ خوستينو "على أنه الشخصية الحربية الأهم وسط القبائل الإسبانية" كما أنه أيضًا رجل يتسم بالبساطة الشديدة والإنسانية وشديد القرب من أفراد قواته.

كان موت بيرياتو وسقوط نومانثيا بمثابة التأكيد على رومنة أيبيريا؛ نجد إذن أن كلاً من نومانثيا وبيرياتو يذكران بموروثات ينبغى أن تكون قائمة، إلا أن روما عبرت عن ذكائها الشديد عندما لم تتعرض للتقاليد الإسبانية الضاربة بجذورها فى التاريخ، واقتصر نشاطها على ملء الفراغات المتعلقة بحياتها الثقافية، فأسست المدن الكبرى فى الداخل مثل **Augusta emerita** (ماردة) و **Toletum** (طليطلة) و **Caesaraugusta** (سرقسطة) و **Salamantica** (سلمنقة)، ربطت بينها بشبكة طرق ممتازة،

وتمكنت روما بذلك من الربط بين المدن المطلة على البحر والقرى النائية فى حضن الجبل، وبهذا أنشأت أول قاعدة قوية فى دعم وحدة إسبانيا، فإسبانيا الموحدة والمستقلة لن نراها على هذا الوضع إلا عام ١٤٩٢م، وتزامن مع هذا دخول الخميرة السلتية الأيبيرية إلى فرن القانون الرومانى ومعها اللغة والفلسفة الرومانية.

إسبانيا الرومانية:

نرى الملامح الظاهرية لرومنة إسبانيا فى كل مكان، فهناك مسرح ماردة الذى يرجع إلى عام ١٨ ق.م.، وجسر "القنطرة" الذى انتهى العمل فيه عام ١٠٥ ق.م. وجسر المياه فى شيقوبية وهو جسر أنشئ خلال القرن الأول الميلادى.

أما عن الملامح الداخلية للرومنة فقد كانت اللغة هى العنصر الأساسى وهى لغة دقيقة ومحددة، وأحيانًا ما تكون خطابية، أو شعرية أو بلاغية كأنها عبارة يطلقها شيشرون، ولغة فعّالة كأنها قرار اتخذه يوليوس قيصر ولغة حميمة كقصيدة شعر غزلى لكاتولو Catulo(*)، وملحمية كقصيدة لفرجيل. غير أنه سرعان ما تمكنت إسبانيا من أن يكون لها حصادها المكون من الكُتّاب والرجالات الذين نجد من بينهم المربّى كينتليانو ومارثيال، وذلك الشاعر الذى استطاع أن يعود بذاكرتنا إلى الفتيات الراقصات من قادش. هناك أيضًا لوكانو، ذلك الشاعر الملحمى، وكذا عمه مؤدب الإمبراطور نيرون وسنيكا الفيلسوف الرواقى القرطبى.

كانت الرواقية هى الإجابة فى العالم القديم عن نهاية التراجيديا وعن فقدان الألوهية. وعندما تحرر الإنسان من ارتباطه بالموروث المأساوى للقدرية وارتباطه هو ومصيره بما يعنّ للآلهة، أخذ يتشكل حسب كافة الأشياء المحيطة به، لكنه اكتشف أن حريته لا تنفصل عن عزلته، وحتى يكون إنسانًا كاملاً كان على الفرد أن يتوفر على فكرة

(*) شاعر غزلى لاتينى (كايو فاليديو كاتولو) ق١م.

واضحة عن نفسه وعن قدراته وحـــدوده أيضاً، وعليه أن يفهـم أنه جزء من الطبيعة، أى إنه شىء فى تغير دائم وتشكل دائم لذاته. فهل على الإنسان أن يعثر على الوحدة من خلال التغيّر؟ على أية حال عليه أن يعرف أنه كان له مشاعره وأحاسيسه وعليه فى آن معًا أن يعرف كيفية السيطرة عليها، وعليه فى نهاية المطاف أن الموت فى انتظاره؛ عليه أن يعثر علـى إجـابة وأن يكون له مـوقـف وأسـلوب لتكون كلهـا عنـاصـر جـديدة بموته.

أشار سنيكا، الفيلسوف الرواقى القرطبى، أنه فى الأزمنة الصعبة يبدو كل شىء حولنا وكأنه يتهاوى، ولم يتبق أمامنا من ملاذ إلا حياتنا الداخلية. وفى هذا الداخل يجب أن تتوفر كافة العناصر للروح الرواقية وهى الحرية والشغف والطبيعة والموت، وعلينا أن نقبل بها عن وعى وكأنها حقائق وليس على أنها المصير المحتوم الذى علينا أن نعانى منه. وللإجابة أو للردّ على عدوانية العالم نصح سنيكا بقوله "لا تدع أىَّ شىءٍ يغزو كيانك إلا روحك فقط".

كان تأثير فلسفة سنيكا فى إسبانيا عظيماً ومستمراً، فحتى اليوم نجد أن اسم سنيكا فى إقليم الأندلس يعنى الحكمة، والحكمة تعنى أن نفهم أن الحياة غير سعيدة؛ ففى العالم السعيد من منا بحاجة إلى الفلاسفة؟ ولاتخاذ موقف من الموت نجد أن سنيكا اتخذ واحدة من الطرائق الرواقية، وعندما فقد عطف نيرون، استبق الغضب الإمبراطورى وانتحر، لكنه قد وهب إسبانيا فلسفة دائمة نجدها فى قلب الروح الإسبانية تسيطر على مبالغاتها وتجبرها على العودة إلى ذاتها بعد المغامرات الكبرى المتمثلة فى الحرب والاستكشاف والغزو والعنف والموت. إسبانيا، بلد القديسين والرسامين والشعراء والمحاربين، أخذت تكرر، بلا توقف، الحقائق الرواقية - وهذا شىء ملحوظ بالطبع فى الكيخوته لثربانتس حيث يمكن أن يُرى بطل الرواية وهو يحاول التخفيف من مغامراته المجنونة والجانحة بالعودة إلى المنزل والرجوع إلى الذات وإلى موته.

ربما كانت السمة الأكثر أهمية فى الرواقية الإسبانية الصورة الفردية للإنسان وهو يسيطر على مشاعره وعلى طبيعته ومصيره من خلال معرفته لذاته. هذه الفردية

الجامحة فى إسبانيا الأيبيرية، وهذه القوة الفوارة التى عليها قادة فصائل حرب العصابات، وهذه التضحيات المجنونة التى قدمتها بعض مدنها المحاصرة، وهذه القدرة على عدم التنظيم الجماعى، خضعت كلها لقالب الفلسفة الرومانية الرواقية.

نجد إذن أن الفردية الأيبيرية والرواقية الرومانية قد أبدعتا الشخصية الإسبانية للفارس **hidalgo** وهى لفظة مركبة من لفظتين هما "ابن ناس"، أى الوريث، الرجل الشريف، رجل الكلمة، رجل النبل الخارجى والداخلى فى المقام الأول. وهنا نجد أن الفنان الجريكو يقدم لنا الصورة النهائية لهذا النموذج المثالى فى لوحته المعنونة "الفارس الذى يضع يده على صدره". أما عند ثربانتس فإن المعادل الأدبى لهذه الشخصية يتمثل فى شخصية "فارس الغابون الأخضر" فى روايته دون كيخوته.

أحدثت عملية الدمج بين الرواقية والفردية تأثيرها العميق على الطريقة الإسبانية فى قبول القانون الرومانى، ففى العالم المتحدث بالإسبانية نجد قواعد واضحة للغاية للقانون الخاص باللوائح أى القانون المكتوب، وهو موروث رومانى، وقد انتقل عبر إسبانيا ليكون واحداً من التقاليد الأساسية فى أمريكا الإسبانية. وبالنسبة لروما فبدلاً من أن يكون القانون مجرد عرف أو نص شفهى، مثلما هو الحال فى العصر السابق على "قانون الألواح الاثنى عشرة"، يجب أن يكون مكتوباً، وكان هذا يعنى أن يكون إجبارياً على الجميع، وأن لا أحد يقدر على الادعاء بجهله به ليفرض ما يريد بالقوة والمزاجية الشخصية على الآخرين، وهنا علينا أن نرى إلى أى درجة كان احترام هذا القانون المكتوب، مصدر التشريع، هو بالفعل العصب المحورى فى الحياة الإسبانية وفى علاقاتها بالعالم الجديد، من خلال حوليات الاكتشاف والغزو التى تعضد وتبرهن على هذه العمليات، ويصل الأمر إلى أبعد من هذا ليدخل فى إصدار التشريعات الحمائية مثل "قوانين جزر الهند" **Leyes de Indias** التى تجاوزت مجرد تقنين عملية الغزو فى حد ذاتها إلى إضفاء شرعية التاج الإسبانى فى الأمريكتين. وبعد ذلك سرعان ما سوف نرى فى أمريكا الإسبانية التى حصلت على استقلالها أهمية الدستور المكتوب، سواء تم احترامه أم لا، وهو دستور يعادله ثقل الورقة المكتوبة –

القديمة والممزقة غالبًا - التى توجد فى أيدى المحرومين، والتى تمكنهم من المطالبة بحقوقهم فى الأرض. نجد إذن أن القانون الرومانى هو مصدر كل هذه التقاليد، وهو أيضًا مصدر تقليد إسبانى آخر ألا وهو فكرة الدولة كعامل مساعد فى التنمية والعدالة، وهى فكرة تكونت من خلال اللغة والقانون. فكافة المسارح وقناطر المياه والطرق والجسور ليست إلا ظواهر خارجية للقرار الرومانى الذى يقضى بضرورة التقدم والتنمية الاقتصادية من خلال سلطة الدولة الرومانية. وهناك تعداد السكان والضرائب والسياسة والإدارة، وهنا نجد أن روما قد أظهرت مهارة فائقة فى الربط بين الفضائل وواجبات الحياة الحضارية نحو الدولة الرومانية، غير أن هذا لا يحول دون احترام الثقافات المحلية والتقاليد الإسبانية؛ وقد ساعدت هذه المرونة أيبيريا على قبول الهدية من روما بطريقة شديدة المرونة، والهدية هى أن الدولة تعنى بربط أجزاء البلاد وتقوم بتنمية الاقتصاد وتجعل إسبانيا تشعر بأنها تشارك فى تاريخ الإنسانية، وفى الوقت ذاته تقوم بالحفاظ على مشاعرها المتعلقة بالكبرياء الوطنى والموروث المحلى.

غير أن هذا كله لم يحل دون استشعار وجود خطر، ألا وهو أن الدولة الممثلة للتنمية والعدالة يمكن أن تتحول إلى دولة فوق المحكومين وتتجاوز قدراتهم، أو أنها ترى نفسها فى هذه الصورة؛ نجد فى هذا المقام، ومنذ البداية، أن إسبانيا أسهمت فى توليد مبدأ آخر يمكن أن نطلق عليه الدرامية الشعرية للظلم وحق التمرد. هناك، فى هذا السياق، عمل مسرحى للوبى دى بيجا - ق ١٧ - بعنوان "فوينتى أوبيخونا" **Fuente ovejuna** حيث تتضح الدرامية بشكل جلى فى المواجهة بين السلطة السياسية والمواطنين. تصف هذه المسرحية التمرد الجماعى لأهل المدينة المذكورة على العدالة، وتتحمل مسئوليتها عن كافة مواطنيها، وعندما يتم توجيه سؤال عن المسئول عن موت الحاكم يجيب السكان وهم على صوت رجل واحد "فعلته فوينتى أوبيخونا". هنا يتضح أن مسرح لوبى دى بيجا ومسرح كالديرون، خلال العصر الذهبى، يؤكدان، فى نهاية المطاف، أنه من خلال الدمج والتطور الذى تقوده الحكومة الرومانية والرواقية، فإن التمرد والفردية الإسبانيتين وجدا طريقهما للعمل معًا وبشكل مشترك.

يُقال إن عبقرية روما فى إسبانيا هى أنها لم تقرّ أبدًا نظامًا استبداديًا متسلطًا، بل كانت من أنصار عملية الانفتاح والدمج والتنقل، فجسور المياه قد حملت المياه من الوديان المليئة بالأنهار إلى الهضاب القاحلة، كما أن القانون واللغة ساعدا على تنمية الشعور بالعيش فى جماعة؛ وعلى أية حال نجد أن المحاولات الأولى فى الحض على التكامل الإيطالى الإسبانى باءت بالفشل، وخلال القرن الأول الميلادى شارك الأيبيريون الرومانيون **iberorromanos** مشاركة كاملة فى الحياة فى روما نفسها، ولا يجب أن نشعر بالغرابة لهذا، خاصةً إذا ما وضعنا فى الحسبان وجود ثلاثة أباطرة – تراجان وأدريان وتيودوسيو – من أصول إسبانية، أى ولدوا فى إسبانيا.

أسهمت الحركة الدائمة للمدن والطرق، أى حركة الفنانين والفنيين وقائدى المركبات والتجار والموظفين العموميين والجنود والوافدين، فى إضفاء السمة الشعبية، فى نهاية المطاف، على المراحل المختلفة للرومنة، وأسهمت هذه الحركة فى جعل الجميع يتحدثون اللاتينية بشكل متزايد، مع بعض التأثيرات المحلية، والعمل على ابتكار مفردات ومواءمة مخارجها الصوتية وأسهمت كذلك فى إضفاء الطابع الشعبى للغة وكذا الطابع الحربى، وتحولت اللاتينية إلى ثلاث لغات محلية ألا وهى لغة رجال الدين **(sermo clericalis)** ولغة الجيش **(sermo militaris)** ولغة الشعب **(sermo vulgaris)**.

وقد ولدت اللغة الإسبانية من رحم هذه الخلطة العجولة، التى هى لغة ثلاثمائة مليون من المتحدثين بها اليوم فى أمريكا الإسبانية والولايات المتحدة(*).

التاج والصليب:

المعرفة بالقانون واللغة والفلسفة الرومانية فى إسبانيا، الإمبراطورية الرومانية اعتراها الذبول ثم الموت، وهنا ظهرت قوتان جديدتان على الساحة الإسبانية التى تعرضت للكثير من الجروح، فقد هلّ المسيحيون الأول من الشرق خلال القرن الأول الميلادى،

(*) يتجاوز عددهم اليوم أربعمائة مليون نسمة. (المترجم).

وفى الحال بعد ذلك نرى موجة من الغزوات الجرمانية من الشمال تسهم فى القضاء على السلطة الرومانية وهى فى مرحلة الأفول، وتوج هذه الغزوات حكم القوط - المسيحيين من حيث الفعل.

يجب أن نقر بأن إسبانيا لم تكن السبب فى سقوط روما فى إسبانيا، فقد كانت شبه جزيرة أيبيريا جرن الغلال لروما وربما كانت الإقليم الأكثر غنى فى الإمبراطورية، كما أنها كانت كاملة الرومنة وكاملة الولاء لدرجة أنه لم يكن هناك إلا فيلق واحد من الجيش الرومانى، لأسباب رمزية محضة. وأصبحت إسبانيا الرومانية بعيدة للغاية عن إسبانيا الأيبيرية التى ضحت بنفسها فى نومانثيا، غير أن زوال السيطرة الرومانية التى ظلت سائدة فى العالم القديم على مدار ألف عام قد ترك فى إسبانيا فراغًا وبالتالى لم تستطع حماية نفسها إذ لم يتوفر فى يدها الترس الرومانى، وملأ الفراغ البربر والمسيحيون؛ وخلال القرن السادس الميلادى وصلت روما إلى حالة من التفكك لدرجة أن جيوشها لم تستطع الدفاع عن إسبانيا ضد موجات القبائل الغازية - السُّواب والألان والواندال- وهى موجات هبطت من بلاد الغال، ومن جرمانيا حتى وصلت إلى تلك الأرض اليباب جنوب أوربا. حاصر البربر المدن الإسبانية الرومانية ثم نهبوها وبعد ذلك انقلبوا على بعضهم البعض، فقد تمكن السويب **Suevos** من الألان **alanos** الذين كانوا قد هاجموا الواندال وهزموهم بفضل مساعدة موجة أخرى من الغزاة هى القوط والسويب، وازدادت الأمور تعقيداً عندما أرسل الرومان فيالقهم لاستعادة إسبانيا، فعقد القوط اتفاقًا مع روما ظل معمولاً به حتى اللحظة التى فرّ فيها رومولو أوجوستولو، آخر الأباطرة الرومان من مسرح الأحداث وتحول القوط حينئذٍ إلى سادة إسبانيا الجدد.

كان التاج القوطى بربريًا، وهو المقابل الذكورى للطاقية الخاصة بـ"سيدة إلش" **Dama de Elche**(*)، ولكن كان حكمًا ملكيًا انتخابيًا ومتنازعًا عليه بشكل دائم،

(*) قطعة نحتية توجد اليوم فى متحف البرادو بمدريد، وهى من أشهر القطع التى تمثل الفن الأيبيرى.

وبالتالى لم تستقر التيجان فترة هادئة على رؤوس الملوك القوط؛ هم مجموعة من المحاربين من النبلاء الذين كانت تحلو لهم تيجانهم الثقيلة وما فيها من أحجار ثمينة، وكانت المشادات لا تنتهى حول المسائل السياسية والدينية. كان القوط قد اعتنقوا هرطقة أريوس، التى تتمثل فى أن المسيح لم يكن جزءًا من الثالوث المقدس وبالتالى فلم يكن جزءًا من طبيعة الإله الأب، بل هو مجرد نبىّ، وكانت خلافات القوط لا تتوقف أيضًا حول المسائل السياسية وكانت مسائل الخلافة على العرش تُحل من خلال إراقة الدماء المرّة تلو الأخرى.

يُلاحظ أن وصول المسيحيين الأوائل إلى إسبانيا ما زال أمرًا يكتنفه الغموض والأسطورية، فقد كان بعض القديسين الأوائل من إسبانيا من أصل إفريقى مثل القديس فيلكس، الرجل الذى حمل كلمة المسيح إلى برشلونة أو سان كوجات **S. Cugat** والرجل الذى ما قام بالتبشير فى الميناء القطلانى. كان الكثير من الشهداء من الإناث. وأطلق الهرطوقى الإسبانى بريسليانو **Prisciliano** النظرية القائلة بأن أجسادنا هى من خلق الشيطان ويجب استنزافها فى المتعة الأرضية والحب الحر، وكان هذا الهرطوقى قد نجح فى عقد جلسات تجمع بين الرجال والنساء لقراءة النصوص المقدسة وانضمت الكثير من النساء إلى هذه الهرطقة، غير أن أخريات وجدن عزاءهن فى الاستشهاد عندما رفضن الانصياع لمتطلبات الجنس الذكورى. ولما كنا نفتقر لشواهد معاصرة لهؤلاء الشهيدات الإسبانيات يمكننا تخيلهن على شاكلة ما رسمهن فرانثيسكو دى ثورباران خلال القرن السابع عشر؛ فالنساء الشابات يرتدين ملابسهن بشكل رائع ويحملن كل رموز عذابهن، وتحكى لنا الأساطير أن سانتا لوثيا جرى التضحية بها فى سيراكوزا (سرقسطة) عندما وشى بها من أراد أن يتزوجها - ورفضته - مشيرًا إلى أنها مسيحية. وبعد ذلك مباشرة قام أحد الجنود الرومان ورشق سيفه فى حنجرتها؛ هنا نرى القديسة وهى تحمل عينيها فى طبق. نجد أيضًا القديسة أجاتا، من صقلية وهى تحمل نهديها فى طبق، فقد غازلها أيضًا شخص لكنها رفضته، فوشى بها قائلاً إنها مسيحية وهنا قطع الرومان نهديها، وتحولت القديسة أجاتا إلى حامية حدّادى

الأجراس وكذا الخبّازين، ها نحن نرى أمامنا قوى التحول، فالشهيدة الأكثر شهرة فى إسبانيا، سانتا إيولاليا، كانت عذراء تبلغ من العمر اثنى عشر عامًا، ورفضت مطارديها من الرومان وتعرضت لتعذيبهم وحرقهم لها وهى تصيح "الله كل شىء"، وماتت فى اللحظة التى خرجت فيها حمامة بيضاء من فمها وطارت، ثم أخذ الجليد يتساقط على جسدها.

وسواء كانت هذه الحكايات حقيقية أو أسطورية فإنها تشير إلى أن العقيدة المسيحية قد انتشرت وضربت بجذورها فى الكثير من الأقاليم الإسبانية خلال الفترة الغامضة لظهورها وحتى ظهور بريسليانو خلال القرن الرابع. كما أنه منذ البداية، نرى الكاثوليكية الإسبانية وهى مرتبطة بشكل ما بهذا القلق الجنسى، أى إن بعض النسوة يرفضن الزواج ويهربن من الراغبين فيهن ويفضلن المسيح كزوج ويخترن الشهادة بدلاً من متطلبات الجسد مشيرات إلى أن المسيحية هى التوجه الجنسى المفضل لديهن.

غير أن هناك أمرًا ما يبرز سياسيًا من خلال هذه الحكايات، فقد حاولت الكنيسة الكاثوليكية فى إسبانيا فرض نوع من النظام بين آلام السياسة ومتاعب الاستشهاد؛ وعندما تخلى الملوك القوط عن واجباتهم السياسية المتعلقة بصراعاتهم على العرش تركوا قضايا العامة فى يد الكنيسة وخلقوا بهذا المسلك واحدًا من عناصر الموروثات الإسبانية المهمة سواء فى إسبانيا أو العالم المتحدث بالإسبانية ألا وهو التدخل المستمر للكنيسة الكاثوليكية فى الشئون السياسية؛ بيد أنه قد ظهرت شخصية، بين الشهداء المسيحيين والملوك المخضبة أيديهم بالدماء كأنها المخلص للحضارة فى إسبانيا، وهذه الشخصية هى الفيلسوف الأول خلال العصور الوسطى وهو فى حقيقة الأمر أول إسبانى. هناك شىء من الحقيقة فى كل واحدة من هذه المقولات التأكيدية، لكن هناك واحدة لا تقبل الجدال، تتمثل فى إيسيدورو **Isidoro**، أسقف إشبيلية، إذ كان أهم إسبانى خلال ذلك العصر الذى يبدأ من سقوط روما وينتهى ببداية الغزو الإسلامى لشبه الجزيرة.

قديس إشبيلية:

"أنت، آه يا إسبانيا - هذا ما كتبه إيسيدورو - أجمل بلاد الدنيا التى تمتد من الغرب حتى الهند... أنت، عن حق، ملكة كل الأقاليم، فهى تستمد نورها منك سواء كانت فى المشرق أو المغرب"..

هذه المهمة الإسبانية التى يجب أن تتلقاها شعوب مختلفة وأن تنشر معارف العصر سوف توضع على المحكّ على مدار القرون، فأحيانًا ما نراها مهمة منتصرة وحقيقية، وأخرى ما نراها زائفة للغاية، لكن عظمة إسبانيا ذلك الجزء الأكثر تميزًا فى هذه البسيطة، طبقًا للقديس إيسيدورو، سيقوم أيضًا بتأسيس الإمبراطورية، عندما أتى زمن الإمبراطورية وتحولت إسبانيا بدورها إلى القوة العظمى فى العالم منذ سقوط روما؛ وكان سان إيسيدورو أحد مؤسسى الإمبراطورية الإسبانية.

ولد هذا القديس فى مرحلة المطاردة والمهجر، أما أسرته فكان أفرادها من كاثوليك مدينة قرطاجنة، هرب من مطاردة أنصار أريوس وأقام فى إشبيلية، وهنا فقد الفتى إيسيدورو والديه وهو صغير السن. وقد تركت والدته رسالة ترددت على مرّ العصور اللاحقة من لدن الإسبان من يهود أو عرب أو مسيحيين، سواء كانوا ليبراليين أو جمهوريين، تقول هذه الرسالة: "جعلنى المهجر أعرف الله وسوف أموت فى المهجر وهنا سوف تكون مقبرتى حيث تلقيت معرفة الله".

نشأ القديس وسط المصائب الناجمة عن الصراعات العنيفة بين الملك ليوبيخيلدو **Leovigildo**، أول ملك قوطى وضع صورته على عملة إسبانية، وبين ابنيه إيرمنيخيلدو وريكاريدو، وقد انتهت هذه الأزمة عندما تخلى إيرمنيخيلدو عن هرطقة أريوس، وكان مكان هذا القرار إشبيلية وفى عصر أسقف المدينة، لياندرو، الذى كان بمحض الصدفة الأخ الأكبر لإيسيدورو، غير أن الملك ليوبيخيلدو تقدم نحو إشبيلية وأسر ابنه وأودعه السجن حيث مات فيه وهو على ديانته الكاثوليكية، أما الأسقف لياندرو، ووالداه من قبله، فقد نفى؛ ومع هذا فعند سكرات الموت تاب الملك ليوبيخيلدو وطلب من لياندرو

العودة من المنفى، وطلب منه الصفح والمغفرة. وتحول وريث العرش القوطى، ريكاريدو، إلى الكاثوليكية، وفى عام ٥٩٨م كان إيسيدورو شاهداً على الاجتماع الخاص بالمجلس الكاثوليكى فى طليطلة حيث أعاد الملك تأكيد إيمانه بالديانة الكاثوليكية كقاعدة لوحدة شعبه لكن هذا الإعلان لم يكن كافيًا، فقد لاحظ إيسيدورو أنه قد انضم إليه بشكل رسمى جماعة اعتنقت الكاثوليكية لكنها خلو من اللغة أو القانون القادر على وضع البنية الهيكلية للكنيسة الإسبانية.

لاحظ وجود سلطة فعلية متوثبة مستغلة متلعثمة وغير قانونية: نحن إذن نجد أمامنا الظاهرة تطل من جديد، وهى أن اللغة والقانون غير موجودين فى الأمور العامة. وتحولت عملية نشر القانون واللغة فى الأوساط الكنسية والسياسية إلى مهمة كبرى لدى الراهب الشاب إيسيدورو، فكل الأمور كانت ضده، فقد ضاعت ثقافة روما، وهنا نجد أن المؤرخ الإسبانى مارثلينو منندث إى بيلايو يقول بأن إيسيدورو وجد نفسه بين مجتمع عجوز يحتضر، ومجتمع صغير غير متحضر؛ فأخذ على نفسه تربية البربر، ومن خلال كتابه المعنون "أصول المفردات اللغوية" تمكن من إصلاح المعانى اللغوية، ومن خلال ما جمعه من نصوص القانون الرومانى جعل إسبانيا تستمر فى الاتجاه القانونى؛ نحن أمام قديس فى صحراء ثقافية وسياسية، إذ أخذ على عاتقه إنقاذ ثقافة من خطر الزوال، وأخذ على عاتقه دفع إسبانيا إلى الأمام، بعد أن وقعت مرة أخرى أسيرة "نظرية وجود الذات فقط" **Solipsismo**(*)، نحو عالم العصور الوسطى الذى كان فى صعود، حيث الرهبان السلت ورهبان الميروفنجى **merovingio** يسافرون ويعظون وينظمون.

بدأ بفرض النظام فى بيته. وعندما رحل أخوه لياندرو إلى الأسقفية، فى المدينة، جرى تعيين إيسيدورو راهبًا (**abad**) للدير، ففرض تقاليد أساسها التقشف والالتزام،

(*) هى فى الأصل صفة نسب لأسرة ملكية، وهى الملوك الأول فى فرنسا.

فى مدينة يكثر فيها الكهنة المزيفون والقساوسة فى الكنائس المنعزلة الذين يعيشون على هواهم؛ أنشأ إيسيدورو نموذجًا للكمال الديرى تتمثل ركائزه فى الفقر، غير أن هذا الفقر " لا يجب أن يؤدى إلى حَزَن فى القلب أو أن يكون سببًا فى التفاخر"، فبعد آخر الصلوات فى اليوم كان الكهنة مُجبرون على أن يغفر بعضهم للبعض الآخر وأن يتعانقوا فى سلام وأن يسيروا وهم يتغنون، ذاهبين صوب مخادعهم التى هى عبارة عن غرفة عامة للنوم (عنبر) حيث ينام الراهب الرئيس وسط الباقين.

وعندما بلغ الثالثة والأربعين، عند وفاة أخيه، ورث إيسيدورو أسقفية إشبيلية، الأمر الذى هيأ له القيام بحملة مفتوحة فى سبيل التوصل إلى اتفاق جديد بين الكنيسة والدولة. تمكن هذا الرجل إذن من تقوية دعائم الكنيسة من خلال الالتزام بالنظام بينما كانت المملكية ترفل فى اللانظام، وقام بإزالة الخلط والغموض من القوانين القوطية والكنسية لمصلحة التطبيق الدقيق للقانون الرومانى ومفهومه الهيكلى والواضح والمنطقى فى اتخاذ الإجراءات. وها نحن نرى الآن إيسيدورو يضع كل هذا فى خدمة القضية الكبرى المسيطرة على السياسة الأوربية حتى نهاية العصور الوسطى، أى العلاقة بين الكنيسة والدولة. كانت له ميزة سياسية، فبعد زوال البيروقراطية الرومانية تحول الأساقفة الإسبان إلى المديرين الحقيقيين للبلاد، وساعدهم فى ذلك ما كان عليه الملوك القوط من فوضى وعدم أهلية. هنا نجد أن إيسيدورو طبق فكرة الوحدة بين الدولة والكنيسة، وكان ذلك فى توازن يحفظ عدم تفوق أو تقدم أحدهما على الآخر، فالدولة يجب أن تكون تابعة للكنيسة فى باب الحياة الروحية، والكنيسة يجب أن تكون تابعة للدولة فى الأمور الدنيوية؛ ومع هذا يمكن لكل طرف أن يتدخل فى مسار الآخر إذا ما اقتضت الضرورة ذلك، وما لا ينبغى أن يحدث بأى حال من الأحوال هو الفراغ فى السلطة؛ ومع هذا ففى إسبانيا إيسيدورو، استنادًا للسلطة العليا التى كان تمتع بها الأساقفة، كان من المستبعد الدفاع عن الملكية الانتخابية بالقول بأنها واحدة من الدعائم الرئيسية لشرعية المملكة. كان إيسيدورو يعلم بما فيه الكفاية كيف كان النظام مهلهلاً، ولم يكن

يجهل الفوائد الجمة التى تعود على الكنيسة وحملتها الانتصارية المتمثلة فى أن تعيين كافة الأساقفة كان فى أيديهم، وكان الملك بمبعد عن هذا النشاط.

جرى إنقاذ الثقافة الإسبانية المرة تلو الأخرى من الدمار الوشيك والانحطاط والزوال، وقد تمكن إيسيدورو الإشبيلى وهو فى صومعته البربرية من إنقاذ الثقافة الرومانية لإسبانيا وتمكن من تحويل روما إلى المسيحية ومن أوربة إسبانيا، غير أن أهدافه فى خلق وحدة إسبانية تقوم على الدمج بين القوط والرومان، تهاوت وتحطمت، فالاستغلال الدائم للسلطة والمنافسات الأسرية والصراعات الحزبية الدائمة جعلت من المستحيل على إسبانيا القوطية أن تتحول إلى نظام فعلى له هدف محدد هو الوحدة.

كان النبلاء القوطيون متشرذمون بالطبيعة فعلى مدى قرنين من السيطرة القوطية حكم البلاد ثلاثة وثلاثون ملكًا حيث أخذوا ينشئون الإقطاعيات المستقلة، كما أن توالى الانقلابات والمذابح الذى هيأ للكنيسة أن يكون لها سلطان حاسم، أدى إلى ظهور سمة أخرى فى السياسة الإسبانية والإسبانوأمريكية ألا وهى التدخل الذى لا ينقطع أبدًا للكنيسة فى الشئون العامة، فقد كانوا يقومون بدور الإدارة المحلية، وأقام الأساقفة القوط فى إسبانيا عملية دمج قوية وشائعة بين الدولة والكنيسة، وهنا نتساءل عن مثل هذا النوع من الوحدة: ألم يكن على حساب السلطة المدنية؟ لقد أظهرت الكنيسة عجزها عن إقرار سلطة فيها استخلاف، أو كانت غير قادرة على الحيلولة دون المطاردات الرهيبة التى كان يقوم بها الملوك القوط، ومن أمثلة ذلك ما قام به الملك سيسبوتو Sisebuto من مطاردة لليهود على زمن إيسيدورو؛ ومعنى هذا أنه بينما تعلمت الكنيسة أن تحكم نفسها وأن تدير البلاد كانت غير قادرة على السيطرة على الفظائع المستمرة التى كانت تجرى على يد الملوك البربر.

وعندما ذهبوا بإيسيدورو، وهو يحتضر، من الدير الذى كان فيه إلى بازليكا سان بيثنتى فى إشبيلية، فى شهر مارس من عام ٦٣٤م، نجده، رغم ضعفه، يعلن توبته على الملأ. فارتدى جوال المُذْنِب وأمر بأن يلقوا على رأسه بالتراب. وأعلن على الملأ أن

أخطاءه أكثر من رمال البحر، وطلب من الجميع الصفح والغفران، وإذا ما كان قد أذنب فإنه أيضاً كان يعمل. توفى إيسيدورو فى الرابع من أبريل. وبعد أقل من قرن من الزمان على هذا الحدث نجد أن إسبانيا القوية والمسيحية ومطبقة القوانين والموزعة طبقًا لنظام إدارى طبقًا لما كان رغب فيه إيسيدورو تواجه أكبر تهديد. إنه قوة جديدة ظهرت على الساحة أخذت تناوئها على الجانب الآخر من أعمدة هرقل. هؤلاء القادمون الجدد هم الذين سيطلقون على هذا المضيق فى البحر الأبيض المتوسط اسمًا آخر هو: جبل طارق.

الفصل الثالث

إعادة غزو إسبانيا (حرب الاسترداد)

تعرضت تلك النواة الرومانية التى حكمت أوربا وباقى أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط بما فى ذلك الشرق الأدنى والشمال الإفريقى إلى عملية تقطيع الأوصال بشكل متوالٍ من خلال هجمات البرابرة والتوسع الإسلامى؛ ولكن فى الوقت الذى أخذت فيه القبائل الألمانية تتعرض مسيحية كانت قد سبق وجعلت من روما عاصمة لها، وكانت تحاول الاستمرار فى طريق الشرعية الإمبريالية، كان الإسلام حائطًا منيعًا دون هذه المواقف، وعندما بلغ أوج توسعه الدينى والسياسى بعد ثمانية أعوام من وفاة النبى محمد كان الإسلام قد غزا مصر واستمر فى مسيرته نحو تونس، وفى عام ٦٩٨م تمكن من طرد البيزنطيين من معقلهم الإمبراطورى فى شمال إفريقيا، فى قرطاج؛ وفى عام ٧١١م، أى بعد قرن كامل من بداية الدعوة إلى الإسلام على يد النبى محمد، وصل الإسلام إلى شواطئ جنوب أوربا وغزا إسبانيا القوطية.

فى هذا العام نفسه نجد أن حاكم سبتة، الكونت دون خوليان، ينضم إلى تمرد ضد الملك القوطى رودريجو (لذريق) ووجه نداء إلى جيش مكون من سبعة آلاف إلى سبعة عشر ألفًا من البرابرة **bereber** فى إفريقيا تحت إمرة طارق بن زياد لمساعدته. اعتقد لذريق أن هذه القوات لم تكن إلا قوات من المرتزقة؛ وفى الدائرة القوطية التى كانت تجوبها الشائعات والأقاويل قيل بأن دون خوليان ينتقم من الملك الذى اغتصب ابنته ذات يوم وهى تستحم فى مياه نهر التاج بالقرب من طليطلة. وحقيقة الأمر هى أن

نجاح الغزو الإسلامى كان البرهان الحاسم على الضعف والوهن الشديد الذى كان عليه الملوك القوط، فقد أبحر جيش طارق من المغرب وجرى إنزال الجنود فى جبل طارق، الذى حمل هذا الاسم تكريمًا للغازى الذى ينتمى إلى البرابرة. كان الملك رودريجو يرزح تحت وطأة تاج ذهبى ثقيل ويرتدى عباءة ثقيلة ويضع حليّه القديمة ويركب عربة من العاج يجرها بغلان أبيضان، ولم يستطع آخر ملوك القوط هذا إيقاف المورو عند نهر "وادى لات Guadalete"، بعد ثمانية أيام من المعارك الدامية على شطآن هذا النهر. وانطلاقًا من هذا النهر تقدم المورو بسرعة نحو الشمال حتى وصلوا إلى طليطلة وجبال البرانس، وهنا زالت من الوجود إسبانيا القوطية.

ظل الإسلام فى شبه الجزيرة الأيبيرية طوال القرون الثمانية التالية. فى البداية، وجد المسلمون مقاومة ضعيفة من قبل الممالك المسيحية المنقسمة على نفسها، لكنهم كلما ازدادوا توغلاً جرى إيقاف زحفهم فى معركة بواتيه على يد كارلوس مارتل عام ٧٣٢م وبذلك لم تصبح باقى أوربا إسلامية. أما فى إسبانيا نفسها فإن الموروث الشعبى يقول بأن المورو قد تم إيقاف زحفهم لأول مرة عام ٧٢٢م فى معركة كوبا دونجا Covadonga(*) بقيادة بيلايو أحد زعماء حرب العصابات.

وإذا ما أردنا تحديد بؤرة المقاومة لقلنا إنها كانت وسط ضباب جبال أستورياس حيث عاشت وأخذت فى دفع قواتها نحو الجنوب طوال القرون التالية. وعلى مدار ما يزيد على سبعمائة عام، أى بين عام ٧١١م وعام ١٤٩٢م كان العرب والمسيحيون يرون بعضهم البعض على مدار الحدود وهم يتحاربون وكذلك وهم يختلطون ببعضهم ويتبادلون الثقافات وتخلط دماؤهم ومشاعرهم ومعارفهم ولغتهم.

أحيانًا ما تتوغل الجيوش المسيحية نحو الجنوب انطلاقًا من مناطق حدود الطلائع فى قشتالة، وأحياناً ما يتم طردهم نحو الشمال ما دام كان المورو منظمين كدولة قوية البنيان. غير أنه عندما بدأت الدولة الإسلامية فى التهاوى والتحول إلى ملوك الطوائف

(*) بلدة فى إقليم أستورياس، شمال إسبانيا.

نجد أن المسيحيين يتجهون مرة أخرى إلى الجنوب ويستولون على طليطلة ويهزمون المسلمين هزيمة فاصلة فى موقعة العُقاب **Navas de Tolosa** عام ١٢١٣م، وابتداء من هذا التاريخ أخذ سهم الانتصارات المسيحية يتجه دومًا صوب الجنوب أى نحو آخر دويلات المسلمين وهى مملكة غرناطة.

وإذا ما كان العرب قد هُزموا فى نهاية المطاف وطُردوا فإن وجودهم على مدى ثمانية قرون أثمر خبرة وتجربة ثنائية الثقافة فريدة من نوعها فى الغرب الأوربى، وجرى تطبيق سمة الأفول والانحطاط الخاصة بالحدود الحربية التى لا تستقر على قرار، على السلالة والولاء، فهناك انقسام بين صفوف المسيحيين، وغير المؤمنين من المسلمين غير أنه لم يكن واضحًا بما فيه الكفاية؛ كان هناك المستعربون من المسيحيين الذين اتخذوا الثقافة الإسلامية، أما المدجنون فهم المورو الذين كانوا يعيشون كتابعين للمسيحيين؛ هناك أيضًا "المتحولون"، وهم المسلمون الذين اعتنقوا المسيحية؛ وفى نهاية المطاف نجد من يسمون **enaciados** وهم الذين لا ينتمون لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك، وبالتالى جرى استخدامهم جواسيس سواء من قبل المورو أو المسيحيين، وكانت قدراتهم اللغوية - معرفة اللغتين - تؤهلهم بشكل جيد ليقوموا بالدور الذى كانوا يقومون به. وحتى يومنا هذا فإن ربع عدد الكلمات المستخدمة فى الإسبانية هى كلمات ذات أصول عربية. وأذهب إلى أبعد من هذا بالقول بأن حلبات مصارعة الثيران تستخدم كلمة عربية للتعبير عن إعجابنا بأداء المصارع وهى "الله!" **ole!**.

إسبانيا العربية:

سرعان ما تخلى المورو عن كونهم ميليشيات قبلية سريعة الحركة إذ تحولوا إلى طبقة من ملاك الأراضى، ومن ثمَّ الاستقرار كحضارة مدنية فى إسبانيا، ومعنى هذا أنه بعد أن توطدت أركان القاعدة الحربية والزراعية، استطاع المسلمون أن يسيطروا بشكل أفضل على مقدراتهم الحربية والزراعية، ثم التجارية انطلاقًا من المراكز الحضرية، وقد تأسست المدن - قرطبة فى المقام الأول، ثم سرعان ما جاءت إشبيلية

بعدها وغـرناطة لاحقًا - عـلى سرعة حركة رأس المال والقيمـة التجـارية للمنتج وقوة البيروقراطيـة ونمو قطاع الخدمات. وكـانت قـرطبـة الإسـلامية - وسـوف تظل كذلك فى المخيّلة - أعظم مدينة إسلامية فى إسبانيا حيث ظلت عاصمة البلاد ابتداء من ٧١١م حتى ١٠١٠م.

اختـار الأمراء والخلفاء الأمويون الثلاثة، بدءًا بعبد الرحمن الأول، مدينة قرطبة لتكون البصمة الإسلامية فى إسبانيا، وكانت هذه البصمة تقوم فى المقام الأول، وبغض النظر عن الاستثناءات، على مبدأين هما الانفتاح والاحتواء وليس الإبعاد أو الاستبعاد، وتحولت قرطبة إلى طريق جرى إرسال الحضارة الإسلامية من خلاله إلى شمال أوربا، كما كانت أيضًا العربة التى استطاعت بواسطتها أوربا البربر أن تستأنف وشائجها مع ماضيها المفقود ألا وهو البحر الأبيض المتوسط.

فمن خلال الخلافة الإسبانية فى قرطبة انتقلت الفلسفة اليونانية والأدب الكلاسيكى عائدين من خلال جبال البرانس إلى أوربا القوطية، فقد ترجم العرب النصوص الكلاسيكية إلى لغتهم فى أثناء عصر الخلافة فى بغداد، وسرعان ما تلقفت ذلك مدرسة المترجمين فى طليطلة ونقلته إلى الغرب، فقد جرى نقل العلوم والطب وعلم الفلك من الجنوب الإسلامى إلى الشمال المسيحى، إضافة إلى الحكايات والقصص القادمة من الشرق الأقصى.

اخترعت إسبانيا الإسلامية علم الجبر وكذا الصفر، وحلت الأرقام العربية محل الترقيم الرومانى، وجرى إدخال الورق إلى أوربا وكذلك القطن والأرز وقصب السكر والنخل. وإذا ما كانت قرطبة قد تمثلت الفلسفة اليونانية، والقانون الرومانى والفن البيزنطى والفارسى فإنها أخذت على نفسها عهدًا باحترام اللاهوت اليهودى والديانة المسيحية، وكذلك الأمر بالنسبة لمن يعتنقونها فقد نظر إليهم المسلمون على أنهم "أهل كتاب". غير أن المطاردة والإجبار على التحول إلى الدين كان من نصيب الملاحدة والوثنيين. كان أهل الكتاب، من حيث المبدأ، أهلاً لمعاملة أخلاقية وثقافية مختلفة حتى ولو كانوا فى معركة حامية الوطيس.

خلال السنوات التى كانت فيها قرطبة سيدة الموقف، شاعت وأخذت قوة الفكرة القائلة بعدم وجود تعارض بين تعدد الثقافات ووحدانية الله، فمن خلال هذه الديانة الجديدة فى إسبانيا، التى أطلق عليها المسلمون الأندلس - وهو إقليم الأندلس عندنا - بدأت الديانات السماوية الثلاث فى حوض البحر المتوسط - اليهودية والمسيحية والإسلام - علاقاتها المتبادلة التى كثيراً ما اتسمت بثرائها، وتأزّمها عادة.

يُعد مسجد قرطبة التجسيد الرائع لهذا الموقف، وكان فى الأصل يضم ١٢٠ عموداً لم يتبق منها إلا ٨٠ عموداً تضم كافة الأساليب المعمارية التى كانت سائدة فى حوض البحر المتوسط والتى انتقلت إلى إسبانيا وهى اليونانية والقرطاجية والرومانية والبيزنطية. يقدم لنا هذا المسجد انطباعاً بانتقالنا إلى رؤية، بدون أن يكون للانهائى فيها أى مركز، تقول بأن الله والإنسان يمكن تخيلهما وكل منهما يبحث عن الآخر بلا توقف وكل واحد ارتبط بالآخر بغية الاستمرار فى مهمة الخلق التى لا تنتهى؛ ففى هذا التيه الذى هو المسجد القرطبى نجد أن غابة الأعمدة تبدو فى تغير دائم بفضل الرؤية الفعلية وكذا بفضل عيون الخيال التى تتحول إلى مليون مرآة؛ وحقيقة الأمر فكل ما يوجد يجب تخيله وقد انعكس فى المسجد الذى هو واحد من المبانى الرائعة والجياشة بالأخيلة فى العالم أجمع.

جرت تغذية كل هذا الجمال الوافر وكل هذا البذخ من خلال الجزية وغنائم الحرب وتبعية الدول المسيحية وما فرض على المسيحيين واليهود من ضرائب، إضافة إلى مردود الازدهار التجارى الذى دفع به العرب إلى الأمام فى مختلف الأرجاء. أتت من المشرق الكتب والجواهر والموسيقيون والقيان والراقصات، ومن الشمال الإفريقى نجد العبيد والذهب والحبوب، ووصل الأمر إلى أوربا التى كانت تعانى من الركود التجارى، مقارنة بدول العالم الإسلامى خلال ذلك العصر، حيث نرى وصول الأخشاب لبناء السفن وصناعة الأسلحة رغم التحريم البابوى لتجارة الأسلحة مع الكفار. ونحن نعرف أن الغرب له تاريخ طويل ببيع الأسلحة للعالم الإسلامى ثم الندم بعد ذلك.

تمكن أبرز القادة الثلاث فى الأسرة الأموية فى الأندلس من تحرير إسبانيا الإسلامية من هيمنة المشرق تدريجيًا وجرى تتويج هذا الخط بأن أعلن ثالثهم، عبد الرحمن الثالث، تنصيب نفسه خليفة بحيث أصبحت قرطبة خلافة مستقلة منفصلة عن بغداد، وتمكن من الجمع بين السلطة السياسية والدينية فى دولة أصبحت الأندلس المستقل بالفعل. أمكن لعبد الرحمن الثالث أن يحكم السيطرة على القبائل المتمردة القادمة من الشمال الإفريقى، وكذا على العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية، وقاد الأندلس إلى أعلى ازدهاره؛ غير أن هذا الازدهار تعرض لتهديد الحروب المتوالية، وعندما سقطت طليطلة فى يد المسيحيين عام ١٠٨٥م، لم يكن أمام قرطبة إلا أن تلجأ إلى المرابطين المتعصبين فى الشمال الإفريقى، وبعبور هؤلاء لمضيق جبل طارق أخذ يتهاوى المجد والفخار الذى أحاط بقرطبة.

عندما رحل عبد الرحمن الثالث ترك لنا ذكرى، ألا وهى القصر الكبير المتمثل فى مدينة الزهراء الذى شيده تكريمًا لزوجه؛ كان القصر يقوم على أربعة آلاف وثلاثمائة عمود، ويقوم على الخدمة فيه ثلاثة عشر ألفًا وسبعمائة وخمسون خادمًا من الرجال إضافة إلى خمسمائة وثلاثة آلاف من الغلمان والعبيد والخصيان. ولتغذية البحيرات السمكيّة كانت هناك حاجة إلى ألف ومائتى رغيف. ومع كل هذا كان عبد الرحمن الثالث واعيًا بأن هذه العظمة فانية، فكان يرتدى الملابس الخشنة ويعفّر نفسه بالتراب عندما تحين ساعة استقبال السفراء الأجانب. مات الرجل طاعنًا فى السن، لكنه تنهد فى نهاية الرحلة بقوله بأنه لم يذق طعم السعادة إلا أربعة عشر يومًا طوال حياته.

خلال الفترة من ١٠١٠م وحتى ١٢٤٨م أصبحت إشبيلية مركزًا للثقافة الإسلامية فى إسبانيا، فقد حكم الموحدون طوال قرن من الازدهار الفنى والثقافى فى إشبيلية، وجرى بناء القصر الكبير إلى جوار المئذنة - الخيرالدا - وجرى إدخال عقد منطقة التقاطع إلى أوربا وهو عقد تحول بعد ذلك إلى سمة من السمات البارزة للعمارة القوطية؛ وخلال ذلك العصر أيضًا انتقلت إلى أوربا أيضًا موسيقى الكورال والشعر الغنائى، وكان العصر الذى عاش فيه اثنان من أبرز المفكرين فى إسبانيا العصور الوسطى،

كان أحدهم اليهودى ابن ميمونة، الطبيب والمبدع بالعربية والقائم بالتوفيق بين الفلسفة الهلنستية واليهودية، وجامع التلمود. أما الآخر فهو ابن رشد الفيلسوف العربى الذى أعاد إدخال أرسطو وفلسفته إلى أوربا وجرؤ على القول بوجود حقيقتين، أى الحقيقة الدينية المتمثلة فى الوحى والرسالة، والأخرى هى العلمية التى تتم البرهنة عليها، وأصبح هذا التمييز بين القضيتين أحد السمات الرئيسية للفكر الحديث.

عندما بدأ عصر الأفول العربى فى إسبانيا بعد هزيمتهم فى معركة العُقاب ١٢١٢م، وبعد سقوط إشبيلية فى يد فرناندو الثالث – المسمى بعد ذلك بالقديس فرناندو – عام ١٢٤٧م، بقيت هناك مدينة ثالثة تحمل لواء هذا الموروث الحضارى ألا وهى غرناطة، فقد كانت آخر مملكة عاشت عصر أفول إسبانيا العربية، خلال الفترة من ١٢٤٨م وحتى ١٤٩٢م. غير أننا عندما ندخل هذه المدينة اليوم يجب علينا أن نتخيل أنه لم يكن هناك شىء يوجد فى هذا المكان اللّهم إلا الوادى والنهر وسلسلة جبال نيفادا. هنا وجدت بعض شعوب الصحراء موطنها وقررت تحويل المكان إلى حديقة لا تضارعها حديقة أخرى فى الدنيا فى جمالها، وكأننا نسمع صوت الله يأمر بأن يبنى هنا، على ضوء المشاعل، قصر ويطلق عليه الحمراء.

ربما كان هذا الشعب الذى عرف عطش الصحراء هو الوحيد الذى اخترع هذه الواحة الرائعة من المياه والظلال الوارفة، فهناك تتابع بين الأبواب والأبراج والدهاليز والصحون، وهذه العناصر جميعها تضفى على الحمراء فى آن معًا معنى المحافظة وتزجية وقت الفراغ وكأننا أمام مكان قد اجتمعت فيه كل ملذات الدنيا وأصبحت ملك اليد. يحيط بالمكان سور له أسماء منها سور العدل وسور النبيذ، وتحرسه أبراج منها برج الأسيرة وبرج التكريم وأبراج قمارش والقصبة، وأصبح قصر الحمراء فيها من الأماكن والحجرات حتى إن الظل نفسه كان ذهبى الشكل؛ ثم نأتى إلى صالة المقابلات الرسمية، المشور، وما بها من تصميمات من الزليج الذى يبدو أنه يسير على إيقاع عجيب وتناغم وكأننا نسمع مقطوعة مفاجأة الهروب لباخ. هناك البُعد الحميم

للبذخ الذى نراه فى طرافة غرفة الأختين، وهناك المنظور التحتى لصالون السفراء، والشعور بأن المرء أسير فى سجن عَذْب كأنه قرص من الشهد الذى لا يريد أحد الفكاك منه – هناك أيضًا مقر للحريم –، وهذه العناصر كلها سرعان ما نراها موصوفة فى قصائد جرت كتابتها على عقود المَرْقَب الذى يطل على حدائق القصر "أعتقد أن القمر بدرًا مكانه هنا ...".

فى نهاية المطاف، نخرج بنتيجة تقول بأن هذه من الثقوب والزخارف الجصية بأنواعها المختلفة والزليج والمناظير غير العادية لها غاية واحدة وهى حماية المياه، والحصول على رشفة من هذا السائل بكف اليد وأن يحيط المرء بكفه هذا السائل الذى هو سرّ الحياة ويحميه ويداعبه، كما أنها حماية مفتوحة مع كل هذا. وتعتبر صحون قصر الحمراء التى لا نظير لها معابد للمياه، فهناك الأعمدة الملساء فى صحن الرياحين، فهى تقوم بدور الحماية على شاكلة ما تقوم به الأسود فى بهو السباع ونافورته. غير أنه فى أثناء النهار، وأحيانًا كذلك فى أثناء الليل، يصل المرء إلى فهم أن مبدأ الدمج والتعايش الدائم بين كافة تدرّجات الزمن والطبيعة – النور والظِلال والهواء والأرض والشمس والقمر– هو الذى يحمى قلب الحمراء فى واقع الأمر، أى يحمى حمّامات السباحة فيه ونوافيره وقنواته.

فالمياه فى حدائق الحمراء ليست وحدها التى يسمع خريرها؛ ولما كان القرآن لا يقبل بتمثيل الجسد البشرى فإنه – أى هذا الجسد – قد تحوّل إلى مبنى مكتوب، أى إن الحمراء أصبح جسدًا مغطى بالآداب، أخذ يقصّ حكاياته ويتغنى بقصائده التى تتجسد على جدرانه؛ نحن نرى أمامنا نوعًا من النقوش الكتابية السماوية، حيث يصبح صوت الرّب سائلاً، وحيث نرى متع الفن والألمعية والحب، كلها قابلة للاستمتاع بها. هنا ليس من المستغرب أن تَنْفذ قصيدة للكاتب المكسيكى فرانثيسكو دى **Icaza** إلى عالم الأمثال الغامض الذى يصف هذه المدينة بقوله: "ليس هناك ما هو مؤلم فى الدنيا أكثر من أعمى يعيش فى غرناطة".

فى الوقت الذى نجد فيه هذه الحضارة حضارة رائعة ومزدهرة وتستنفر الهمم الثقافية فى جنوب إسبانيا، يحدث العكس فى الشمال فالحروب الطاحنة والإيمان الحربى تباعد دون هذه المتع، وقد استطاع المورو تحويل إقليم الأندلس إلى واحة من الأراضى المرويّة وحدائق المتعة والعمارة الرائعة والمدن العملاقة، إذ كانت قرطبة خلال القرن العاشر المدينة الأكثر كثافة سكانية فى الغرب، كما أن إسبانيا المسيحية بعد إيسيدورو الإشبيلى لم تحظ بمثل ابن رشد أو ابن ميمون، ولم تتمكن من تشييد شيء قابل للمقارنة بالحمراء أو بمسجد قرطبة.

ومع هذا فإن الأمر المثير للاستغراب، آخذين فى الحسبان هذا الفهم والإدراك لتفوق الثقافة والسلطة الإسلاميتين، هو أن إسبانيا المسيحية لم تذعن له كما حدث فى سوريا ومصر رغم أن الموروث الهلنستى كان ضاربًا بجذوره فى هاتين الثقافتين؛ وهنا نجد أنه ربما جرى الربط بين هذا الأمر وبين الموروث الإسبانى التليد والخاص بالحرب والمقاومة من خلال حرب العصابات، فقد ضربت الفردية ومفهوم الكبرياء بجذورهما فى أعماق الروح الإسبانية؛ وأسهمت بقايا الرواقية والقانون الرومانى واللغة الرومانث والروح الحية والمتمسكة بالمسيحية فى تعضيد هذا الموقف الإسبانى العنيد؛ غير أنه ربما نجد عنصرًا آخر أقوى من كافة العناصر السابقة يتمثل فى التمسك بالأرض والمنزل والقرية والأسرة وتاريخها وبالقرابة وبالذاكرة والموت والأغانى والحصاد وكل ما كان منذ زمن السلت الأيبيريين يشكل مجتمعًا زراعيًا وقرويًا للحرفيين والرعاة ومربّى الماشية والمزارعين وصغار التجار.

كان على إسبانيا المسيحية أن تحدد ملامحها من خلال الكفاح ضد الغازى المسلم؛ فقد تعرضت إسبانيا لموجات من الغزاة من أقدم العصور فأخذت الآن تستعد للقيام بحربها الأطول على مدار تاريخها، وهى ليست حربًا من أجل الغزو بل هى حرب الاسترداد وظلت قائمة حتى سقوط مملكة غرناطة عام ١٤٩٢م. فقد فُقدت إسبانيا، وكان يجب استعادتها، كان ذلك هو المعنى والمسمى الخاص بتلك المهمة التى تركز حولها الاهتمام والجهود التى قامت بها إسبانيا المسيحية خلال ثمانية قرون: إنها حرب الاسترداد.

"نكسب قوت يومنا بمحاربة المورو":

كانت حرب الاسترداد، فى الأساس، حدثًا عسكريًا مهمًا، وأسفر ذلك عن ظهور أشياء كثيرة قامت وظلت باقية وأخرى ظهرت للوجود، أخذت جميعها تشكل ملامح إسبانيا، وأمريكا الإسبانية وإن كان بشكل مؤقت فى هذه الحالة؛ ومن بين هذه الأشياء نبرز أمرًا مهمًا وجوهريًا على الصعيد الحربى والثقافى، فإسبانيا، من بين كافة الدول الأوربية، البلد الوحيد الذى لم يشارك فى الحروب الصليبية، فقد كان عليها أن تكرس كل جهودها للعمل فى المنزل على أرضها وأن تكافح ضد غير المؤمن.

كانت للإسلام ميزة مبدئية على المسيحية فقد كان يقبل بمبدأ الجهاد ويحض عليه؛ ومنذ البداية كان الزهد الدينى والحرب على غير المؤمنين أمرين متضافرين فى السياسة الإسلامية، وهنا نجد أن الرّباط فى الأندلس كان أحد السمات الرئيسية. أنشأ المرابطون هذه الحصون الأديرة التى ضمت بين جدرانها جماعات من المتدينين الذين كانوا يتناوبون فيما بينهم القيام بدور الدفاع المسلح عن حدود دولة الإسلام فى الأندلس.

أما المسيحية، فى بادئ الأمر، لم تكن تقبل أن يقوم رجال الدين فيها بالمشاركة فى الحروب، وخلال القرون الأولى للمسيحية كان من المنفّر لدى الكنيسة أن يقوم أحد كهنتها بإزهاق نفس بشرية، وكانت هذه المهمة ملقاة على عاتق الدولة الدنيوية؛ إلا أن الدولة القوطية قد فقدت سلطانها؛ هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد أن القديس إيسيدورو يحدث تأثيرًا كبيرًا بدوره فى تطبيق قواعد الكمال المسيحى التى دعا إليه فى الفصل بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. ومحصلة هذا نراها حتى قبل الغزو الإسلامى لشبه الجزيرة خلال القرن الثامن، وتتمثل فى أن عدد الرجال الذين يلتحقون بالأديرة هربًا من الخدمة العسكرية كان كبيرًا لدرجة أن الملوك القوط وجدوا أنفسهم وقد تعرضوا لضغوط النبلاء حتى لا يقبلوا بمزيد من الانتظام فى الرهبانية، وإلا فلن يكون هناك أحد ينضم إلى الجيش. غير أنه بعد عام ٧١١م كان الرد على المسلمين متمثلاً فى عسكرة الكنيسة، وخلال القرن الحادى عشر دخل صفوف الجيوش

فى المنطقة الشمالية التى بدأت حرب الاسترداد أعداد غفيرة من الرهبان الذين تحولوا إلى جنود. وهنا نجد أنه تم رسم ملمح آخر يتمثل فى الجمع بين الدين والحرب وبين السيف والصليب وكان ذلك أحد العناصر الحاسمة فى غزو العالم الجديد.

أخذت الجماعات الحربية تظهر للوجود للجمع بين الأغراض والأهداف المقدسة والرهبنة المسلحة، وهنا نجد ثلاثة من الجماعات الحربية الأكثر أهمية التى ظهرت خلال الحرب على المورو وهى جماعة قلعة تراب **Calatrava** وجماعة شنت ياقب **Santiago** وجماعة القنطرة. استطاعت هذه الجماعات تشكيل قوات برية قام الملوك بتمويلها وبذلك نجد أمامنا قاعدة ستطبق فى المستقبل وهى وجود جيش نظامى لإسبانيا الموحدة تحت لواء الملوك الكاثوليك؛ كما كانت جيوش حرب الاسترداد النواة الأساسية أيضًا فى تكوين جيوش أمريكا اللاتينية.

هناك شخصية من أبرز الشخصيات التى يتجسد فيها التلاحم ألا وهى شخصية "السيد" **Cid** بين كافة المحاربين المسيحيين. ولد رودريجيث دياث دى بيبار، بالقرب من برغش **Burgos**، عام ١٠٤٣م، ومات عام ١٠٩٩م فى مدينة بلنسية التى استردها. وقال السيد يومًا ما: إننا نكسب قوت يومنا من حربنا على المورو. اسمه عربى هو "السيد"، وهو يرمز لتقليد القائد العسكرى كحكم فى تولى السلطة ويرمز لجيش مغوار وغنى بفضل كرم قائده وهنا نقرأ فى ملحمة السيد "أن من طلبوا الأرض تمت تلبية مطالبهم، وقدم للجميع فى بلنسية المنازل والأموال التى كانت ترد"، وتضيف القصيدة أن من ذهبوا ورحلوا مع السيد على الأقدام دخلوا بلنسية وهم يمتطون صهوة الخيل، "فأصبح الجميع أغنياء بلا استثناء". هنا نجد أن من قاموا بغزو العالم الجديد، ومن أتى بعدهم من محرّرى أمريكا الجنوبية كان عليهم أن يفعلوا الشىء نفسه كل فى زمانه، إذ نجد أن "كورتس" فى المكسيك وسيمون بوليفار فى فنزويلا يفعلان الشىء نفسه الذى قام به السيد فى إسبانيا القرون الوسطى، أى إن جنوده أخذوا عطاياهم فى صورة أرض، وبهذا نجد أن القادة العسكريين وخاصة الجماعات الحربية الكبرى أصبحت مالكة لمساحات شاسعة من الأراضى فى إسبانيا العصور الوسطى.

كان "السيد" تجسيداً لسياسة تتسم بأنها انتهازية فى بعض جوانبها، وشديدة الحماس الدينى فى جوانب أخرى، وكانت تتسم بأنها تنتقل من مكان إلى آخر مدفوعة بظهور الجيش وقادته طوال حرب الاسترداد الطويلة، وهنا نجد أن الحوليات التى تتحدث عن أعماله ما هى إلا أكبر وأعظم قصيدة ملحمية فى إسبانيا العصور الوسطى. ومع هذا ففى لحظة ما نجد أن هذه الملحمية هى فى واقع الأمر غريبة حيث إنها تقدم لنا بعض الأفعال غير الشريفة التى يقوم بها بطلها؛ فإذا ما كانت هذه هى الإلياذة الإسبانية، ففيها نجد ملامح واقعية، تصل أحياناً إلى سمة الصعلكة وهو أمر لا يليق ببطل أو بأخيل **Aquiles**. تبدأ القصيدة بالحديث عن البطل - السيد - وهو يخدع اثنين من التجار اليهود: هذا مدخل مثير لقصيدة ملحمية، ثم تستمر، مثل غيرها من القصائد الملحمية الكثيرة، فى سرد قصة عمليات انتقامية أسريّة حيث نرى السيد وهو يحارب من أجل رأب الصدع الذى حاق بشرف بناته على يد اثنين من الملاعين وهما أميرا كارّيون. وينتهى الأمر بالانتقام بطريقة هزلية من مواطن آخر هو الكونت جرثيا أوردونيث حيث جرى جذبه من ذقنه بعنف.

هنا تعتبر هذه القصيدة تعبيراً واضحاً عن خصلة إسبانية وإسبانية أمريكية هى الحقد. فالجميع يحقد على السيد بما فى ذلك أقاربه والنبلاء والبلاد والملك نفسه وهو ألفونسو السادس ملك قشتالة، فهذا الأخير بدلاً من الإفادة الذكية من مواهب هذا الرجل إذ به ينفى ذلك القائد المحارب. أما السيد فكانت إجابته متمثلة فى موقف يشعرنا اليوم بالدهشة. نراه يستعد ليكون فى خدمة الملك المسلم فى سرقسطة، غير أن الضابط الرئيسى فى جيش السيد، وهو ألبار فانيث، ينتقل بالفعل للعمل فى صفوف جيش الملك المسلم فى مرسية فى صراعه ضد ملك مسلم آخر هو ملك غرناطة. كل هذا كان ببساطة جزءاً من وقائع متغيرة سواء كانت سياسية أو غيرها فى ميدان الحرب الممتدة بين المسلمين والمسيحيين فى إسبانيا، كما أن هذه المعركة كانت أيضاً نوعاً من العناق، فالحدود مؤقتة واختلاط الدماء أمر لا مناص منه وكذا الأمر بالنسبة للعادات والتقاليد واللغة وكلها غذت العديد من التحالفات فى أثناء هذه الحروب. لكن إذا ما كانت حرب الاسترداد حربا على المسلمين فإنها أيضاً كانت حرباً بين الممالك المسيحية التى كانت تعمل جاهدة على فرض سيطرتها بمجرد هزيمة المورو.

ها هو السيد يعيش، من خلال قصيدته ذات الطابع الواقعي والشعبى، أبرز لحظات حياته التى ترجع فى الأساس إلى إقدامه وعظمته الحربية.

"كم من الرماح مرفوعة ومُشْرعة... وكم من الرّايات البيضاء التى تخضّبت بالدماء، وكم من الجياد بدون فرسان يقودونها. يصيح المورو "وامحمداه!" بينما يصيح المسيحيون "واقديساه!".

طريق شنت ياقب Santiago :

كان هناك قائد أكبر من السيد فى معركة إسبانيا ضد المورو، ألا وهو القديس شنت ياقب، أحد الحواريين الاثنى عشر ورفيق المسيح، غير أن الشعب أراد الخلط بين "شنت ياقب الكبير" ابن زبيدوس **Zebedeos** وشنت ياقب الصغير الذى ورد اسمه فى الكتاب المقدس على أنه "أخو الرّب". وعندما نتأمل الأيقونات الشعبية نجد أن هذا الأخ الأصغر للمسيح يظهر فى صور كثيرة ومنها أنه الأخ التوءم للرّب.

ها هو الأخ التوءم للمسيح وقد أصبح مرئيًا فى إسبانيا وتحول من حوارى مهادن ومسالم إلى محارب صلد وعنيد قادر على أن يحدث الذعر فى صفوف قوات المورو عندما يظهر، وهو مدجج بالسلاح يمتطى صهوة جواد أبيض ويهبط من سحابة، وأصبح بذلك "شنت ياقب قاتل المورو"، تلك الشخصية التى كانت مصدر إلهام للمقاومة الشعبية ضد المسلمين وعضدت من روح حرب الاسترداد، وتتأكد من خلال شنت ياقب المحارب المكونات الروحية والحربية لإسبانيا المسيحية وهى أن الشك والظن أمران غير قائمين، فإذا ما كان شنت ياقب يقف فى صفنا فإن الله أيضًا معنا، وحربنا مقدسة مثلها مثل فريضة الجهاد عند أعدائنا. اتحد الجيش والكنيسة فى تقديس شنت ياقب، وكأنه قد تمت عسكرته للحرب على المورو، ثم قام هو بعد ذلك بتجنيد إسبانيا المسيحية كافة لهذه المعركة.

تحـول قبـر القديس فى كومبـوسـتـيلا إلى مـركـز للـحـجيج من الأوربيين خـلال العصـور الوسطى، وهذا من شـأنه أن يقدم لإسبـانيا المسيحية الفرصة لتنظيم ثقـافتـها والاستمرار فى العمل الذى بدأه القديس إيسيدورو، غير أن الأمر هذه المرة كـان تحت لواء راية الحرب. هنا نجد أن رهبـان جماعة كلونى، فى فرنسا، قد بذلوا جهوداً كبيرة، منذ القرن العاشر، لإعادة صياغة حضارة تلتف حول الممالك المسيحية البربرية المتشرذمة والعنيفـة. وأخذ الفن المُرَوْمن، ومجموعة من الأديرة والكنائس والمكتبـات والطرق التى تربط فيما بينها، يعبر فرنسا متجهًا إلى إسبانيا فى حجيج نحو آخر مكان فى اليابسة فى الجهة الغربية، أى إلى مقبرة شنت ياقب فى كومبوستيلا.

تعنى لفظة Compostela (كومبوسـتـيلا) حقل النجوم، وقد أطلق هذا الاسم على الضريح الرائع الذى أقيم خـلال الفترة من ١٠٧٥م حـتى ١١٥٠م ليكون مثـوى رفات القديس الرسولى، وليكون ملاذاً لمحبيه الذين هم فى ازدياد.

وقع على عـاتق الكهنة الإسـبـان إقـامـة بنيـة تحـتـية سـواء بالنسـبة للحـرب على المسلمين أو بالنسبة لطريق شنت ياقب (طريق سانتياجو)، فأنشـأت الكنيسة الإسبانية مجـموعة من الأديرة شمـال إسبـانيا وعـبّدت الطرق ووفرت الكتب والمجتمع الثـقافى وأصبحت مـلاذاً للعمـارة، فهنـاك الأسلوب المرومن الرائع الذى زين الطريق من باريس حتى شنت ياقب، وقصـده الألمـان وأهل بورجـونيـا والنورمـاندو الإنجليـز (والإنجليزيات اللاتى حظين بمعاملة أفضلية واضحة فى طريق شنت ياقب) والأمراء والكُهّان والتجار واللصـوص وقطاع الطرق ومن يعـانون البرص؛ اختلط كل هؤلاء ببعضـهم البعض فى موكب للحجيج، وتحـول هذا الموكب إلى ما يشبـه السوق الأوربية المشـتركة، أى أصبح طريقًا للتجـارة فى الغدو والرواح، وكذلك الثـقافة والنشـاط والعنف، وحمل كل ذلك إلى إسبانيا؛ نجد أن التكالب العنيف من قبل الجماهير على لمس جسد القديس الرسولى وصل لدرجة جعلت بعض الحجيج يقتل بعضـهم بعضاً إلى جوار قبر شنت ياقب، وكان من الضرورى إعادة تكريس الكاتدرائية المرة تلو الأخرى، وأتى هؤلاء الناس من أبناء العصور الوسطى بالعنف والإيمان؛ ولم يقتصر الأمر على هذا بل شمل الروائح الكريهة.

ويلاحظ اليوم أن أكثر شيء يجذب الانتباه اليوم فى كاتدرائية شنت ياقب هو المبخرة الضخمة المصنوعة من الفضة والتى تتأرجح فى ساعات محددة من اليوم وقد صَنَعت أو رسمت عقداً ضخماً وانتشر عبق بخورها، وذلك للرفع من شأن ما هو ميتافيزيقى ومداراة ما هو طبيعى، إنها "رائحة القداسة"، وهذه كانت العبارة المستخدمة لوصف اللقاء بين الأجساد التى كانت تأتى إلى شنت ياقب.

هناك وحدة من الأعمال النحتية فى كاتدرائية شنت ياقب، لم يطلها العنف أو التجارة أو الروائح الكريهة، فقد كان الملائكة هم الذين يستقبلون الحجيج، ومعهم فى الاستقبال الرسل والحواريون فى الكنيسة المسيحية فى مكان يطلق عليه "بائكة المجد"، وهذا المكان هو أحد أكبر الآثار المعمارية المهمة فى أوربا المسيحية، وهو رمز يعكس الثقة فيه، وكذلك يعكس النهضة الروحية والمادية للغرب خلال القرن الحادى عشر، بعد ليل طويل من البربرية؛ وعلى كل جانب من جوانب البائكة هناك نماذج لأربعة من الرسل وأربعة من الحواريين فى وضع يظهرهم وكأنهم يتحاورون. تبرز هناك شخصية إنسانية وظريفة: إنها للنبى دانيال، التى تعتبر موناليزا العصور الوسطى، فابتسامتها ملغزة تقول لنا بأن العالم جيد الكمال وأنه آمن وحقيقى فى رعاية عمارة الرب، وبينما يتم تبادل أطراف الحديث بين هذه الشخصيات نجد القديسين والرسل الذين يبدو أنهم ينعمون بما يشبه الكوكتيل السماوى؛ عن ماذا يتحدثون؟ لا شك أنهم يتحدثون عن هذا التوازن الرائع الذى عليه النظام المسيحى خلال العصور الوسطى، حيث كل يعرف مكانه المحدد كما أن الحكمة الجماعية تغلبت على المجد الشخصى؛ إنها الفلسفة السياسية خلال العصور الوسطى والتى وقع على عاتقها عملية إصلاح وتفكيك أو تشويه الحياة العامة فى إسبانيا وفى أمريكا الإسبانية، ومكمن هذه الفلسفة هو اليقين الذى تم التعبير عنه هنا والقائل بأن الخير العام هو فوق أية غاية سياسية، كما أنه جواز السفر إلى فرض الوحدة للوصول إليها، وإذا ما أخذت الفردية تعانى من جرّاء ذلك فليكن هذا.

غير أننا إذا ما نظرنا عن قرب، سوف نجد فى أحد أركان هذا المكان السماوى، رجلاً وهو يرمق الحاضرين بنظرة ساخرة، أحول العينين، هو الفنان الذى أبدع هذه

اللوحة الرائعة من لوحات العصور الوسطى، إنه المايسترو متّى بشحمه ولحمه Mateo وهو على رأس طائفة البنائين فى شنت ياقب عام ١١٨٣م مؤكداً، وبتواضع شديد، وجوده. نجد إذن أن الكاتدرائيات القوطية والأعمال النحتية لحضارة الأثتيك قد عاشت وتجاوزت أسماء مبدعيها غير المعروفة، وربما نجد أن الروح الخاصة بالعصور الوسطى تقول لنا: ولأنهم مجهولو الاسم فقد عاشت هذه الإبداعات.

السادة والمدن والملوك:

تمكنت إسبانيا خلال القرون الثمانية لحرب الاسترداد من الرّد على المسلمين وعلى الغرب وعلى نفسها بخاصة، فقد كانت شديدة الارتباط بالعدو المسلم وهو الذى حاربته وعانقته فى آن معًا، وكانت إسبانيا أيضًا جزءًا من السياق العام لأوربا، أى إن الغزوات البربرية قد تركت على أرضها ممالك ضعيفة وتركت أيضًا فراغًا قانونيًا ملأته كنيسة مقتدرة وسادة إقطاعيون مقتدرون وضاربون بجذورهم فى أماكن تواجدهم.

استطاعت النمطية الإقطاعية أن تحصل على بطاقة المواطنة فى إسبانيا، وأصبحت تتمتع بكافة السمات التى نربطها نحن بهذا الأسلوب من العيش. كما أسفر تفكك الإمبراطورية الرومانية عن ظهور سلطة قادة الجماعات الحربية المحلية الذين فرضوا قانونهم وكثيراً ما فرضوا نزواتهم على الأرض وعلى العاملين. ومع زوال مفهوم الدولة الرومانية زال معها مفهوم السلطة لدى الممالك القوطية الهشة، وحل محل القانون الرومانى استخدام القوة المفرطة، وهنا نرى من جديد الاهتمام الذى أولاه سان إيسيدورو فى إنعاش التقاليد القانونية الرومانية فى الممالك القوطية والذى كان يتسم بالأهمية فى إنطاق إصلاح المسار الذى كان عليه الإقطاع ونزواته وكذلك التشرذم فى السلطة، وأصبح الهدف الأساسى هو دعم الإصلاح والتقليل من أضرار التشرذم، وهذا ما كانت عليه الممالك والمدن فى إسبانيا وهى تمارس مقاومة ضغط الحرب على المسلمين ومقاومة السلطة الإقطاعية. وحتى يتم التمكن من الوصول إلى دولة القانون

كان من الضرورى إحلال الوشائج العامة للدولة والمواطنة فى المهد محل الروابط الخاصة للإقطاع، وقد حاول المجتمع، أمام هاتين الرابطتين خلق ثالثة أو محور آخر للهوية الثقافية سواء على المستوى الخاص أو العام، وكانت غاية هذا المحور أن يعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر.

فى إسبانيا وباقى أنحاء أوربا سيطرت الأرستقراطية على الأرض، وسيطرت على المجتمع وفرضت عليه سلم قيم يضع النبلاء ورجال الكنيسة فى القمة، ويضع الرجال الأحرار فى مراتب أقل على رأسها عبد التربة أو عبد الأرض؛ غير أنه إذا ما كان الإقطاع الإسبانى يقوم على ملكية الأرض فإن حرب الاسترداد قد جعلت للأرض نمطًا خاصًا. مرة أخرى نجد إسبانيا تتسم بتفردها على مستوى أوربا نظرًا لكثير من الاستثناءات التى فرضتها حرب الاسترداد على النظام الإقطاعيين وكذلك فى إضعافهم، ثم اجتمعت كلتا السمتين فى مفهوم واحد هو الحدود؛ فخلال القرون الطويلة الفاصلة بين عصر شارلمان وعصر اكتشاف أمريكا كان الإقطاع الإسبانى قويًا كما كان عليه الحال فى أى مكان، لكنه كان أيضًا مثار جدل أكثر من أى مكان آخر، ويرجع ذلك لسبب بسيط وهو أن عقل الإقطاع نفسه، وهو السلطة المستقرة على الأرض وعلى السكان، كان فى إسبانيا متأثرًا بشكل دائم بتعديلات تدخل على الحدود بين المسلمين والمسيحيين.

أسفر تقطع شبه الجزيرة إلى أشلاء وتفككها والتعديلات التى تدخل على الحدود إلى دعم قوة النبلاء الإقطاعيين، فالدولة لم يكن لها سلطان، ومن الممكن للسيد الإقطاعى أن يفيد من الحرب والسلام، ففى أثناء الحرب يعيش على الغنائم وعلى الضرائب التى يفرضها على الملوك من المورو، أما فى عصر السلام فقد كان يسيطر على المصدرين، أى مصدرى الثروة الأرضية وهى الزراعة وقطعان الماشية، وكلما زحف مكان الحرب نحو الجنوب كان الإقطاعى يحصل على المزيد من الأراضى، غير أن الحرب فى الوقت ذاته دعمت من الملمح الحضرى لإسبانيا، فإذا ما أراد السيد المحارب المسيحى مطالبة المورو بالأرض فلم يكن أمامه إلا بناء مدينة فى مكان لم تكن فيه أو زالت من الوجود.

أدت سياسة إعادة التوطين هذه إلى تغيير وجه الأرض التى لم تكن ملكًا لأحد والتى كانت تظهر للوجود فى منطقة الحدود الفاصلة بين المسلمين والمسيحيين؛ وكلما توغل زحف الجيوش المسيحية نحو الجنوب زاد إيقاع تأسيس المدن الجديدة وتوطينها، فمن قام ببنائها؟ ومن سكنها؟ ومن يمكن أن يدافع عنها؟ من المؤكد أنهم لم يكونوا عبيد الأرض وإنما هم الرجال الأحرار. ومن سيجرؤ على القيام بهذه الرحلة الطويلة قاصداً الأرض الخراب التى توجد فى وادى نهر دويرة أو السهول غير المأهولة فى قشتالة؟ إنهم الرجال والنساء الذين يعيشون على الحدود ويعيشون ظروفًا صعبة ومتقشفة وهى فئة قادرة على الذهاب إلى أماكن لا يفكر أحد فى الذهاب إليها طبقًا لما لاحظه المؤرخون الرومان؛ غير أن هذه الفئة كانت تأمل فى الحصول على مقابل لتضحياتها؛ ومعنى هذا أنه إذا ما كان الإقطاع قد أقر قواعد صارمة وثابتة فى قطالونيا وفى الأقاليم الشمالية لدرجة أنها قواعد أكيدة فى كل من ليدن وأرغن حيث نجد عامل الأرض يعنى بها لسيده ولا يمكن له أن يتركها بدون إذن منه، فإن قشتالة، أى منطقة الحدود مع المورو كانت فى حاجة إلى عملية إعادة التوطين والدفاع عن الأرض وبالتالى أدى الأمر إلى ظهور طبقة من الرجال الأحرار وبعض العاملين الذين ضمنوا حرية الحركة والحريات الشخصية وملكية الأرض مقابل رغبتهم فى استيطان الأراضى التى تم استعادتها ووصل الأمر ببعض الأماكن التى نجد فيها الإقطاع وقد ضرب بجذوره بقوة مثل قطالونيا، لنجد أن نمو وتطور المدن التجارية والحرفية والموانى المفتوحة على التجارة فى حوض المتوسط قد أدى إلى ظهور طبقة من التجار من ذوى العقلية المستقلة.

وتناغمًا مع ما تقوم به الكنيسة من بناء الأديرة لنشر الدين فى الأراضى التى تم استردادها، كان هناك جيش من التجار يقتفى أثرها، وأفاد خاصة من الحركة التى نراها فى طريق شنت ياقب، كما جذب هؤلاء التجار الكثير من المزايا والهبات التى منحها الأمراء الحاكمون لطبقة التجار.

كانت إسبانيا على مدار عدة قرون دولة حدود، وكانت حدود إسبانيا هى مع إسبانيا نفسها، فكان سكان الحدود هم خط الحدود الخاص بحرب الاسترداد.

وبذلك كانت هذه المناطق مهداً للسلطة الإسبانية وكذلك الحريات أيضًا. إذ إنه كلما كانت الحدود مع المسلمين متغيرة فقد تمكنت المدن من إرساء سلطاتها فى مواجهة سلطات الممالك المسيحية المختلفة التى كانت فى مرحلة مخاض هى والسلطات الخاصة بالمدينة، غير أن ميزة المدن تمثلت فى مساندة ملك قشتالة أو ملك أرغن أو ملك ليون أو عدم مساندته، وكان يمكن لتلك البلدات أن تغير من مساندتها فى أثناء الحرب مقابل مساحات الحرية المخولة لها زمن السلم.

ساهمت الحرب والتجارة بهذه الطريقة فى تشجيع ظهور ممالك مستقلة وكذلك مدن مستقلة وكان يسكنها الفرسان وجنود المشاة والنبلاء والفلاحون والكنيسة والمستوطنون المسلحون الذين يحملون شارات ملكية، أخذ هؤلاء المواطنون ينمون فى إطار الحكم الذاتى وممارسته، فأنشئوا برلمانات محلية ودور قضاء مستقل ووضعوا لأنفسهم دساتير محلية؛ وتحول المزارعون الأحرار إلى أبطال هذا الاتجاه نحو المدينة الحدودية، وأسهم نموّهم فى تحويل عموم الفرسان الذين شاركوا فى حرب الاسترداد إلى برجوازيين وفرسان وصغار النبلاء، أى "أولاد الناس" **Hidalgos**، ومن جانب آخر نجد مفهوم الشرف، القائم منذ عصر الأيبيريين يشتد ساعده، طبقًا لرأى المؤرخ خوسيه أنطونيو مارابال، وكان ذلك بمقدار ما أسهمت حرب الاسترداد وما هيأته للمشاركين فيها سواء كان الشعب أو النبلاء أو الملك أو كافة الفرسان التابعين للملك، حيث كان الإحساس بالمشاركة فى قضية عامة تهم الجميع أمرًا مشرفًا. ويضيف المؤرخ المذكور أن عقلية الإقطاع تجاوزتها حرب الاسترداد، فقد تكاثرت التحالفات وانتقلت لا إلى السيد الإقطاعى بل نحو إسبانيا. لكن أين كانت إسبانيا؟ هل تمثلت فى الملك، أم فى المدينة؟

وعلى إيقاع حركة الجيوش المسيحية تحولت القرى إلى بلدات كبيرة وبعض هذه الأخيرة تحول إلى مدن، ومع هذا يمكن تمييز المدينة التى تم إنشاؤها لتكون أحد الدفاعات الحربية، والمدينة الأخرى التى سرعان ما نمت فى ظل إيقاع النشاط التجارى رغم أنها كانت فى الأصل مدينة حربية. وتعتبر مدينة أبيلا أفضل نموذج لمدينة شيدت لتكون

حصنًا دفاعيًا لا يسهل اختراقه، فهناك الخنادق والأبراج، ومع هذا فهى أعلى مدينة فى إسبانيا، أى إنها قلعة شيدتها يد الإنسان ويد الطبيعة لحراسة السهول الواسعة فى قشتالة، أى أراضى قشتالة التى تعنى المكان "المرتفع"، كما كانت أسوار أبيلا عريضة وعريضة يمتد عرض الجدار فيها إلى ثلاثة أمتار ويحميها ثمانية وثمانون برجًا وتسعة أبواب محصنة. كان آباء المدينة من المحاربين المشهورين الذين كانوا يخرجون لكسب المعارك ثم يعودون ومعهم الغنائم من قطعان الماشية والكنوز والعبيد.

هذا يعنى أن الكثير من المدن التى تم تصميمها لتكون مدنًا دفاعية سرعان ما تحولت إلى مدينة، أو مدن، كانت تعيش على التجارة. وعندما نلقى نظرة سينمائية سريعة نجد فى المقام الأول الحصن فى أعلى مكان، منعزل، وهذا الحصن هو رفيق السلاح والنبيل، ورويدًا رويدًا نراه يتدثر بشجرة آتية من الأراضى الوطيئة ألا وهى الفلاحين الذين سرعان ما تحولوا إلى تجار وأصبحت لهم أحياؤهم بالقرب من الحصن، ورويدًا رويدًا ضاعت معالم الحصن فى إطار مفهوم حضرى أكبر، وهو مكان البرجوازى، التاجر والحرفى والمحامى والصيدلانى وكذلك المزارعون، وكل هؤلاء لا يخضع لقوانين الإقطاع بل كان ينظر إليهم على أنهم رجال أحرار يملكون أرضهم وفى حماية الملك، لأن الملك كان بحاجة إليهم لتوطينهم فى الأراضى التى تم استردادها من المسلمين، وسرعان ما تحولوا إلى مدافعين عنها على أنها أرض مسيحية على الدوام. غير أنه من أجل الدفاع عن أموال عقارية جرى استردادها كان الناس بحاجة إلى شىء أبعد من مجرد السلاح، ألا وهو التجارة والعمل والنشاط الحرفى والمهنى وهذه كلها بلغت درجة اجتماعية مماثلة لغيرها، غير أن التاجر كان بحاجة إلى حرية الحركة والاتجار والزواج والميراث والتخلص من ربق الأعباء الإقطاعية.

لقد أسهم مفهوم إعادة التوطين فى أن أعطى لإسبانيا سمة مختلفة عما كان فى أوربا، وهذه السمة سرعان ما نراها على المحك فى العالم الجديد، فربما كان أكبر موروث لإسبانيا متمثلاً فى قدرتها على إنشاء مدن جديدة، ففى إسبانيا عصر حرب الاسترداد جرى التوطين فى ليون عام ٨٥٦م وفى ثانيورى **Zaniori** عام ٨٩٣م

وبرغش ٨٨٤م. وهذه البلدة الأخيرة كانت قد أنشئت لتكون إحدى الدفاعات الحربية (لنتذكر أن السيد قد ولد بالقرب من هذا المكان)، وسرعان ما تحولت إلى مركز تجارى قوى، وهنا نقول إن تاريخ مدينة برغش يؤكد الوصف الذى قدمه لنا مارك بلوش **M.Bloch** والخاص بتجديد الحياة الاقتصادية فى أوربا خلال القرن الحادى عشر، وهذه السمة هى "وجود طبقة من الفئات الحضرية تتسم بالقوة والتميز".

وهنا نرى أن كاتدرائية برغش العظيمة التى بدأ البناء فيها عام ١٢٢١م هى تتويج لهذا الواقع الحضرى الجديد، فقد كانت تحتضن حركة اجتماعية رفعت من شأن المدينة الحصن إلى مدينة بالمعنى المفهوم، وأصبح للمدينة قانونها المحلى (العرف) ولسكانها مزاياهم وارتفع شأن هؤلاء السكان من مجرد رعية إلى درجة المواطنين فى المدن؛ فالمواطنون طبقًا لقوانين الملك ألفونسو الحكيم هم الذين يحبهم الملك ويكرّمهم... فهم الكنز وهم أساس الممالك (المجلد الثانى، ١٠، ٣).

وهناك مقولة ترجع إلى العصور الوسطى الأوربية بأن "هواء المدينة يجعلنا نشعر أننا أحرار". كانت المدينة إذن طريقة من طرائق الهروب من تحكم الإقطاع، ولم تكن إسبانيا استثناء من هذه القاعدة، إلا أن هناك عنصراً آخر يجب أن يقوم بدور حاسم فى هذا التقابل بين ثقافة الإقطاع وثقافة المدينة فى إسبانيا، إذ كانت هذه الأخيرة هى العنصر الفعلى، أى الممالك الصاعدة التى أفادت من الرقع العمرانية لتقلل من السلطات الممنوحة للإقطاعيين والتى كان على الملوك الضعاف آنذاك أن يحترموها بغية الوقوف والصمود أمام وجود المورو.

وصل الأمر فى هذا أن أصبحت حرب الاسترداد، فى حقيقة الأمر، مثلثًا أضلاعه هى الإقطاعيون والمدن الحرة والممالك الصاعدة، واتحد الجميع فى كفاحهم ضد المسلمين، لكنهم لم يتمكنوا من تنسيق العمل فيما بينهم، إذ إن حقيقة الأمر تقول بأن منطقة الحدود التى كانت السمة الغالبة فى هذه الفترة من حياة إسبانيا لم تكن مقتصرة على الحدود بين المسلمين والمسيحيين، فإسبانيا كانت منطقة حدود مع نفسها، أى حدود بين تنظيمات إقطاعية قوية تستند على ملكية الأرض والأنشطة

التجارية والحرفية الصاعدة والتى تقوم فى المدن، كما تقوم على الأمراء الذين حاربوا من أجل إحياء المفهوم الرومانى للسلطة والدولة على الأراضى والمدن.

وبعد معركة العُقاب، وضح أن شبه جزيرة أيبيريا مقسمة إلى خمس ممالك: البرتغال فى الغرب تطل على المحيط الأطلنطى وقشتالة وليون فى الشمال وحتى الوسط، ثم نابارّا فى منطقة جبلية فى الشمال، وبعد ذلك قطالونيا فى الشرق، تطل على البحر الأبيض المتوسط. ثم نجد غرناطة آخر مملكة عربية فى أعماق جنوب إسبانيا.

عندما اكتسبت الحدود الثبات فإن العناصر الثلاثة (النبلاء من الإقطاعيين والمدن والأمراء) سرعان ما أدركت أنه بدون حجة حرب الاسترداد أصبحت ملكية الأرض تعنى، أكثر من أى وقت مضى، الثروة الاقتصادية وكذلك السلطة السياسية؛ وهنا نجد أن السادة الإقطاعيين حاربوا بلا هوادة وأكثر من أى وقت مضى فى سبيل الحفاظ على مكتسباتهم وحاربت الممالك أيضًا للحصول على التفوق السياسى على الإقطاع فى الوقت الذى جرى فيه وضع المدن فى مأزق فهى موزعة الشتات بين معارضتها للإقطاع، لكنها فى آن معًا متخوفة من السلطات الملكية المتزايدة والتى كانت تبدو آنذاك - مع كل هذا - وهى تؤيد حريات المناطق الحضرية، وربما كان هذا من أجل أن تكون المدن فى نهاية المطاف فى صف الملك فى صراعه مع النبلاء. لم يكن هذا الأمر بهذه البداهة فى أى مكان اللهم إلا فى بؤرة ديمقراطية العصور الوسطى، أى فى الهيئة البرلمانية. وبالفعل نجد أن البرلمانات الأوربية التى تمكنت من إرساء قواعدها والانضمام إلى "الدولة الثالثة" - مجلس العموم - قد ظهرت كلها فى إسبانيا؛ فقد أطلق عليها "Las Cortes" أى البرلمان، وظل ذلك الاسم حتى اليوم، وكانت هذه الهيئات نتاج تطور ديمقراطى ممتد. قامت المدن على عُرفها (قوانينها المحلية) أو لوائحها (التى اكتسبتها كما سبق القول من خلال مقاومتها للمورو فى المناطق الحدودية وما تلا ذلك من حملة التوطين)، وطوّرت قوانين الحكم الذاتى تحت إشراف قضاة تم انتخابهم (العُمَد) واجتمع هؤلاء فى البلديات للبت فى الشئون العامة. كما اهتم الملوك

فى حقيقة الأمر باستقطاب أفراد ليست لهم روابط بقوانين الإقطاع وأبدوا لهم استعدادهم منحهم حق المواطنين الأحرار وبذلك أسهموا فى إقامة قاعدة من قواعد القوة المضادة للنبلاء، وفي الوقت الذى قدمت فيه المجالس البلدية العون المالى والحربى للملوك، قابل هؤلاء ذلك بمنحهم الحقوق السياسية.

فى عام ١١٨٨م جرى عقد أول برلمان إسبانى تحت رئاسة الملك ألفونسو التاسع ملك ليون، وهو أول برلمان أوربى، سابقًا فى ذلك برلمان **Hohenstaufen** فى ألمانيا عام ١٢٣٢م. كما أن كلاً من برلمان قطالونيا (١٢١٧م) وقشتالة (مع بداية القرن الثالث عشر) سبقا أول برلمان إنجليزى (١٢٦٥م). وعلى أية حال كان البرلمان المكان الذى زادت فيه الجماعات المميزة والكنيسة والنبلاء وأطلق على هذا فى إسبانيا عبارة "رجال المدن الطيبون"، أما فى إنجلترا فقد أطلقت عبارة "مجلس العموم"، وفى فرنسا "الدولة الثالثة". وكانت وظائف هذه البرلمانات متغيرة فى الممالك الإسبانية، ففى قشتالة – على سبيل المثال – نجد أن البرلمان يناقش فى الأساس الأمور المتعلقة بالضرائب، بينما نجد مجلس أرغن مخولاً لتلقى الشكاوى ضد الملك. غير أنه إلى جانب البرلمان كانت المدن تحظى بوجود مجالسها الخاصة بها وكانت هذه المجالس فى بداية الأمر مجالس مفتوحة تمارس الديمقراطية المباشرة، وساعد على هذا قلة عدد السكان؛ وعندما أخذ تعداد السكان فى الازدياد كان عليهم أن يوكلوا من يمثلهم فى شكل عدد من "الرجال الطيبين"، ومع نهاية المطاف أصبح هؤلاء الرجال مجرد مصححين بمعنى أنهم موظفون ملكيون عينهم الملك، وبذلك فهم الممثلون الدائمون للسلطة الملكية، وهنا أخذ القرار الديمقراطى يعانى معاناة شديدة.

وقفت أغلب المدن فى صف الملوك – مع هذا – على أساس أن ذلك هو الخيار الأفضل (أو الأقل سوءًا) مقارنة بما عليه الإقطاع من عنف ونزوات، فكم من الناس ضحوا بهذه الطريقة! هذا هو تاريخ الديمقراطية الإسبانية التى نجد جذورها فى إسبانيا العصور الوسطى وفى أمريكا الإسبانية حيث تضرب بجذورها فى المدن الإسبانية خلال العصور الوسطى. ويلاحظ أن تطور المجتمع المدنى والمؤسسات المحلية

من خلال لوائح الحكم الذاتي والحريات المكفولة في العديد من اللوائح والدساتير الحضرية والثورة المستمرة في التوقعات المتنامية التي تأتي المراكز الثقافية البرجوازية على رأسها، ومعها تلك التجارية في إسبانيا العصور الوسطى، قد اتسم بالبُدائية، وكان بحاجة إلى مزيد من الوقت ليوطد أركانه، وكذلك المزيد من العناية في تغذيته. نجد أيضًا في أوربا قاطبة أن الأسباب الخاصة بالسلطة الملكية والوحدة الوطنية سرعان ما تشهد مواجهة بين الحريات المدنية التي اكتسبها الأفراد طوال العصور الوسطى، وبين السلطات الملكية التي توطدت أركانها بعد عصر النهضة. هنا نجد أن الحرية كانت ذات صحة جيدة في إنجلترا مقارنة بإسبانيا: أما فرنسا فقد عاشت توترًا دراميًا بين التسلط والاستبداد المركزي وبين الدولة الثالثة، ولم يتم التوصل إلى حل له إلا من خلال الثورة الفرنسية. هناك أمر شبيه في كل من ألمانيا وإيطاليا حيث تأجل مشروع الوحدة الوطنية حتى القرن التاسع عشر، وهي التي توصلت إليها كل من إسبانيا وإنجلترا وفرنسا خلال القرن الخامس عشر.

نعرف أيضًا أن تاريخ إسبانيا كان الأمر الأكثر إثارة للحزن، فلم يحدث أن تم الحصول على حقوق مدنية أساسية في أوربا في هذه الفترة المبكرة، ومع هذا فإن الأسباب الكامنة وراء الحصول عليها - أي الحرب على قوة أخرى حربية ودينية على الأرض نفسها - هي التي سوف تحول دون تطوّرها لاحقًا. فبعد أن فازت إسبانيا في معركتها ضد المسلمين، فازت الملكية الإسبانية بمزيد من الصيت الذي لم تحظَ به إنجلترا أو فرنسا؛ أي فخار النصر على العدو في البيت نفسه، وهنا نلاحظ أن الحماس الإسباني في ميدان الغزوات الإمبراطورية وطبيعة الاستعمار الإسباني في العالم الجديد والدور الممتد لإسبانيا كمدافعة عن الكاثوليكية في مواجهة هرطقة أوربا البروتستانتية إنما تنبثق كلها من تجربة حرب الاسترداد.

وهذا هو أيضًا أصل الديمقراطية الإسبانية والإسبانية الأمريكية، التي تعرضت لكثير من الهزائم لكنها لم تتحطم أبدًا؛ وهنا نلاحظ أن حياتنا الديمقراطية الهشة تضرب بجذورها في هذه البلدات التي كانت خلال العصور الوسطى، فكثيرًا ما خدعنا

أنفسنا متجاهلين التراث الإسبانى لديمقراطيتنا الذى يقوم على البلدية الحرة، وهذا كان عندنا بمثابة ذريعة لاتخاذ نمطين غريبين لنفى الذات **autonegacion**: إحداهما تقليد المؤسسات الديمقراطية الفرنسية والأنجلوأمريكية، وأخذنا نقول لأنفسنا إن هذه الديمقراطيات قد أحدثت فاعليتها، أما الأخرى فهى اتخاذ الاستبداد ومعه الأقنعة الحديثة والتقدمية، على أساس أنه من خلال هذا الطريق الفرعى، مثله مثل الأول، سوف تتوفر لدينا الظروف المادية والملموسة للديمقراطية. لقد فشلت الرأسمالية والاشتراكية فى أمريكا اللاتينية بسبب عدم قدرتنا على التمييز، وعدم قدرتنا على دعم موروثنا الذى هو أيبيرى حقيقى، وليس منبثقًا عن الأنجلوأمريكان أو الماركسية.

نقولها بشكل آخر: إن إسبانيا العصور الوسطى كانت أكثر استعداداً من إنجلترا وفرنسا لتصبح ديمقراطية أوربية حديثة؛ وإذا كان هذا لم يكن قد حدث فى الوقت الذى كان يجب فيه أن يقع – خلال الفترة بين القرن السابع عشر والتاسع عشر – فما ذلك إلا دراما تثير القلق سواء بالنسبة لأوربا أو بالنسبة لأمريكا الإسبانية؛ غير أن هناك موروثًا ثقافيًا آخر، ربما كان أقوى من الديمقراطية، نراه متمثلاً فى الموروث الثقافى الذى يتوِّجه تعايش الثقافات الثلاث فى إسبانيا وهى المسيحية والإسلام واليهودية.

الثقافات الثلاث:

استولى فرناندو الثالث المحارب والقديس على إشبيلية، التى كانت فى يد المورو، عام ١٢٤٨م. وفى كل عام يفتح قبره مرة واحدة فى كاتدرائية إشبيلية وهو ملفوف فى أكفانه وعباءاته الملكية ومتوج وله ذقن طويلة بيضاء، ويقال إن جسده لم يَبْلَ، غير أن الأمر الأكثر أهمية من رفاته هو التناقضات الواضحة فى حياته، وهى تناقضات تعبر عن قلب إسبانيا النابض وعن المزاغل التى تطلق منها السهام التى أصابته بالجروح؛ ها هنا يرقد المحارب المسيحى الذى حاصر إشبيلية طوال ستة عشر شهراً حتى جاءت ليلة الحرب التى كست المدينة حتى فى أثناء النهار؛ أخذ يهاجم وينهب ويقتل كل ما كان

يتحرك وطرد مائة ألف مسلم من المدينة التى سقطت، وكان ذا حسّ فكاهى انتقامى معادل: فالغازى العربى المنصور بن أبى عامر كان قد نقل أجراس كنيسة شنت ياقب حتى قرطبة عام ٩٩٧م، ثم حوّلها - جزئيًا - إلى ثلاثمائة نجفة لإضاءة المسجد. عندئذ قام الملك الإسبانى ملك قشتالة فرناندو الثالث باستعادة الأجراس التى تحولت إلى نجف عندما غزا قرطبة وأمر بأن تعود إلى مكانها الأصلى فى شنت ياقب، غير أنها عادت هذه المرة على أكتاف المسلمين المهزومين.

هنا يرقد أيضًا رفات القديس الذى تلقى، وهو يحتضر فى فراشه، التقدمة المربوطة بحبل يلتف حول عنقه وذلك للتعبير عن إذعانه أمام الله والوعى الكامل بما ارتكبه من آثام؛ وهنا أيضًا نجد رفات ذلك المتخصص فى العلوم الإنسانية الذى لجأ إلى البابا لحماية اليهود الإسبان وإنقاذهم من إجبارهم على استخدام شارة مهينة موضوعة على ملابسهم.

يضم قبر سان فرناندو نقوشًا كتابية بأربع لغات للمجتمع الثقافى فى إسبانيا هى اللاتينية والإسبانية والعربية والعبرية، أى لغات أديان التوحيد الثلاثة وهى المسيحية والإسلام واليهودية. كان يروق لفرناندو أن يلقّب بالعاهل للديانات الثلاث، وكان يحترم كافة "أهل الكتاب" أى الوصايا والقرآن والتلمود؛ ورغم أن الممارسة السياسية كانت تدفعه للحرب على المورو فإن مهمته الروحية هى الاعتراف بتفرد إسبانيا فى إطار أوربا على أنها الأمة الوحيدة التى شهدت تعايش اليهود والمسيحيين والمسلمين.

وقد بلغ هذا التعايش الثقافى، من حيث إنه سياسة واضحة الملامح يمارسها ملك إسبانى، أوجه فى أثناء حكم ابن سان فرناندو، وهو ألفونسو الحكيم ملك قشتالة، الرجل الذى قام عام ١٢٥٤م بالموافقة على إنشاء أكبر جامعة لإسبانيا فى سلمنقة وأنشأ مكتبتها وحولها إلى أول مكتبة للدولة وعين لها أمينًا تدفع الحكومة أجره، وهنا نجد أن كلاً من جامعة سلمنقة ومكتبتها الرمز الحقيقى والجدير بملك على زمانه أطلق عليه لقب الحكيم.

أحضر الملك ألفونسو إلى بلاطه مجموعة من المثقفين اليهود، والمترجمين العرب والتروبادور الفرنسيين، وكلف المفكرين العرب واليهود التابعين له بترجمة الإنجيل إلى الإسبانية وكذلك القرآن والتلمود والقصص القادم من الشرق الأقصى. ومع المثقفين اليهود أنتج كتابه (الجامع) **Summa** خلال العصر الوسيط الإسبانى، وهو كتاب يضم كافة التشريعات، وكذلك كتاب "القوانين السبعة **Las siste partidas** وهو المرجع القانونى، ثم "العرف الملكى" وكتب علم الفلك وكتاب تاريخ إسبانيا وكتاب تاريخ العالم. وكان لدى ذلك البلاط الثقافى الملكى ذى الثقافات الثلاث وقتًا لوضع أول كتاب فى الغرب يتعلق بلعبة عربية، ألا وهى الشطرنج (حيث نجد الحركة النهائية فيه هى كش ملك، التى هى ترجمة لكلمة عربية قديمة هى "شاهكم مات" - أقتل الشاه).

كانت الغاية من وراء هذه الملحمة الرائعة فى ميدان الثقافة خلال العصور الوسطى الحصول على كافة المعارف الممكنة والمتاحة فى ذلك الزمان، وبذلك نجدها فى هذا الإطار استمرارًا للعمل السابق الذى بدأ فى إشبيلية على يد سان إيسيدورو، والمحصلة هو أننا ... م موسوعة سبقته، الموسوعات التى أصبحت الموضة السائدة خلال القرن الثامن عشر. إلا أن الحدث الأكثر إثارة للانتباه هو أنه كان على ملك قشتالة أن يستعين بالعقليات اليهودية والعربية للقيام بهذه المهمة، ومن اللافت أيضًا هو أن الكُتّاب اليهود هم الذين ألحوا على أن تُكتب هذه الأعمال باللغة الإسبانية وليس باللاتينية كما كانت العادة السائدة آنذاك، لأن اللغة اللاتينية كانت لغة المسيحية. كان يهود إسبانيا يريدون معارف مكتوبة بلغة يفهمها عموم سكان إسبانيا أى المسيحيون واليهود ومن اعتنقوا الديانة المسيحية حديثًا. نعرف أيضًا أن النثر الإسبانى الذى سوف يأتى لاحقًا مصدره بلاط الملك ألفونسو الحكيم وهو فى جوهره لغة الثقافات الثلاث، وبعد قرنين من الزمان بعد فترة حكم الملك ألفونسو نجد اليهود ما زالوا يستخدمون اللغة العامية لقراءة النصوص المقدسة وكتابة حواشيها وكتابة الفلسفة وعلم الفلك، ويمكن القول بأن اليهود وطدوا استخدام اللغة الإسبانية فى إسبانيا وجعلوها تنتشر فى كل مكان.

وفى إطار هذه الأهلية ذات الثقافات الثلاثة بما تتضمنه من تسامح وتعصب نقول إن اليهود الإسبان، مع كل هذا، هم أكثر الذين عانوا الأمرّين. فقد جاء اليهود الأُول إلى إسبانيا فى أثناء حكم الإمبراطور أدريان خلال القرن الثانى الميلادى وأصبحوا من المثقفين والحرفيين والمزارعين والتجار والأطباء، غير أنهم فى عصر القوط تعرضوا للمطاردة العنيفة على يد عدة ملوك مثل الملك سيسبوتو **Sisbuto**، إذ كانوا متهمين بأنهم السبب فى الركود الاقتصادى وكان ذلك ذريعة لمصادرة أموالهم؛ ولم يتمكن القديس الإسبانى إيسيدورو من تحمل هذا الموقف وهذه الذريعة المثيرة للاشمئزاز تجاه اليهود، فهم يدفعون ذنوب آبائهم ويتعرضون للاضطهاد والشتات.

ليس غريبًا أنهم عندما رُفضوا (ولم يطردوا) من قبل الملوك القوط، أن يهبوا لتحية الغزوات من الأمازيغ **bereber** والعرب الذين جاءوا إلى إسبانيا، وأخذوا يعدون العدة لها قبلها بوقت طويل ويمكثون فى الأندلس كجزء من المجتمع الإسلامى الذى اعترف بهم على أنهم "أهل كتاب" أبناء إبراهيم. إلا أن الغزوات المتعاقبة التى تلت وفاة المنصور ابن أبى عامر، وهى الغزوات المرابطية والموحدية، أتت إلى إسبانيا الإسلامية بموجة من التشدد الصارم والموجه ضد كل ما هو غير إسلامى بما فى ذلك المستعربين واليهود، وبالتالى لم يكن أمام هؤلاء إلا الهروب نحو الشمال ونحو الأراضى المسيحية، حيث كانوا يهاجرون بسرعة من مدينة إلى أخرى ويعيشون فى الجيتو الخاص بهم وهو الحارة اليهودية، وأخذوا يتمتعون بالمساندة الملكية استنادًا إلى قدراتهم العقلية ومهاراتهم - فى التجارة والطب -، لكنهم كانوا دائمًا مُعرّضين للخطر من قِبَل العامة. ألم يكونوا هم قتلة المسيح؟ ألم يسلموا إسبانيا للمسلمين؟ ألم يكونوا الأكثر غنى مقارنة بالآخرين كما أنهم كانوا مُرابين لا يرحمون؟

من المعروف أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تمنع الربا، وقد كتب القديس توماس الأكوينى أن إقراض مال مقابل ربح ما هو إلا جريمة فى حق الروح القدس. فى ظل هذه الظروف كان من العسير أن يزدهر رأس المال، فعلى أية حال نجد أن الروح القدس يموت كل يوم عندما تفتح بورصة وول استريت أبوابها؛ إلا أن العداء للسامية

أمكن له أن يزدهر؛ وإلى جوار ذلك نجد مفاهيم ومعايير طهارة السلالة والتشدد الدينى، حيث ظهرت هذه العناصر وأخذت تحتل مكانة أساسية، بشكل ما، فى المخيلة الإسبانية، فأول شىء جرى اتخاذه هو منع اليهود من أن يكونوا فى نفس المنزل الذى فيه المسيحيون، وسرعان ما رأينا أن اليهود لا يمكنهم أن يحكموا قضائياً أو يتقدموا بالشهادة ضد مسيحى، وفى النهاية نجد أن البركان progrom ينفجر، وقد غذاه الحقد (الحقد الإسبانى: أى الحقد الأكثر عنفًا) والأوبئة التى أصابت الكثير من القطاعات الاجتماعية بالهوس الشديد، واستمر الأمر على يد الدُعاة المتطرفين الذين وإن لم يتوفر لديهم التليفزيون للطنطنة والدعاية لأفكارهم، فقد حوّلوا التعصب اللغوى إلى واحد من الفنون الجميلة، وتم إلصاق سبب الوباء الأسود إلى اليهود ومعه أى معركة يخسرها المسيحيون فى حربهم على المورو وساهم فيها اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية حديثًا فكانت الهزيمة تنسب لهم.

وفى عام ١٣٩١م جاء انفجار آخر بركان progrom بعد الأول، وعانت إسبانيا عاماً من الفقر والوباء شهد اغتيال أربعة آلاف يهودى فى إشبيلية؛ وفى قرطبة نجد ألفى رجل ونساء وأطفالاً موتى وفى أكوام فى المعابد اليهودية التى أشعلت فيها النيران. انتحر أيضًا مئات اليهود فى برشلونة فى رحلة الفرار من المطاردة وكنوع من عدم تحمل الألم الذى يعتصرهم وهم يشهدون أفراد أسرهم وقد أُعْمِلَت فيهم الأسلحة.

أما الذين تحولوا إلى المسيحية، فإلى أى ديانة يمكن أن يلجأ اليهودى إلا إلى المسيحية فى محاولة للنجاة من المطاردة؟ إلى أين يذهب اللهم إلا إلى الارتماء فى أحضان الكنيسة الكاثوليكية التى كانت دائمة على استعداد لاستقبال التائب؟ ومع هذا فإن عمليات التحول الجماعى إلى الديانة المسيحية هيأت الفرصة للدعاة المناهضين للسامية لاتهام "المسيحيين الجدد" بأنهم السبب فى كل هذه الآثام التى كانوا يكيلونها لليهود؛ وعندما اعتنق اليهود المسيحية سرعان ما اكتشفوا أنهم ما زالوا موضع شبهة وأنهم هراطقة ويمارسون أفعالاً ملعونة. وهؤلاء المسيحيون الجدد أخذوا يتزاوجون مع

المسيحيين القدامى، وبذلك تمكنوا من الدخول إلى الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية وأصبحوا وهم فى حصنها من ألد أعداء أبناء طائفتهم السابقة، وهذا ما يحدث عادةً بالنسبة للمتحولين.

غير أن الموروث الديمقراطى والثقافى فى إسبانيا بكل ما فيه من مزايا ونقائص وتناقضات، أخذ يتهاوى ليكون جزءًا من سياق موقف جديد على المستوى الدولى، كان على إسبانيا فيه أن تواجه تحدى تحولها إلى أمة حديثة وموحدة. كانت القضية ببساطة هى: هل يمكن أن تكون إسبانيا حديثة بمعزل عن موروثها من الثقافات الثلاث وبمعزل عن تجربتها الديمقراطية؟ هذه القضايا هى مقدمة للدور الذى ستقوم به إسبانيا فى العالم الجديد، وسوف يتم اتخاذ قرار نحو هاتين القضيتين استنادًا إلى الأحداث التى وقعت فى سنة حاسمة فى تاريخ إسبانيا وهى ١٤٩٢م.

الفصل الرابع

١٤٩٢م عام الحسم

عندما نتأمل العالم الغربى نجد أن أفول العصور الوسطى كان متبوعًا بالإحساس بالتجديد والتوسع والاكتشاف الأمر الذى دفع كل كيان سياسى أوربى لأن يعى ما حوله وأن يتصور الوضع الذى سوف يكون عليه فى ظل نظام عالمى جديد، محوره كلمة واحدة: النهضة.

فى إسبانيا نجد أن المفكرة الوطنية بدأت بالرغبة فى وضع حد لحرب الاسترداد من خلال هزيمة آخر مملكة عربية فى شبه جزيرة أيبيريا هى مملكة غرناطة، كما أن هذا النصر لا بد أن يؤكد وحدة الأراضى ويهيئ إمكانية إقامة دولة وطنية إسبانية، وهنا نجد أن إسبانيا لم تختلف عن باقى الكيانات الأوربية، لكن بينما لم تتمكن كل من إيطاليا وألمانيا من بلوغ وحدتها خلال عصر النهضة، بلغت كل من إسبانيا وإنجلترا وفرنسا الغاية المرجوة.

إذا ما نظرنا إلى الخريطة القانونية لإسبانيا خلال العصور الوسطى لوجدناها عبارة عن أرخبيل حقيقى من القوانين والعادات التى تبدأ من الاتفاقيات والمعاهدات الخاصة التى يفرضها السادة الإقطاعيون وانتهاءً بالعادات المشتركة للكثير من السكان والقائمة على أسس محلية، وحتى القرارات القضائية وقرارات الملوك. كما أن هذه الفسيفساء القانونية كان يجب أن تضم أيضًا اللوائح الخاصة باليهود والمستعربين والمدجنين وغيرهم، نظرًا لطبيعة وجود الثقافات الثلاث فى شبه الجزيرة؛

لكن من خلال هذا الإطار الغريب أخذت تظهر للوجود خلاصة من القوانين المحلية وقوانين الممالك، فالأولى ترتبط بالوشائج الإقطاعية الخاصة، أما الثانية فهى تتعارض معها، كما أن تحول هذا النوع من العلاقة إلى حقوق عامة أضاف إلى النظام الملكى قوة إضافية، فقد كانت الممالك هى بطلة الحلبة فى باب العودة إلى القانون الرومانى وإلى الولاء القانونى لحاكم واحد تقليدى ولمؤسسات عامة. مرة أخرى نجد الملك ألفونسو الحكيم هو الذى يعود وقد جمع قوانين إسبانيا فى (القوانين السبعة) Las siete partidas وأعطى بها دفعة قوية للموضوع منذ عصر القديس إيسيدورو وعصر الإصلاح القانونى الرومانى، إذن هناك عناصر أسهمت فى تهيئة المسرح وهى تلقى القانون الرومانى والفكر السياسى الأرسطى من خلال الملك ألفونسو والتفكيك التدريجى للكيانات الإقطاعية فى باب العدالة والضرائب والقوات المسلحة على أيدى ملوك قشتالة وأرغن ونابارا والسياسة التى تهدف لتجديد دم طبقة النبلاء وذلك بمزيد من المزايا لأتباعهم؛ وكان ذلك رغم العواصف والصراعات التى ارتبطت بالاستخلاف والمنافسات بين الأسر، نقول إن كل ذلك هيأ الطريق أمام إسبانيا الموحدة خلال القرن الخامس عشر.

نحو الوحدة:

عندما أصبح ثبات الحدود أمراً واقعًا فى إسبانيا خلال الفترة من ١٢٤٨م حتى ١٤٨٠م، استقرت الحدود القائمة بين الممالك الإسبانية بوضوح، كما أن صراع الممالك ضد الإقطاعيين كانت له دلالتان: الأولى هى أن سلطة الملك يجب أن تُفرض على كافة أراضى الدولة، أما الثانية هى أن السكان المقيمين على هذه الأرض يدينون بالولاء للملك، وبهذا نجد الملوك، كما سبق القول، يحاولون حماية الحريات الخاصة بالمدن والمواطنين؛ غير أن مصلحتهم الحقيقية تمثلت فى تغيير اللائحة الخاصة بكل فرد، أى من مجرد تابع لسيد إلى فرد مرتبط بالملك، بينما نجد أن المدن كانت معنية بتأصيل لائحة المواطنة. واستقرت دعائم الحكم الملكى فى مدينة هى العاصمة بدلاً من

الترحال فى مختلف الأراضى التى تم الاستيلاء عليها خلال حرب الاسترداد؛ وهنا نشأت بيروقراطية ملكية، أما ممثل الملك، أو المأمور القضائى له، فهو الرجل الذى كان يقوم بجباية الضرائب فى كل بلدة.

ومع كل هذا فإن هذه السلطات الكاملة التى خوّلها القانون الرومانى تعرضت لضربة شديدة بسبب حالة عدم الاستقرار السياسى والصراعات بين الممالك التى عمت إسبانيا وكأنها مثل ذلك الوباء الذى ظهر عام ١٣٤٨م خلال حكم الملك بدرو القاسى، الملك الذى ورث عرش قشتالة وهو فى الخامسة عشرة من العمر، وحارب خمسة عشر أخًا من الإخوة غير الشرعيين، وسيطرت عليه عشيقته ماريا باديا التى حفزته لارتكاب جريمة قتل الأخ، ووصل به الأمر، فى يوم من أيام الخريف، وهو فى إحدى الخيام خارج مونتيل، أن صارع أخاه إنريكى جسدا لجسد ومات عندما غرس إنريكى سيفه فى صدره.

أدى انتصار إنريكى إلى تولى أسرة تراستمارا عرش قشتالة، وكان لهذه الحادثة تأثير بالغ ومستمر فمن خلال هذه الروابط الأسرية نشهد الصراع الملكى النهائى والذى كان يعنى فى آن الصراع بين النبلاء والملكية لوضع قوانين الخلافة على العرش فى قشتالة.

سمح الملك خوان الثانى ملك قشتالة، الرجل الذى يبدو ظاهريًا أنه جيد لكنه ضعيف، بأن يكون على رأس الحكومة رجل متسلط لا وازع عنده، هو ألبارو دى لونا، الذى أمرت الملكة بإعدامه، وبذلك ضمنت الملكة أن يتولى ابنها عرش البلاد بعد ذلك ألا وهو إنريكى الرابع الرجل غير القادر جنسيًا، والرجل الذى كان يعتقد أن كانت له ابنة تولى تربيتها نبيل يسمى بلتران دى لاكويبا، كما أنها عرفت بلقب **Beltraneja** (أى البلترانية)، وجرى إعلانها وريثة للعرش، من قبل والدها الوهمى وهو الملك، وكان ذلك مدعاة للمواجهة مع النبلاء الذين اختاروا شقيقة الملك إيزابل دى قشتالة وفرضوها كملكة.

اتسمت إيزابل بالذكاء والحسم وعدم التسامح وبأحلامها بالوحدة والاتحاد، غير أنها كانت بعيدة تمامًا عن حلم التنوع الثقافى. تزوجت بالملك فرناندو ملك أرغن عام ١٤٨٠م وبذلك تم توحيد قشتالة وأرغن.

وبعد الانتصار على البلترانية **Beltraneja**، وزواجها من فرناندو، كانت إيزابل واثقة من شىء واحد وهو أن زواجها فتح الباب أمام إسبانيا لتوحيد ممالكها وبذلك نجد عناصر أخرى تحتل الأولوية الكبرى على الساحة السياسية رغم العقبات، وهى ظهور القوى التى كانت تؤيد النظام والشرعية والوحدة على حساب قوى الإقطاع فى الريف وعلى حساب السلطة المدنية فى المدينة. تعلم كل من إيزابل وفرناندو دروس الصراعات الطويلة لتوحيد البلاد، وسرعان ما كانت أفعالهما تؤكد ذلك وكان شعارهما "هذا مثل ذاك، إيزابل مثل فرناندو". أقاما بيروقراطية ذات قيمة وليست بيروقراطية المحاباة، وأعادا كل الهيبة للقانون الرومانى بدءًا من تحديد الفارق بين الملكية والسيادة ونطاق السلطة الوطنية والإدارة المركزية، والمناداة بأن يكون ولاء الأفراد للملكية وليس للسيد الإقطاعى أو المدينة، وليس لثقافة أخرى أو ديانة أخرى مثل اليهودية أو الإسلام.

غير أن الوحدة الإسبانية التى اكتملت رسميًا على يد فرناندو وإيزابل هى الآن فى حاجة إلى تأكيد خاص، إذ يجب طرد المسلمين من شبه جزيرة أيبيريا إلى الأبد؛ وبينما كانا يقومان بإعداد العُدة للهجوم على آخر الممالك العربية فى غرناطة كانا يجهلان تمامًا أنهما يبدآن عام الحسم فى تاريخ إسبانيا.

كان واضحًا حماس كل من فرناندو وإيزابل لغزو غرناطة، لكنهما لم يتمكنا فى حقيقة الأمر من تقدير الأذى الذى سبّباه لإسبانيا بطرد اليهود عام ١٤٩٢م أيضًا. وعندما أرسلا ببحّار غامض الطابع هو كريستوفر كولومبوس لاصطياد الوهم فى الأفق نجد أن أقصى غايات الملوك الإسبان فى مجال الصراع مع البرتغاليين هو الوصول إلى طريق إلى الهند أكثر سرعة وقصرًا، ولم يدر بخلدهما أنهما سوف يعثران على قارة جديدة، وهذا هو الحدث العظيم الثالث خلال عام ١٤٩٢م. هناك واقعة رابعة

لا تكاد كتب التاريخ تذكرها، وهي أن أنطونيو نبريخا نشر أول كتاب في قواعد اللغة الإسبانية التي أصبحت أداة فنية رائعة وقوة معنوية وبديلاً يدعو للوحدة بين السلالات وعاشت اللغة وهي تحمل الكثير من المزايا وكذلك أغلب التوجهات المجنونة للملوك الكاثوليك: إيزابل القشتالية وفرناندو ملك أرغن.

طرد اليهود:

ربما كان طرد اليهود أكبر خطأ ارتكبته المملكة الموحدة ومليكاها فرناندو وإيزابل، وجاء القرار لأسباب أيديولوجية ومادية، فمن الناحية الأولى نجد أن الملكين يريدان تعضيد الوحدة فوق قاعدة التشدد الديني ونقاء الدم. ومن جديد نرى أن الضحايا لهذه العملية هم اليهود، فقد قرر الملوك الكاثوليك التضحية بأكبر رأسمال ثقافي لدى إسبانيا، وهو التعددية الثقافية - الثقافات الثلاث - التي تتسم بالثراء الحضاري، فقد أعلنت اللوائح أن طهارة الدماء والتشدد الديني هما القاعدة في طرد اليهود، وبعد ذلك، لمزيد من المطاردة، جرت عمليات التفتيش والإجهاز على الأنفس التي تحولت إلى الديانة المسيحية إذا ما اقتضى الأمر، وهم أناس تحولوا إلى المسيحية وظلوا في إسبانيا لكنهم أصبحوا موضع شبهة لمجرد أنهم يهود مثيرون للخجل وهراطقة. وللوصول إلى هذه الغاية في المطاردة نجد أن محاكم التفتيش الضعيفة، خلال العصور الوسطى، في إسبانيا كانت تتبع البابا والأساقفة، ثم تحولت إلى محكمة قوية تحت الإشراف المباشر للملوك الكاثوليك. وفي مقابل هذه السلطة كان على الكنيسة أن تغير من تحالفاتها البراجماتية، أي انتقلت من روما إلى إسبانيا.

قدم لنا جابريل جاكسون في كتابه "إسبانيا العصور الوسطى" شرحًا لذلك وهو أن محاكم التفتيش الإسبانية أخذت تزداد قوة كلما امتدت مطارداتها ليس فقط ضد غير المؤمنين بل ضد الذين اعتنقوا الديانة المسيحية من اليهود، وبالفعل تمكنت من إيقاف ماكينة التحول وأجبرت من بقي من الطائفة اليهودية في إسبانيا على أن يكونوا أكثر تشددًا من رجال محاكم التفتيش أنفسهم وكانت الغاية أن يبرهنوا على ولائهم وصدق إيمانهم؛

ويلاحظ أن التناقض الضخم لهذا الموقف الذى لا مخرج له هو أن اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية أصبحوا فى كثير من الأحوال يطاردون أبناء جلدتهم من اليهود وأصبحوا من أشد المدافعين عن نظام الوحدة الدينية. كان أول رؤساء محاكم التفتيش فى كل من قشتالة وأرغن، توركيمادا، من عائلة من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية! ها هى الغيرة التى عليها من تحولوا.

لم تكن الاعتبارات التى كانت وراء سياسة إيزابل وفرناندو مجرد اعتبارات دينية فقط، فقد كانت الغاية أيضًا زيادة متحصلات المملكة بما تتم مصادرته من أموال تلك الفئة الأكثر قدرة على الإنتاج الصناعى فى إسبانيا. وهنا فإن الأمر المثير للسخرية هو أن المكاسب المباشرة التى حصّلها التاج الإسبانى الموحد لم تكن إلا فُتَاتًا بالمقارنة بما فقده على الفور وخلال المنظور المتوسط، ففى عام ١٤٩٢م كان عدد الإسبان سبعة ملايين ولم يكن من بينهم إلا نصف مليون من اليهود ومن الذين اعتنقوا المسيحية منهم، ومع هذا فهناك ثلث سكان الحضر ممن هم من أصول يهودية، والنتيجة هى أنه بعد عام من طرد اليهود هبطت متحصلات الضرائب فى إشبيلية ٥٠٪ وعرفت برشلونة حالة إفلاس البلدية.

هناك أمر مهم آخر فى عملية طرد اليهود (ثم الموريسكيين بعد ذلك) وهو أن إسبانيا حرمت نفسها من الإفادة من كثير من الأدمغة ومن الخدمات التى سوف تحتاجها بعد ذلك على عجل للحفاظ على كيانها الإمبراطورى؛ كان العرب واليهود أطباء وجراحين فى إسبانيا، ووصل الأمر فى هذا المقام أن الملك كارلوس الخامس، ١٥٣٠م، قدم التهنئة لطالب فى جامعة ألكالا لأنه أول فارس فى قشتالة يصبح طبيبًا. كان اليهود هم الوحيدين فى جباية الضرائب وأكبر المولين بدفع الضرائب المستحقة عليهم للمملكة، كانوا رجال بنوك وتجارًا ومُقرِضين وكانوا مقدمة الطبقة الرأسمالية الوحيدة فى إسبانيا؛ وكانوا طوال العصور الوسطى الوسطاء بين الممالك المسيحية والإسلامية وكانوا وزراء المالية (المُعَرّفون) لكثير من الملوك، فقد كانت الشئون المالية لديهم تتعرض لأزمات كبيرة بدون البيروقراطية اليهودية وهذا ما حدث عندما ترك اليهود إسبانيا.

قام اليهود بدور السفراء والموظفين والقائمين إداريًا على المقدرات الملكية، وتولوا مسئوليات لم يكن النبلاء الإسبان راضين عن القيام بها على أساس أنها لا تليق بهم وبوضعيتهم؛ ومعنى هذا أنه بعد عام ١٤٩٢م كان على اليهود الذين اعتنقوا المسيحية أن يتخفوا أو أن يتخلوا عن مهنهم القديمة فهذه تثير الشبهات حولهم وحول صدق عقيدتهم.

فمن كان قادرًا على أن يحل محلهم؟

"كل شيء ممكن" :

خلال القرن الخامس عشر ظهرت مجموعة من الأفكار الجديدة التي تركت بصماتها على الواقع المعيش كما أن هذا الواقع أحدث تأثيره على المناخ الفكري، ومن هذه الأفكار "اكتشاف أمريكا". وأيًا كان موقفنا الأيديولوجي من القضية فإن هذا الاكتشاف كان انتصارًا عظيمًا للنظرية العلمية على النظر الحسّي، فزاد التقدم في مجال الإبحار وزاد حجم التجارة والاتصال بين الشعوب، كما أسفر اختراع الطباعة عن إثارة الفضول الثقافي وزاد التعطش للمعرفة في مختلف أنحاء العالم؛ وتساءل رجال العلم فيما إذا كان الكوكب الذي نعيش عليه هو مركز الكون أم لا، وأخذوا يسألون أنفسهم حول شكل الأرض، بينما أخذ الفنانون يتأملون حول مغزى الوجود الإنساني على الأرض بما في ذلك شكل الجسد الإنساني سواء كان ذكرًا أو أنثى وأخذوا يحتفون بما هو واقع هنا والآن أكثر من احتفائهم بالحياة الأبدية. "كل شيء ممكن" هذه هي العبارة التي كتبها الإيطالي مارسيليو فيسينو، العالم في الدراسات الإنسانية.

"لا يمكن أن نقلل من شأن أي شيء، ولا شيء مستحيل، ولا شيء لا يتصور، فالإمكانيات التي نرفضها هي فقط تلك الإمكانيات التي نجهلها".

كانت إسبانيا مهيأة للغاية، مثلها مثل أى ثقافة أوربية، لتلتحق بركب عصر النهضة، فقد أسفرت تجربة الثقافات الثلاث عن ظهور كتابين عظيمين أسهما فى إثراء روح عصر النهضة فى إسبانيا، أحدهما هو "كتاب الحب المحمود" الذى نشر عام ١٣٢٥م وكان مؤلفه رجل دين شابا ورحّالة يُدعى خوان رويث، قُمّص إيتا، يعتبر كتابه تغنيًا بمُتع الجسد، واحتفاءً بالجسد الأنثوى ورفضا لمفاهيم الإثم. كان الكتاب متأثرًا للغاية بالشعر العربى، ويعتبر خوان رويث مثل Chaucer(*) بالنسبة لنا، كما أن رسالته التصالحية تقول بأن الإيمان والمتعة لا يجب أن يتناقضا.

ثم يأتى بعد ذلك كتاب أكثر أهمية وهو مسرحية "القوادة"، التى كتبها فرناندو روخاس بعد طرد اليهود، وهذا المؤلف من أسرة يهودية تحولت إلى المسيحية، كتب هذا العمل العملاق وهو طالب فى جامعة سلمنقة، ومضمون هذه المسرحية هو قصة امرأة قوادة ولها ربيبان هما اثنان من الشباب العشاق وخدمهما. هو عمل أدبى رحّال، مسرح أحداثه شوارع مدينة حديثة ليست لها حماية، أى بدون أسوار أو جسور متحركة أو خنادق دفاعية، إنها مدينة حديثة غير محمية رأى فيها فرناندو دى روخاس مصفاة الواقع التاريخى، حيث نجد أن الفضائل والآثام خلال العصور الوسطى تتعرض لضربات المصالح والمال والرغبة والجنس، فكافة شخصيات المسرحية تنفق الكثير من طاقاتها فى الذهاب والإياب وفى مهام وسفارات مرتبطة بهذه الرغبات، إلا أن مآل كل هذه الطاقة هو اللاحَراك العبثى، أى الموت.

هذا العمل هو ثمرة من ثمار جامعة سلمنقة، أكبر مركز للتعليم فى إسبانيا، واستطاعت الجامعة أن تجعل لنفسها صورة بديلة لهذا التشدد واللاتسامح الذى كان عليه التاج، وفى عام ١٤٩٩م وبعد الكثير من التردد قرر فرناندو دى روخاس نشر كتابه، وكان على وعى شديد بالمصير المؤلم الذى لاقاه إخوانه من اليهود. لكن هذا العالم هو التغير كما ورد فى هذا العمل، لا شىء إلا التغيير، ومع الصدفة نجد التغير

(*) شاعر إنجليزى (١٣٤٠-١٤٠٠م).

يدفع بالجميع إلى نهاية مريرة ومهلكة. هذا هو الكتاب الذى علم الشعب الإسبانى أن يعيش دون أن يرتبط بمثاليات، كما يقول راميرو دى مايثتو R. de Maeztu(*)؛ فكل من قُمّص إيتا وفرناندو دى روخاس من المتخصصين فى الدراسات الإنسانية، وهما يجرؤان على الحلم وعلى التنبيه، والعناية بالفعل الإنسانى، لكنهما يشيران فى آن إلى مخاطر ذلك. كما كان توسع أوربا نحو المشرق فى البداية ثم بعد ذلك مباشرةً نحو الغرب نوعًا من العمل الملحمى للخيال النهضوى، وكان أيضًا انتصارًا للنظرية على التلقى وانتصارًا للخيال على الموروث.

تحول بحرنا - البحر الأبيض المتوسط - إلى بحيرة إسلامية وضعت، وبقوة، حدًا للتوسع الأوربى، وبالتالى فإن العثور على مخرج من البحر الأبيض المتوسط، والعثور على طريق يؤدى إلى الشرق أصبح مثار هوس أوربى وتجلى ذلك فى بداية الأمر فى جمهورية فينيسيا، عندما تمكن ماركو بولو من فتح طريق تجارى برى نحو الصين، غير أن ظهور قوة إسلامية جديدة، الإمبراطورية العثمانية، أعادها إلى الدخول من جديد إلى حوض البحر المتوسط فاستولت على اليونان والبلقان وأجبرت أوربا وطبقة التجار بها على البحث عن مخارج جديدة.

فى حصن ساجرس ، على شاطئ الأطلنطى فى البرتغال، دعا الأمير إنريكى (١٣٩٤-١٤٦٠م) ابن الملك خوان الأول إلى اجتماع ضم كافة العلماء فى عالم البحار على زمانه، واستكمل رسم الخرائط وطوّر الأدوات الملاحية وكذلك السفن الجديدة، ودرّب على طرق جديدة يسهل إجراء المناورات بها وكذلك أطقم الإبحار القادرة على استخدام السفن، وعرف إنريكى البحّار Navegante الذى كان ذا مهارة عالية، كيفية تجنب الأتراك بأن سار بمحاذاة الشواطئ الإفريقية متجهًا نحو الجنوب، وسرعان ما وصل إلى الشرق.

(*) أديب إسبانى ينسب لجيل عام ١٨٩٨م.

تمكنت البرتغال بفضل مساعدة رجال البنوك الفلامنك من القفز من جزيرة ماديرا إلى الآزر ثم السنغال، وفى نهاية المطاف استطاعت، من خلال بارتولوميه دياس من الوصول إلى أقصى طرف القارة الإفريقية، أى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٨م، واستطاع البرتغاليون من هناك أن يتقدموا بسرعة نحو الهند (فاسكو دى جاما ١٤٩٨م)، وفى الطريق جرت زراعة قصب السكر وجرى جلب العبيد، وفى عام ١٤٤٤م كان قد أقيم فى لاجوس شركة تتولى تجارة العبيد تحت إشراف الأمير إنريكى.

كانت البرتغال تلقى بنظراتها نحو الجنوب ونحو الشرق، لكن لم تجرؤ على النظر نحو الغرب نحو بحر الظلمات **Mare Ignotum** محيط الغموض، ولم تفعل هذا حتى رغم ما قام به بحّار عنيد يفترض أنه من جنوة حيث اتجه نحو الغرب فألقى به البحر إلى الشاطئ بالقرب من حصن "إنريكى البحار"، وكانت الذريعة أن أفضل طريق للوصول إلى الشرق هو الإبحار نحو الغرب. كان الرجل من الناحية الشخصية أقل تأثيراً بالمقارنة بأفعاله أو أفكاره، فهو مُصاب ببعض الهُزال وأحياناً ما لا يسيطر على نفسه ويشتبه فى أنه **mitomano** (أى ذا خيال جامح)؛ هناك أمر مهم لديه هو أنه كان شديد الجرأة وشديد الحزم، كان اسمه كريستوفر كولومبوس **Cristoforo Colombo**.

لم تعر البرتغال اهتماماً بكريستوفر كولومبوس، وعندئذٍ توجه البحّار إلى إسبانيا، ذلك البلد المنعزل والمنكفئ على نفسه والذى يخوض حرباً طويلة الأمد هى حرب الاسترداد. وفعل الرجل ما فعله فى لحظة مواتية، وهناك قدم مشروعه للملوك الكاثوليك. ولما كان هذان الملكان يعيشان فورة النصر على المورو فى غرناطة أعطيا لكريستوفر كولومبوس ما يريد من وسائل للقيام بثالث هذه الأحداث الكبرى فى عام الحسم أو العام الحاسم فى تاريخ إسبانيا: ١٤٩٢م أى اكتشاف أمريكا.

جرى تكوين أسطول من ثلاثة مراكب شراعية هى بنتا **Pinta** والطفلة **Nina** وسانتا ماريا **Sta. Maria** وخرج الأسطول من ميناء بالوس فى الثالث من شهر أغسطس لعام ١٤٩٢م، وواصل اتجاهه نحو الغرب دائماً، وبعد ستة وستين يوماً من الآمال الزائفة والنجوم التى انتقلت من مكانها والجزر الأشباح من السحاب والشكوى

الصادرة عن البحّارة والاعتصامات المفتوحة، وصل كولومبوس إلى اليابسة فى الثانى عشر من أكتوبر من العام نفسه وكانت جزيرة صغيرة هى جواناهانى Guanahani فى جزر البهاما، وأطلق عليها اسم "سان سلبادور". اعتقد كولومبوس أنه وصل إلى آسيا، كانت الجرأة هى محرّكه الأول ومعها حب الشهرة الذى كان أحد قيم عصر النهضة، وكذا الرغبة فى الحصول على الذهب وواجب نشر الديانة المسيحية. وبفضل هذا الرجل أمكن لأوربا أن تطل على نفسها فى مرآة العصر الوسيط والبدائى الطيب. فالرجال والنساء فى هذه الجزيرة، طبقًا لوصف كولومبوس كانوا مسالمين وفيهم براءة.

> "وقدمت للبعض منهم بعض الأقمشة الملونة وبعض القطع الزجاجية التى كانت توضع حول الرقبة، إضافةً إلى أشياء أخرى الكثير منها غير ذى قيمة، الأمر الذى أدخل على أنفسهم السرور وأصبحوا طوع أيدينا وهذا شىء عظيم".

كيف يمكن لنا أن نفهم مسمى "اكتشاف أمريكا"؟ أليست كافة الاكتشافات فى حقيقة الأمر متبادلة؟ اكتشف الأوربيون القارة الأمريكية؛ غير أن الشعوب الأصلية فى الأمريكتين اكتشفت هى أيضًا الأوربيين، وأخذت تتساءل حول ما إذا كان هؤلاء الرجال البيض وطويلو اللحى آلهة أم من الفانين، وإذا ما كانوا رحماء كما تعلن عن ذلك الصلبان التى يحملونها، أو أنه قد نزعت من قلوبهم الرحمة مثلما نرى ذلك فى سيوفهم. كان غزو العالم الجديد بالنسبة لهؤلاء الأفراد الذين خرجوا من قرى وبلدات إسبانيا العصور الوسطى، سواء كانوا جنودًا أو قساوسة أو محامين أو مؤرخين أو بحارة أو حرفيين، عبارة عن مناسبة تصل إلى سويداء قلوبهم ووجودهم، كانوا يتمتعون بأكبر قدر من الطاقة التى كان مصدرها استرداد إسبانيا، أى سبعمائة عام من الصراع مع العدو، وكانوا حَمَلَة إيمان فاعل وحى وكذلك سياسة لها السمات نفسها؛ وبعد عام ١٤٩٢م رحل اليهود إلى شمال أوربا وأصبحت عقولهم وقدراتهم فى خدمة الأعداء من البروتستانت. كما عاد العرب إلى إفريقيا وهم آسفون على نفيهم من حدائق الحمراء،

وهنا نذكر الكلمات التى قالتها والدة آخر ملوك غرناطة لابنها أبى عبد الله "ابك كالنساء على ملك لم تحفظه كالرجال".

أما الآن فأى اتجاه سوف يأخذه مسار الطاقة المتدفقة فى إسبانيا المسيحية؟ إنها الحركة والدينامية الضخمة للجيش والكنيسة والملك والحياة الحضرية؛ ثم البرجوازيين والجماهير الغفيرة التى حجّت إلى شنت ياقب وحاربوا فى معركة العقاب، وشيدوا مدينة أبيلا وتاجروا فى مدينة برغش ودافعوا عن الحقوق المدنية لطليطلة واختاروا البلاط (البرلمان) ووحدوا الممالك، أين يتجه الآن هذا التيار المتدفق؟ جاءت الإجابة عن السؤال من القرى والبلدات فى قشتالة وإكستريمادورا وإقليم الأندلس، وكان هؤلاء هم هشيم غزاة العالم الجديد مثل إيرنان كورتيس وفرانثيسكو بيثارو وبدرو دى بالدبيا. إنهم رجال أتوا من لدن الجلدة الصلبة والمطحونة فى إسبانيا وهم الذين أتوا إلينا بالكنيسة فى أمريكا، وكذا الجيش، والروح الحربية ومعضلة مثيرة للكدر، ضمن التقاليد الديمقراطية غذتها المدن خلال العصور الوسطى، وهى الاستخدام المُبالغ فيه للسلطة، وهذا ما سوف يتأكد على يد الملكية الموحدة. لقد جلب هؤلاء إلى العالم الجديد كل الأزمات ذات الطبيعة الإسبانية، وصورتها بظلالها وضيائها، التى تعصف بالنفس كما يتم العصف بها فى حلبات مصارعة الثيران. هل هو التسامح أو اللاتسامح؟ هل الأمر احترام لوجهة نظر الآخر وحق النقد والشكوى أو هو محاكم التفتيش؟ هل هو الخليط السلالى أم النقاء العرقى؟ هل هى السلطة المركزية أو المحلية؟ هل هى السلطة من أعلى أو السلطة من أسفل؟ ربما كانت القضية التى هى جماع كل هذا تتمثل فى: هل هو التراث أو التغيير؟

أحدثت هذه البدائل انقسامًا بين شعوب العالم الإسبانى فى أوربا وأمريكا، وظل ذلك طوال قرون. وهنا نقول بأنه قد أريقت الكثير من الدماء فى سبيل مناصرة هذه الأفكار أو معارضتها؛ ولم نتوصل، إلا فى زماننا، إلى تفاهم وتصالح حول ضرورة استمرارية التراث فى إطار التغيير، والقيام بالتغيير دون عنف مع التراث.

خلال عام ١٤٩٢م كانت هناك رؤية تدفع كلاً من إيزابل وفرناندو، هى وحدة العالم المسيحى، وكذا حرب الاسترداد والتوسع. ولا شك أن القادة والجنود فى قشتالة وأرغن، على الشاطئ الآخر من البحر كانوا على اتفاق مع هذه الرؤية. لكن لا يجب أن ننسى أنهم أيضًا كانوا ورثة تجربة متعددة الثقافة وتعايش واختلاط دماء وكان ذلك فى توتر مع اليهود والمورو. أما كافة الاستثناءات التى يمكن أن نسوقها كمقابلة مع فضيلة التسامح فإنها تقلل من شأن التوجهات نحو التعايش والاحترام مع الآخر وإنها هى التى كانت وراء واقع التعايش بين الثقافات الثلاث، وهذا ما يتناقض بوضوح مع السياسة الرسمية المتمثلة فى طرد اليهود والمورو والتى مارسها كل من فرناندو وإيزابل، وتوجهات ذلك النظام الفظ وهو الرقابة التى استلهمت عملية مناهضة الإصلاح وهيأت محاكم التفتيش بنيتها.

كان غُزاة العالم الجديد جزءًا من هذا الواقع، لكنهم لم يستطيعوا تفادى معضلة إسبانيا؛ إذ نجد أن الكهنة والكُتّاب والمؤرخين يجبرون إسبانيا على أن تواجه البديل الإنسانى الخاص بها والمتعدد الثقافات. كان التفرّد الثقافى لإسبانيا هو الاعتراف بالآخر: بالحرب معه وعناقه والاختلاط به. كتب جان بول سارتر ذات مرة بأن الجحيم هو الآخر، لكن هل هناك فردوس آخر أفضل من ذلك الذى يمكننا أن نشيده مع إخواننا وأخواتنا؟ ومع هذا فإن التاريخ يلح علينا بالسؤال: كيف يمكن أن نعيش مع الآخر؟ هل سنكون قادرين على فهم أننى هو ما أنا عليه لأن كائنًا إنسانيًا آخر ينظر إلىّ ويتأملنى؟ هذا السؤال المعاصر الذى يطرح نفسه كلما التقى كل من الأبيض والأسود، والشرق والغرب، والسابق واللاحق، أو المقيم والوافد، فى زماننا هذا، هو الذى كان واقعًا أساسيًا فى إسبانيا العصور الوسطى، ثم سرعان ما تحول إلى قضية محورية للغزو والاستعمار فى أمريكا. إنها أسئلة مطروحة سلفًا، وبهذا الشكل التقابلى، كنتيجة للتجربة التاريخية الإسبانية ابتداء من غزو روما لشبه جزيرة أيبيريا وحتى طرد اليهود عام ١٤٩٢م. أما الآن فيجب أن تتحول إلى القضية المحورية فى الأمريكتين،

أى فى اللحظة التى دخلت فيها إسبانيا مع ذلك الآخر المغاير تماماً وهو شعوب من سلالة أخرى وديانة مختلفة وثقافة أخرى. من كان هؤلاء البشر؟ ما هى ماهيتهم الروحية؟ وهل لهم أرواح؟

كانت قضايا يمكن أن تحدث الانقسام بين الإسبان، وإذا ما كان هناك جزء من القلب أطاع وقال: عليك بالغزو، فإن الجزء الآخر أخذ يتذكر الفيلسوف سينكا الرواقى يقول: "عليك أن تقاوم أى غزو لك اللهم إلا إذا كانت روحك".

فتحت ملحمة كريستوفر كولومبوس الستار عن مشهد ضخم هو صدام الثقافات، إنها ملحمة كبيرة، وأحياناً ما نراها شفوقة، وأخرى دموية، لكنها دائماً متأزمة: أى الهدم والبناء المتزامنين لثقافة العالم الجديد.

الفصل الخامس

حياة عالم الشعوب الأصلية وموته

كانت أمريكا قارة خاوية ذات مرة، فكل الشعوب التى وطئت أقدامها شواطئنا أو عبرت حدودنا سواء بالفعل أو الخيال، قد جاءت من مكان آخر، ولنتخيل الأمر على أنه منذ ١٣٠٠٠٠ عام كانت هناك كتل ضخمة من الجليد انتقلت إلى المناطق المتجمدة الشمالية كنتيجة لهبوط منسوب المياه فى بحر Bering: أى إن هناك طريقًا ضخمًا قد فتح بين آسيا وأمريكا.

وعلى هذا الجسر عبر بعض الرُّحَّل على الأقدام فى أعداد صغيرة وبدءوا دخول نصف الكرة الغربى من حوالى ٦٥٠٠٠ عام (ربما كان ذلك فقط منذ ٣٠٠٠٠ عام). فهناك قاطعو الأحجار والصيادون وساكنو الكهوف، حيث قاموا باصطياد حيوان الماموث (نوع من الفيلة) قبل انقراضه، وتنقلوا فى وديان شاسعة وجبال وصحراوات وغابات، وعثروا على الأرانب والأيائل والخنزير البرى والبط غير الداجن.

غير أنه بين عام ٧٥٠٠ و ٢٥٠٠ ق.م. أدى اكتشاف الزراعة إلى تحول كل هؤلاء إلى مزارعين مقيمين فى قرى، كان كيتزالكواتل Quetzalcoatel هو أول من اكتشف حبة ذرة، طبقًا للميثولوجيا الأمريكية، وهذا المكتشف عبارة عن ثعبان مجنح وهو خالق البشرية، اكتشف ذلك الإله الذرة بمساعدة نملة، وكان نجاحه هو الضد لفشل كافة الآلهة، ومن هنا كان تكريمه وتقديسه لدى مجتمعات أمريكا mesoamericanos: أى إنه خالق الإنسان والزراعة والمجتمع القروى.

إذن نجـد أنه لم يكن هنـاك شيء فى البداية، وهـذا ما تعلنه كافة الأغانى التى نجدها فى القارة الخاوية: "عندما حل الظلام اجتمع الآلهة، وخلقوا البشرية": "ليكن هناك نور"، هذا ما ينـادى به كتاب حضـارة المـايا المسمى **Popal Vuh**، و"ليولد الفجر فى السماء والأرض. لن يكون هناك مجد حتى يوجد الكائن البشرى".

ولدت البشرية من رحم التضحية، فعندما اجتمع الآلهة فى أول ساعات الصباح الأول للخلق، أخذوا يشكلون حلقة حول نار كبيرة، وقرروا أن يضحى أحدهم بنفسه ويلقى بنفسه فى الأتون؛ هناك إله وسيم ومتغطرس تغطيه الحلى والجواهر عبّر عن تردده وخوفه؛ وعندئذٍ تقدم إله عريان وقزم تكسو البثور جسده وألقى بنفسه فى أتون النار وسرعان ما بُعث فى صورة الشمس، أما الإله الوسيم فعندما رأى الموقف، ألقى هو الآخر بنفسه فى النار لكن جائزته هو أن تحولّ إلى قمر، وبذلك خُلق الكون.

وإذا ما كان الآلهة قد ضحوا بأنفسهم حتى يوجد الكون والإنسانية، إذن من باب أولى أن تكون الإنسانية مجبرة أن تلقى بنفسها فى هذا الأتون الذى هو الحياة والموت إذا ما كان ذلك ضرورياً. كانت الحاجة إلى التضحية أمراً لا شك فيه فى مجتمع السكان الأصليين، ليس قابلاً للنقاش أو الحياد عنه بشكل أو بآخر؛ وبالنسبة للأمريكان القدامى كانت قوى الكون مصدر خطر دائم، لكنها فى الوقت نفسه كانت مصدر البقاء الذى تهدده، وقد جرى التوصل إلى حل لهذا الإلغاز من خلال التضحية، وهى عمل مؤكد بالنسبة للشعوب الأصلية مثلما هو الحال عندنا بالنسبة لمعادلة $E=MC^2$. فاستمرارية الحياة إذن كانت ترتبط بالتضحية، وكذلك يرتبط بها نظام الكون، وكان ينظر للرجال والنساء على أنهم أشياء ضئيلة فى حقيقة الأمر فى إطار هذا المسرح الضخم الذى هو الكون، وكان الكون نفسه مادة هشة ترتبط بالحياة والموت، وبالخلق والدمار أو الفناء وبالموت والبعث.

وعلى إيقاع تطور القرية وتحولها إلى مركز لإقامة الشعائر ثم إلى مدينة ثم إلى إمبراطورية ثم إلى العالم القديم المسمى **Mesoamerica** وهو ذلك الإقليم الذى يمتد من وسط المكسيك حتى نيكاراجوا نجد أنه - أى هذا العالم - مارس ذهنياً مجموعة

من المعتقدات توجد فى مركزها فكرة أن العالم قد خلق عدة مرات وليس مرة واحدة. وهذا المعتقد الذى طوّره الأثتيك من خلال الأسطورة المسماة "الشموس الخمسة" نراه وقد تم سرده فى التقويم الشمسى، حيث نجد أن مركز القرص تحتله الشمس التى تخرج لنا لسانها وهذا يعنى أنها تشع بضوئها، ويحيط بالقرص الجهات الأربعة التى تشير إلى الإبداعات السابقة بالنسبة للعالم والكوارث التى وقعت لها؛ فقد تعرضت الشمس الأولى للدمار وقام بذلك أحد النمور، أما الرياح العاتية فقد دمرت الشمس الثانية، وتولى المطر الغزير الذى لا يتوقف تدمير الثالثة. ثم نأتى إلى الرابعة التى دمرها الطوفان. ونحن اليوم نعيش الشمس الخامسة التى ولدت من رحم تضحية الآلهة وهى شمس ترتبط استمراريتها بتضحية مخلوقات الآلهة وهم الرجال والنساء.

إذن التضحية هى الوحيدة للإبقاء على هذا العالم، وهو الشمس، وبالتالى الإبقاء على الحياة، وترتبط استمرارية الأشياء، والقرية والأسرة والعمل والزراعة والذرة بالتضحية. هذا الصنف من المفاهيم المرتبطة بالواقع أخذ يصب فى الخوف من تكرار كارثة قريبة تذكرها كافة الشعوب الأصلية فى أى لحظة؛ واسم هذه الكارثة هو موت الشمس الخامسة. إذن نجد أن الطبيعة تستحق الكثير من الحب والخوف فى آن، ويجب أن تُعطى السلطة لمن كانوا يعرفون ويتذكرون ويتوقعون مصير زماننا، وأن يقوموا بالحكم ومباعدة قوى الدمار للطبيعة.

هذا التأويل الذى يشرح هذا الواقع كان اسمه الأسطورة، فالقوى الطبيعية وقوى ما فوق الطبيعة الشديدة القرب من بشرة وجلد كل المخلوقات الإلهية أطلق عليها الآلهة، وسبب كافة الأسباب. وتحول الزمن والموت بهذا الشكل إلى المسألة المحورية للسكان الأصليين، وأصبح الآلهة القضية والسبب الرئيسى الذى يكمن وراء الخير والشر، ومن اختارتهم الآلهة كانوا أولئك القادرين على الإنصات إليهم والتنبؤ وإدارة الموت سواء كان ذلك فى الحرب أم السلام. وبهذا فإن الملوك والكهنة والمحاربين استطاعوا أن يسيطروا على المساحات الخاوية للأمريكتين، وأمروا بإقامة مراكز لإقامة الشعائر للتعبد لهذه الحقائق التى لا تتغير.

أصبحت هذه المعتقدات ظلالاً عملاقة تعكسها نيران الخلق، وأصبحت رفيقة كافة الحضارات فى الأمريكتين، ابتداء من عصر الصيادين الأول (٦٠٠٠ ق.م.) وحتى بداية عصر الزراعة، أى بداية الحياة فى القرى حوالى عام ١٥٠٠ ق.م.، وحتى ظهور الثقافة الأم وهى ثقافة الأولميك فى حوض نهر بابالوابان **Papaloaban** (نهر الفراشات **Mariposas**) عند شواطئ خليج المكسيك، عام ٩٠٠ ق.م. واستطاعت ثقافة القرية أن تنتقل بسرعة من شاطئ البحر إلى الجبال وإلى الشعب الثابوتيكى **Zapoteca** فى أواكساكا **Oaxaca** وإلى وديان المكسيك وإلى البشائر الأولى لحضارة المايا، خلال الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الأول الميلادى.

استمرت عمليات الهجرة والنزوح، وجلبت معها دائمًا الخوف من الكارثة الكونية، وظلت هناك الحاجة لمواجهة هذا الخوف، سواء من حيث الخلق أو التضحية، طوال القرون الستة التى عاشتها الثقافات الكلاسيكية فى تيوتهواكان **Teotihuacan** وسط المكسيك وجبل ألبان **Monte Alban** فى أواكساكا **Oaxaca**، كما كانت هناك التهيئة للفترة العظيمة التى عاشتها حضارة المايا، حيث لم تكد تصل إلى أوجها حتى تهاوت بسرعة، خلال الفترة من القرن السادس (٦٠٠) حتى القرن التاسع (٩٠٠م). ثم يعقب ذلك النفس الأخير لحضارة المايا فى شيش إيتشا **Chichen**، والحياة والموت عند الطولتيك **Toltecas**، وسط المكسيك، ثم صعود الأثتيك ابتداءً من ١٣٢٥م وسقوطهم عام ١٥٢١م على يد الإسبان، وبذلك نشهد آخر مرحلة من مراحل الحضارات الأمريكية، لكن لم تكن تلك المرحلة تعنى اختفاء المرحلة الثقافية.

هذه الموضوعات الكبرى والحقائق الناصعة التى غذت وشيدت عالم الشعوب الأصلية إنما هى أمور بدهية فى آثارها العظيمة التى يمكن مقارنتها بحضارة ما وراء النهرين **Mesopotamia** والحضارة المصرية القديمة. نجد أن العمارة الخاصة بالشعوب الأصلية هى قبل كل شىء، وكما نشهدها فى أماكنها، إجابة عن قضية الطبيعة، وهى أنها مشهد إنسانى يضم معابد ضخمة مكرّسة للآلهة. أما فى أوربا فإن التوجه الرومانسى قد أضفى على هذه المسألة شكلها الأكثر حداثة، وهنا نجد أن جوته قال

عن الطبيعة: "إننا نعيش داخلها لكننا بعيدون عنها"؛ كما أن هولدرين كان أكثر درامية حيث تخيل الكدر الذى كان عليه الإنسان الأول الواعى بأنه جزء من الطبيعة وولد منها لكن فى الوقت نفسه منفصل عن الطبيعة ومختلف عنها، ومُجبر على الابتعاد عنها فى محاولة للبقاء وتحديد هويته. وقد سبق الخوف الذى صوره فرويد من البقاء أسيراً فى الداخل، أو البقاء خارجاً بلا حماية، أن المعابد الكبرى فى العالم القديم فى أمريكا قد أشارت إلى هذا القلق من التهام الطبيعة للإنسان، وهى طبيعة مهددة، أو البقاء فى العراء بعيداً عن عناقها.

تعتبر بالنكى Palenque المثل الأعلى الذى يجسد هذه الإجابة الغامضة على الطبيعة، فهى موجودة فى أعمق أعماق عناق الغابة فى منطقة تشيابس Chiapas، وكل مبنى يبدو وكأنه منحوت من الطبيعة الأولية، وقد وصلت بالنكى قمة ازدهارها خلال القرن السابع لكنها هُجِرَت خلال القرن الحادى عشر مرة أخرى وأصبحت رهن مزاجية الطبيعة. أما اليوم فإننا عندما نتأمل مجموعة المبانى الرائعة فى بالنكى، وهى القصر ومنزل النمر ومعابد الشمس (معبد الصليب ومعبد النقوش الكتابية) تتبدى أمام أعيننا وكأنها أصبحت أسيرة للأبد لما تريده الغابة ولما يريده البشر. مقابل ذلك ما نجده فى أطلال "جبل ألبان" فى القلعة الكبرى التى تسيطر على وادى أواكساكا، حيث هناك فصل بين الطبيعة بشكل مثير وقد يكون تجريدياً. تبدو قلعة "مونتى ألبان" وكأنها معلقة بين السماء والأرض، وهى أقرب للسحاب منها إلى الأرض، وعندئذٍ ننظر مرة ثانية إلى ذلك الازدهار الذى كانت عليه مونتى ألبان وندرك عندئذٍ أنها ليست إلا أنها أمر نراه رأى العين وهو التوازى بين البناء الذى أقامه الإنسان وبين المشهد الطبيعى، فالعمار هو بالفعل صورة طبق الأصل للجبال المحيطة.

تساعدنا هذه النظرية الثانية على أن نجد إجابة عن القضية المُلحّة والتى تنشأ على ضوء هذا الارتفاع الشفاف؛ ما هى وظيفة فراغ معمارى مثل هذا؟ هل هو عبارة عن مركز لإقامة الشعائر، أو حصن، أو معبد أو نُصُب لمن سقطوا فى الحروب الأهلية التى ألهبت ظهر وادى أواكساكا، أم أنه عبارة عن أثر مكرّس للملاحم الكبرى من

ملاحم النزوح والحرب التى نجدها فى جذور الحياة وحركة القارة الخاوية؟ على أية حال فإن القضايا الملحة على عقلية السكان الأصليين جرى التعبير عنها بشكل ضمنى فى "جبل ألبان"، فكم من الزمن سوف يستمر ذلك الذى صنعناه؟ وهل يمكن أن نشيد شيئًا يحمينا من الدمار؟

قادت الحاجة إلى إجابة للردّ على الطبيعة إلى قلق شديد إزاء ما هو مؤقت، غير أن هذا القلق سرعان ما انتقل بفعل سلطان البشر القادرين على التأكيد بأن الزمن يمكن أن يستمر وأن الفوضى الطبيعية لن تحل مرة أخرى.

منذ زمن قليل جرى اكتشاف أسوار بونامباك Bonampak، عام ١٩٤٩م فى غابات جنوب المكسيك، حيث نشهد رؤية متعددة الألوان لعالم ذى سلطة طقسية ritual؛ يسيطر على المشهد صورة أمير طفل يجرى تقديم السلطة له فى المستقبل، وهنا نجد أن أسوار "بونامباك" تقدم لنا مشهداً للسلطة فى العالم القديم فى أمريكا؛ نرى المشاهد وكأننا أمام شريط سينمائى فهناك المشاهد الاحتفالية للكهنة والثعابين والحكام والمحكومين، الأمر الذى يساعدنا على أن نرى بوضوح تنظيم العمل الإنسانى الذى تحدده سلالة ولدت من أَظْهُر الأمراء والكهنة؛ وكلما تحولت المجتمعات الزراعية إلى مدن ودول، وتوسعت المدن على مساحات شاسعة من الأرض جرت السيطرة عليها بفعل الحرب والغزو والمطالبة بالضرائب والحصاد والنساء ازدادت الحضارة تنظيمًا بغية الحفاظ على البيروقراطية والسلطة الكهنوتية والجيش. تفضى أسوار بونامباك إلى رؤية قاسية لا ترحم للحرب: المعركة ثم الموت والاستعباد، كما أنها تنقلنا أيضًا إلى الوراء، أى إلى صورة الملك القادم، الطفل الأمير، الذى جرى إضفاء هالة القدسية عليه فى السور الأول، هذا الطفل سوف يحكم العالم وسوف يكون حكمه بالطريقة المحددة وللغايات المعلنة وهى الإبقاء على حياة البشر من خلال إراقة الدماء فى الحروب ومن خلال التضحية.

أصبحت إذن هناك حاجة أساسية لفهم الزمن فى عالم الشعوب الأصلية، فقد كان فهم الزمن يعنى فهم طبيعة الاختلاف بين البقاء والفناء: إذن كانت السيطرة

على الزمن قرينة التأكيد على استمرارية الحياة. وقد عبر عن ذلك أحد شعراء الشعوب الأصلية: "إن من بيدهم سلطة إحصاء الأيام لديهم سلطة الكلام مع الآلهة".

في "شنشن إيتثا" نجد علماء الفلك من حضارة المايا يضعون ميقاتاً شمسياً محدداً قدرة ٣٦٥ يوماً ترمز لها بنية الهرم الأكبر، فلدينا تسع شرفات وأربعة سلالم تمثل السموات التسع والجهات الأصلية الأربع، وكل سلم به ٩١ درجة أى إن المجموع هو ٣٦٤ درجة، أى عدد أيام العام إضافة إلى المنصة العليا، عندئذٍ يصبح عدد أيام السنة ٣٦٥ يوماً شمسياً.

عندما نتحدث عن الهرم الأكبر فى أمريكا، وهو معبد الشمس فى تيوتيهواكان **Teotihuacan**، نجد أنه شيد بشكل تكسو فيه أشعة الشمس الواجهة الرئيسية يوم الانتقال الصيفي، ويمكن للطبيعة والحضارة أن تتجلى كل واحدة منها فى عين الأخرى. وقد حاول الطولتيكا، الذين شيدوا تيوتيهواكان دمج هذه العناصر التى تثير قلقهم بالنسبة للزمن والطبيعة، والسلطة والبقاء فى صورة مبدأ أخلاقى ووجدوا ضالتهم مرة أخرى فى شخصية **Quetzalcoatl** أى الحية المجنحة. هذه الحية التى كانت بطلة العديد من الأساطير المتنوعة والمتناقضة يمكن أن تُرى على أنها خالق حياة البشر، وقد أخذت تتبدى ببطء وصعوبة من بين الفوضى والخوف من الجذور. لقد وهبت البشرية عُدَد عملها وفنونها، وعلمتهم كيف يقومون بصنفرة اليَشْم **Jade** ونسج الريش وزراعة الذرة، وتلحق الأساطير بهذه الحية أيضًا اختراع الزراعة والعمارة والغناء والنحت والتعدين والصناعات اليدوية، وتوافقت مجموعة ما علمته مع اسم "الطولتيكا" **El Toltecayotl** بمعنى إجمالى الخليقة.

أصبحت الحية **Quetzalcoatl** البطل الأخلاقى فى العالم القديم فى أمريكا **mesoamericano**، والشيء نفسه نجده فى شخص بروميتيو **Prometeo** بطل الزمن القديم فى حضارة البحر الأبيض، فهو محرر الزمن رغم أن ذلك قد يكون على حساب حريته، وبالنسبة للحية الإلهة فالحرية التى أتت بها للعالم هى نور التربية، وهو نور بلغ من قوته أن تحول إلى قاعدة للشرعية لأى دولة تطمح لخلافة الطولتيكاس بوراثة موروثها الثقافي.

كانت الدولة التى خلفت الطولتيكاس والأمة الأخيرة فى العالم الأمريكى القديم هى دولة الأثتيك التى تمتد من صحراوات أمريكا الشمالية، ابتداءً من أريزونا وشيواوا Chiuahua حتى وسط المكسيك، وتجسد ذلك فى منظر نسر يلتهم حية فوق شجرة تين شوكى على جزيرة توجد وسط بحيرة. جرى اقتياد الأثتيك إلى هذا المكان على يد إلههم، إله الحرب، الذى يُدعى Huitzilopochtli ومعنى هذا الاسم "الطائر الطنان الساحر" ومعه الكاهن تينوش Tinoch. وعندما وصلوا إلى المكان المحدد سلفًا أسسوا مدينتهم المسماة تينوتشتلان Tinochitlan فوق جزر البحيرات عام ١٣٢٥م، وأضافوا إلى اسم المدينة لفظة Mexico المكسيك التى تعنى "سُرّة القمر"، وهى أقدم مدينة حية فى الأمريكتين. وطبقًا للحوليات فإن الأثتيك كان ينظر إليهم باحتقار من قِبَل السكان السابقين فى الوادى المركزى وهم من سلالة الطولتيكاس الذين أطلقوا على أثتيك لقب "آخر الشعوب التى وصلت"، "الجميع يطاردونهم"، " لا أحد يريد استقبالهم"، "هم فى حاجة إلى وجه".

تناقضت غيبة الوجه هذه مع البروفيل الثقافى المحدد والمرئى عند الطولتيكاس، قبيلة الحية كيتزالكواتل، التى زالت من الوجود بشكل غامض وخلفت وراءها مجموعة من الإبداعات الثقافية اعتبرها عالم السكان الأصليين أغلى موروث لديه، وبالفعل فإن ذكر لفظة "الطولتيك" كانت قرين "فنان"، كانت تلك ثقافة الإله الذى نفى وهو الحية، وكانت أغلى الموروثات وأقربها إلى قلوب السكان الأصليين، وبذلك نجد أن الأثتيك كلما امتد سلطانهم فى الوادى المركزى للمكسيك باستخدام أدوات الرب والابتزاز والتضحية الإنسانية، زادت سيطرتهم على الموروث الثقافى الطولتيكى.

كانوا فى حاجة إلى السلطة، وكانوا فى حاجة إلى إضفاء الشرعية عليها، أى السلطة الحربية إضافة إلى الشرعية الأخلاقية؛ هذه المعادلة التى كانت عنصرًا حاسمًا فى تحديد هوية الأثتيك أثارت بدورها مواجهة مع اثنين من الآلهة الأعداء هما كيتزالكواتل، إله الخلق والأخوة، والإله Huitzilopochtli "ويتزيلوبوتشتيلى" إله الحرب والغزو.

وهب الفن والأخلاق اللذان كان عليهما الطولتيكاس، الأثتيك الوجه الذى كانوا يبحثون عنه، غير أنه إذا ما كانت الذاكرة والهوية تطالبان بتحديد الملامح فإن السلطة والشرعية تحاربانه. فخلال القرن الخامس عشر نجد أن تلاكايلل **Tlacaelel** ابن وشقيق ملوك، لكنه مع هذا لم يقبل بالتاج لنفسه، ينظم بالوسائل التقليدية ما عرف فيما بعد بإمبراطورية الأثتيك. قام بتوزيع الأراضى والألقاب ونظم الإدارة وطبق نظام الجزية والضرائب الذى لا يرحم وبدأ عمليات غزو قادت الأثتيك نحو الجنوب، حتى جواتيمالا وهندوراس ونيكاراجوا. كما شيد أيضًا معبدًا كبيرًا للإله **Huitzilopochtli** فى مدينة المكسيك، وربط سلطة أمة الأثتيك بمبادئ الحرب والتضحية، وكان فى الوقت نفسه من أمر بأن تحرق المخطوطات القديمة للشعوب المهزومة على يد الأثتيك ذلك أنها كانت تصف الأمة الإمبراطورية الوليدة بأنها أمة من البربر. أحرق تلاكايلل التاريخ، غير أن هذا الفعل الجدير بأورويل تآخى مع الرغبة العارمة فى أن يكونوا ورثة الإله **Quetzalcoatl**.

نجد إذن أن مجتمع آلهة الأثتيك يعود بنا، مع ذلك، إلى الفوضى والقوة والخوف وهى مشاعر تستولى على الكائن البشرى عندما يواجه زمن الأصول الأولى؛ كما أن الشخصية الرئيسية فى هذا المجتمع هى الإلهة الأم كواتليك **Coatlicue**، "ذات النطاق المكون من الحيّات"؛ إلهة مربعة ومقطوعة الرأس وبدون قيود شبيهة بالإنسان. خُلِقَت كواتليك على صورة ما هو مجهول، ويمكن أن نطلق على العناصر الزخرفية الموافقة لها أنها جماجم وحيات وأيد مجروحة، غير أن هذه العناصر مجتمعة تدخل فى تكوين ما هو مجهول، ولا تسمح الإلهة بأية تشققات فى جسدها، فهى وحدة واحدة كاملة، وهى جماع ما هو مكثف وما هو ذو محتوى الذات **autocontenido**.

وطبقًا للأسطورة نجد كواتليك إلهة الأرض قد حملت من سكين مصنوع من حجر بركانى **obsidiana** ووضعت مولودها **Coyolxauhqui** كويولكساوهوكى، الإلهة "شونا" **Xuna**، وعددًا من الإخوة الذين تحولوا إلى نجوم. وذات يوم، وجدت كواتليك كرة من الريش وحفظتها فى صدرها.

وعندما عادت للبحث عنها، كانت الكرة الصغيرة قد اختفت، إلا أن كواتليك وجدت نفسها حاملاً من جديد. وعندئذٍ لم يصدق الأمر أبناؤها وهم القمر والنجوم، فقد خجلوا من والدتهم واتهموها بأنها تخلط الأمور، وقرروا قتلها، فالآلهة لا يمكن أن تلد إلا مرة واحدة، وهذا وارد في سير الآلهة القدامى. ما الذي يمكن أن يلي ملحمة هبة الحياة للآلهة؟ وأي فظاعة؟ كيف يمكن أن تكون هناك آلهة أخرى ثانية؟ وبينما هم يحيكون مؤامرتهم وضعت كواتليك مولودها إله الحرب Huitzilopochtli، وهو إله وقف ضد إخوته بمساعدة حية في الأتون، فقتلهم في هجمة كلها غيظ وقطع رأس أخته الإلهة القمر وألقى بها في مكان سحيق، حيث ظل جسد المرأة مبتوراً إلى أبد الآبدين. تم اكتشاف الشكل الأسطواني للإلهة القمر في المعبد الكبير في المكسيك عام ١٩٧٧م، وهو يوضح هذه الأسطورة إضافةً إلى اليقين بأن الكون الطبيعي للهنود قد ولد من رحم الكارثة. وتشققت السموات وأصبحت إربًا، أما "الأرض الأم" فقد سقطت ثم جرى تخصيبها في الوقت الذي تعرض فيه أبناؤها لتقطيع أوصالهم في معركة بين الإخوة وسرعان ما نراهم وقد تبعثروا وانتشروا في كافة أنحاء الكون.

لكن القطعة المنحوتة لـ Coyolxauhqui ووالدته كواتليك ما هي إلا أشكال فنية، ورغم أنها ترجع إلى الأسطورة نفسها، لا تقوم بوظيفة دينية. وتحولنا إلى جزء من الخيال والإبداع الفني، أي إن ما نراه اليوم، بمبعد عن جذورهما، هو عمل فني حديث ويصلح للغرضين. تحول الواقع إلى جزازات لكنه يطالب بأن يعود لجمع الشمل مرة أخرى: فهل يطلب الفن التكعيبي شيئًا آخر؟ عندما تخيل الآلهة هؤلاء النحاتون المجهولون في عالم السكان الأصليين مثلما فعل الطرف المناقض لهم من القوط الأوربيين المجهولين هم الآخرين والذين استلهموا الدين، أبدعوا أعمالاً فنية خالدة يمكن الاستمتاع بها وتقديرها، خارج السياق الديني، على زماننا. غير أن شرط الوصول إلى ذلك نجده مدفوناً في قلب الإبداع الفني نفسه، فالفنان الحقيقي لا يعكس الواقع بل يضيف الجديد إليه.

ومن خلال الكتل الحجرية والأيدى التى شكلتها استطاع فنانو الشعوب الأصلية أن يوجدوا أشكالاً للاتصال، أصبحت مع مرور الزمن أشكالاً عالمية. هنا نجد أن أندريه بريتون يرى أن الفن والحياة فى المكسيك هما تعبير عن السريالية. وذهب هنرى مور النحات البريطانى إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير واستلهم الشكل المائل لـ"شاك مول" Chac Mool وكانت المحصلة هذه السلسلة الرائعة من التماثيل الراقدة؛ فقد تحولت تماثيل هنرى مور إلى واحدة من الأعمال الفنية الأكثر تمثيلاً للتراث الفنى الحديث، وهذا ليس بعيداً عن اتصاله بواحدة من الحضارات الأقدم، وما يقوله هنرى مور عن فنه يمكن أن ينسحب على الأعمال النحتية الكبرى فى المكسيك القديمة، وهى أنه إذا ما فهم النحات المادة التى يقوم بتشكيلها يمكن له أن يحول كتلة من مادة جامدة إلى قطعة متحركة هى كتلة تتمدد وتنكمش وتزيح إلى الأمام غيرها من القطع وتختلط معها وتتوه فيها.

عندما نتأمل هذه الأعمال النحتية فى إطار الهواء النقى وديناميية الحجر نجدها نتاج تعددية للواقع ورؤى متنوعة التى تتجلى فى شكل عمل فنى وعندئذٍ تصبح "واقعية" هى الأخرى، فالرؤوس الضخمة "للأولميك" تتسم بأن ملامحها المائلة للسواد تثير الانتباه، لدرجة أن الكثيرين أخذوا يتساءلون فيما إذا كانت منطقة الكاريبى مأهولة قبل ذلك بمهاجرين أفارقة، إلا أن الواقع الفنى لهذه القطع يدفعنا لأن نتساءل عن أى شىء أكثر أهمية: هل هى الخلفية الدينية والإثنية للفن، أم هل هو وجوده المعاصر بين ظهرانينا؟ وعلى أية حال لا يمكن لأى مرحلة من مراحل هذا الفن أن تباعد الأخرى فالواقع متعدد.

كان دوريرو Durer(*) الرسّام الألمانى أول فنان أوربى رأى الأعمال الفنية للأثتيك عندما وصلت إلى بروكسل عام ١٥٢٠م، فى البلاط الفلامنكى لكارلوس الأول، وقال: "رأيت الأشياء التى أرسلت للملك من الأراضى المذهبة"؛ وهذا ما دونه فى

(*) (١٤٧١ - ١٥٢٨م).

"يوميات رحلة إلى البلاد الوطنية"، وأضاف: "إنها تسرّ الناظرين" ثم قال فى النهاية: "لم أر فى حياتى قط مثل هذا الشىء الذى يدخل علىّ كل هذه البهجة". وبعد قرون ثلاثة أو أكثر على هذا نجد شارل بودلير، فى بروكسل أيضًا، وقد لفتت نظره اللوحات التى تصور هذه القطع النحتية الأثتيكية، فيصفها "بأنها فن بربرى" بمعنى أنه فن بعيد تمامًا عن مضمون ما عليه النفس البشرية.

ومع هذا فقد كان هناك فى هذه الأرض الأمريكية مجتمع كامل مكون من المحاربين والكهنة بالقرب من الآلهة تروح وتغدو، وكان مجتمعًا حيويًا وشديد الحساسية، يطوف أفراده حول الأهرامات ويسهم فى خلق القيم الخاصة باستمرارية الحياة الثقافية فى الأمريكتين. هذا الموروث يجب أن يتحول إلى نمط من الواقع الأكثر أهمية الذى تحدثت من خلاله هذه المجتمعات فى لقائها مع أوربا.

عندما نتأمل الآثار الكبرى لماضى هذه الشعوب الأصلية ونحاول فهم جمالياتها ووظائفها السياسية نشعر بسؤال يلح علينا نحن ومعنا الشاعر بابلو نيرودا: هل هذه الآثار حجر على حجر أو فى حجر؟ وعندما يكون ذلك فأين هو الإنسان؟ ربما نجد إجابة عن هذا تتمثل فى وجود كل هذه النماذج الثقافية المتنوعة والشعبية التى أبدعتها القارة الأمريكية سواء على مستوى القرية أو على مدار آلاف السنين. إننا نجد الإنسانية فى الوجوه المبتسمة، وربما الساخرة، للأولميك؛ نجدها فى الفرح والألعاب التى تقوم بها القطع الفنية التى تبدو لنا أنها تماثيل تتصارع وتقوم بألعاب بهلوانية، وكذلك لعب كرة البيسبول، نرى الحياة أيضًا والإنسانية فى ذلك التأكيد الذى نشهده فى الاستمرارية الرمزية لحياة تماثيل العجائز والنساء الولودات والأطفال؛ وربما نجد الإنسانية فى الأساس فى الرشاقة والرفعة التى عليها تماثيل خاينا **Jaina** فى يوكاتان: هناك نساء وخطباء وبائعون ومزارعون ومتسولون وكذابون. إنها كافة سمات الحياة اليوم وقد تبدت ملامحها وجرى رصدها وتجسيدها فنيًا على مر العصور، وربما كان مكمن الفن الخالد الذى عليه هذه القطع ومن أبدعوها هو السرّ المكنون الذى أودع فى القطع الهشة والبسيطة، أى فى إبداعات الفخار والأكواب والأوانى والأشكال التجريدية

للحيوانات والطيور. هناك إذن نجد حديقة الحيوان الرائعة لثقافة الأوليك الأوائل وقد تجسدت فى أشكال البط والتماسيح والقرود والتابير والنمور والمدرّعات armadillo. ينتشر تمثال النمر أو الچاجوار فى كافة أنحاء المكسيك القديمة كمقابل لتماثيل الكلاب الأوليك الصغيرة والجذابة وكذا الببغاوات والسلاحف التى ترجع إلى الثقافات الغربية، وكذلك الخفافيش الغامضة الثابوتيك Zapoteca والجراد الأثتيك والأحياء المائية التجريدية التى تكاد تكون من إبداعات برانكوزى والآتية من تالتيك Tlatilco.

يمثل كل هذا الثقافة الشعبية، كما نجدها وقد تجسدت اليوم فى المواقف وفى كبرياء أحفادهم المعاصرين، وكذلك فى إنتاج الحرفيين من أبنائهم الذى لا يتوقف.

هذا هو الردّ الشعبى على سلطة الآلهة والأقوياء حيث نراه فى قيم الاستمرارية وحب الأرض والطبيعة والعمل والاحترام المتبادل. حتى إنه عندما سقطت مدنهم بشكل غامض وزالت من الوجود نجد أن الشعب واصل الحياة، والأدهى من هذا وأكثر إلغازاً هو استمرار تدفقه الفنى رغم أنه لم يكن فنًا شعبيًا أو ذا توجه إنسانى وإنما كان نوعًا من الاحتفالية الغريبة والميتافيزيقية بما هو إلهى وبالموت والزمان.

باسم الإله Quetzalcoatl نجد المجتمع الأثتيكى يحافظ على رغبته فى الحياة واحتفائه بها من خلال أنظمة التربية عنده، والتى كانت شاملة وإجبارية، وأتى هذا من خلال الحضّ بالقول فى الزيجات والميلاد والوفيات والانتخابات، نجد الشاعر الأثتيكى والآباء والأمهات وهن يتوجهن بالقول لأبنائهم والخُطّاب يتحدثون إلى خطيباتهم والأحياء وهم يتحدثون إلى الموتى، أو الطاعنين فى السن وهم يختارون ملوكهم، وهم جميعًا يتحدثون عن الأرض كمكان للسعادة الحزينة، ومكان للسعادة التى تجرح والسعادة لمكان غامض وعدوانى، حيث الحياة حلم، وكل شىء هالك والموت هو الحقيقة القائمة. غير أن هذا كله ليس مدعاة لفقدان الأمل، فجميعنا لديه القدرة على الابتسام والحلم، والطهى والصحة والجِماع فى نهاية المطاف حيث يُرى على أنه "بذرة الشعوب".

كان الإله **Quetzalcoatl** البداية التى وهبت الحياة للمجتمع مع معارضة الإله **Huitzilopochtli** إله الحرب والموت، كان إلهًا شديد الأهمية عند شعوب العالم الأمريكى القديمة على شاكلة ما عليه كل من بروميتيو أو عُلَيس فى عالم البحر الأبيض المتوسط، أو أى مسمى بالنسبة للثقافة اليهودية المسيحية. تعرض الإله **Quetzalcoatl** أيضًا للنفى، وأصبح رحّالة وبطلاً خرج من المكــان وأقسم على العـودة؛ وهو إله مثل باقى الآلهة من حيث استمرار أسطورته من خلال العديد من الأشكال والتحولات، لكنها جميعها تبرز وتزداد ثراءً به.

لم تكن الاحتفاليات الكبرى التى تجرى فى عالم الأثتيك إلا تعبيرًا ظاهريًا واحتفاليًا أو طقسيًا عن زمن نجد فيه أن الطبيعة والمصير يتصافحان ويعيشهما الإنسان على أنهما أساطير، لكنها لم تكن أساطير مجسدة فقط بل هناك إيمان حيوى بها. ليس هناك مثال أبرز من تلك الرواية الخاصة بالإله **Quetzalcoatl** التى انتقلت إلى الأب برنار دينو دى ساهاجــون فى المكسـيك، على لســان من أبلغـوه من السكان الأصليين. واستنادًا إلى هذه الرواية فإن أحد الآلهة الصغرى فى مجمع الآلهة للسكان الأصليين، وهو عبارة عن **Puck** قاتم وأبدى الشباب يُدعى **Tezcatlipoca**، واسمه يعنى "المرآة المدخنة"، وقد قال للشياطين الآخرين ذات يوم: "لنقم بزيارة إلى **Quetzalcoatl** ولنأخذ له هدية". فتوجهوا جميعًا إلى قصر الإله فى مدينة تولا **Tula** وقدموا له الهدية ملفوفة بالقطن.

ما هذا؟ سأل **Quetzalcoatl** وهو يفتح الهدية.

كانت الهدية مـرآة، فـرأى الإله صـورته فيها وصاح. كان يعتقـد أنه لما كان إلهًا فإنه يفتقد للوجه، أما الآن فهو فى المرآة المدفـونة قد رأى وجهه؛ وعلى أية حال كان الوجه وجه إنسان، وجه مخلوق من مخلوقات الإله؛ وعلى هذا أدرك **Quetzalcoatl** أنه لما كان له وجه إنسانى يجب أن يكون مصيره مثل الإنسان.

اختفى شياطين الليل وهم يصفرون بسعادة، أما **Quetzalcoatl** فقد شرب هذه الليلة حتى غاب عن الوعى وجامع أخته؛ شعر فى اليوم التالى بالعار فركب قاربًا من

الثعابين وأخذ يبحر صوب الشرق، ووعد بأنه سيعود فى تاريخ محدد هو **Ce Acatl** أى عام قصب السكر فى ميقات الأثتيك.

وعندما يتوافق زمن المصير والطبيعة تحت رمز البخار فإن عالم السكان الأصليين كان يتعرض لهزة تطال جذوره، كما أن العالم أجمع كان يخشى أن تُزْهق روحه؛ وهذا هو بالضبط ما حدث عندما قام القائد الإسبانى إيرنان كورتيس بعملية إنزال على شواطئ خليج المكسيك يوم الخميس المقدس لعام ١٥١٩م بعد تخمينات عديدة.

عودة Quetzalcoatl :

عاد فى الوقت المحدد، أى فى **Ce Acatl**، العام الأول لقصب السكر، وهو العام الذى سبقه عام شهد الكثير من العجائب فى دنيا الأثتيك، إذ تحركت مياه البحيرة التى شيدت فوقها مدينة تينو شتيتلان **Tinochtitlan** ونتج عن هذا موجات عاتية هدمت منازل وأبراجًا، وأخذت الأجرام السماوية تطوف بأرجاء السماء ساعات طوالاً، وعكست المرايا شمسًا مليئة بالنجوم فى منتصف النهار، وكانت هناك نساء غريبات تطوف بالشوارع فى منتصف الليل وهن ينعين موت أبنائهن ودمار العالم، كما أن الحلفاء الأكثر قربًا من ملك الأثتيك، موكتيزوما **Moctezuma**، تأملوا المشهد الليلة تلو الأخرى وأقروا بأن النبوءات على وشك أن تتحقق: وهى أن البحر والجبال والهواء كلها كانت مفعمة بالهواجس. سوف يعود **Quetzalcoatl**.

كانت نبوءة الإله الأشقر ذى اللحية على وشك أن تتحقق، وكان ملك **Texcoco** متأكداً من ذلك، فترك ملكه وودّع جيوشه ونصح الرعية الاستمتاع بما بقى لهم من وقت قصير؛ أما الإمبراطور **Moctezuma** الذى نادراً ما كان يكرر استخدام أحد ملابسه ويُعنى به عدد كبير من الوصيفات، فقد بدأ هو الآخر طريق التوبة الطويل، وأزال قصره بالمقشة ولم يَرْتدِ من الملابس إلا مئزراً، وفى الوقت ذاته تتكاثر التكهنات بحدوث الكارثة للمدينة المرتعدة. فهل كان زمن الشمس الخامسة على وشك الانتهاء؟

كان هناك ما يخفف من كدر الملك موكتيزوما مؤقتًا، إذ جاءه حامل الرسائل من الشاطئ وقال للملك بأنه قد جاءت من الشرق منازل عائمة عليها رجال يرتدون الذهب والفضة ويمتطون صهوة حيوانات تسير على أربع، كان هؤلاء الرجال من ذوى البشرة البيضاء ولهم لحاهم، وكان البعض منهم أشقر ذا عيون زرقاء. عندئذ تنهد الملك. لقد انتهى زمن الكدر، فقد عاد الآلهة وتحققت النبوءة.

"لساني" :

لكن إيرنان كورتيس لم ير نفسه على أنه إله، كان إنسانًا دفعته الرغبة فى الحركة والعمل إلى التصرف بإنسانية واستخدم حنكته إلى أقصى حد وما جمعه من معلومات. ففى عام ١٥١٩م كان كورتيس قد أبحر من كوبا ترافقه حملة مكونة من إحدى عشرة سفينة، كان على متنها ٥٠٨ جنود وستة عشر حصانًا وبعض قطع المدفعية. وفى يوم الخميس المقدس رست هذه السفن عند شواطئ خليج المكسيك؛ وأسس مدينة بيرا كروث Veracruz، باسم الإمبراطور كارلوس الخامس، وبعد ذلك بأيام قليلة نجد إمبراطورًا آخر هو موكتيزوما يتلقى أخبار ما حدث على الشاطئ، فمن كان ذلك القائد الإسبانى الذى عومل فجأة وكأنه إله؟

لم يكن عمر كورتيس عندما وصل إلى المكسيك يتجاوز الأربعة والثلاثين عامًا، فقد ولد فى مِيَدايِيّن فى محافظة إكستريما دورا حيث حارب والده المورو خلال السنوات الأخيرة من سنوات حرب الاسترداد؛ أما الآن فإن كورتيس العجوز كان ذلك المالك العجوز والمتواضع لإحدى الطواحين وحقل من الكَرْم وبعض المناحل، ويعيش مع زوجه، والدة كورتيس، التى وُصِفَت بأنها "امرأة شريفة ومتدينة وقوية وضئيلة الحجم"؛ استطاعت تلك المرأة أن توفر ما يكفى لترسل بابنها إلى جامعة سلمنقة، لكن كورتيس فشل كطالب، ومع هذا قرأ قصص الفروسية وسمع عن الحوليات الرائعة المتعلقة باكتشاف أمريكا، فملأ رأسه إلى الأبد حلم العالم الجديد.

عندما بلغ تسعة عشر عامًا سافر إلى العالم الجديد وأصبح من ملاك الأراضى وأحد الأغنياء غير واسعى الثراء، لكنه لم يأت إلى العالم الجديد ليكرر ما آل إليه حال والده فى "العالم القديم"، لقد جاء ليصنع مصيره بيديه: هو مصير السلطة والثراء والمجد، وعليه أن يحصل على كل ذلك ليس من خلال الإرث بل من خلال قراراته الشخصية التى حظيت بشىء من الحظ الطيب. إنها خلطة مكيافيلية كاملة من الإرادة والحظ، وأصبحت الظروف مهيأة ليصبح واحداً من الشخصيات المهمة فى عصر النهضة الأوربى عندما تولى أمر واحدة من الملاحم أكثر أهمية على مر العصور: ألا وهى غزو إمبراطورية أثتيكا.

فى بداية الأمر حدثت مناوشات مستمرة مع القبائل التى تسكن الشواطئ؛ وسرعان ما أدرك زعماء هذه القبائل أن هؤلاء الأجانب يصعب التغلب عليهم أيًا كانوا فهم مسلحون بالبرق ويطلقون نارًا، وهذا ما أخذ يقوله جامعو المعلومات من الهنود، فما كان من زعماء القبائل إلا أن قدموا لهم هدايا من الذهب إضافة إلى قطع ثمينة لإدخال السرور عليهم؛ وذات يوم قدم لكورتيس جزية مختلفة: إنها دية من عشرين عبدة جاءت إلى المعسكر الإسبانى، اختار كورتيس واحدة منهن.

وصفها برنال دياث دل كاسيتّو، مؤرخ الحملة، بأنها امرأة جيدة الشكل ممتلئة بعض الشىء وجريئة واسم هذه الفتاة هو مالينزين **Malintzin** وهو اسم يدل على أنها ولدت فى برج المشاحنات وسوء الحظ، باعها والدها كعبدة، وأطلق عليها الإسبان السيدة مارينا، غير أن أهلها أطلقوا عليها **Malinche** أى امرأة الغازى، وخائنة الهنود، وعلى أية حال عرفت المرأة مصيراً رائعًا أيًا كان الاسم الذى أطلق عليها، فقد أصبح "لسانيًا"، ذلك أن كورتيس جعلها مترجمته وعشيقته، واللغة التى سوف تقوده بطول إمبراطورية الأثتيك وعرضها، مبرهنة على أن هناك شيئًا قد أصابه العفن فى إمبراطورية الأثتيك، وأن هناك الكثير من السخط وأن المملكة ذات أرجل من طين.

وبفضل هذه المرأة - مالينتشى - اكتشف كورتيس ملكًا عظيمًا هو موكتيزوما الذى كان يعيش فى مدينة رائعة فى الجبال، وقيل له بأن جيوش هذا الملك موجودة

في معسكر وأنها تكسو هذا المعسكر كأنها موجة من موجات البحر. كان هناك ثلاثون ملكًا يدينون له بالولاء لكنهم كانوا يكرهون موكتيزوما ويمكن الضغط عليهم ليغيروا من تحالفاتهم إذا ما كان هناك من هو أقوى من الأثتيك، وطلب منهم ذلك. كان الأثتيك قد تمكنوا من غزو أغلب شعوب أمريكا الوسطى غير أن ملكهم كان يقوم على الترهيب وليس على أساس مساندة الشعب، واستطاعت بعض الممالك مثل مملكة **Tlaxada** تلاكسادا الحفاظ على استقلالها والكفاح الدائم ضد سيطرة المكسيك وأخذت تعد العدة لزمن الانتقام.

لم يتأخر كورتيس في اتخاذ قرار، فقد سار حتى وصل إلى **Gran Tenochtitlan** للقاء موكتيزوما وانتهز فرصة تذمر الشعب لصالحه، غير أنه إذا ما كان القائد جاهزًا للرحيل فإن قواته كانت ذات وجهات نظر مغايرة، فقد أسفرت المناوشات عن سقوط قتلى، وأخذ الخبز يتناقص ومعه الملح ودهن الخنزير، وأصيب بعضهم ببرد الجبال وأخذ آخرون يشكون من ثقل الأسلحة، إلا أن كورتيس رفض التراجع والعودة وهو خالي الوفاض؛ كان يعرف جيدًا أن الجنود الإسبان كانوا موزعى الشتات بين المال والشُهرة، وبين الخوف من الهزيمة والموت.

وقالوا له: يبلغ عددنا خمسمائة رجل فقط.

فأجابهم: إذن علينا أن نتحلى بأضعاف ذلك من الشجاعة.

وكانت شكواهم: إننا نموت من أثر الحمى وهجمات الهنود. فقال لهم:

- علينا أن ندفن من ماتوا حتى يعرف أعداؤنا أننا خالدون لا نفنى.

- لنعد إلى كوبا ولنبحر صوبها. قالها بعضهم وهم يوشكون على القيام بعصيان حقيقى.

- لكن ليس هناك سفن - أجاب كورتيس - لقد خرقتها وليس أمامنا طريق آخر إلا التقدم إلى الأمام، فلا نكوص، علينا أن نذهب إلى المكسيك وأن نرى فيما إذا كان موكتيزوما الكبير كبيرًا كما يقولون أم لا.

هلّل الجنود لكورتيس ونادوا به قائداً لهم وبدءوا مسيرتهم الكبرى نحو مدينة الملك موكتيزوما؛ وفى الطريق كان على كورتيس أن يتأكد من أنه ليس مجرد أحد الغُزاة العسكريين بل هو مسيحى يقوم بنشر ديانة المسيح وأخذ يزيل تلك الأصنام اللعينة التى كان يتعبد لها الهنود الوثنيون. فى شولولا، نجد المجمع الكبير لآلهة إمبراطورية الأثتيك، وهناك أمر القائد الإسبانى بتدمير التماثيل وأسال الدماء فى البلدة لأسباب دينية وسياسية، فقد أبلغته مارينا أن الكهنة الوثنيين فى شولولا كانوا يتآمرون لاغتيال الإسبان.

فى إطار وعيه بواجباته كجندى للمسيحية والأمل الذى يحدو السكان الأصليين بأن كورتيس إله، كان على القائد الإسبانى أن يؤكد فى نهاية المطاف ذاته الحقيقية؛ وإذا ما كانت صورته الإلهية أخذت تتلاشى، فإن مهارته الحربية أخذت تؤكد ذاتها فى المعارك ضد **Tlaxcala**، خارج مدينة المكسيك، فقد كان جنود هذه البلدة الشجعان والمستقلون عن سلطان **Tenochtitlan** لا يريدون تغيير حاكم بآخر. تحدوا كورتيس؛ لكن تم دحرهم مرة أخرى رغم تفوقهم العددى وكان ذلك بفعل التقدم التكنولوجى للأوربيين.

حانت ساعة تقديم الجائزة الكبرى لكورتيس والإسبان، وكانت فى ذلك اليوم الذى شهدوا فيه المشهد الرائع للمدينة وسط البحيرة. هنا كتب المؤرخ برنال دياث: "أصبنا بالذهول"، وقلنا إذن ذلك شبيه بالأشياء المسحورة التى حدثنا عنها كتاب الفروسية لأماديس... ورغم أن بعض جنودنا يقولون بأن الذى يرونه ما هو إلا حلم؛ وليس بمستغرب أن أكتب هنا عن الذى شهدناه بهذه الطريقة، فهناك الكثير مما يقال ولا أعرف كيف أقوم بسرده: أن ترى أشياء لم تسمع عنها من قبل أبداً، ولا حتى فى الحلم، مثل تلك التى نراها الآن".

عندئذٍ تقدم الملك موكتيزوما على الطريق الكبير الذى يؤدى إلى المدينة، يرحب بالإسبان، وهو واثق من معتقده أن كورتيس هو الإله **Quetzalcoatl** وقال له: "مرحباً بك. كنا فى انتظارك. أنت فى بيتك".

نادراً ما نرى لقاء بين شخصيتين مختلفتين بهذا الشكل فى التاريخ، كان اللقاء بين رجل يملك كل شىء ورجل لا يملك شيئاً، بين إمبراطور تجرى مقارنته بالشمس ولا ترى الرعية وجهه ويلقب بـ"رجل الصوت العظيم **Tlatoani**" وبين جندى ليس له من مال إلا عبقريته وإرادته. لكن سوء المصير هو الذى يخيم على موكتيزوما فقد عادت الآلهة، بينما نجد كورتيس تحدوه رغبته، فالإسبانى سوف يبلغ أهدافه رغم كافة الصعاب.

وسرعان ما اكتشف أن موكتيزوما كان لديه خزائن من الحلى فى قصره حتى إن الجدران كانت من الذهب. وكان الثمن الذى دفعه كورتيس إزاء هذه الحفاوة أن أسر الملك وأخذه أسيراً وأذاب الذهب، وأرسل بتحطيم الأصنام فى كل مكان ومكانها أقيمت مذابح مسيحية، أما مساعده بدرو دى ألبارادو فبعد أن حاك المكائد للملك موكتيزوما فى لعبة النرد نفذ مذبحة لبلدة عزلاء من السلاح وعريانة وهى تشارك فى مهرجان دينى فى **Tlatelolco**.

هل كان هؤلاء آلهة فى حقيقة الأمر؟ قال الشعب المكسيكى بأنهم ليسوا كذلك فى نهاية المطاف، كانوا غُزاة أجانب قُساة أعماهم الجشع ويمكن هزيمتهم. ففى أثناء معركة "الليلة الحزينة" تمكن المتمردون من أبناء السكان الأصليين وعلى رأسهم ابن شقيق موكتيزوما المدعو **Cuauhtemo** بإلقاء الإسبان خارج مدينة **Tenochtitlan**. غرق الكثيرون منهم فى القنوات وهم يحاولون الهروب حاملين شنطهم المليئة بالذهب. وهنا نجد أن كورتيس نفسه جلس إلى جوار شجرة وأجهش بالبكاء، لكنه بنى مراكب فى البحيرة ليعيد الكرّة، وعاد وهو مقتنع بالمعادلة القائلة بأنه كلما كان هناك المزيد من التكنولوجيا المتقدمة سوف يتأكد النصر الأوربى.

حارب الأثتيك تحت راية وأبلوا بلاءً حسناً، لكن عالمهم المقدس كان ذلك العالم الذى تكهنت النبوءات بنهايته فى كتب الذاكرة.

"استعدوا يا إخوتى فالأبيض توءم السماء قد أتى وسوف يقوم بخصى الشمس ويجعل الظلام يحل علينا ومعه الحزن والألم...". كانت هذه هى الكلمات التى جاءت فى كتاب المايا المسمى **Chilan Balam de Chumayel**.

وبعد حصار دموى، عام ١٥٢١م استطاع كورتيس فى نهاية الأمر إخضاع العاصمة الأثتيكية، وكانت تلك - طبقًا لكلمات هوجو توماس - واحدة من كبريات المعارك فى التاريخ، فلم يكتف فقط بتدمير مركز السلطة الكبير التابع للسكان الأصليين بل كذلك المركز الدينى فى أمريكا المعروف حتى ذلك التاريخ. كما تجسد فى شخص كل من كورتيس وموكتيزوما أحد أمثلة أكبر صدامات بين الحضارات التى لم يرها العالم من قبل أبداً.

كان غزو المكسيك أمراً يفوق مجرد نجاح مجموعة مكونة من أقل من ستمائة جندى أوربى فى مواجهة إمبراطورية ثيوقراطية، إذ كان انتصار الهنود الآخرين على عاهل الأثتيك وكان انتصاراً للسكان الأصليين على أنفسهم ذلك أن نتائج الغزو كان معناها عند أغلب الشعوب الأصلية الاستئصال والاستبعاد، وكان أيضًا - كما سنرى لاحقًا - هزيمة للغازى نفسه؛ فهل سنفهم يومًا ما غزو المكسيك على أنه هزيمة للمنتصر والمهزوم، حتى يمكن أن ننظر إلى هذا الغزو على أنه فى نهاية المطاف انتصار لكليهما؟ لقد رفض موكتيزوما أن يتخلى عن قبوله للقدر الإلهى الإسبانى رغم أنه قد تأكد - ولم يخالجه الشك - أن الإسبان لم يكونوا آلهة بل هم كائنات بشرية من القُساة والضوارى. وإذا ما كان الملك أسيراً فإن سجانيه لابد أن يكونوا آلهة، وإذا ما كان موكتيزوما وشعبه قد تعرضوا للسلب والنهب فإن الآلهة كانت تأخذ ما لها فقط، وعندما حكم عليه فى النهاية بالإعدام بالرجم على يد شعبه فى يونيو عام ١٥٢٠م كان يجب على موكتيزوما أن يقبل ذلك على أنه فصل آخر من فصول المأساة. كان ملك الأثتيك يعرف جيداً أن السلطة لا يتم تقاسمها مع الآلهة. فقد جلس موكتيزوما وسابقوه وحدهم على قمة هرم المكسيك على مدى مائتى عام؛ كانوا يجهلون الكثير من الأشياء لكن هناك أمراً لا يجهلونه وهو أن المكسيك تُمارس فيها السلطة رأسيًا ويقوم بذلك رجل واحد. فلا مكان إلا لواحد على قمة الهرم المكسيكى، وهذا أمر حقيقى اليوم كما كان عام ١٥١٩م.

عندما غرق موكتيزوما وإمبراطوريته فى المياه الدامية للبحيرة، كان الزمن الأصلى للسكان الأصليين قد زال إلى الأبد، وتكسّرت أصنامه ونُسيت كنوزه وجرى دفن كل شىء تحت الكنائس المشيدة على الطراز الباروكى وتحت قصور ممثلى الملك؛ لكننا بغض النظر عن هذه الدراما يمكن أن ننصت إلى همهمة التاريخ وأصوات الغُزاة والذين تعرضوا للغزو.

نجد إذن أن كافة الشعوب الأصلية فى أمريكا كانت شعوبًا ذات حضارات شابة ومبدعة رغم ما حاق بها من صدوع، وقد أوقف الغزو الإسبانى هذه الحركة وأوقف نموها وتركها وفى يدها ميراث من الحزن الواضح فى عيون المهزومين، وقد جمع كل هذا ميجل ليون بورثيا. تغنى الشعراء بهذه الأحداث الحزينة بكاءً على ذلك العالم القديم الذى هزم:

"إلى أين نحن ذاهبون يا أصدقائى؟ الدخان يعلو

والضباب يمتد. ابكوا أيها الأصدقاء

المياه أصبحت حمراء

ابكوا، آه، ابكوا، فقد فقدنا أمة الأثتيك".

كان زمن الشمس الخامسة قد ولّى.

ربما أمكن للغُزاة أنفسهم أن يعوا هذه الكلمات، فأول شىء أعجبوا به هو أول شىء دمروه على الفور، لكن عندما انتهى كل شىء، وعندما تم إسكات الإمبراطور موكتيزوما على يد شعبه وعندما تم إسكات الغازى إيرنان كورتيس على يد التاج الإسبانى الذى رفض أن تكون له سلطة سياسية مكافأة له على ملاحمه الحربية، ربما كان صوت مالينتشى **Malinche** هو الذى بقى. هنا نجد أن المترجمة والعشيقة وامرأة كورتيس هى التى أقرت الرؤية المركزية لحضارتنا المتعددة العرقيات حيث اختلط الجنس باللغة، كانت أمًا لابن الغازى، وهو من الناحية الرمزية أول مُوَلّد. هى أم أول

مكسيكى وأول طفل من دم إسباني ودم واحدة من أبناء الشعوب الأصلية، وضعت مالينتشى مولودها وهى تتحدث هذه اللغة الجديدة لغة التمرد والأمل والحياة والموت، التى سوف تتحول بعد ذلك إلى الرابطة الأقوى بين أحفاد الهنود والأوربيين والسود فى القارة الأمريكية.

الفصل السادس

الغزو وحرب الاسترداد فى العالم الجديد

كان باسكو نونيث دى بالبدو قد اكتشف المحيط الهادى قبل ست سنوات من غزو المكسيك، وكان ذلك فى ١٥١٣/٩/٢٥، وفتح بذلك الطريق أمام غزوات واكتشافات جديدة بالاتجاه جنوباً. وفى ١٥٣٠ أبحر فرانثيسكو بيثارّو من بنما يرافقه أخواه غير الشقيقين، خوان وجونثالو، إضافة إلى مائتى رجل، ووصلت سفنه إلى شواطئ إكوادور، وبعد حملة طويلة ومعقدة طاردتها المناوشات والشكوك والأوبئة دخل البيرو فى شهر سبتمبر لعام ١٥٣٢م وسرعان ما اكتشف أن هذا البلد مستغرق فى حرب أهلية، فقد تم هزيمة حاكم البلاد أواسكار Huascar على يد أخيه غير الشقيق المغتصب أتوالبا Atahualpa، إذ قام هذا الأخير باغتيال أواسكار وكافة أفراد أسرته بدم بارد، وهو فى تلك الآونة قد نصب معسكره خارج مدينة كاخاماركا Cajamarca؛ إلى هذه المدينة توجه فرانثيسكو بيثارّو على الفور ودعاه إمبراطور بيرو الذى يعرف بأنه الإنك Inca للاجتماع به.

كان أتوالبا Atahualpa يثق فى الإسبان بشكل يزيد عن الحد، وربما كان يؤمن بأنه مُخَلّد، فجاء إلى كاخاماركا وهو غير مسلح؛ ويقال إنه لم يكن يستطيع مقاومة إغراء جمال الخيول. هنا نجد أن فرانثيسكو دى خيريث، سكرتير بيثارّو (كان رجلاً أمياً) قد ترك لنا صورة تلفت الانتباه لهذا الإمبراطور الهندى:

"كان Atahaliba رجلاً يبلغ من العمر ثلاثين عاماً جيد الهيئة وله جاهزية، ممتلئ بعض الشىء، كبير الوجه يتسم بالوسامة والقسوة والعيون كأنها كتلة من الدماء... كانت حججه حية... هو رجل مرح رغم أنه فظ".

خرج الإسبان سريعًا من المنازل التى اختبئوا فيها، فشعرت الفرقة الهندية بالمفاجأة وحاولت حماية إمبراطور الإنك، وقام الإسبان بتقطيع أيديهم وهم يحملون محفة Atahualpa، لم يقتل أى إسبانى أو يصب بأذى، ويتكرر الشىء نفسه الذى حدث عند غزو المكسيك، أى إن الهذيان المزدوج، بمعنى الإيمان بمفاهيم إلهية وعدم توفر التكنولوجيا المناسبة، أدى إلى هزيمة هذه الأمة الكيتشوا. هناك الأبناء الإلهية: فقد أشار والد Atahualpa، الإنك هوينا كاباك Huayna Capac، وهو على فراش الموت إلى نبوءة تقول بأنه سيأتى يوم يصل فيه من البحر رجال ذوو لحى لتدمير عالم الإنك، وهؤلاء الرجال هم رسل الإله، إله السكان الأصليين الأكبر. وهذا الإله هو بيراكوتشا Viracocha الإله الذى خلق البشر، مثلما فعل الإله Quetzalcoatl، ثم أبحر صوب الغرب ووعد بالعودة. كما أن عدم توفر التكنـولوجيا أسهم بدوره فى تقرير مصير الإنك؛ هنا نجد جون هيمنج، المؤرخ البريطانى المعاصر يشير إلى أن جيوش السكان الأصليين فى البيرو "لم تتمكن أبدًا من إنتاج سلاح قادر على قتل فارس إسبانى يمتطى صهوة جواده ومدجج بالسلاح".

وحتى يتمكن الإمبراطور الأسير من افتداء نفسه والحصول على حريته قدم الذهب لبيثارو، وكان كمية كافية لملء صالة كبيرة حتى كتفى رجل. وعندما وصل الذهب قام الغُزاة بصهره. أما بالنسبة للإمبراطور فإن بيثارّو لم يف بوعده، فهذا الإمبراطور الأسير لم يعد أمامه إلا أن يختار أحد مصيرين: الموت حرقًا على أساس أنه وثنى أو أن يعتنق المسيحية قبل شنقه، فاختار التعميد، ويُقال إن آخر الكلمات التى نطق بها: "أنا اسمى خوان وهذا هو اسمى الذى سوف أموت عليه".

سحر منظم:

اتسم غزو البيرو بأنه اعترته تناقضات كثيرة، كان غزوًا كأنه حرب خاطفة على الطريقة الحديثة، لدرجة حدوث الانطباع بأنها، أى هذه الحرب، قد انتهت فى اللحظة التى بدأت فيها والتى تمثلت فى أسر الإمبراطور وتنفيذ حكم الإعدام فيه على يد بيثارو

عام ١٥٣٢م، وتلا ذلك التقدم الإسبانى السريع فى بلد به شبكة رائعة من الطرق. لكن رغم هذا النجاح الأولى، كان غزو البيرو أمراً استغرق زمناً أطول بكثير من عملية غزو المكسيك. وسبب هذا فى المقام الأول هو مقاومة السكان الأصليين، إذ أخذوا يعيدون تنظيم أنفسهم رويداً رويداً بعد موت الإمبراطور، وازدهرت حركة المقاومة خلال الفترة من ١٥٣٦ حتى ١٥٤٤م وظلوا يناوئون الإسبان بشكل دائم حتى وفاة القائد مانكو إنكا Manco Inca واستأنف أبناؤه المقاومة حتى قطع الإسبان رأس أحدهم وهو توباك أمارو Tupac Amaru وكان ذلك عام ١٥٧٢م أى بعد أربعين عامًا على الكمين الذى نصبه بيثارّو لإمبراطور الإنك فى مدينة كاخاماركا.

وبالإضافة إلى العنصر السابق وهو المقاومة التى أظهرها الإنك، تعرض الغزو الإسبانى لمشكلة أخرى وهو الحصار الذى تعرض له الإسبان من الداخل بسبب الحروب الأهلية التى قامت فيما بينهم، حيث حدثت منازعات دامية لاقتسام الذهب والسلطة السياسية، وكذلك الصراعات بين الغُزاة والتاج الإسبانى، وجاء ذلك متدرجاً ومرتبطاً بما يقوم به نواب الملك من إقرار السلطة الملكية واحترام القوانين الهندية الإنسانية، وقد شعر الغُزاة أن حقهم فى الغزو أصبح مهدداً سواء من هذا الجانب أو ذاك، وكان هذا الحق يتضمن عمليات نهب الأرض واغتصابها وكذلك العمل، ويفصح المصير الذى آل إليه آل بيثارو عن ذلك الأمر بوضوح، فقد كان مآل فرانثيسكو، القائد وراعى الخنازير الفظ فى إقليم إكستريمادورا بإسبانيا هو الاغتيال على يد أتباع مناوئه دييجو دى ألماجرو، أما شقيقه إيرناندو فقد أودع السجن عند عودته إلى إسبانيا بشكل مؤبد، أما الأخ الآخر غير الشقيق، جونثالو، فقد ثار على نائب الملك، ثم أعدم عام ١٥٧٨م بعد نصف قرن من الزمان على الغزو. وقد أطلق رومان إى ثامورا فى كتابه "جمهوريات الهنود" على آل بيثارو: "إنهم أسوأ رجال خرجوا من لدن أى أمة ولطخوا اسم ملوك إسبانيا بالعار ومعهم رفاقهم فى الجيش".

هذا التناقض العصبى الذى نشهده فى تاريخ البيرو، أى التناقض بين التسرّع والبطء والاستمرار، وبين سرعة الأرنب وسرعة السلحفاة جرت ترجمته فى شكل

تفصيلات تخفى وراءها الإيقاع الحقيقى للبلاد والثقافة التى وجدها الإسبان هناك، كان ذلك يدور حول مدينة الإنك الكبيرة وهى كوثكو ، حيث دارت معارك عديدة بين الهنود، وبين الإسبان والهنود، والإسبان أنفسهم؛ هى حاضرة ربما كان يبلغ تعداد سكانها مائتى ألف نسمة عشية الغزو. كوثكو تكاد تكون المدينة الحصن المشيدة فوق جبال الإنديز، مثلها مثل ماتشو بتشو Machu Picchu؛ هاتان المدينتان كانتا شاهدتين - فى نهاية المطاف - على عظمة الإنك. وما زلنا حتى اليوم نتعجب من دقة الأسوار المشيدة من الحجارة المتعددة الوجوه، وجرى رصّها إلى جوار بعضها البعض دون الحاجة إلى الملاط، وعندما كانت هناك كتل حجرية ضخمة وثقيلة بشكل يزيد عن الحد كانت تترك على قارعة الطريق ويطلق عليها مسمى "الحجارة المرهَقَة" ولا شك أنها ليست أكثر إرهاقًا من هؤلاء الذين ملوها.

وانطلاقًا من مدينة كوثكو نجد نظام اتصالات ليس له مثيل فى العالم القديم وربما يمكن مقارنته بما كانت عليه روما، وينتشر هذا النظام ليشمل مساحة تقدر بأربعين ألف كيلو متر ابتداء من كيتو فى إكوادور حتى الجنوب أى شيلى والأرجنتين. كان سلطان الإنك أكبر من أى كيان سياسى فى أمريكا ما قبل الغزو، غير أن هذه المساحة الشاسعة للإمبراطورية كانت تتسم بالتعقيد نظرًا لتنوع المناخ والتضاريس. وقد أطلق جان ديسكولا على بيرون بأنها "أرض الوجوه الثلاثة" فهى ذات شواطئ (الصحراء والنار) وهى ذات جبال (السماء والهواء)، كما أن جزءًا منها غابة (الغابات والأنهار). وبين الشاطئ والجبال نجد الكثير من الواحات الخصبة والصحراوات الجرداء؛ هنا، فى بعض المناطق أقبل الناس على زراعة الذرة والقطن، بينما أنتجت مناطق أخرى البطاطس التى هى هدية البيرو إلى أوربا. أما فى المناطق الجبلية فقد طوّرت البيرو الثروة الحيوانية الوحيدة فى الأمريكتين، إنه عالم اللهب وحيوان اللامة guanco والفضة alpaca وهذه العناصر هى الرفيقة الدائمة للهندى فى المرتفعات، وتكاد تكون دائمة مثل موسيقى الكينا quena والفلاوت الحزين فى الإنديز.

كانت وحدة الحكومة التى تسيطر على هذه الأراضى الشاسعة تتطلب قدرًا كبيرًا من الحنكة السياسية والتنظيم الشديد الحزم، وكانت بيرو القديمة تتوفر على هذين العنصرين؛ فقد كانت البيروقراطية كبيرة لكنها تحت السيطرة إذ كان الإمبراطور نفسه يتنقل فى أرجاء البلاد من خلال الطرق المعبدة ويطمئن بنفسه على الأوضاع ويبحث الأمور، وهو فى هذا مسبوق بالمباحث أو أنها تلحق به أو تصدر الأوامر بعملية انتقال السكان للسيطرة على الأراضى التى تم الاستيلاء عليها أو القيام بالحملات الحربية لإخضاع المتمردين. إلا أن الأمر كان شبيهًا بما حدث فى المكسيك القديمة، إذ كانت البيروقراطية والجيش فى نهاية المطاف أسلحة وأدوات فى يد حكومة ثيوقراطية حيث نجد أن الدين والكنيسة يضيفان الشرعية الحقيقية على الإمبراطورية. وقد دخلت هذه الديانة فى تناقض حاد مع التنظيم البطىء والمثابر والمتقشف والدؤوب فى المجتمع، وهى كذلك ديانة الأسطورة والسحر والتحوّل.

ربما كان اللغز الأكبر لهذه الثقافة أصبح معروفًا لنا فى زماننا بفضل الطائرة، فمن خلال الطيران فقط يمكن للعين البشرية أن تميز خطوط ناتكا Nazca(*) ذلك التصميم الهندسى الذى يرسل لنا برسائله الغامضة من أعماق الزمن. نجد خطوط ناتكا فى الوديان جنوب البيرو وهى تشكل تلغرافًا غامضًا يتعلق بالحياة والموت فى بيرو القديمة، ويحدد خطوط القدر والمصير فى كف اليد وتواصل هذه الخطوط دورها فى تغطية الحقائق على هذه الأرض. ومع ذلك فإن غموضها يتحدانا أن نوجد معنى ومغزى لهذه الثقافة التى تقوم على السحر والرؤية الكونية، وأن نستطيع فى آن معًا أن نقدم ونجدد علاقة الكائنات البشرية فى المجتمع بدرجة كبيرة من الدقة والنجاح أحيانًا.

كانت مسألة الأرض مسألة رئيسية فى حضارة مثل حضارة البيرو، فهناك تقسيمان أساسيان يباعدان الأرض عن الشمس. وهما جزءان مزروعان بواسطة الكل

(*) من مقاطعة إيكا فى البيرو، مساحتها ٢٢٠٠ هكتار، وهى منجم ذهب.

ومن أجل الجميع، كما أن أراضى الإنك مخصصة لنفقات الملك والدولة؛ غير أنه من الناحية النظرية نجد أن الأراضى كانت تابعة للدولة، حيث تمنح المجتمعات المختلفة استخدامها، وهذه الأخرى تقوم على وحدة يطلق عليها ayllu أى أحد الأفخاذ القبلية التى تربطها صلة الدماء والمنتظمة فى شكل نواة أقوى من الأسرة (أو من الفرد)، والهدف من ذلك ضمان استغلال الأرض الواسعة والخصبة بشكل جماعى لكنها أرض وعرة. وفى هذا المقام يجرى الحديث عن نظرية اشتراكية كان عليها الإنك وهى نظرية مهمة، إلا أن أهميتها تكمن فى اقتصاد ليس نقدياً، رغم أنه اقتصاد الصفوة بنيوياً. فأعلى قمة الهرم نجد الإنك تليه السلالات العليا من ذى "الآذان الكبيرة" طبقاً لما أطلقه الإسبان عليها، وهم أرستقراط من ذوى الآذان المخرّمة بأقراط الكبيرة، ثم تأتى طبقة الزعماء المحليين فى الأقاليم وهم جميعًا على رأس التنظيمات الأسرية الأخرى فى مجموعات ابتداء من عشرة أفراد كقاعدة يسيطر عليها رئيس الأسرة، ثم تنظيمات تتكون من ٤٠ ألف أسرة بالقرب من قمة الهرم يقوم على شئون تنظيمها حاكم. وعندما يبرز أحد الأفراد يمكن تصعيده إلى درجة أعلى، كما كانت هناك المِلْكية الخاصة كنوع من مكافأة التفوق فى الوقت الذى كان مآل الملكيات الفردية يميل إلى الزوال مع تعاقب الأجيال وتقاسم الأرض بين الأحفاد. هنا يجب أن نضيف أن موت الحضارات الوليدة فى الأمريكتين كان خسارة للغرب، وبخاصة موت حضارة البيرو ذلك أن أممها لم تكن أمماً بربرية بل كانت مجتمعات إنسانية وليدة، تقدم الكثير من الدروس التى كان يمكن أن تفيد بها أوربا عصر النهضة فى الوقت الذى كان فيه العالم القديم يكافح للوصول إلى أنماط جديدة من التعايش الاجتماعى، زد على هذا أنه طبق الكثير من معارفه الأكثر مثالية على العالم الجديد المكتشف حديثاً.

ومن خلال التوتر القائم بين الأمل فى المثاليات وبين واقع الغزو، بزغت ثقافة جديدة فى الأمريكتين، ابتداء من العصر اللاحق على العصر الاستعمارى. فالوقائع المجردة للغزو وجدت إجابة عن الأحداث الأكثر سرية وتنويهاً التى جاءت بها العناصر المناوئة للغزو، أو الغزو المضاد، وهى الشعوب الأصلية المهزومة ثم الموحدون من الهنود

والبيض وأخيراً الأفارقة السود الذين وصلوا حديثًا إلى العالم الجديد، إذ بدأ كل هؤلاء طريقًا يمكن أن نطلق عليه الغزو المضاد لأمريكا أى الغزو الذى قام به من تعرضوا له وهم المهزومون. ثم ظهور مجتمع أمريكى متعدد العرقيات والثقافات.

تحت راية اليوتوبيا:

أعاد عصر النهضة إثارة قضية الإمكانيات السياسية للمجتمع المسيحى أمام كافة الأوربيين، وأعاد طرح موضوع المدينة والإنسان، وهو موضوع كان قد أهمل خلال العصور الوسطى نظراً للأهمية القصوى التى كانت "لمدينة الله"، أما اليوم فإن عصر النهضة يسأل: كيف يجب أن يكون تنظيم المجتمع الإنسانى؟ هل هناك مساحة أو مكان يجتمع فيه المشروع الإلهى والمشروع الإنسانى بشكل فيه تناغم وانسجام؟ يقدم لنا توماس مورو مؤلف "يوتوبيا" (١٥١٦م) الإجابة عن السؤال من خلال عنوان كتابه وهو أن ليس هناك مكان لذلك فلفظة **U-topos** تعنى لا يوجد مكان. غير أن الخيال الأوربى أجاب بسرعة: نعم يوجد ذلك المكان، وهو أمريكا.

يقول المؤرخ المكسيكى إدموندو أو جورمان أن أمريكا لم تكتشف، بل جرى اختراعها، حيث اخترعتها أوربا لأنها كانت ضرورة من أجل الخيال والرغبة الأوربية؛ فبالنسبة لأوربا عصر النهضة لا بد أن يكون هناك مكان به السعادة، أى عصر ذهبى بدأ من جديد حيث يعيش فيه الإنسان متوائمًا مع قوانين الطبيعة. وعندما نتأمل خطابات كريستوفر كولومبوس إلى الملكة إيزابل نجده يصف الجنة على الأرض، وعلى أية حال فإن هذا القائد البحرى ظن أنه قد عثر من جديد على العالم الجديد، عالم كاتاى **Catay** وثيبانجو **Cipango**، أى إمبراطورية الصين واليابان. كان أمريجو بيسبوثو **Amerigo Vespucio** المكتشف الفرونسى أول أوربى قال بأن القارة الأمريكية فى واقع الأمر هى عالم جديد، نحن نستحق هذا الاسم، وكان هذا الرجل هو الذى وطد الجذور الأولى لفكرة أمريكا كيوتوبيا. ويرى أن يوتوبيا ليست المكان الذى لا وجود له، بل يوتوبيا هى مجتمع يعيش سكانه فيه ويحتقرون معدن الذهب:

"تعيش الشعوب فى توائم مع الطبيعة"، وقد كتب هذه العبارة فى كتابه "عالم جديد" **Mundus Novus** عام ١٥٠٣م، "لا يملكون شيئًا، وكل ما يوجد يتمتع به الجميع" وإذا لم تكن هناك أملاك فهم ليسوا بحاجة إلى حكومة، "ويعيشون دون ملك أو أى شكل من أشكال السلطة وكل فرد هو ملك نفسه". وأكد بعد هذا الاستنتاج بالتأكيد على وجود اليوتوبيا الفوضوية فى العالم الجديد بالنسبة لأهل عصر النهضة الأوربية.

وابتداءً من هذه اللحظة، نجد أن الرؤى اليوتوبية لعصر النهضة الأوربى يتم التأكيد عليها من قبَل عمليات الاستكشاف اليوتوبى لمكتشفى أمريكا "إنه عالم جديد شجاع به أناس على شاكلته!" وهذا ما صاح به شكسبير فى "العاصفة"؛ وفى فرنسا نجد مونتين يتفق مع هذا الإحساس، وكتب يقول "بأن شعوب العالم الجديد تعيش فى ظل الحرية العذبة للقوانين الأولى للطبيعة التى لم تصب بالدنس". كما أن أول مؤرخ لحملة كولومبوس، وهو بدرو مارتر دى أنجيريا، أشار إلى صدى تلك المشاعر بقوله:

"إن الناس يمشون عرايا... ويعيشون فى عصر ذهبى بسيط وبرىء، دون قوانين أو صراعات أو أموال وهم سعداء بأنهم أرضوا الطبيعة".

هناك أيضًا نجد المؤرخ الأول للبرازيل، بدرو باز دى كامنيا **Pedro Vaz de Caminha** كتب لملك البرتغال عام ١٥٠٠م: "سيدى، لم تكن البراءة التى عليها آدم أعظم من تلك التى عليها هذه الشعوب".

إلا أنه يوم الأحد، عشية الاحتفال بعيد ميلاد المسيح عام ١٥١١م، صعد الراهب الدومنيكانى أنطونيو دى مونتسينوس على منبر إحدى الكنائس فى جزيرة "الإسبانية" وأشبع الحاضرين من أتباع الكنيسة من الإسبان تقريعًا:

"قولوا لى: أى حق وأى عدل هذا الذى يخول لكم هذه المعاملة الفظة أو المهينة لهؤلاء الهنود؟ .. ليسوا ببشر؟ أليس لهم روح يعقلون بها؟".

كان هناك الكثير من المستعمرين ومن سار على دربهم من المناهضين لليوتوبيا فى أوربا يرفضون أن يكون السكان الأصليون فى أمريكا لهم أرواح، أو أنهم كائنات بشرية.

وكان أبرز هؤلاء دارس الإنسانيات الإسباني ومترجم أرسطو، خوان خنيس دى سيبولبيدا، حيث رفض عام ١٥٤٧م (أى بعد أن تم غزو شعوب المكسيك والبيرو) بأن الهنود هم جنس بشرى حقيقى، ومنح الإسبان كل الحق والصواب فى غزوهم:

"للإسبان الحق الكامل فى السيطرة على هؤلاء البربر فى العالم الجديد والجزر المجاورة، وهذا مسلك يجب أن يتسم بالحكمة والفطنة والفضيلة والإنسانية، وهؤلاء البربر هم أقل من الإسبان كأنهم أطفال مقارنة بالبالغين، أو نساء مقارنة بالرجال، كما أن هناك فوارق بينهم مثل تلك التى نجدها بين أناس قساة غلاظ وآخرين رحماء، أى إن الفارق كبير بين العقلاء والحمقى، وهنا ربما أجرؤ على القول بأن الفرق هو مثل الفرق بين القردة والبشر... وأى خير يمكن أن يكون قد وقع بهؤلاء مثل خضوعهم لإمبراطورية هؤلاء الذين يتحلون بالحكمة والفضيلة الدينية، الذين عليهم أن يحولوهم من بربر لا يستحقون حتى مجرد أن نطلق عليهم مسمى البشر، إلى أناس متحضرين، كلما كان ذلك فى دائرة الممكن، من أناس ذوى سلوكيات خرقاء وغير رصينة **Libinosos** إلى أناس ذوى حكمة وبصيرة، ومن أعوان الشياطين وخدم لهم إلى مسيحيين يعبدون الرّب؟".

هذه كانت النظرة لسكان العالم الجديد، فهم سذج وآكلو لحوم البشر وبربر وخونة ويعيشون عُراة يرتكبون الآثام، وهنا نقول إنه طوال تاريخ أمريكا الإسبانية كان يجب أن يكون هناك تعايش بين المتوحش النبيل وتاريخ الاستعمار والعمل القسرى، غير أن حلم عصر النهضة ظل قائمًا رغم الظروف غير المواتية وتحول إلى مكون أساسى فى الفكر الإسبانى الأمريكى، لقد تربينا إذن على اليوتوبيا، واليوتوبيا هى قدرنا.

غير أن هذه الأراضى المكتشفة حديثًا لم تكن فى نظر المستعمرين مجتمعات مثالية، بل كانت مجرد مصدر للثروة التى لا ينضب لها معين، فقد ألح كريستوفر كولومبوس على وفرة الأخشاب واللؤلؤ والذهب؛ أى إن الغاية هى الوصول إلى تلك المحصلة القائلة بأن العالم الجديد ما هو إلا الطبيعة. وإذا ما كان يوتوبيا فهى بدون تاريخ إذ كانت الحضارة والإنسانية بمبعد عنها. كان هذا الاستنتاج ينادى بحسم

قضية تعليم الهنود الأمريكان الديانة المسيحية والتحضر أم لا على يد الأوربيين؛ وبعد ذلك سرعان ما جرى طرح القضية الخاصة بما إذا كان مصير الأمريكان هو تحويل العالم الجديد إلى "عصر ذهبى" بالمعنى الحرفى للكلمة، أى جعلهم يعملون فى المناجم وفى حقول هذه الأراضى التى سيطر عليها الإسبان واعتبروها حقهم بفعل قانون الغزو. جرى تدمير السكان الأصليين فى الكاريبى بفعل الأشغال الشاقة والأمراض الأوربية والصدام الحضارى العنيف إذ تشير بعض التقديرات إلى أن تعداد سكان المكسيك من الهنود عشية الغزو كان يصل إلى ٢٥ مليون نسمة؛ وتناقص العدد إلى النصف بعد خمسين عامًا، ثم إلى ما يزيد قليلاً على مليون نسمة عام ١٦٠٥م طبقًا لما أوردته كل من باربارا وستانلى ستين فى كتابهما "الموروث الاستعمارى لأمريكا اللاتينية".

إذا ما كانت أمريكا فى البداية جنة الله على الأرض، فقد تحولت بسرعة إلى قارة عدائية، وتنامت هذه العدائية فى وقت واحد على عدة محاور، أحدها المعاملة التى يلقاها الذين تعرضوا للغزو من قبل المستعمرين، وثانيها أغراض وأهداف المستعمرين من وراء ممارسة السلطة فى العالم الجديد، أما ثالثها فهى الغايات والأهداف المغايرة التى عليها التاج.

الأمير الذى لم يكن أبدًا:

شكلت العلاقة بين التاج الإسبانى وبين المكتشفين والغُزاة واحدة من أبرز الأزمات التى يواجهها العالم الجديد الشجاع، وكان لهذه الأزمة صلة بعملية الاستيلاء على الأراضى والعمل، وبالتالى فهى أزمة مرتبطة بممارسة السلطة السياسية، وهذا موضوع لا زال حيًا لأنه لم تحسم بعد قضية الشرعية الخاصة بالملكية الإسبانية لثروة أمريكا. فمن هو الأحق بهذه الثروة وكيف يتم توزيعها؟ هل هناك تبرير واضح لأنظمة الملكية الحالية وكذلك التوزيع؟ ما زالت المعركة قائمة فى هذا الميدان ابتداء من المكسيك وحتى نيكاراجوا ومن بيرو حتى الأرجنتين.

غير أن المنظور خلال القرن السادس عشر يكمن فى معرفة موقف الملكية الإسبانية، العازمة على تأكيد توجهاتها المركزية (فى الوقت الذى تريد فى التجمعات السكانية المختلفة تأكيد توجهها نحو المزيد من الديمقراطية)، وهل هى على استعداد للسماح بالسير فى أحد هذين الطريقين فى العالم الجديد وهما الإقطاع أو الديمقراطية؟

لم يكن الغُزاة يهتمون بأمر عدالة التوزيع، فقد غزوا العالم الجديد هكذا وببساطة، وهم القوة الوحيدة الكائنة فى المكان، إذ يمكن لهم اغتصاب الأرض والعمل على هواهم، فمن كان قادرًا على إيقافهم؟ وقد أطلق على نظام السيطرة الذى أقره اسم "الإقطاعية" **Encomienda** أو الدائرة، وهى إدارة جباية الضرائب من الهنود مقابل الحماية وخلاص أرواحهم بتعليمهم أصول الدين؛ غير أن جوهر هذا المسلك هو العبودية المقنعة.

كان إيرنان كورتيس يملك إقطاعية صغيرة فى كوبا، وشهد آلية عملها عن قرب، واطلع على الكوارث الديمغرافية، وكذلك الاقتصادية الناجمة عن الممارسات الاستعمارية، فأراد، فى بداية الأمر، الحيلولة دون تطبيق هذه التجربة فى المكسيك، وحينئذٍ اتُّهم بالليونة المفرطة مع المهزومين، ومن هنا أخذ رجاله يطالبون بالمكافأة على ما قاموا به وما أظهروه من شجاعة، وأن هذه المكافأة هى الأرض والهنود.

وهنا قام كورتيس بدور محامى رجاله، ووصل به الأمر فى هذا المقام أن ارتكب خطأً تأييد وجود "الدائرة" أو "الإقطاعية" فى رسالة موجهة إلى كارلوس الخامس. كان ذلك خطأً سياسيًا، وربما كان أيضًا بداية الحظ التّعِس للغازى، إذ كان ردّ كارلوس الخامس هو الأمر بمنع الإقطاعيات، ومن المؤكد أيضًا أن تكونت فكرة سيئة عن كورتيس باعتباره مخادعًا وانفصاليًا فى العالم الجديد.

زاد كورتيس من سوء سمعته بترؤسه حملة موجهة إلى هندوراس واكتشف أن مدينة المكسيك قد أعيد غزوها على يد الرجال الذين يرتدون الملابس السوداء،

أى البيروقراطية الملكية الإسبانية، التى تسلحت بالصحائف والأقلام، فقد قام المسئولان الرسميان عن الخزانة، وهما سيرينوس وسالازار بالسيطرة على الحكومة ونصبوا محكمة للغازى، وكانت قائمة الاتهامات الموجهة لكورتيس كثيرة تبدأ بسرقة خزانة موكتيزوما **Moctezuma** وتنتهى بالدفاع عن نبل الهنود وحمايتهم من أعمال السخرة، كما تشمل اتهامه بخنق امرأته كتالينا خواريث التى أمر بأن تأتى من كوبا بعد أن استبعد " لاما لينشى" وأعطاها لأحد جنوده؛ كما اتهم بتمويل وقيادة الحملة الفاشلة على هندوراس، وكذلك اغتيال مناوئيه على الحكم بالجبن المسموم.

تحول وضع كورتيس من المنتصر الذى يحمل أكاليل الغار إلى الضحية، فأدين وأهين وأعيد إلى إسبانيا؛ ورغم أنه حصل على لقب اجتماعى كنوع من العزاء فإن حكم المكسيك انتقل إلى يد ضابط متواضع المستوى، بينما كان مصير كورتيس، أحد أبرز رجالات أوربا عصر النهضة، العزل وسحب الصلاحيات. ومن جانب آخر كانت طلباته وإلحاحه على استعادة وضعه وطلبه المال سببًا فى شعور البلاط والبيروقراطية بالملل منه، وسرعان ما تبخرت التجديدات التى جاء بها مثل الأقزام من الهنود وكرات المطاط لإدهاش الأرستقراطية الإسبانية والمستشارين الملكيين. تلفت النظر بشدة تلك الألقاب التى أطلقها على كارلوس الخامس "الكاثوليكى المقدس وجلالة القيصر". لقد قضى كورتيس فترة شبابه وهو يجلب السلاح، يحمله على كتفيه، ويعرّض نفسه للخطر وينفق ماله ويضيع عمره طوال أربعين عامًا بغية إعلاء اسم مليكه ورفعته - حيث يكتب لهذا الأخير - واستطاع أن يضع بين يديه وأمام صولجانه الملكى الكثير من الممالك الكبرى وإقطاعات الكثير من أمم البربر، وقد تمكن من كل هذا بفضل خبرته وإقدامه ولم يمد له أحد يد العون، فقد اعترض طريقه الكثير من الحاقدين "الذين تغذوا على دمائى حتى الثمالة باستغلال بشع"؛ ها نحن نراه الآن طاعنًا فى السن وفقيرًا ويصرّ على أن الخدم يشكونه لأنهم لا يقبضون رواتبهم. وعندما بلغ الثالثة والستين من العمر لم يشأ السير على ما هو عليه بل فضل أن يقطف ثمرة ما فعل، وأن يعود إلى المكسيك وأن يأخذ العدل مجراه وأن يتوب إلى الرّب..

لم يكن ما حل بكورتيس أسوأ مما حل بآخرين، فلم يعد إلى إسبانيا مكبلاً بالأغلال مثلما حدث لكريستوفر كولومبوس، ولم يجر إعدامه على الملأ بتهمة خيانة العرش كما جرى لجونثالو بيثارّو فى بيرو، ورغم أنه لم يتجرع السمّ كما حدث لدييجو دى أورداث، أحد ضباطه فى أثناء حملة الاستكشاف فى نهر أورينوكو **Orinoco**، فإنه لم يتواءم مع الوضع المريح وأن يبقى فى الصف الثانى مثل جونثالو خيمنث دى كيثادرا، "القادوم الحقيقى للغزو"، إذ بعد أن سيطر على هنود "شبشا"، فيما يسمى اليوم بكولومبيا، حاد عن الطريق وأخذ يبحث عن منطقة **Dorado**، ويحتمل أن انزوى فى إحدى الضيّاع. كما أنه من المؤكد أن كورتيس وكافة الغُزاة لم يصبهم مسّ من الجنون مثلما حدث للوبى دى أجيرىّ، الرجل الذى انضم أيضًا إلى حملة على منطقة **Dorado** عام ١٥٦٠م واغتال القادة وتمرّد على ملك إسبانيا وحاول أن يكون له ملكه الخاص فى منابع نهر الأمازون. وكان مصير كل من عارضوه فى ارتكاب هذه الخطوة المجنونة هو الموت بما فى ذلك القساوسة الذين كانوا يرافقونه وابنته.

كانت آخر خطوات الإذلال لكورتيس، الألم الذى اعتصره، هو أنه لم يكلف بالحملة على المورو فى الجزائر عام ١٥٤١م. والشىء المثير هو أنه بعد أن استرد توازنه النفسى حصل على إقطاع ضخم لكنه مهلهل يمتد من كويرناباكا **Cuernavaca** حتى أواكساكا **Oaxaca**، لكنه حُرِمَ من المدينة العاصمة لهذا الملك الجديد، وهى مدينة أنتكيرة **Antequera**، جنوب المكسيك. وبعد فترة جاءته الثروة، فقد أصبح ماركيز وادى أواكساكا، لكنه حرم من الإحساس بالفخر بأن ذلك ملكه، ولا شك أن أحلام الخمسمائة رجل القُساة والطموحين الذين انتقلوا معه من بيراكروث **Veracruz** إلى العرش الذهبى فى موكتيزوما **Moctezuma** بدت فى عينيه متباعدة فى حقيقة الأمر.

غير أنه يجب أن ننظر إلى إيرنان كورتيس كشخصية فريدة فى عصر النهضة وذلك لأمر يتجاوز حملاته الحربية، فقد كان شخصية مكيافيلية تجهل نفسها. ولا شك أن مكيافيلى هو الأخ الأكبر لغُزاة العالم الجديد؛ إذن من هو إذن "الأمير" اللهم إلا إذا كان كتّيبًا فى يد الرجل الجديد فى عصر النهضة، أى الرجل الجديد الذى يتهيأ

ليصنع مصيره بيديه من خلال إرادته رغم الصعاب وقد تحرر من الضغوط الكثيرة التى هى الموروث الضخم أو نبل الأصل؟ يتولى الأمير غزو مملكة هذا العالم، مملكة رفض اليوتوبيا. غير أن كورتيس كان الأمير الذى لم يكن أبداً.

وحقيقة الأمر هو أن كلاً من سوء العاقبة الذى تجسد فى موكتيزوما، والإرادة التى مثلها كورتيس لم يكسبا المباراة النهائية، إذ تمكنت مؤسسات العرش الإسبانى والكنيسة، أى الاستبداد الملكى والكاثوليكية، من هزيمة كل من الغازى ومن تجرّع الغزو، وأقامت، بدلاً من البُنى الرأسية الخاصة بالسلطة فى حضارة الأثتيك، بنى أخرى رأسية لكنها خاصة بالأسرة "النمساوية **Austrias**؛ نحن إذن أحفاد هذين البناءين الرأسيين، كما أن كفاحنا بعناد من أجل الديمقراطية هو بالتالى الأكثر صعوبة والأكثر إثارة للإعجاب فى آن معًا. لكن علينا أن نفهم أن غزو العالم الجديد كان جزءًا من دينامية "استرداد إسبانيا" **La Reconquista**، إذ كان الغُزاة ثمرة هذه الحملة، وكانوا أيضًا ثمرة نزعة إلى الفردية ذات توجه حديث وأصول مكيافيلية شاعا فى كافة أرجاء أوربا عصر النهضة. كانوا أناسًا يميلون إلى العُلا ورجالاً طموحين قادمين من كافة الطبقات الاجتماعية، إذ كان بعضهم من طبقة العمال وآخرون من صغار علية القوم غير أن الغالبية العظمى منهم كانت تُنسب إلى الطبقة الوسطى الصاعدة.

ومع هذا نجدهم فى العالم الجديد لم يشجعوا على مثالية المجتمعات المدنية والديمقراطية التى دافع عنها الكثيرون من أجدادهم خلال العصور الوسطى. كان من الممكن للإسبان الذين شاركوا فى الغزو اختيار الطريق الخاص بالطموح الشخصى وصعود درجات السلم الاجتماعى فى إطار الشرعية مثلما الرجال الجدد فى كل من إنجلترا وفرنسا، ولو فعلوا ذلك لكانوا بغزوهم للهنود قد تمكنوا أيضًا من غزو العرش. كان من الممكن أن يكونوا آباء ديمقراطيتهم السياسية كما كان المستوطنون الجدد فى إنجلترا الجديدة، لكن الغُزاة لم يختاروا هذا الطريق، وربما لم يتمكنوا من هذا الاختيار؛ كان أمامهم خيار الفردية كديمقراطية أو الفردية كمزايا إقطاعية فاختاروا الثانى، وبالتالى ضحّوا بالبُعد الفردى وبالأبعاد المدنية ورنوا إلى صورة للسلطة لم تكن

لأجدادهم فى إسبانيا، كان الغُزاة يريدون أن يكونوا من علية القوم hidalgos وفرسانًا لهم أملاكهم، غير أن الانتساب إلى علية القوم كان يعنى عدم ممارسة العمل، وفى الوقت ذاته إجبار الآخرين على العمل لصالح واحد؛ هذا الانتساب كان يعنى النصر فى الحرب وأن تكون الغنيمة هى الأيدى العاملة والأرض.

أصبحت الأرض كمقابل واحدة من قواعد السلطة الاقتصادية فى أمريكا الإسبانية مثلما كان الحال فى إسبانيا العصور الوسطى، ورغم أن الغُزاة قد قبلوا دائمًا بنصيب الخمس للملك فإنهم سيطروا على كل ما غزوه، لكنهم لم يسهموا فى خلق مجتمعات مدنية وديمقراطية فى العالم الجديد، فالغُزاة كانوا يريدون السلطة الإقطاعية لأنفسهم، إلا أن العرش أفشل ذلك، وأصر على إقامة السلطة المطلقة التى تُمارس من بعيد، من شبه الجزيرة الأيبيرية؛ لكن بُعد المسافة والمطالب المحلية للحكومة هيأت للغُزاة ولأبنائهم وأحفادهم سلطات واسعة وفورية، وإذا ما تمخض عن هذا الصراع، بعد فترة، نوع من الالتزام بين العرش والغُزاة، فقد كانت هناك خطوات سابقة عبارة عن نقاش حاد حول طبيعة الهنود وحدود السلطة فى العالم الجديد.

"الهند الجديدة تتعرض للدمار"!

كانت هذه هى الصيحة التى أطلقها فراى بارتولوميه دى لاس كاساس، الرجل الذى أخذ خطبة عيد الميلاد المجيد عن الأب مونتسينوس عام ١٥١١م وكذا تساؤله عن مصير الهنود: "هل هؤلاء ليسوا ببشر؟ أليست لهم قلوب يعقلون بها؟".

كانت عظة مونتسينوس، كما كتب المؤلف الدومنيكانى الحديث بدرو إنريكيث أورينيا، أول صيحة من أجل حرية أمريكا. كان بارتولوميه دى لاس كاساس يملك عددًا من العبيد فى كوبا، وفى عام ١٥٢٤م رفض هذه الملكية والتحق بالجماعة الدينية الدومنيكان، واتهم الغُزاة بعدد كبير من الجرائم والاعتداءات فى حق الهنود الذين كانوا رعية الملك، ولم يكن من حق الغُزاة أن يتولوا أمرهم وكأنهم رؤوس قطعان ماشية.

وعلى مدى ما يقرب من خمسين عامًا، ابتداءً من اللحظة التى ترك فيها إقطاعيته أو دائرته فى كوبا، عام ١٥١٥م وحتى وفاته ١٥٦٦م لم يكف الأب لاس كاساس عن إدانة "تدمير الهند الجديدة"، على يد الغُزاة واتهامهم "بالإساءة والإضرار بسمعة ملوك قشتالة، والقيام بتدمير كل ممالك هؤلاء فى كافة أنحاء الهند الجديدة"؛ ووصل الأمر به فى هذا إلى إطراء الهنود على ما أبدوه من مشاعر دينية رغم أنهم من الوثنيين. تساءل لاس كاس: ألم يكن اليونانيون والرومان والعبرانيون من عبدة الأوثان أيضًا؟ وهل هذا التديّن الوثنى قد أقصاهم عن سماتهم الإنسانية أم أنه جعلهم مهيئين لاعتناق الدين؟ رفض لاس كاساس حقوق الغزو وخاصة الإقطاعية حيث اعتبرها، أى الدائرة:

> حكم طغيان به الكثير من الظلم والقسوة بدرجة أكبر من تلك التى يمارسها فرعون مصر ضد اليهود... وبالتالى فإن الملوك يتصرفون بعنف ولا يراعون منطق العقل والعدل وينتزعون من سادة شعوبهم ورعيتهم حريتهم وحيواتهم...

هذه الأفكار الحديثة عن طبيعة العلاقة بين السيد والعبد، وكذا مطالب بارتولوميه دى لاس كاساس الرئيسية جرى ضمها إلى "القوانين الجديدة الخاصة بالهند" والتى تم إقرارها عام ١٥٤٢م، وهنا نجد أن الإقطاعية قد ألغيت قانونًا رغم أنها بقيت على أرض الواقع لكنها تحت قناع ما يسمى بالحصة **Repartimiento** أو ذلك المَنْح المؤقت للعمال الهنود، وكأن ذلك أمر دائم فى النظام الملكى المتعلق بتوزيع الثروة فى العالم الجديد؛ واصل العرش الإسبانى محاربة هذا وأخذ يُحل محله أنظمة إدارية وأنظمة رقابة ملكية رافضًا على الغُزاة وأبنائهم وأحفادهم حقوق ملكية الأرض وأخذ يؤجل بشكل لا نهائى تنفيذ تلك القرارات التى منحت الغُزاة ونسلهم هذه السيطرة الإقطاعية والألقاب الاجتماعية أو حقوق الإرث.

يمكن القول فى هذا المقام، مع كل الاحترام للأب بارتولوميه دى لاس كاساس، إنه كان الأداة الأكثر صلاحية فى يد العرش لمهاجمة النوازع الإقطاعية، فى إطار الدفاع

عن القيم الإنسانية. إلا أن التحليل النهائى للوضع يؤكد أن هذا الكفاح قد هيأ مساحة ضخمة للسلطات "الفعلية" التى يمارسها الغُزاة، مع الحفاظ دومًا على هيمنة العرش. جرى وضع الغُزاة ونسلهم، عن عمد، من قبل العرش، فى إطار قانونى على أنهم مغتصبون، غير أنه قيل عن "قوانين الهند الجديدة" أنها تشبه شبكة العنكبوت التى لا تمسك إلا بصغار المجرمين، لكنها تسمح للكبار منهم بالإفلات منها بحرية.

هناك الكثير من الشواهد، التى ترجع إلى القرن السادس عشر، التى توضح مدى فظاعة نظام الإقطاع والقسوة فى استغلال العمال فى منجم "لاميتا" **La Mita**؛ وقد طالعنا جوامان بوها دى أيالا، أحد نسل نبلاء الإنك **Incas**، برسومات رائعة حول الحياة فى بيرو تصف الحصانة الكاملة لأصحاب الإقطاعات؛ كما نجد رسومات **De Bry** التى كانت ضمن الكتاب الناجح الذى ألفه الأب لاس كاساس بعنوان "تدمير الهند الجديدة" **Destruccion de las indias**، فى جذور ما سمى "بالأسطورة السوداء" لإسبانيا الغليظة والدموية والسادية التى تمعن فى تعذيب واغتيال رعاياها فى المستعمرات، وهذا يدخل فى تناقض غير مباشر مع النقاء والطهارة التى عليها المستعمرون الفرنسيون والإنجليز والهولنديون. ومع هذا نجد أنه بينما هؤلاء يضفون قناع الرحمة على فظاعاتهم وقسوتهم اللاإنسانية فإنهم لم يفعلوا أبدًا ما سمحت به إسبانيا؛ وكان هذا الأمر مثار جدل استمر ما يقرب من قرن من الزمان حول طبيعة الشعوب التى تعرضت للغزو وحقوق الغُزاة: فهناك النقاش، الحديث، الأول، حول حقوق الإنسان، وهذا الأمر يبدو أنه لم يقلق أبدًا السلطات الاستعمارية الأخرى.

لا نعدم فى هذا الحوار بعض اللمحات الفكهة سواء من جانب الشعوب الأصلية أو من الجانب الإسبانى؛ كان كاويوليكان **Caupolican** موظفًا لدى الغُزاة، غير أنه عندما حانت لحظة وفاته صاح قائلاً: "كم كنت أود لو أننى أنا الذى قمت بغزو إسبانيا". وقد عبر عن الفكرة نفسها، لكن على الشاطئ الآخر للمحيط، أحد المدافعين عن حقوق الإنسان وهو رجل مهم على درجة الأهمية التى كان عليها لاس كاساس؛ إنه الأب فرانثيسكو دى بيتوريا، من طائفة اليسوعيين، حيث تحدث من منبره الأكاديمى

فى سلمنقة Salamanca، عام ١٥٣٩م وسأل طلابه فيما إذا كانوا يقبلون أن يُعامَل الإسبان فى إسبانيا على يد الهنود على شاكلة ما يتلقاه هؤلاء من معاملة فى أمريكا؛ وأضاف أن الاكتشاف والغزو لا يعطيان لإسبانيا المزيد من الحقوق على الأراضى الأمريكية مقارنةً بما كان يمكن أن يكون فى حوزة الهنود لو حدث العكس. الشىء نفسه يمكن أن يُقال عن الاستعمار الإنجليزى لأمريكا الشمالية؛ غير أن ما استطاع الأب بيتوريا تحقيقه هو أنه تمكن من خلال كتبه التعليمية من عولمة مشكلة السلطة الاستعمارية وحقوق الإنسان بالنسبة للشعوب التى تعرضت للغزو. حاول هذا الأب وضع القواعد الخاصة بتقليص السلطة الاستعمارية من خلال الدفاع عن حقوق الناس. كان خنيس دى سيبولبيدا هو الشخص الذى يقف فى المعسكر المضاد للسابق، إذ اتهم الهنود بأنهم أكلة لحوم البشر والتضحية بالإنسان فى مجتمع غير بعيد كثيراً فى قانونه عن مجتمع النمل، وقال إن الهنود هم قوم ينسبون إلى ما قبل التحضر ولهذا من المشروع غزوهم على يد الرجال المتمدنين فى أوربا وأن تُنزع منهم أملاكهم وذلك مقابل تمدّنهم. لكن ألم يكن الإسبان - طبقًا للرد الفورى الذى قام به الأب بيتوريا - قد اقترفوا هم أيضًا جرائم ضد الطبيعة؟ ألم تكن كافة الأمم الأوربية مذنبة هى الأخرى بما فعلت من تدمير وحروب؟ إذا ما كان ذلك حقيقة فلا أحد يملك الحق الأخلاقى فى غزو الهنود.

وإلى جانب هذا النقاش الحاد والمكثف فى إسبانيا نجد الكثير من الرُهبان فى أمريكا يحاولون تطبيق قواعد الشفقة والإنسانية على الشعوب الأصلية، وكان باسكو دى كيروجا، أسقف ميتشواكان، أبرز هؤلاء، فقد وصل إلى المكسيك فى العقد الرابع من القرن السادس عشر ١٥٣٠م وهو يحمل معه "يوتوبيا" توماس مورو تحت إبطه، ولم يتباطأ أو يتوان فى تطبيق قواعده على طوائف الهنود التارسكيين tarascos، أى أن تكون لهم ملكية مشاع، وأن يكون عدد ساعات العمل فى اليوم ست ساعات، والاستعباد الرفيع والمحاكم الأسرية التى يتم انتخابها والتوزيع العادل لثمرة الجهد والعمل.

كان دافع كيروجا، فى هذا المقام، والذى أطلق عليه الهنود التارسكيون اسم شهرة هو "تاتا باسكو" والذى ما زال قائمًا حتى اليوم، هو رؤية للعالم الجديد على أنه اليوتوبيا:

> ذلك أنه ليس من باب الصدفة أن يطلق على هذا المكان العالم الجديد، وهو بالفعل العالم الجديد لا لأنه تم العثور عليه من جديد وإنما لأن أهله وكل ما حولهم تقريبًا هو ذلك الذى يُنسب للعصر الأول والعصر الذهبى وأن لؤم أمتنا وطمعها هو الذى حول كل هذا إلى جديد أو ما هو أسوأ.

كلما امتد وتوسع سلطان الاستعمار الإسبانى زادت مقاومة السكان الأصليين أو أصابهم التخاذل أو الاندماج، وهنا نجد أن باسكو كيروجا حاول المصالحة بين المصالح الاستعمارية لإسبانيا ومصالح المجتمعات الزراعية، وكان النجاح هو ثمرة هذا الجهد ولكن على المستوى القانونى العام، فقد تم الاعتراف بالملكية الجماعية فى قرى السكان الأصليين على مدار العصر الاستعمارى وحتى مرور فترة ليست بالقصيرة من القرن التاسع عشر، أى عندما تمكنت الأنظمة الجمهورية الليبرالية فى نهاية المطاف من القضاء على النظام المتبع، باسم الملكية الفردية التى كان ينظر إليها على أنها صنو التطور؛ إلا أن العرش استطاع إنقاذ الكثير من هذه المجتمعات الزراعية للسكان الأصليين من الزوال، وقد ساعدت هذه التقاليد، التى امتدت عبر الزمان، المتمردين، من أمثال إميليو ثاباتا فى المكسيك، على إعلان تمرّدهم باسم الحقوق التى منحتها الملكية الإسبانية.

أخذت الوحدات الريفية تتجزأ وتتجزأ باسم المنافسة بين القرى ذات السكان الأصليين الخُلَّص وبين مجتمعات المولّدين، غير أنه قد توطدت طبيعة العمل، واستمر ذلك حتى يومنا هذا فى نظام "المالية"، وهو عبارة عن ملكية مساحات كبيرة من الأراضى، التى تمخضت عن نظام الإقطاعيات، أى إن العمل الذى يقوم به السكان

الأصليون هو مقابل الحماية واعتناق الديانة المسيحية، ونظام الحصص، أى، ببساطة، توزيع العمل بين السكان الأصليين لفترة مؤقتة. قامت الإقطاعية إذن على شكل نهائى هو الإذعان بالعمل: أى نظام العمالة، أو ما يسمى بنظام الدين الذى يجب على العامل سداده، وهو نظام مؤبد بالنسبة له طوال حياته وحياة نسله. لم يستطع العرش السيطرة على هذا الشكل الغادر من أشكال الاستعباد ما دام أن "الإقطاعية" أخذ رصيدها يزداد، دونما كثير من الدعاية، فى صمت، وشرعية الأنظمة الخاصة بالإقطاعات الكبيرة فى إسبانيا وأوربا. وبدلاً من تسليط الضوء على علاقات العمل، قام "النظام الإقطاعى" بتصويره على أنه مجرد ملكية للأرض: كانت الأرض ضرورية لمجابهة النمو فى تعداد السكان من الإسبان والمولّدين، بينما أخذ عدد الهنود فى التناقص وتوطّد هذا النظام الاقتصادى، من خلال الاغتصاب المباشر المتستر تحت قناع "منح الأراضى، والحصول عليها، وزيادة المساحة والدمج والكفاءة الاقتصادية"، وهو ما يشرحه شارل جيبسون فى كتابه "إسبانيا فى أمريكا":

> هذه الأرض التى تم منحها فى الأصل فى مساحات صغيرة نسبياً، حصل عليها المضاربون الاستعماريون بعد ذلك ثم بيعت المرة تلو الأخرى قبل أن تأخذ الشكل النهائى الذى عليه الإقطاعية، كانت صكوك الملكية لأغلب "الإقطاعيات" عبارة عن ملفات كثيرة تضم العديد من الملكيات الصغيرة.

امتدت هذه الظاهرة على مدار القرون وانتقلت من الإدارة الاستعمارية إلى الإدارة الجمهورية، وأصبحت أيضاً قاعدة تقوم على أساسها أمريكا اللاتينية بلعب دورها على الساحة الدولية كمورد للمواد الأولية وكمستورد لرأس المال والمواد المصنعة، وأوضحت الظاهرة أيضاً خفايا الفساد السياسى الذى على أساسه يقوم النظام الاقتصادى والنفاق الأخلاقى الذى سمح حتى للكنيسة أن تتخلى عن خيالاتها اليوتوبية والحصول على مساحات كبيرة من الأرض كأساس لسلطانها السياسى والاقتصادى الحقيقيين، كل هذا كان بفضل تسليط الضوء على ملكية الأراضى وليس ملكية العامل.

ورويداً رويداً أخذ المستعمرون يختفون من الساحة ويحل محلهم نسلهم وكذلك الإسبان الذين رحلوا إلى العالم الجديد للعيش فى المستعمرات، وهنا أخذ الجميع يوائم نفسه، كيفما استطاع، سواء مع المبادئ العامة للقوانين الإنسانية أو مع الموقف الفعلى الذى وجدوا آباءهم عليه فى هذه الأراضى البعيدة، فالمسافة الفاصلة بين العرش وبين أملاكه أخذت تزداد حدة مع الانحطاط الاقتصادى الذى عاشته إسبانيا خلال القرن السابع عشر، فقد كانت حكومة الملك فيليب الثالث غارقة فى أزمة اقتصادية عنيفة مع بداية القرن، فقد توقفت عن دفع رواتب إدارييها فى المستعمرات فوجد هؤلاء أنفسهم مُجبرين على الحصول على دخولهم من خلال عمليات تجارية مشبوهة وهى مفاسد حقيقية حولت الموظفين المحليين فى المستعمرات التابعة للتاج إلى أناس من ذوى السطوة Caciques على المستوى المحلى، فأقاموا الاحتكارات الاقتصادية فى المناطق التابعة لإداراتهم وتحالفوا مع التجار فى المكان الذى هم فيه، حيث عمل هؤلاء على أن يتلقى الموظفون رواتبهم مقابل قيامهم بإجبار الهنود على قبول قروض إجبارية، وبعد ذلك تسليم المحاصيل بأسعار ثابتة إلى حلف الموظفين والتجار فى حالة عدم القدرة على سداد الدين، وبالتالى أخذت ديون الفلاحين ترتفع بشكل كبير لا حدود له. إنها المواقف الجميلة التى نعرف بها من خلال هذه الصورة الراديكالية الأصلية للفساد المنتشر فى الحياة العامة والخاصة فى أمريكا اللاتينية، فقد كان المراقب، القائم على أمر جباية الضرائب والحاكم والمدير هو الرجل الذى يخرج من فمه ما يمنح للعرش، لكن كانت يداه غارقتين فى الأنشطة التى يشارك فيها السلطات المحلية وبعيدة عن إدارة الإقطاعية وعن ذوى السطوة السياسية الذين يطلق عليهم Caciques.

هنا، لا نستغرب إذن أنه عندما وصلت القوانين الإنسانية الجديدة من إسبانيا إلى العالم الجديد، وضعها الموظفون المحليون فوق رؤوسهم وأعلنوا بصوت مهيب أننا "نذعن للقانون لكن لا نطبقه"، وعلى هذا عاشت أمريكا اللاتينية حالة طلاق بائن بين الدولة الشرعية المتمثلة فى التشريعات الملكية وبعد ذلك فى الدساتير الجمهورية، وبين دولة الواقع التى أخذت تفسد وتنهار من وراء الواجهة الشرعية وتسهم بذلك فى إفساد وتفكيك أمريكا الإسبانية من جذورها.

نجد إذن الواجهة الشرعية الظاهرية غاية فى الروعة والجمال ومتوافقة مع تقاليدنا القانونية الرومانية وتنظيماتها المتسقة والمنظمة فى شكلها الهرمى من القاعدة حتى القمة؛ ففى لوحات الفريسك الكبيرة الموجودة فى مكتبة "بيكر **Baker**" فى كوليج **Dartmouth** فى إنجلترا الجديدة، نجد رسّام المناظر الطبيعية المكسيكى، خوسيه كليمنتى أورثكو، ينقل لنا بحدسه عالم السكان الأصليين والعالم الاستعمارى وذلك من خلال مستويات رأسية؛ فالشخصيات من أبناء السكان الأصليين راكعة لكنها ترفع أذرعها وتوجد مجتمعة حول البنية الرأسية للهرم، أما الشخصية الإسبانية، أى الغازى، فهى تقف فى وضع رأسى وبصلابة وسيفها فى غمده الممتد فوق خصره، يوازى أعضاءه التناسلية، بينما نجد كنيسة ترتفع رأسيًا وبها الصليب فوق القبة مكان الهرم الهندى.

من الطبيعى أن يكون الملك، حاكم إسبانيا هو على رأس البُنى الرأسية لنظام الحكم خلال العصر الاستعمارى، فالجميع تابع له بشكل تنازلى، حيث نجد "مجلس الهند" الذى يرتبط مباشرة بحكومات المستعمرات ويعتبر جزءًا من الموروث الملكى وليس من موروثات الشعب الإسبانى قاطبة، فقد كانت كل من المكسيك وبيرو وشيلى ممالك أخرى أضيفت إلى أملاك الملك الإسبانى وليست ملك الشعب الإسبانى.

يلى ذلك فى التدرّج الهرمى النازل "منزل المعاملة فى إشبيلية" الذى يتولى أمر التجارة فى الهند الجديدة، فقد جعلها مركزية واحتكارية إضافةً إلى أمر مهم للغاية وهو أن هذه الهيئة كانت مخولة لتلقى الذهب والفضة من أمريكا. وفى نهاية المطاف نجد هناك السلطات المحلية للمستعمرات البعيدة التى تتبع هذه الهيئات السابقة الذكر، وأولها سلطة "نائب الملك" ثم القادة العموم من رجال الجيش، حيث يجرى تعيين هؤلاء من إسبانيا، وكذلك الحكام ورؤساء الوحدات المحلية (المحافظات) والعُمَد. وفى القاعدة نجد إدارة البلدية التى أثقلت كاهلها كل هذه البُنى السابقة، فأخذت تكافح، وعادةً ما لا تنجح فى مسعاها، من أجل الحفاظ على الحد الأدنى من العدل على المستوى المحلى.

كان نظام السلطة الأصلى فى أمريكا الإسبانية أتوقراطية رأسية **autocracia** محكومة من بعيد بواسطة قوانين فيها نزعة "الأبوية" التى نادرًا ما كانت تطبق، بينما، على المستوى المحلى، تجرى اتفاقات ذات طابع عملى وسياسى واقتصادى بين الإقطاعيين وبين القادة السياسيين، الأمر الذى ساهم فى توطيد عملية الاستغلال التى لا تُرحم، والتى أحيانًا ما تكون غير فعالة فى قطاع العمل والأرض.

ومن الناحية الدلالية كان هناك شعور قوى بالاستمرارية ساريًا بين كافة البُنى الرأسية للإمبراطورية الإسبانية وبين عالم الأثتيك والكيتشوا **quechua**. وفى هذا المقام نجد أن مفهوم السيطرة المتفوقة، والذى على أساسه تمسك الدولة بناصية الملكية الحقيقية للأرض وتمنحها بالتالى بشكل مؤقت لاستغلالها للأغراض الخاصة، هو الذى يمثل التراث العام بين إمبراطوريات الشعوب الأصلية والمملكة الإسبانية؛ لكن هذه الوقائع القانونية كانت تتناقض بشكل يومى مع الممارسات السياسية.

تمكن الغُزاة ونسلهم من السيطرة على الأرض والعمل من خلال حق الغزو، فأدان العرش ذلك مستندًا إلى أسس إنسانية وقانونية أيضًا متذرعًا بأن الأرض هى ملك الهنود ومن خلالهم فهى ملك للعرش. عصى الغُزاة العرش، لكن هذا الأخير قابلهم بالردّ حيث سحب منهم حق التوريث، وحاول بشكل دائم جعل سلطانهم جزئيًا ونزل بهم إلى درجة "الأتباع". وهنا أعاد المستعمرون تنظيم صفوفهم محليًا فى دوائر لا يمكن للعرش أن يمسّهم، وذلك بأن أقاموا سياسة ريفية منعزلة تتمثل فى الاضطهاد والاستغلال الذى ظل قائمًا حتى اليوم.

[شبكة من المدن]:

نجد خلف الواجهة المنيفة للقانون وللممارسات العامة للسياسة الملكية، عناصر أخرى سيطرت على الحياة الجديدة فى أمريكا، ومن الطبيعى أن يكون الشعب هو أول هذه العناصر، وهو عبارة عن الغُزاة الإسبان ونسلهم والمهاجرين الأوربيين إلى أمريكا والمولدين، من أبناء الإسبان والنساء الهنديات، والأبناء **Criollos**، الذين كانوا من البيض

المولودين فى أمريكا، ثم أتى بعد ذلك السود ونسلهم، ولا ننسى فى هذا المقام الهنود الذين هزموا.

كتب كورتيس إلى الملك كارلوس الخامس يصف الغُزاة الأول بالقُساة الغلاظ الذين لم يتربوا جيداً ومن منبت متواضع، وربما كان كورتيس يحاول أن يحدث تأثيره على الملك من خلال أصوله من سلمنقة؛ فحقيقة الأمر هو أن من شاركوا فى الغزو لم يكونوا مجرد مزارعين وعمال بل كان من بينهم أعضاء ممن ينسبون إلى طبقة النبلاء الصغرى والطبقة المتوسطة؛ وهنا نجد أن المؤرخ ثيبدس دل كاستيّو يقدم لنا توزيعًا أوسع للوافدين على الأرض الجديدة خلال القرن السادس عشر، فالغالبية العظمى لهؤلاء الوافدين، طبقًا لذلك المؤرخ، تمثلت فى الرهبان والقساوسة والكثير من صغار علية القوم والمحاربين الذين كانوا يشكلون العدد الأكبر فى البداية أكثر مما بعد ذلك. لم يفد إلى هناك أى أرستقراطى اللهم إلا ما ندر، وخلاف ذلك توافد عدد كبير من التجار والرسامين والحرفيين والمحامين من ذوى السطوة.

ومع هذا يمكن القول بأن مراحل الاستعمار ربما كانت انتقائية للغاية. فهناك اليهود والمورو والملاحدة حيث تم استبعادهم من عملية الهجرة إلى ما وراء الأطلنطى، وإذا ما كان حقيقة أن المستعمرين قد رحلوا إلى العالم الجديد بدون نساء، ثم اختلطوا بعد ذلك بالنساء الهنديات أولاً، وبعد ذلك بالسوداوات، ولم تكن هناك ممانعة رسمية من قدوم النساء إلى أمريكا، إذ بالفعل شاركت الكثير منهن فى القيام بأدوار مهمة خلال المرحلة الأولى من مراحل الاستعمار؛ فهناك زوجة بدرو دى لوس ريوس، حاكم بنما، التى رفضت العودة إلى إسبانيا عندما انتهت الفترة الرسمية لزوجها وفضلت البقاء فى بنما مع قطعانها وتحدوها آمال كبيرة أن تنال نصيبًا من الذهب القادم من بيرو والذى كان خط انتقاله يمتد من المحيط الباسيفيكى إلى الأطلنطى. هناك امرأة أخرى اسمها إينس سوارث، من إقليم إكستريمادورا الإسبانى مثلها مثل الكثيرين من الغُزاة، حيث واصلت تبحث عن زوجها فى فنزويلا فلم تجده، فواصلت حتى البيرو حيث اكتشفت أن زوجها وافته المنية، وهناك عرفت بدرو دى بالديبيا ورافقته فى غزو شيلى وتأسيس

العاصمة التى تقع أقصى جنوب العالم الجديد الإسبانى، وهى مدينة "سانتياجو دل نويبو إكستريمو"، الاسم الذى يذكرنا بالقديس الرسولى المحارب فى حرب الاسترداد Reconquista، كما يذكرنا بالموطن الأصلى المشترك لكل من إينس وبدرو وهو إكستريما دورا. كانت إينس تقوم بتمريض الجرحى، وخدمت بالديبيا بأمانة كضابط وكعشيقة، لكنها أذعنت أمام مطلب أحد القساوسة، بأن تترك رَجُلها عندما أُتى بزوجه من إسبانيا. لكن القدر عجّل بموت بالديبيا على يد الأراوكان araucanos(*) قبل أن تصل زوجه. لكننى أجهل فيما إذا كانت الأرملتان قد التقيتا أم لا.

قامت النساء أيضًا بلعب دور مهم فى أثناء تأسيس إحدى المدن الإسبانوأمريكية وهو تأسيس صاحبته أحداث درامية شديدة خلال هذه الفترة، ألا وهو تأسيس مدينة بوينوس أيرس. غير أن هذه المدينة لها قصتان، فقد تأسست مرتين على شواطئ نهر الفضة (بلاتا)، وأول مرة كانت عام ١٥٣٦م على يد بدرو مندوثا هذا النبيل المغرور الذى كوّن ثروة فى عملية نهب روما على يد القوات الإسبانية عام ١٥٢٧م. ثم جاء إلى "نهر الفضة" Rio de la Plata بحثًا عن مزيد من الذهب، أى غزو الوثنيين بأموال الرومان، طبقًا لبيت من الشعر يرجع إلى ذلك العصر. لكنه لم يجد إلا الحمى والجوع والموت، فقد كان الهنود فى هذه المناطق الجنوبية فقراء ولم يخشونه أو يخشوا الخيل أو البنادق، فهاجموا التحصينات الإسبانية الليلة تلو الأخرى.

ربما كان العزاء الوحيد للإسبان فى هذا المقام هو أن هذه الحملة رافقتها نساء كثيرات تنكر بعضهن فى ملابس الرجال، وقمن بدور الحراسة الليلية وأضرمن النار وغذينها، وكن "يأكلن أقل مما يأكل الرجال"، حسب قول إحداهن، وفجأة نفدت المؤن ولم يكن هناك شيء يؤكل، ولما كان الإسبان فى أثناء رحلة البحث عن الذهب قد وصل بهم الأمر فى بعض الأحيان أن أكلوا ما تبقى من نعالهم، فقد جرت التكهنات بأنهم كانوا يأكلون لحوم الموتى من البشر. توفى مندوثا بمرض الزهرى وألقى به فى النهر.

(*) هو اسم كان يطلق على دولة فى شيلى قبل الغزو الإسبانى، وهى اليوم محافظة من محافظات شيلى.

وربما كانت قطعة الذهب الوحيدة التى شوهدت هنا، فى هذا المكان هى وميض خواتم المكتشف عندما ألقى به فى اليم العكر، أى فى نهر بلاتا.

جرى إحراق بوينوس أيرس وهجرها أهلها؛ كان التأسيس الأول إذن الكارثة الأكبر فى تاريخ تأسيس أى مدينة إسبانية فى أمريكا. غير أنه بعد أربعة وأربعين عامًا قدم إلى المكان إدارى، يتسم بالبساطة، يدعى خوان دى جاراى، إذ هبط من بلدة أسونثيون عبر نهر بارانا Parana وأسس بوينوس أيرس للمرة الثانية، إلا أن المدينة هذه المرة جرى تخطيطها وصممت لا لتكون مدينة المغامرين والباحثين عن الذهب بل لتكون مدينة تتسم بالنظام والعمل والازدهار المتوقع، وقد بلغت المدينة كل هذا، فهى مدينة ذات ميناء، ومصدر تصريف الجلود ومنتجات الأبقار عبر البحر المسمى "نهر بلاتا" "نهر الفضة"، ذلك النهر ذى المياه العكرة التى تشبه لون جلد الأسد مثلما وصفه ذات يوم الشاعر ليوبولد لوجونس. هى مدينة تأسست فوق بحيرات وهى مدينة تصب فيها المياه القادمة من مناجم الفضة فى بوتوسى Potosi متجهة نحو الأطلنطى.

يساعدنا تأسيس مدينة بوينوس أيرس مرتين لإضفاء الشكل الدرامى على دافعين من دوافع الاستعمار الإسبانى للعالم الجديد؛ أحدهما أنها تأسست اعتماداً على التخيل والأمل والتصور؛ كان دافع الغُزاة ليس فقط الجوع للذهب، حمّى البيرو، كما أطلق عليه، بل كان التخيل والتصور الذى كان يعتبر أحيانًا إكسيرًا قويًا وحافزًا مهمًا، فعند دخول عالم عصر النهضة بإرادتهم كان هؤلاء الرجال ما زالوا يحملون فى رؤوسهم خيالات العصور الوسطى، إذ سرعان ما يقتنعون برؤيتهم أنثى حوت لها نهدان، وبأسماك قرش مزدوجى العضو الذكرى وبأسماك تطير وبشواطئ بها اللؤلؤ أكثر من الرمال. وعندما كانوا يتمكنون من مشاهدة الجنيّات، كانوا يعلقون ساخرين أنهن لسن بالجمال الذى يُقال عنهن؛ إلا أن بحثهم عن الحيوانات الضارية المحاربة كما ورد فى الأسطورة قادهم طوال الطريق الطويل الذى بدأ من كاليفورنيا، التى أطلق عليها هذا الاسم تكريمًا لذكرى الملكة الأمازونية Calafia، وحتى منابع النهر الأكبر فى أمريكا الجنوبية. فهل أخطئوا فى بحثهم عن سر وينبوع الشباب فى فلوريدا، أرض الزهور التى سبر أغوارها بونثى دى ليون؟ إن البحث الموازى عن "إلدورادو" El Dorado، الزعيم الهندى

الذى يدهن نفسه بالذهب مرتين فى اليوم، قادهم حتى منجم بوتوسى، منجم الفضة الأكبر فى العالم أجمع، كما أن البحث عن المدن السبعة المتخيلة، فى إقليم متخيل Cibola، قاد فرانثيسكو دى كورونادو فى رحلته الدرامية لاكتشاف أريزونا وتكساس والمكسيك الجديدة.

لم يعثروا أبدًا على المدن الأسطورية، غير أنه استنادًا إلى ما ترتب على التأسيس الثانى لمدينة بوينوس أيرس كانوا قادرين على تأسيس مدن حقيقية، وليست مدن الذهب بل مدن البشر، ومنذ العصر الرومانى لم يحدث أن بذلت أمة من الأمم هذا الجهد والطاقة فى تأسيس المدن كما فعلت إسبانيا فى العالم الجديد؛ كانت المسافات شاسعة، والثروات ضخمة، لكن لا شىء أوقف رجال إسبانيا فى زحفهم نحو الشمال، حتى ما يطلق عليه اليوم كاليفورنيا وأوريجون Oregon، كما اتجهوا نحو الجنوب حتى أقصى طرف فى القارة، أى عند "أرض النار"؛ كان من الضرورى تأسيس المدن من أجل السيطرة على المسافات الفاصلة وعلى الثروة، فهناك المئات من المدن ابتداء من سان فرانثيسكو ولوس أنجلوس حتى بوينوس أيرس وسانتياجو دى شيلى، وهذه لم تكن مجرد مناطق أو مواقع حدودية بل كانت مراكز حضرية رفيعة المستوى، ودائمة، كما أنها دليل على القرار الإسبانى بالبقاء فى العالم الجديد "للأبد".

وحتى لا نتجاوز حدود أمريكا الإسبانية، أى المكسيك والأرجنتين، فإن قائمة المدن التى تأسست تتسم بالضخامة، ففى المكسيك جرى تأسيس المدينة تلو الأخرى: Veracruz عام ١٥١٩م، وكوليما عام ١٥٢٢م، وأنتكيرة (Oaxaca) عام ١٥٢١م، وتأسست "سان كريستوبل دى لاس كاساس" فى العام نفسه، ثم وادى الحجارة عام ١٥٤٢م، وبويبلا عام ١٥٣٥م، وتاكسكو عام ١٥٢٩م، وكولباكان على المحيط الهادى، عام ١٥٣١م، وQuerertaro فى الوديان الرئيسية عام ١٥٥٠م. وفى الأرجنتين نجد الإيقاع التشييدى هو نفسه، فهناك سانتياجو دل إستيرو عام ١٥٥٣م، ومندوثا عام ١٥٦١م، وسان خوان بعد ذلك بعام، وتوكومان عام ١٥٦٥م، وقرطبة عام ١٦١٧م، وسانتا فى عام ١٦٠٩م ونهاية القرن السادس عشر.

أحيانًا ما نجد أيضًا موانى وقد شيدت كحصون، مثلما هو الحال فى الكاريبى والمحيط الهادى مثل هافانا وأكابولكو وقرطاجنة.

هناك مدن أخرى كانت عواصم كبرى مثل المكسيك وليما، أما أغلب مدن المحافظات فهى مدن قوية مشيدة طبقًا للنموذج السائد فى عصر النهضة الخاص بالمدينة المخططة، فلكل مدينة ميدانها المركزى وكنيستها ودار البلدية، وبهذا تم إقرار الإيقاع المستمر للحياة، أى إن الميدان هو المكان الذى يجتمع فيه العُشاق ويتنزه فيه كبار السن ويلعبون الدومينو أو يتناقشون حول الأخبار، والميدان هو المكان الذى تُعلن فيه القوانين الجديدة وتنطلق منه الثورات؛ أما المدن الأخرى فهى مدن المناجم التى امتد عمرانها فى الإطار الكنتورى للجبال حيث يتم استخراج الذهب والفضة. وعلى أية حال فعندما يتم تأسيس المدينة كان كل واحد من سكانها يتلقى قطعة أرض، وكذلك مساحة من الأرض الزراعية خارج الرقعة العمرانية المحددة، وكذلك حقه فى الأراضى المخصصة للمنفعة العامة.

يحدثنا فرانثيسكو روميرو، المؤرخ الأرجنتينى للمدينة فى أمريكا اللاتينية، عن أن الإمبراطورية الإسبانية تحولت إلى شبكة من المدن التى سيطرت على المناطق الريفية، غير أن كلاً من المناطق الريفية والمدن أسهم كل واحد منها فى خلق مراكز السلطة فيه، وتطورت سمات هذه المراكز وقامت بتجزئة الرؤية المتجانسة التى حلمت بها مدريد. ويضيف المؤرخ المذكور أن هذه المدن كانت إسبانية من حيث الشكل والأصول القانونية المتبعة، وتأسست على أساس موقف سياسى، هو احتلال الأرض وإقرار حقوق الغزو، لكن لا يمكن لأى مدينة أن تكتسب صبغة الشرعية إلا إذا كانت مسبوقة بالقانون. كان يجب تصور المدينة وتثبيت صورتها القانونية قبل أن تكون واقعًا على الأرض، وكان شكل الموروث الرومانى هو الذى يجب أن يسبق الواقع ويظل فوقه، وتمخض قانون المدينة عن مدينة الواقع، وأخذت المدينة على الفور تنتشر السلطة الإسبانية انطلاقًا من وسطها واستعبدت السكان الأصليين.

تحولت المدن أيضاً إلى مراكز للثقافة جديدة، فأول جامعة فى العالم الجديد تأسست فى سانتو دومنجو عام ١٥٣٨م ثم جاءت بعدها كل من جامعة ليما وجامعة المكسيك، عام ١٥٥١م، وكان ذلك أسبق بوقت طويل من أول جامعة فى المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا، أى جامعة هارفارد التى تأسست عام ١٦٣٦م. وشهدت مدينة المكسيك أول مطبعة فى العالم الجديد وكان الطَّابِع هو الإيطالى جيوفانى باولو (خوان بابلوس)، عام ١٥٣٩م، بينما بدأت أول مطبعة أنجلوأمريكية على يد إستيفن دى **S. Daye** فى كامبريدج، ماساشوتس عام ١٦٣٨م.

كانت الجامعات تقوم، فى الأساس، بتدريس العلوم التقليدية التى كانت سائدة فى العصور الوسطى (القواعد والبلاغة والمنطق) والعلوم الأربعة (الهندسة والرياضيات والموسيقى وعلم الفلك) ومعها علم اللاهوت والحقوق والفلسفة السياسية الأساسية لعلم الكلام، أى الأفكار الخاصة بالقديس توما الأكوينى. وكانت هذه الفلسفة هى قول الفصل بالنسبة للثقافة السياسية فى أمريكا اللاتينية، وأساس هذا أنه على مدار ثلاثمائة عام كان الجميع يحضرون إلى هذه المدرسة السياسية للقديس توما ابتداء من الأرجنتين وحتى المكسيك، وفيها تعلموا الدرس الأساسى وهو أن غاية السياسة وقيمتها العليا التى تتجاوز أية قيم فردية، هى المصلحة العامة؛ ولبلوغ ذلك كانت هناك حاجة إلى الوحدة، وبالتالى فالتعددية عقبة؛ ويمكن بلوغ الوحدة بشكل علوى بفضل حكومة الفرد الواحد، وليس جرّاء نوازع العديد من الناخبين. وفى أحد المصليات الأحد عشر فى كنيسة سانتو دومنجو فى أواكساكا، كان القديس توما الأكوينى يهيمن ويسيطر من السماء على الحقائق السياسية الرئيسية التى أخذت تنفذ إلى قلب أمريكا الإسبانية. وأمامه يجلس القديس أغسطين، جهبذ الكنيسة التى تشكل أفكاره حجر زاوية آخر فى حياتنا الروحية والسياسية، وهو أن فضل الرب لا يبلغه أى فرد بل عناية الكنيسة، وللوصول إلى الرّب لا بد من المرور بالتدرّج الكنسى. كان هذا النظام نظاماً محكماً لتعليم الحقيقة التى أرسلها الرب، وهو نظام يرفض مساهمة البحث الفردى أو النقد، لكنه فى الوقت ذاته يؤكد على الضرورة الجوهرية للتراث ودور الكنيسة كحاملة شرعية للتراث وناشرة للحقيقة ومُدِينة للخطأ بشكل لا لبس فيه.

غير أن الإصرار على المصلحة العامة، أو الخير العام، إنما يأتى من علٍ، من خلال التفويض التسلطى، أكّد أن هذه الفلسفة السياسية يمكن تعديلها من أسفل فقط عن طريق الثورة العنيفة. ومن جديد نرى اقتراحات المبادئ الديمقراطية وممارساتها؛ فكان على أمريكا الإسبانية أن تدلف إلى دهاليز الطغيان والتقليد الأعمى لنماذج أجنبية للتقدم والديمقراطية قبل أن تلتقى مع تراثها الذى انقطع ومع جذورها الديمقراطية والمتأزمة فى مجتمعات العصور الوسطى فى إسبانيا، ومع الجانب الإنسانى فى مجتمع حضارة الأزتيك ومع القيمة الاجتماعية لثقافة الكيتشو.

كانت التربية الاستعمارية نظامًا للتعليم يمكن أن نطلق عليه اسم الذكاء الموجه، كما أن نظام النشر الذى رافقه كان محدودًا للغاية، فبعد ستة أعوام على الغزو قرر التاج الإسبانى منع إصدار طبعات جديدة من "خطابات العلاقة من كورتيس إلى الملك كارلوس الخامس"، فلم يكن التاج يريد تشجيع ذوات الغُزاة، وبذلك حال التاج دون أن نعرف أنفسنا. وفى عام ١٥٥٣م صدر مرسوم ملكى بمنع تصدير كافة القصص والحكايات التى تتحدث عن الغزو إلى أمريكا، حتى لا تكون هناك قصة تضم إطراء للثقافات الخاصة بالشعوب الأصلية المهزومة.

ومع هذا كان التاج قادرًا على اتخاذ مبادرات تنويرية للغاية مثل الإسراع فى إنشاء مدارس لأبناء السكان الأصليين من القادرين، وهم من كانوا من الأرستقراطية التى تُنسب إلى الأمم المهزومة؛ ففى مدرسة تلاتيلولكو كانوا يدرسون بالإسبانية واللاتينية واليونانية، مُظهرين مدى رفعة المستوى الدراسى، غير أنه بعد فترة، وجدنا التجربة وقد فشلت، ذلك لأنها أثارت سخط الغُزاة فى أن يروا رعاياهم من الهنود الذين يعرفون أكثر منهم، كما أن الغُزاة - وهذا هو الأهم - لم يكونوا يريدون هنودًا يترجمون فرجيل، بل يريدون هنودًا يعملون لحسابهم كأيد عاملة رخيصة فى المناجم والمزارع.

كما كانوا بحاجة إليهم أيضًا كعمال للديانة الجديدة، لقد قضت المسيحية على المعابد القديمة، "معابد الشيطان" كما أطلق عليها أحد المبشرين المسيحيين، غير أن الهنود كانوا هم أنفسهم الذين شيدوا المعابد الجديدة للمسيحية الأمريكية.

الأب والأم:

يمكن الجدل فيما إذا كان غزو أمريكا طيبًا أو سيئًا، لكن الكنيسة كانت تعرف جيدًا أن دورها هو التبشير، فدخلت فى اتصال مع سكان مُوزَّعى الشتات بين الرغبة فى التمرد والرغبة فى البحث عن حماية، وهنا نجد أن الكنيسة قدمت الحماية قدر استطاعتها. قاومت مجموعات كثيرة من السكان الأصليين الإسبان على مدى فترة طويلة من الزمن، ابتداء من جماعات "الكورا" فى المكسيك ومرورًا بالكيتشوا فى البيرو وانتهاءً بالأراوكان فى شيلى؛ بينما نجد مجموعات أخرى وقد وفدت فى جموع غفيرة تطلب التعميد فى الشوارع والطرق؛ وفى هذا المقام نجد أحد آباء طائفة الفرنسيسكان، وهو الراهب توريبيو دى بينا بنتى، الذى قدم إلى المكسيك عام ١٥٢٤م وأطلق عليه الهنود لقب "Motalinia" أى الفقير والمتواضع، يكتب عن هذا الوضع:

> أتى الكثيرون للتعميد، ولم يكن ذلك مقتصرًا على أيام الآحاد وأيام أخرى محددة لذلك بل كانوا يفدون كل يوم، وكانت صفوفهم تضم الأطفال والبالغين والأصحاء والمرضى ومن كل الأصقاع المحيطة؛ وعندما كان الرهبان يقومون برحلات للزيارة كان الهنود يخرجون عليهم فى الطريق وهم يحملون أطفالهم على أذرعهم، ويحملون المرضى على أكتافهم، وكانوا يأتون بكبار الطاعنين فى السن لتعميدهم... وعندما يذهبون للتعميد كان البعض يتقدم بالرجاء والبعض الآخر يسألون إلحافًا، ويطلب آخرون حاجاتهم ضراعة، وآخرون يتقدمون بالطلب برفع أذرعهم وخفضها وهم يئنون وينكمشون، بينما يطالب آخرون ويتلقوننا وهم يبكون ويتنهدون.

ويؤكد هذا الراهب الملقب بـ Motolinia أنه بعد مرور خمسة عشر عامًا على سقوط تينو شتتلان Tenchititlan عام ١٥٢١م "تم تعميد ما يزيد على ربع مليون إنسان". ورغم أن هذا يمكن أن يكون رعاية كنسية، فإن حقيقة الأمر هى أن الخطوات الكاثوليكية

الجارى اتباعها من التعميد حتى مَسْحَة المريض extremauncion(*) قد تحولت جميعها إلى احتفاليات دائمة فى الحياة العامة الشعبية فى كافة أرجاء أمريكا الإسبانية، كما أن العمارة الكنسية بثت خيالاً عمليًا قادرًا على أن يجمع عنصرين حيويين للمجتمعات الأمريكية الجديدة؛ وكان أول هذين العنصرين الحاجة لتغذية مفهوم القرابة، أى الأب والأم. أما الثانى هو التوفّر على مساحة ملموسة حامية، حيث يمكن قبول الآلهة القدامى، الذين ارتدوا الأقنعة ووقفوا خلف مذابح الآلهة الجديدة.

هناك الكثير من المُوَلّدين الذين لم يعرفوا آباءهم على الإطلاق، فقد عرفوا أمهاتهم الهنديات عشيقات الإسبان؛ نجد أن الاتصال والتكامل الجنسيين كانا فى حقيقة الأمر القاعدة العامة فى المستعمرات الأيبيرية وهذا عكس مفهوم طهارة السلالة والنفاق المتزمت الذى كانت عليه المستعمرات الإنجليزية؛ غير أن هذا لم يخفف الإحساس باليُتم عند كثير من أطفال الإسبان والنساء الهنديات. فقد رُزِقَت "لاما لينشى" بابن من كورتيس، الذى اعترف به وعمّده باسم مارتين، إلا أن الغازى أصبح له ابن آخر، سمى أيضًا مارتين من خلال زوجته الشرعية خوانا ثونيجا، ومع مرور الزمن عرف الأخوان بعضهما وقادا عام ١٥٥٦م أول تمرد للسكان الأصليين والمولدين فى المكسيك ضد الحكم الإسبانى؛ نجد إذن أن إضفاء الشرعية على ابن السِّفاح وظهور هوية اليتيم أصبحت فى مجموعها واحدة من المشاكل الجوهرية، رغم أنها كانت مقنعة فى كثير من الأحيان، فى إطار الثقافة اللاتينية الأمريكية، وتناول الإسبان الموضوع من الزاويتين الدينية والقانونية.

هناك الكثير من الأحداث مثل هروب الآلهة القدامى من قُراها، وتدمير المعابد ونهب المدن وسلبها والدمار الذى حاق بالثقافات، وتهاوى بنية الاقتصاد الخاص بالسكان الأصليين كضحية للمناجم وللإقطاعيات؛ أضف إلى ما سبق أن هناك شعورًا سائدًا تشيب له الولدان أمام ما يحدث جعل السكان الأصليين يتساءلون: أين نجد الأمل؟

(*) طقس كاثوليكى يتمثل فى دهن جسد المريض مرضًا خطيرًا بالزيت المقدس.

كان من الصعب العثور حتى على بارقة أمل أو نقطة ضوء فى النفق المظلم الطويل الذى يبدو أن السكان الأصليين قد أخذوا يسيرون فيه. وكيف الحيلولة دون فقدان الأمل والتمرد؟ كان هذا السؤال هو الذى طرحه دارسو العلوم الإنسانية فى المستعمرة، وكذلك عند العلماء والسياسيين الماكرين. وكان الرّد هو الإدانة التى نطق بها بارتولوميه دى لاس كاساس. هناك إجابة أخرى، جاءت من لدن الجماعات تدافع عن اليوتوبيا التى تخيلها كيروجا والمدارس الخاصة بالسكان الأصليين فى المستعمرة. وحقيقة الأمر نجد أن فراى/خوان دى ثومارّاجا، النائب الثانى للملك وأول أسقف فى المكسيك، هو الرجل الذى عثر على الحل الدائم ألا وهو أن تكون هناك أم لكل أيتام العالم الجديد.

مع بداية ديسمبر ١٥٤٢م، وفوق هضبة تيبياك **Tepeyac** القريبة من مدينة المكسيك، والتى كانت قبل ذلك المكان المخصص لعبادة آلهة الأتتيك، تجلت عذراء جوادا لوبى وهى تحمل وردات خلال فصل الشتاء وتختار حمّالاً **tameme** متواضعاً من السكان الأصليين، هو خوان دييجو، لتحيطه بحبها ورعايتها. وبضربة "مُعلِّم" استطاعت السلطات الإسبانية أن تحول السكان الأصليين أبناء المرأة المغتصبة إلى أبناء العذراء الطاهرة. تحول الأمر من بابل إلى بيت لحم إلى ومضة لعملية عبقرية سياسية. ومنذ ذلك لا نجد فى المكسيك أمراً أكثر عزاءً وتوحيداً للصفوف وجديراً بالاحترام والتقدير أكثر من شخصية عذراء جوادا لوبى، أو شخصية عذراء الرحمة **Caridad** دل كوبرى فى كوبا، أو عذراء كورو موتوا فى فنزويلا. لقد وجد الشعب الذى جرى استعمار بلاده أُمَّهُ.

وجد الناس أيضًا أبًا، فقد ألبست المكسيك كورتيس قناع الإله كيتزاكواتل **Quetzalcoatl**، فهل هو المسيح أو كيتزاكواتل؟ وفى هذا العالم اعتاد رؤية تضحية البشر بأنفسهم فى سبيل الآلهة، كان السكان الأصليون يشعرون باستغراب شديد لرؤية الإله **Dios** يضحى بنفسه من أجل البشر؛ ولهذا نجد أن خلاص البشرية على يد المسيح هو الذى أثار عجب هنود العالم الجديد وهزمهم؛ إذن نجد أن العودة الحقيقية للآلهة تمثلت فى مجىء المسيح، الذى تحول إلى الذاكرة التى تم استعادتها وإلى الذكرى

بأن الآلهة ضحوا بأنفسهم من أجل البشرية. هذه الذاكرة الضبابية أنقذتها الكنيسة بعد أن كانت منغمسة فى تلك التضحيات الغامضة بالبشر التى أمرت سلطة حضارة الأثتيك؛ والمحصلة هى التوفيق بين المذاهب المتناقضة تناقضًا يُرى رأى العين، وهى الخليط المكون من الديانة المسيحية ومن الديانة الخاصة بالسكان الأصليين، وهذا هو أحد العُمُد الرئيسية الثقافية فى العالم الإسبانوأمريكى؛ ومع هذا هناك أمر يلفت الانتباه وهو أن كافة نماذج المسيح فى المكسيك موتى، أو أنهم فى حالة احتضار، فهم فى مرحلة التعذيب ومصلوبون ومُسَجّاة أجسادهم فى نعش زجاجى، وكل ما يُرى فى الكنائس الشعبية فى المكسيك هو عبارة عن أشكال لمسيح يتألم ويسيل الدم منه وحيداً. وعكس هذا نجده فى أشكال العذراء فى أمريكا فهنّ، مثل الإسبانيات، مُحاطات بالفخار والاعتزاز الدائمين وتلفهن الزهور والمواكب؛ أما الديكور الذى يحيط بهذه الأشكال فهو عبارة عن عمارة البارّوك فى أمريكا اللاتينية، إذ هى فى حد ذاتها شكل من أشكال الاحتفاء بالديانة الجديدة، غير أنها، فى الوقت نفسه، نوع من الاحتفاء ذى المخاطرة بالديانات القديمة التى بقيت حية.

يعتبر المصلى الرائع المسمى Tonantzintla تُونَانْتِزِنْتلا، بالقرب من شولالا بالمكسيك واحداً من العناصر التى تؤكد هذا الجمع بين المتناقضات من حيث كونه عنصراً ديناميًا للثقافة "المضادة للغزو". وما حدث هنا تكرر فى كافة أرجاء أمريكا اللاتينية؛ فقد تلقى الحرفيون والفنانون من السكان الأصليين اللوحات التى تحمل صور القديسين وغيرها من الرموز الدينية من المبشرين المسيحيين الذى طلبوا منهم أن يرسموا مثلها داخل الكنائس، غير أن البنّائين والفنانين القدامى الذين كانوا يشيدون معابد السكان الأصليين كانوا يريدون أن يفعلوا شيئًا يتجاوز حدود النقل؛ كانوا يريدون الاحتفاء بآلهتهم القديمة إلى جانب الآلهة الجديدة، إلا أن هذا القصد كان يجب أن يكون مقنعًا، من خلال ستار من تمجيد الطبيعة وتمجيد السماء والجمع بين هذين العنصرين بشكل يصعب تمييز كل واحد على حدة.

نجد إذن أن مصلى تونانتزنتلا هو إعادة إبداع، جاء من لدن السكان الأصليين، للفردوس الذى كانوا يتخيلونه، فهو مصلى أبيض ومُذهّب، إنه قرن النماء الذى نجد فيه كافة الفواكه والثمار التى نجدها فى المناطق الاستوائية التى تصعد إلى كافة أرجاء قبة المصلى صوب الحلم بالوفرة اللانهائية. انتصر هذا الجمع بين المتناقضات الدينية ومن خلال هذا نجد الغُزاة وقد تم غزوهم هم أيضاً.

كان السكان الأصليون يرسمون أنفسهم فى مصلى تونانتزنتلا فى أشكال ملائكة أبرياء يتجهون صوب الجنة بينما نجد الغُزاة الإسبان وكأنهم الشياطين البشعة من ذوى الشعر الأحمر ورؤوس الحيّات، وعموماً فالجنة يمكن استعادتها.

الفصل السابع

العصر الإمبراطورى

كان كارلوس الخامس هو الذى أقام الإمبراطورية الإسبانية، كان حفيد الملوك الكاثوليك، أى حفيد فرناندو ملك أرغن Aragon(*)، وإيزابل ملكة قشتالة، وهو ابن الملكة خوانا التى فقدت عقلها متأثرة بخيانات زوجها فيليبى الأيرموسو (الوسيم)؛ وبعد وفاة فيليبى، من جرّاء الإجهاد فى لعب الكرة ثم تناول كوب من الماء البارد مباشرة، رفضت الملكة أن يُدْفن، وظلت لزمن طويل تطوف بجثمانه من دير لآخر، وتتفادى دخول الأديرة التى يمكن للأمير الوسيم، وهو ميت، أن تفتتن به النساء من الراهبات. تعرضت الملكة للضغوط بعد أن تخلت عن "جنون الحب"، وكان مصير "خوانا المجنونة" أن حُبِسَت فى حصن تورديسياس، وجرى ترسيم ابنها على عرش إسبانيا وهو فى السادسة عشرة من العمر، وبعد ذلك جرى دفن جثمان زوجها فيليبى دفنًا على الطريقة المسيحية.

كان كارلوس، وهو فى السادسة من عمره، قد ورث "البلاد الوطيئة"، وها هو الآن أمرد وشاب، على سمت أسرة هابسبورج، وهو أن له فكًا ناتئًا بوضوح جعل من المستحيل عليه أن يمضغ الطعام بشكل عادى أو أن يغلق فمه، ويقال إن الذبابة يمكن أن تدخل حتى لسان أحد أفراد عائلة هابسبورج دون صعوبة وفى أى لحظة؛

(*) أحد الأقاليم الإسبانية فى الوقت الحاضر، فى الشمال الشرقى.

أطلق الملك الشاب لحيته، وارتدى لباسًا حربيًا غير عادى، وامتطى صهوة جواده، وجرى رسمه فى هذه الصورة المتغطرسة على يد الرسام الإيطالى تيزيانو. إنه كارلوس الأول، لكنه أكثر شهرة ومعروف بلقبه "الإمبراطور المقدس الرومانى الجرمانى كارلوس الخامس". وكان يمكن له بعد ذلك أن يتخلى عن التقاليد الموروثة التى نجد أنفسنا أسرى لها. كان وريث أسرة هابسبورج، أقوى البيوتات الملكية فى أوربا؛ لم يكن لسلطانه حدود فحيثما جال ببصره وهو يمتطى صهوة جواده (أو جواد تيزيانو) يمكن له أن يُعجب بأحد أملاك تاجه، فصوب الشمال هناك ألمانيا والبلاد الوطيئة، ونحو الجنوب هناك مناطق تابعة له فى إفريقيا، وصوب الغرب هناك أمريكا، وإلى أبعد من هذا أملاكه فى المحيط الهادى بعد الاكتشاف الدرامى الذى حققه هناك بالبوا عام ١٥١٥م وامتد هذا حتى الفلبين. حكم كارلوس أول وأكبر إمبراطورية فى الإمبراطوريات الحديثة، فلم يكن هناك من قبله، بما فى ذلك القياصرة، من سيطر على كل هذه الأصقاع وهذه الشعوب المختلفة وأصبح له هذا الجاه.

ومع هذا فعلى مدار حياته أظهر عزمه الواضح على توحيد سلطانه على الأرض بالسلطان الروحى للمسيحية، إذ كان يريد أن يكون الممثل السياسى للعالم المسيحى على شاكلة ما كان عليه البابا من المنظور الدينى. وضع الملك هذا الهدف نصب عينيه، وكان هذا السبب فى إجهاده فى وقت مبكر، فقد تلقى كارلوس كل هذا المُلْك الذى ورثه لا من خلال الحرب بل من خلال التحالفات عن طريق الزِّيجات وبعض الخطوات ذات الطابع الدنيوى مع أفراد أسرة هابسبورج الذين كانوا من أنصارها، وفى هذا المقام نجد أنهم تلقوا مساعدات ضخمة من البنك الألمانى الذى أسسته أسرة فوجر **Fugger**، حيث أسهمت هذه البنوك بمبالغ ضخمة لشراء الناخبين ورفع كارلوس إلى مصاف "السلطان المقدس الرومانى". لكن بعد أن تم الاستيلاء على هذه الأملاك التى تمخضت عن المواقف، كان يجب الدفاع عنها، لا من خلال الزّيجات والرشوة والإغراء بل من خلال العمليات الحربية.

ومع هذا بدأت مشاكل كارلوس الخامس فى بيته هو، أى فى إسبانيا، وكان مردها، فى المقام الأول، التربية ذات الطابع الفلامنكى، التى تلقاها الأمير الجديد.

لم يكن كارلوس يتحدث الإسبانية. ولم يكن لديه حس سياسى كبير عندما أحاط نفسه بنبلاء من الفلامنك، لدرجة أنه عينهم فى مواقع إسبانية شديدة الحساسية مثل منصب أسقف طليطلة. وسرعان ما تجاوزت المشاكل السياسية لملك إسبانيا الجديد مجرد هذه الطّرفة وانتقلت إلى قلب المعركة الدائمة بين السلطات المركزية والمطلقة للملكية وبين السلطات الباقية المفترضة والديمقراطية التى كانت عليها المدن فى العصور الوسطى.

ثورة المجتمعات:

سبق القول بأن مفهوم المواطنة فى مدن قشتالة كان فى أزهى مراحل تطوره، إذ نجد المزيد من مشاركة السكان فى الاجتماعات السياسية، وكان المواطنون على وعى بالحقوق التى تمنحها لهم مواثيقهم الدستورية، وعندما اعتلى كارلوس العرش شعرت هذه المجتمعات الحضرية بتهديد للحريات التى حصلت عليها وجاءها هذا التهديد بطرق مختلفة، فإضافةً إلى المواقف العنصرية ضد الملك الشاب، اعترى هذه المجتمعات، وعن حق، الشك فى أن سياسة كارلوس تتسم بالإسراع نحو المركزية الإسبانية لكى تكون هناك قاعدة قوية يستند عليها فى الوصول إلى غاياته الخارجية الماثلة ألا وهى توطيد سلطان الإمبراطورية الإسبانية ووحدة الكنيسة المسيحية. هناك سبب آخر دفع بهذه المجتمعات للتصرف بسرعة قبل أن يطبق عليها الحكم المطلق بشكل نهائى ألا وهو الوجود والتدخل المتزايد لممثلى الملك، وهم القُضاة فى حياة هذه المجتمعات.

ربما كان من المبالغة القول بأن الحرب الأهلية التى نشبت عام ١٥١٩م، كانت الحركة الرائدة للثورتين الإنجليزية والفرنسية، إلا أن تمرّد المجتمعات فى قشتالة كان أحد الأحداث المهمة والدائمة التى يُشار إليها فى معرفة الحديث عن الديمقراطية فى إسبانيا وأمريكا الإسبانية.

كانت عبارات "تسامح الجميع" و"الرغبة العامة" هى المفاهيم العامة والمتداولة فى الخطابات والخطب والبيانات الصادرة عن أفراد هذه الجماعات القشتالية، وهنا نلاحظ أن التركيبة الاجتماعية للتمرد معبرة، فهناك عدد من النبلاء من الحضر وعدد من العُمَد وقادة الشرطة والقضاء وعدد كبير من صغار الدرجات الكهنوتية من الكهنة والقساوسة والشمامسة والرُهبان، وبعض الأساتذة الجامعيين، لكن كان هناك عدد كبير من الدكاترة وعلماء الفيزياء والمحامين والدارسين، وأكثر من هذا نجده فى صفوف التجار والصيارفة والكتبة والصيادلة، وغالبية من البائعين وأصحاب الفنادق الصغيرة وتجار الفضة والجواهرجية والحدادين والجزارين وصانعى القبعات وصانعى الأحذية والخياطين والحلاقين والنجارين؛ كل هؤلاء كانوا وراء "الجمعية العامة" التى تمثلهم، وهى جمعية تنفيذية تقوم على التصويت بالأغلبية، كما أنها هيئة تمثل الرغبة العامة أو الإرادة العامة للجميع. وقد أشار خوسيه أنطونيو مارابال، فى دراسة حديثة لتاريخ هذا التمرد، إلى أن الغاية الأساسية لهذه الجمعية المساهمة فى أن تكون هناك ملكية دستورية وديمقراطية قائمة على التمثيل الشعبى.

وعلى هذا ، لم يقبل الملك الشاب بهذا التمرد، كما لم تقبل به سياسته الداخلية والخارجية، أى الإسبانية والإمبراطورية، ففى الوقت الذى كانت هذه المجتمعات تتمرد فى قشتالة (وفى أرغن من خلال الحركة الموازية التى تقوم بها "الجرمانية")، كان أبناء وإخوة المحامين والحرفيين والطحانين والمزارعين وأبناء الذوات من الذين كافحوا ضد كارلوس الخامس، وكان أمثالهم يكافحون من أجل كارلوس الخامس فى المكسيك والكاريبى وباقى "اليابسة".

نحن إذن أمام واحدة من المواقف الكبرى المثيرة للسخرية فى تاريخنا، والتى تتمثل فى أنه فى اللحظة التى استطاع فيها كارلوس الخامس هزيمة القوات الخاصة بالجماعات القشتالية فى بيّالار Villalar، عام ١٥٢١م، كان إيرنان كورتيس قد قضى هو الآخر على قوات الأثتيك فى تينو تشتيتلان؛ نجد إذن أن المشكلة بالنسبة لإسبانيا وأمريكا الإسبانية واحدة فى جوهر الأمر. فأى نوع من النظام سوف يجرى بناؤه

فى اليوم التالى للمعركتين المتوافقتين زمنيًا، ضد جيوش الجماعات القشتالية فى بيّالار، وجيوش الأثتيك فى تينو تشتيتلان؟ الأمر المؤسف هو أنه كان فى إسبانيا نظام رأسى ومتسلط فرض نفسه على الاتجاه صوب نظام أفقى وديمقراطى. أما فى العالم الجديد فإن البُنَى الرأسية التى كان عليها نظام إمبراطورية الأثتيك (وكذلك ثقافة الإنك بعد ذلك) سوف تحل محلها، ببساطة، البُنى الرأسية والتسلطية لأسرة هابسبورج الإسبانية.

من الواضح أن هذا الأمر المثير للسخرية هو أن الغُزاة كانوا أُناسًا شديدى الشبه بهؤلاء الذين هزمهم كارلوس الخامس فى بيّالار، وعلى هذا بدا لهم أنهم انتصروا فى العالم الجديد فى الوقت الذى كانوا فيه قد هُزموا فى حقيقة الأمر فى العالم القديم. وهنا ضيّع الغُزاة الفرصة فى إقامة مجتمعات ديمقراطية فى الأمريكتين، وكان ذلك تضحية بموقفهم السياسى والامتداد الاعتبارى للسلطة؛ لم يكونوا إذن قادرين على السيطرة على الأرض التى غزوها، إذ قام الملك على عجل وبشكل نهائى بإرساء بنية الأشكال الجديدة للحكم فى الهند الجديدة لصالحه، وما تمكن الغُزاة من كسبه كان عبارة عن مزايا فعلية على الأرض، ثم بعد ذلك أصبحت غير مشروعة، كانت قوة هذه المزايا التى حصل عليها الغُزاة وانتزعوها من الملك بالفعل وعلى الأرض كانت مهمة لكنها لم تكن كافية سواء من منظور إقامة المجتمعات التى يمكن أن تكون ديمقراطية أو من حيث إنشاء إقطاعات يُفترض أنها مستقلة ذاتيًا.

هل كان هناك طريق آخر؟ هل كان من الممكن لنا أن ننشئ نظامًا ديمقراطيًا بعد حرب الاسترداد **Reconquista** فى إسبانيا، وغزو العالم الجديد؟ سوف يتم إلغاء هذا السؤال إلى الأبد ألا وهو السؤال المتعلق بمصير إسبانيا وأمريكا الإسبانية.

وبعد الهزيمة التى حاقت بالمجتمعات فى قشتالة فى موقعة بيّالار وهزيمة الأثتيك فى تينو تشتيتلان، تمكن كارلوس الخامس من دعم بنية الدولة المركزية الإسبانية مثلما فعلت كل من فرنسا وإنجلترا، لكن لم تتمكن من ذلك ألمانيا وإيطاليا. حوّل كارلوس إسبانيا من مجتمع شبه الجزيرة الخاص، المغرم بحربه الصليبية ضد المسلمين،

إلى مجتمع يعمل على التوصل إلى التزام بين مكوناته الثقافية الثلاثة، فى إمبراطورية قاريّة، "جمعت كل شىء فى جنباتها" طبقًا لمقولة أنخل جانيت، أى جمعت بين ما هو فى هولندا وإيطاليا وتونس والأمريكتين. كان هذا - مع ذلك - هو أصل الانحطاط الإسبانى فى نظر جانيت، "وهو مبالغاتنا فى الحركة والحروب التى لا تتناسب مع قدراتنا". كان الصداع الدائم لدى الإمبراطور هو هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف، وزاد من سوء ذلك طبيعته المزدوجة، أى الواثق من نفسه وغير الواثق، والعنيد واللّيّن، والموزع الشتات بسبب تحالفاته الوطنية. عاش على هذه الأرض ثمانية وخمسين عامًا، وخلال تلك الفترة فضل العيش فى فلاندس (٢٨ عامًا) وهذا زمن أكبر بكثير من عيشه فى الأراضى الجرمانية، إرثه الإمبراطورى (تسع سنوات)، أو فى مكان حكمه الإسبانى حيث زاره سبع مرات طوال حياته، وقضى هناك ثمانية عشر عامًا. غير أنه ربما كان هناك عنصر آخر أكثر أهمية جعل كارلوس الخامس موزع الشتات ألا وهو التردد بشأن الطريقة التى كان عليه أن يتبعها لمواجهة التحديات فى ملكه، من خلال التراضى (وهذا هو توجهه الخاص بعصر النهضة وبتوجهات الفلسفة الإيراسمية(*)) أو المواجهة (وهذا هو توجهه الإمبراطورى والإسبانى).

حارب كارلوس الخامس الأمم والثقافات المختلفة فى الأمريكتين من خلال قادته الذين تجتمع فيهم صفات العنف (إيرنان كورتيس وفرانثيسكو بيثارو)، وفى الوقت ذاته حارب الغُزاة حتى ينتزع منهم سيطرتهم الإقطاعية على العالم الجديد، وكان ذلك من خلال التشريعات الخاصة بالعالم الجديد التى تحمى مجتمعات السكان الأصليين وتقيد من السلطات الفعلية التى حازها الغُزاة.

حارب أيضًا القوة الإسلامية الجديدة وهى الإمبراطورية العثمانية التى جرؤت على مدّ نفوذها من حوض البحر الأبيض المتوسط حتى الدانوب ووصلت إلى مشارف فيينا. وحارب مناوئه الفرنسى فرانثيسكو الأول، طوال فترة طويلة دامت ربع قرن؛

(*) عالم هولندى (١٤٦٦ - ١٥٣٦م) فى الدراسات الإنسانية: اللاهوت والفلسفة.

تعرض أيضًا لتمرّد فى صفوف قواته التى لم تتلق أجورها وقاموا بنهب المدينة المقدسة فى روما على الفور بينما كان كارلوس الخامس يحارب البروتستانت فى ألمانيا، وفى نهاية المطاف وجد نفسه غير قادر على إخضاعهم وتجرع مرارة الهزيمة فى أوجوسبورج Augusburgo(*) عام ١٥٥٥م.

هذه التحديات والأعباء قادرة على إنهاك أى رجل، وعندما شعر بالإنهاك المبكر انسحب إلى دير يوستى Yuste، فى المنطقة الجبلية المنعزلة فى إكستريمادورا، وهناك أخذ يمضى وقته فى إصلاح ساعاته وأحيانًا ما يخطط لجنازته، وفى نهاية المطاف واتته المنية عام ١٥٥٨م؛ وها هو الرسام الإيطالى تيزيانو، الذى رسم له صورته وهو مدجج بالسلاح ويمتطى صهوة جواده، يرسمه وهو فارس طاعن فى السن بسيط المظهر وقد احدودب ظهره بعض الشىء، كما كان يرتدى ملابس سوداء اللون ويجلس على كرسى عاجى، نظراته فيها حنين وربما شاردة، أى إنه عالم لم يتفاهم معه فى نهاية المطاف.

ذهبٌ كالمطر:

تنازل كارلوس الخامس عن العرش لابنه فيليبى الثانى وورّثه صداع الرأس الناجم عن الإمبراطورية المترامية الأطراف؛ فقد أخذ البروتستانت يزدادون عددًا بفضل تأييدهم للطموحات السياسية للأمراء فى شمال أوربا، وأخذ الأتراك يسببون للسلطة الإسبانية صداعًا فى حوض البحر الأبيض المتوسط، ونهضت البلاد الوطيئة حاملة السلاح فى وجه إسبانيا، وتمرد الموريسكيون فى إسبانيا على المراسيم الملكية الصادرة عن الملك الشاب فيليبى والتى بمقتضاها انتزع منهم لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وفى الوقت نفسه نجد نبلاء أرغن يعارضون القيود التى فرضت على

(**) اسم مدينة تقع غرب مقاطعة بافاريا الألمانية، عند ملتقى نهرين.

الأعراف التقليدية للمملكة. وهنا نجد أن فيليبى استطاع أن يجعل إمبراطوريته صامدة وتجاوز هذا موطداً من أركانها طوال عدة عقود من الزمان بحيث كانت القوة العالمية الرئيسية.

وحتى يصل إلى ما يريد كان فى حاجة إلى التمويل، وحصل عليه، فى الأساس، من خلال الأعباء التى فرضها على رعاياه العُزّل؛ وعلى الكنيسة أيضًا سواء فى إسبانيا أو الأمريكتين، وحصل على الذهب والفضة من العالم الجديد.

خلال القرن السادس عشر استطاعت المناجم الأمريكية زيادة الاحتياطى الأوربى من الفضة إلى سبعة أضعاف، وتحول منجم بوتوسى فى أعالى بيرو إلى أهم وأكبر مدينة فى العالم الجديد خلال القرن السابع عشر، إذ كان يسكنها خمسون ألف أوربى وخمسة وأربعون ألف هندى، كان من هؤلاء أربعة عشر ألفًا يعملون فى المناجم فى ظل نظام الأشغال الشاقة التى كانت تتطلب ارتباطهم بالمنجم طول حياتهم وربما طوال حيوات نسلهم. منذ زمن بعيد كان العمال من أبناء السكان الأصليين يمضغون ورق الكوكا، وطبقًا لمؤرخ من اليسوعيين لعالم الحيوان والنبات فى العالم الجديد، كان الأب جوزيف دى أكوستا يسمح للرجل منهم السير لمدة يومين كاملين دون تناول أى طعام، وهذا الأداء من عمال جوعى أرهقهم المرض قدم لإسبانيا، ومن خلالها إلى باقى أوربا، هذه الثروة الضخمة، ومع هذا فإن المناجم فى كل من المكسيك والبيرو كانت تقدم، وهى فى أوج إنتاجها، ما يقرب من ربع الثروة الآتية من قطاع الزراعة وتربية الماشية فى العالم الجديد، كما أن الملاك الجدد للأراضى الزراعية عاملوا العمال معاملة أفضل - ولو كانوا فى أسوأ حالاتهم - من تلك التى يلقونها من المشرفين عليهم فى المناجم، وقد هرب الكثير من عمال المناجم إلى المزارع على أساس أنها الأقل سوءًا، وتحولت الكوكا إلى نوع من الطقوس بما لها من قوة فى المساعدة على تحمل ساعات طويلة من العمل تحت الأرض.

كان أمر استغلال المناجم واكتشافها فى أيدى القطاع الخاص، وكانت بوتوسى عبارة عن منطقة جبلية لم يطأها البشر حتى من الإنك، غير أن الإسبان سرعان ما اكتشفوا فيها أربعة عروق تمتد فيها "كأنها أعمدة" من الشمال إلى الجنوب،

وقاموا بفتح العديد من المناجم فى كل واحد منها؛ غير أن كافة العروق، طبقًا لما أشار أكوستا، كانت تتجه صوب المشرق، أى نحو الشمس الوليدة، نحو إسبانيا، حيث كان الملك يتلقى الشحنات ويأخذ الخُمس المخصص له.

وافق التاج الإسبانى على ميناءين للدخول هما قادش وإشبيلية، لتلقى الذهب والفضة من العالم الجديد، وفى الوقت الذى يمنع فيه تصدير المعادن الثمينة إلى إسبانيا تحولت الملكية، طبقًا لكلمات رجل الاقتصاد الأمريكى روندو كاميرون، إلى "أسوأ جهة تخرق القانون الذى وضعته...". كانت هذه المعادن الثمينة مخصصة لسداد الحروب الباهظة التكاليف لإسبانيا فى أوربا، وما عليه من بذخ وما عليه كذلك الطبقة الأرستقراطية من سفه، وكذا الحرب ضد الإصلاح الذى ينادى به البروتستانت، وإدارة شئون الإمبراطورية واستيراد المواد المصنعة.

أحدثت هذه التحويلات الإسبانية الضخمة من المعادن ثورة فى الاقتصاد الأوروبى، وأدى ذلك إلى التضخم وارتفاع الأسعار والطلب المتزايد وازدهار الشركات المصرفية فى القارّة، وتحول معظمها إلى جهات إقراض لإسبانيا وتاجها وأبدت استعدادها لتقديم قروض ضخمة لفيليبى الثانى، بضمان استمرارية تدفق الذهب والفضة القادمين من بوتوسى وثاكاتيكاس بشكل لا ينضب. لكن من كان يسدد هذه القروض؟ إنهم من خلفوا فيليبى الثانى.

تحولت عمليات التهريب من إسبانيا إلى مهنة عامة ومربحة، فها نحن نرى إحدى شخصيات رواية "دون كيخوته" المسمى روكى جينارت، وقد ظهرت فى عالم الواقع بالفعل، إذ يقوم بكسب رزقه من خلال تهريب المعادن الثمينة القادمة من العالم الجديد إلى خارج إسبانيا؛ ففى إيطاليا وألمانيا والبلاد الوطيئة، حيث كان لإسبانيا أملاكها، كان الذهب والفضة ينتشران سريعًا فى أنحاء أوربا محدثًا ثورة فى الأسعار خلال القرن السادس عشر، ورغم أن ذلك كان شائعًا فى كافة أنحاء القارة فإنه أحدث تأثيره على إسبانيا بشكل أسوأ فى المقام الأول؛ ومن الطبيعى أن تأخذ الأسعار فى الازدياد المرة تلو الأخرى وبسرعة فى البلد الذى توجد فيه موانى الدخول.

أخذ شمال أوربا يعيش مرحلة مثيرة من مراحل جمع رأس المال خلال حكم كل من كارلوس الخامس وفيليبى الثانى، ورغم أن إسبانيا كانت مصدر هذا المال القادم من العالم الجديد، فإنها تحولت إلى مجرد وسيط وحُرمت من رأس المال والرأسماليين المحدثين، وأُجبرت على استيراد منتجات مرتفعة الثمن وتصدير مواد خام رخيصة: إنها الطريقة التقليدية لتبدأ معها مرحلة طويلة من الانحطاط الاقتصادى. وإذا ما نظرنا إلى إحصائية بسيطة لوجدنا الأمر غاية فى الوضوح، ففى عام ١٦٢٩م، وطبقًا لرجل اقتصاد إسبانى خلال ذلك العصر، وهو ألونسو دى كارّانثا، فإن ثلاثة أرباع الذهب والفضة من المناجم الأمريكية كان يتركز فى أربع مدن فقط هى لندن وأمبرس **Amberos** وأمستردام وروان **Ruan**.

كان فى يد إسبانيا الإمبراطورية باقة من الأمور المثيرة للسخرية، فالملكية الكاثوليكية الأقوى فى الدنيا قد انتهى بها الأمر، دون أن ترغب فى ذلك، لتمويل أعدائها من البروتستانت، أى إن إسبانيا جعلت أوربا ذات رأسمال بينما انتزعت ذلك من نفسها؛ وقد تحدث عن هذا لويس الرابع عشر ملك فرنسا: "لِنَبِعْ مواد مصنعة إلى إسبانيا ولنقبض الثمن ذهبًا وفضة". كانت إسبانيا مسكينة لأنها كانت غنية. لكن ماذا يعنى هذا كله بالنسبة لنا فى العالم الجديد؟ يعنى بشكل ما أن إسبانيا تحولت إلى مستعمرة لأوربا الرأسمالية وأننا، فى أمريكا الإسبانية، أصبحنا بشكل ما مستعمرة مستعمرة؛ ومنذ أن تأسسنا كنا كيانين مختلفين: الكيان الظاهرى، والكيان الحقيقى الذى نحن عليه؛ إننا نتقاسم هذه الازدواجية، بين المظهرية والكيان الحقيقى، مع إسبانيا، الوطن الأم.

تأسست شرعية الإمبراطورية الأمريكية لإسبانيا ليس فقط على "حقوق الغزو" بل أيضًا على سلسلة براءات بابوية جعلت المستعمرات موزعة بين إسبانيا والبرتغال؛ كان البابا أليخاندرو السادس يحظى برعاية الملوك الكاثوليك فرناندو وإيزابل، وهو بابا إسبانى اسمه رودريجو بورخيا، يكاد يكون قد اشترى كرسى البابوية، وعندما اعتلاه كرّس وقتًا طويلاً لإدارة ثروات أبنائه سفاحًا وهما كويرثيا وقيصر بورخيا،

لكنه مع هذا كان لديه من الوقت للعناية بأولياء نعمته الملكيين، فمن خلال "اتفاقية تورديسياس (١٤٩٤م)، صدق أليخاندرو السادس على براءة رسمت خطًا يمتد من القطب الشمالي حتى القطب الجنوبي، أى على بعد ٣٧٠ فرسخًا (يعادل الفرسخ ٥٥٧٢م) غرب جزر الآزر، وأعطى للبرتغال كافة الأراضى الواقعة إلى الشرق من هذا الخط (من البرازيل وحتى الهند)، أما إسبانيا فقد كان من نصيبها كافة الأراضى حتى الغرب، أى من الكاريبى حتى المحيط الباسيفيكى.

غير أن هذا الإجراء لم يكن مقبولاً لدى القوى الأوربية الأخرى، فقد احتج فرانثيسكو الأول ملك فرنسا على هذا الوضع وهو أكبر مناوئ لكارلوس الخامس: "هاتوا بالدليل على ما فعلتم من وصية آدم وهل تمنح ملك إسبانيا حكم نصف العالم"؛ ومن جهة أخرى نرى الهولنديين الذين كانوا من أنصار حرية الملاحة البحرية والتجارة يعبرون عن معارضتهم، وكذلك الحليف الوشيك لهم وهو الملكة إيزابل الأولى ملكة إنجلترا، حيث أعلنت المبدأ العام الذى يقول بأن البحر والهواء مشاع لكل أمم الأرض؛ وهنا تضيف لازمة من اللوازم الأخرى التى أسهمت فى تقرير مصير إنجلترا وإسبانيا: "فلما كان البحر ملكًا للجميع فإنه ملكى أيضًا"، وهنا شجعت إيزابل قادتها الأكثر جرأة على مواجهة قوة إسبانيا فى عالم البحار وفى العالم الجديد؛ كانت إنجلترا تطالب بنصيبها بقوة، وهنا نجد أن حوض بحر الكاريبى وحوض البحر الأبيض المتوسط الإسبانى والأمريكتين شهدت إقامة مدن شديدة التحصين للوقوف أمام هجمات القراصنة، وضد اعتداءات القوى الأخرى؛ فابتداءً من مدينة بيراكروث وحتى هافانا، ومن ماراكيبو حتى يورتوبيّو، ومن سان خوان دى بويرتوريكو حتى قرطاجنة الهند الغربية، وجد الإسبان أنفسهم مُجبرين على الدفاع عن ثرواتهم فى كل مكان من أملاكهم.

هاجم القائد البريطانى جون هوكنز ميناء بيراكروث وموانى أخرى، وأخذ يقوم فى الوقت ذاته بالعمل فى تجارة الرقيق بمساندة من التاج الإنجليزى، بين إفريقيا والكاريبى؛ إلا أن فرانسيس دارك كان القرصان الأكبر الذى عمل لصالح عاهله،

فعندما دخل أسطوله خليج سان خوان فى بويرتوريكو جرى مدّ السلاسل من شاطئ لآخر لإيقافهم، وبفضل هذه الفَعْلَة فقد القرصان مركبين من أسطوله، أما فى الموانى الأخرى من بيراكروث (فى المكسيك) وحتى بال بارابيسو فى شيلى، كان دارك يهاجم ويحتل المكان مؤقتًا وينصب ويمضى فى طريقه.

لم يكن أول قرصان أو آخر القراصنة الذين منحتهم الملكية الإنجليزية لقب الفرسان؛ غير أنه خلال عام ١٥٨٧م جرؤ دارْك على مهاجمة ميناء قادش، أى مدخل الذهب إلى إسبانيا نفسها، وأغرق أكثر من عشرين مركبًا و"جعل لحية جلالة الملك الكاثوليكى تشيط".

أدى الهجوم على قادش إلى تأخير التجهيزات الخاصة بالمهمة الكبرى للملك فيليبى الثانى، ألا وهى بناء أسطول بحرى لا يُهزم لمهاجمة إنجلترا البروتستانتية، ولم يكن السبب الجوهرى لذلك هو مذهبها الدينى الجديد ولكن لأنها كانت تساند وتساعد المتمردين من الرعايا الهولنديين لفيليبى الثانى؛ كان هذا الملك أحد المدافعين الأُول عن إيزابل الأولى ضد تهديدات البابا بإعلان خروجها على الدين. غير أن الأمر الأكثر أهمية من وجود إيزابل الأولى على العرش هو أن فيليبى الثانى كان يخشى طموحات ماريا الأولى الخطيبة الكاثوليكية والأسكتلندية التى كان يراها ملك إسبانيا على أنها مجرد دمية فى يد مناوئه الأول وهو الملك الفرنسى؛ غير أنه عندما أرسلت إيزابل ليسستر Leicester لمساعدة الهولنديين ضد إسبانيا، كشف فيليبى مواقفه العدائية ضد إيزابل.

كان الملك الإسبانى يطير بجناحى انتصاره على الأتراك فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط فى معركة ليبانتو Lepanto، حيث تمكن أخو الملك غير الشقيق، خوان دى أوستريا، فى السابع من أكتوبر عام ١٥٧١م من هزيمة الأتراك وقتل القائد التركى على باشا. وقد وُصِفَت هذه المعركة وتغنى الكثيرون بالانتصار فيها، لكنها كانت تلفت الانتباه لسبب آخر، وهو أن يشارك فيها جندى يدعى ميجل دى ثربانتس الذى تعرض لإصابة جعلت إحدى ذراعيه عاجزة عن الحركة.

وبعد معركة ليبانتو، واستفزاز إيزابل، أخذ فيليبى يسير فى طريق مغامرة للأسطول، وراهن على أن نجاح هذا الأسطول الغازى سوف يساعد إسبانيا على الوصول إلى طموحاتها، أى أن تكون القوة الأوربية الأعظم إضافةً إلى كونها أكبر إمبراطورية فى العالم؛ وفوّض فيليبى سلطاته لتنظيم أسطول ضخم يكون هدفه القضاء على البروتستانتية قضاءً مبرماً، وبفضل نجاح الأسطول الذى تملكه أكبر إمبراطورية فى العالم سوف يتحول إلى القوة الأعظم فى أوربا، وتصبح سيطرته على أوربا والعالم أمراً واقعاً.

أخذ فيليبى الثانى يتأمل ويتمعن الموقف على مدى عشرين عاماً، فهل يكفى نجاح الأسطول الكبير لتأمين الطرق البحرية التى تمر منها الكنوز الأمريكية؟ وهل يجبر إنجلترا على العودة إلى الكاثوليكية؟ وأيًا كانت الأفكار التى دارت بخلد فيليبى فالذى لا شك فيه هو غيبة وجود علاقة ملائمة بين أفكاره وأهدافه، والوسائل المستخدمة للوصول إليها. وهنا أصدر الملك أوامره بتعيين دوق مدينة شيذونيا **M.Sidonia**، أكبر تاجر لسمك التونة، قائدًا عامًا لهذه المهمة، رغم شكاواه الكثيرة بأنه ليس الشخص المناسب لهذه المهمة، كما أن يُصاب بالدُّوار عندما يكون على ظهر المركب؛ لكن فيليبى عينه لأسباب سياسية وليس لأسباب تقنية، إذ إن أحد الكبار فى إسبانيا، مثل هذا الدوق، هو وحده القادر على فرض سلطانه على هذا الفريق الضخم الذى استعد لتقديم الخدمات والتجهيزات والمؤن لهذا الأسطول، والسيطرة على الجميع ابتداءً من القادة البحريين وحتى مصنّعى البسكويت مروراً ببيروقراطى مجهول هو ميجل دى ثربانتس، الرجل المكلف بجمع إسهامات الكنيسة لتمويل هذه العملية الحربية، وهو الرجل الذى انتهى به الأمر إلى السجن نظراً لأن الكنيسة قد انتقمت منه لحَميّته. ورغم الأموال التى أنفقت لتجهيز عشرين غليونًا ومائة وثلاثين مركبًا وثلاثين ألف رجل فإن القائد، دوق مدينة شيذونة أكد على أنه رسول الفشل؛ فلم تكن هناك خطة عامة متسقة لهذه العملية، فقد كان من المتوقع أن ينتصر الأسطول بفضل عدد عناصره وبفضل عزيمتهم وإيمانهم، إذ كان يرافقهم مائة وثمانون راهبًا وقسًا يقومون يوميًا بتقديم العظات والصلوات على العذراء مريم.

أبحر الأسطول متكتلاً فى مجموعات كأنه سمك التونة الذى يصطاده دوق مدينة شيذونة، وأثبتت المراكب أنها غير مجدية لمواجهة مياه البحر الهائج والمتلاطم الأمواج فى الشمال، أو أنها أبطأ بكثير من المراكب الإنجليزية؛ وكان كل شيء بالنسبة للأسطول يتسرب مثل براميل المياه والمراكب نفسها والأخبار الخاصة بالعملية، وهنا نجد أن دارْك، العدو القديم للملك فيليبى الثانى هاجم الأسطول عند خروجه من ميناء كالايس Calais، فتشتت الجمع وتعرضت السفن لعاصفة ألقت بها على شواطئ أيرلندا.

ولم يعد من الأسطول إلى إسبانيا إلا نصفه وربع عدد رجاله الذين أبحروا، وهنا قال فيليبى الثانى مندهشًا: "لقد أرسلت سفنًا لمحاربة الرجال وليس لحرب قوى الطبيعة".

عنف يصل إلى عنان السماء:

كانت هزيمة الأسطول تعنى هزيمة للمقاصد الإسبانية بأن تكون إسبانيا القوة العظمى فى أوربا؛ وابتداءً من هذه اللحظة نجد القوة العظمى الأخرى، فرنسا، العدو التقليدى لإسبانيا توالى تحدياتها لها دون هوادة. وفى الوقت ذاته أخذ عالم المعسكر البيزنطى الذى يتزعمه الإنجليز والهولنديون يتنامى ويظهر بسرعة، واستطاع إقامة تحالف حربى كان يتحدى إسبانيا، من خلال قوة بحرية ثبت تفوقها؛ أضف إلى ذلك وجود تناغم بين البروتستانتية ورأس المال فى كافة أنحاء أوربا الشمالية الأمر الذى أسهم فى سلسلة من الخطوات الناجحة، مقارنةً - للأسف - بالتبعية المستمرة الإسبانية للكنز الأمريكى والضرائب المرتفعة والصناعات الزراعية والرعوية. لقد وجد البروتستانت التبرير الدينى والسياسى لممارسة السلطة: **Cuis region, eius religio**، أى أن الأمير الحاكم كان يقرر ديانة مملكته وهذا الاختيار هو الذى يضفى طابع القداسة على سيادته السياسية والاقتصادية، فالإمكانيات الكامنة فى بداية القرن السادس عشر والثورات العلمية الحديثة والنقد والبحث، إضافةً إلى الحكم البرلمانى

والحقوق التقليدية للمجتمعات داخل البلاد، كلها كانت قد زالت بشكل عملى من إسبانيا؛ فها هو "مجلس ترينتو" (١٥٤٥-١٥٦٣م) وقد وضع الإطار الأكثر تشدداً لمناهضة الاتجاه الإصلاحى الدينى، وجرى تحديد معالم العقيدة وتعضيدها، وحصلت الكنيسة على حقها الحصرى فى تأويل النصوص المقدسة، وأصبح أى صلح مع البروتستانت أمراً مستبعداً.

منح "مجلس ترينتو" البابا الحق الحصرى فى تعيين الأساقفة لكن كان هذا أمراً لا يمكن لفيليبى أن يسمح به رغم شدة إيمانه، إذ استمر على عهده فى تعيين أساقفته، وما فعله هو أن قبل نشر المراسيم الصادرة عن المجمع المسكونى فى مدينة ترانت الإيطالية شريطة الاعتراف صراحةً بسلطانه على الأكليروس الإسبانى. وفى عهد فيليبى نجد أن محاكم التفتيش، التى لا يسائلها إلا الملك، زادت قوتها وأصبحت السلاح المفضل لدى الملك فى بند السلطة الدينية، وبهذا زاد فيليبى من تعضيد موقفه ضد روما، ونتيجة لذلك جرى إيداع الأساقفة الموالين للبابا السجون واتهامهم باتباع التوجهات الإصلاحية لمارتن لوثر. من جانب آخر امتدت سلطة محاكم التفتيش لتشمل عمليات الرقابة والمطاردة للبروتستانت واليهود والمورو، وذهبت إلى أبعد من هذا حيث شددت الرقابة على الذين اعتنقوا الديانة المسيحية حديثاً والذين يشتبه فى صحة إيمانهم أو أنهم كانوا يمارسون عقائدهم السابقة سراً.

كان فيليبى يتسم بالتعقيد وإثارة الأزمات، ولم يقتصر هذا على موقفه من البروتستانت بل امتد إلى سلطة البابا، ووصل به الأمر أنه كان يعيش أزمة مع نفسه، وفعل مثلما فعل والده قبل ذلك إذ انسحب إلى "مقبرة حية" ألا وهى القلعة الخاصة به وأصبح حبيس إيمانه وربما شكوكه الحميمة. هذه القلعة هى الأسكوريال التى تم تصميمها كمدفن لكارلوس الخامس وباقى أجداد فيليبى، كما كانت أيضاً بمثابة رمز للعقيدة الأرثوذكسية، ورمز لانتصاره الحربى على الفرنسيين فى "سان كينتين" عام ١٥٥٧م. كان الأسكوريال أول وآخر أثر معمارى للحركة المناهضة للإصلاح الدينى **Contrarreforma**، ولا بد أنه كان الفاتيكان آنذاك بالنسبة للسلطة الإسبانية، وقد أمر فيليبى مهندسيه المعماريين ببنائه قائلاً لهم: "ابنوه على عجل".

بدأ البناء عام ١٥٦٣م وكان بناء فيه تقشف (وكآبة)، يتسم بالضخامة والعداء، واستمر العمل فيه حتى ١٥٨٤م؛ كما أمر الملك ألا يكون فيه أى أثر للزخرف الذى يتسم بالشطط، وهنا جرى نهب محاجر قشتالة وغاباتها فى هذا البناء؛ ها نحن نرى جيشًا من البنائين والنجارين والحمالين والحدادين والرسامين والسباكين وهم يعملون ويموتون هناك، وأحيانًا ما تمردوا؛ وجرى استخدام ألف ثور فى جرّ المواد المستخدمة فى البناء، وتحققت مائة نبوءة سقطت فوق المبنى فى أثناء العمل فيه وكانت فى شكل عواصف وحوادث دامية ونباح شبح كلب، وفى نهاية الأمر، جاء اليوم الكبير إذ تم نقل رفات كافة أجداد فيليبى من كافة أنحاء إسبانيا حتى الأسكوريال؛ وكان الملك فى استقبالهم ودفنهم فى المدفن الملكى، وكانت أولى أوامره هو إقامة قداس دائم على روحه وأرواح أجداده ونسله من بعده، وفى هذا المقام كتب فيليبى بنفسه آمرًا أن يُقام ثلاثين ألف قداس إضافى "على روحه".

كانت هذه القلعة مكرّسة للموت وهى عبارة عن جبّانة ودير، وجرى تصميمها "كنوع من العنف ضد السماء" كما عبر عن ذلك المؤرخ الفرنسى لويس برتراند. غير أن المؤسف هو أن فيليبى ما زال يصدر أوامره بعد، آنذاك، فى الحياة الدنيا؛ كان نموذجًا للأداء الدؤوب، ولم يكن يرغب كثيرًا فى المقابلات، بل كان يفضل أن يغرق وسط الأوراق والمستندات، ويقال إن سرعته فى الكتابة تفوق أى سكرتير، وكان يعرف كل ما يضمه أرشيفه وكان يراجع كل شىء؛ وفى هذا المقام قال عنه أحد معاصريه: "إن الملك هو ذلك النوع من الناس لا يهزه أى شىء مهما كان حتى ولو كان هناك قط فى بنطلونه".

لُقب الملك بالحصيف، وهو لقب يعبر عن الصعوبات الجمة التى يجدها عندما يتخذ قرارًا، إنه كان وفيًا لمثالياته التى تتمثل فى إعادة الوحدة إلى المسيحية وإصلاح السلطة فى إسبانيا وإمبراطوريته وأسرته. واتخذ لنفسه نموذجًا فى حياته، هو والده الملك كارلوس الخامس، ووصل به الأمر إلى وضعه فى درجة مثالية لم يجرؤ هو نفسه أن يقارن نفسه به.

كان يوصف بأنه رجل صغير الحجم ذو صوت ضعيف وعيناه محمرتان من كثرة القراءة فى أوراق الدولة، ونادراً ما يُرى وهو يبتسم، وعندما يحدث ذلك تعقبها تكشيرة ثابتة، نظرته خليط من النظرة الحالمة والقاسية، نظرة شاردة وماكرة تجعلنا نفكر فيما إذا كان فيليبى حصيفًا أو غير واثق من نفسه، شديد القوة أو مكروبًا. ربما كان الملك وحده هو القادر على الإجابة وهو غارق فى صمت غرفته؛ وهنا علينا أن نتخيل كدره وهو يمعن النظر فى كفاية إرادته الإنسانية ليكون للرّب على الأرض، فهل سيفشل فى محاولته إعادة الوحدة للعقيدة الكاثوليكية، وحينئذٍ سوف يلقى العذاب فى الحياة الآخرة بسبب فشله؟ من المؤكد أن فكرة الموت لم تفارقه أبدًا، كان فيليبى شاهدًا على موت زوجاته الثلاث، ومعظم أبنائه وبخاصة ابنه السيد كارلوس، الذى سجنه الملك بنفسه "ليكون فى خدمة الرّب وخدمة الشعب الطيب". هنا لا نستغرب أن يشعر فيدريكو جارثيا لوركا، أن كافة الأمطار الباردة التى تسقط على كوكب الأرض قادمة من الأسكوريال؛ أما الجريكو، فى لوحته المسماة "حُلم فيليبى الثانى"، فهو يصور الملك جاثيًا على ركبتيه بين السماء والأرض؛ غير أن الشىء الأكثر إثارة للدهشة فى هذا المقام هو أن هذا الملك القادر على كل شىء كرّس الكثير من الوقت والمال لا ليجمع فى ملكوته رفات أفراد أسرته فقط وإنما ليحيط نفسه بجبل حقيقى مكون من التعاويذ المقدسة، فقد أخذ وكلاؤه يطوفون بكافة أنحاء أوربا ليأتوا له وهو فى الأسكوريال بالجماجم والعظام والأيدى المحنطة للقديسين والشهداء وتعاويذ الشوك الخاص بالمسيح والصليب الحقيقى الذى كان يعتز به الملك أكثر من الذهب والفضة؛ واستطاع فيليبى بالفعل أن يطحن المائتين وتسعين سِنَّة المقدسة التى تنسب لفم القديسة أبولونيا **Apolonia**، حامية الإنسان من آلام الأضراس؛ ولا بد أن مستودع هذه التمائم فى الأسكوريال كان شبيهًا بمستودع "المواطن كان **Kane**" فى شندو **Xanadu**.

وبوفاة فيليبى الثانى موتًا رهيبًا **excrementicia** فى الأسكوريال، انتقلت ديونه وإخفاقاته إلى ابنه، الذى يتسم بأنه غير كفء بشكل ملحوظ، هو فيليبى الثالث. كان يتسم بالكسل (إذ كان يعمل فقط ستة أشهر فى العام) وبالتالى فوّض السلطة لأصحاب الحظوة عنده وهم الذين ارتكبوا الخطأ الفادح بطرد كافة المورو الذين بقوا فى إسبانيا،

وعددهم ٢٧٥ ألف نسمة حيث ذهبوا بهم إلى إفريقيا. هذا القرار غير الحكيم أسهم بشكل عملى فى إفلاس الطبقة المتوسطة فى كل من بلنسية وأرغن التى كانت تستعين بالمورو وكذلك بالنبلاء الذين كانوا يؤجرون لهم الأرض، ووصل الأمر إلى حد تهديد محاكم التفتيش التى وجدت نفسها فجأة محرومة من ربع مليون من الملاحدة الذين كان يجب أن تسومهم سوء العذاب، فقد كل هذه الجهات المال أو السلطة، وأفلس الكثير منهم. وتزامنًا مع ما حدث فى أوربا من أن من لا مأوى لهم أخذوا ينتشرون فجأة فى المدن الغربية المزدهرة، بدا أن إسبانيا الإمبراطورية، فى عهد فيليبى الثالث، قد تحولت إلى أمة من الشحاذين وقُطّاع الطرق والمفلسين، وعم المشهد العام الذى تمثل فى انتشار التضخم وقلة قيمة العملات وإحلال النحاس محل الذهب والفضة، وهو مشهد غريب بالنسبة لأمة غزت كلاً من المكسيك وبيرو.

جسّدت إسبانيا أيضًا ذلك الوضع الغريب الذى يمكن أن تقع فيه الولايات المتحدة اليوم مع نهاية القرن العشرين، ألا وهو تحولها إلى إمبراطورية فقيرة ينوء كاهلها بالديون وغير قادرة على حل مشاكلها، غير أنها لا ترعوى وتواصل لعب دورها الإمبراطورى فى العالم رغم أنها تطلب الصدقات من أمم أخرى أكثر منها غنى، لكى تستطيع الحفاظ على وضعها كرجل شرطة هذا الكوكب.

لم تجد إسبانيا بلدًا مثل ألمانيا أو اليابان لتمويل عملياتها الحربية، بل اعتمدت على رجال البنوك – وخاصة على "فوجير" **Fugger** – الذين أسهموا بدور مهم فى رفع أسرة هابسبورج إلى قمة "الإمبراطورية" الرومانية المقدسة" عام ١٥١٩م؛ وهنا نجد أن ما فعله المصرفيّون أولاً هو شراء أصوات الناخبين الألمان، وبعد ذلك فرضوا كارلوس الخامس فوق فرانثيسكو الأول ملك فرنسا، وكان هذا بشكل حصرى، وهذا ما فعلوه واعترفوا به استنادًا إلى الأخبار الواردة من المناجم المكسيكية. وفى هذا المقام نجد يعقوب فوجير**J. Fugger**، ذلك الحوت الذى يوازن خبثه كبرياءه يذكر الملك كارلوس الخامس بأنه "دون مساعدتى لما تمكن صاحب الجلالة الإمبراطورية من اعتلاء العرش..."؛ فهل يجرؤ أى مصرفى معاصر أن يتحدث إلى أى رئيس دولة أقل قوة بكثير من كارلوس الخامس بهذه الغطرسة؟

كان دور القروض التى قدمها آل فوجير، وغيرهم من البنوك، تمويل الإمبراطورية الإسبانية وحَلْبها حتى آخر قطرة. مرة أخرى نجد الإمبراطورية تسىء إلى نفسها بشكل يفوق كثيراً خيالات أى مصرفى، إذ استمرت إسبانيا فى تكديس الذهب والفضة على أساس أن ذلك هو الغاية الجوهرية للاقتصاد؛ واستمر هذا الصنف من الخداع التجارى وازدادت حدته تزامناً مع الوضع الذى كان عليه الاقتصاد الأوربى خاصة والعالمى عامة والذى يتمثل فى الاتجاه إلى تكوين شبكة من العلاقات التجارية والمالية والصناعية والتكنولوجية. فى هذا المقام نجد أنطونى باجدن A. Pagden يكتب مقالة رائعة عن الإمبريالية الإسبانية والخيال السياسى، حيث يقوم بإحداث مقابلة بين التوجه الإسبانى فى الإعلاء من تزجية وقت الفراغ وبين رفض النشاط الاقتصادى، ورغم أن "باجدن" يقوم بذلك كجزء من إطار أكبر قائم على فكرة الشرف (بذرة تزجية وقت الفراغ) ذى الإيمان العام (قاعدة النشاط الاقتصادى)، فإنه فى طرحه لا يتسم بعدم الاتساق مع الموقف الإسبانى العام من الموضوعات الاقتصادية، إذ إن كل ما يلمع ذهب بالنسبة لإسبانيا، وبينما يستمر تيار الذهب القادم من المناجم التى لا ينضب معينها فى العالم الجديد فإن إسبانيا سوف تحافظ على إمبراطوريتها وعلى تجارتها وعلى تسليتها، ولم يحدث أبداً أن امتد القرض إلى هذا الحد وطوال هذه الفترة من الزمن.

ومع هذا فخلال فترة طويلة من الزمن ظلت عملة "الأسكودو" الإسبانية هى أقوى عملة على المستوى الدولى، بحيث يمكننا مقارنتها بالدولار خلال القرن العشرين وبالجنيه الإسترلينى خلال القرن التاسع عشر وربما بالمارك الألمانى خلال القرن الحادى والعشرين. ظلت ماكينة الإمبراطورية تعمل طوال فترة طويلة فقوة القصور الذاتى inercia هى قوة حاكمة، كما أن المظاهر مهمة رغم أن الأعضاء الداخلية قد تتهاوى.

يرجع جزء من هذا الانحطاط إلى الفساد الذى بدأ بمعدل مكثف وعنيف فى أثناء حكم فيليبى الثالث، إذ لجأ ذوو الحظوة عنده، ومنهم دوق ليرينا وابنه ودوق أوثيدا (الذى هزم والده) إلى السرقات الكبرى سواء لصالحهم أو لصالح شركائهم،

فقد عرضت المبانى العامة للبيع لدرجة أنه كان من الممكن شراء وبيع مقر الحكومة؛ وقامت السلطات المدنية فى بلد الوليد برشوة دوق ليرما Lerma وذلك حتى يتم نقل العاصمة من مدريد إلى بلد الوليد، وبعد ذلك عادت العاصمة إلى مدريد عندما قامت السلطات المحلية فى هذه الأخيرة بتقديم رشوة لرئيس الوزراء الذى أدار عملية مزدوجة كاملة.

غير أن هناك أمرًا آخر وهو أن إسبانيا لم تخترع الفساد الإدارى ولم تذهب به إلى أماكن غير موجودة فيها فى أمم أوربية أخرى؛ ويمكن هنا أن تضاف إلى أسباب الانحطاط الإسبانى أسباب أخرى تتعلق بالنظرة العامة للطابع الإسبانى وهى عدم الدقة فى المواعيد والكسل. هنا نجد أن ثربانتس يحدثنا من خلال إحدى مسرحياته القصيرة التى تعرض فى الأوقات الفاصلة بين فصول المسرحية الكبرى، عن أن المعونة القادمة من إسبانيا فى باب المعدات الحربية تصل دائمًا متأخرة؛ وليس أدل على هذا الطابع أيضًا من مقولة شاعت فى أوربا آنذاك وهى الرغبة فى أن يأتى الموت من إسبانيا وعندئذٍ من المؤكد أن سيأتى متأخرًا عن موعده.

هناك تناقض كبير نلاحظه فى كل هذا وهو أن سمات عدم الدقة فى المواعيد والكسل والتهاون الأرستقراطى والفساد الفطرى تُلصق بالأمة الأكثر حيوية فى عالم ما بعد عصر النهضة، فهى أمة أقل تنظيمًا مقارنة بفرنسا الكاردينال ريشيليو مازارين، الذى استطاع فى نهاية المطاف هزيمة الجيش الإسبانى هزيمة منكرة فى معركة روكروا Rocroi(*) عام ١٦٤٣م، وهى دولة أقل دهاءً من الإنجليز الذين انتزعوا من إسبانيا أى أمل فى الإبقاء على تفوقهم البحرى بعد الكارثة التى تعرض لها الأسطول الإسبانى؛ ومع هذا فهى أمة أكثر حيوية وحزمًا من أى أمة أخرى منذ العصر الرومانى فى مهام اكتشاف وغزو نصف الكرة الأرضية بما فى ذلك العالم الجديد، ومهام تأسس مئات المدن فى الأمريكتين، وفى المعارك التى خاضتها على مختلف الجبهات،

(*) بلدة فرنسية.

ضد الأتراك والبروتستانت والقوى الأوربية الأخرى. وعندما كانت إسبانيا على القمة كان بإمكانها أن تفعل أى شىء، إذ كان بإمكانها أن تستنفد كنوزها، وتنسى فقراءها ومعوزيها ولا تلفت انتباهها لقيمة عملتها واقتصادها غير المتماسك والكساد الذى يعيشه وتدهورها وديونها الداخلية والدولية ونفقاتها الباهظة وميزان مدفوعاتها فى غير صالحها، وكل ذلك من أجل أن تظل فى مقدمة الصفوف المعادية لغير المسيحيين، من التهديد الإسلامى والهرطقات البروتستانتية؛ غير أن الحقيقة والأمر الواقع فرض نفسه على إسبانيا ووضع الحدود التى تجاوزها الجنون الإمبراطورى بسهولة غير عادية.

يقدم لنا الكاتب الإسبانى فرناندو دياث بلاخا صورتين متوازيتين مثيرتين لكل من إسبانيا والولايات المتحدة، فكلاهما فى قمة قدرتهما على التأثير، جمعتا بين القدرة الحربية والسياسية وإيمان، يصل إلى حد الهوس، بأنهما على حق من الناحية الأخلاقية؛ ففى الحالة الإسبانية نجد موقفها ضد البروتستانتية، أما فى حالة الولايات المتحدة فهى ضد الشيوعية، ويلاحظ أن كلتا الأمتين مدّتا من سلطانهما، وأجّلتا البت فى مشاكلهما الداخلية وضحتا بعدة أجيال؛ ووصل الأمر فى هذا السياق أنه عندما زالت تهديدات العدو ظلت سارية المفعول عملية الهوس باستخدام القوة، لدرجة أنها تحولت إلى نوع من الإدمان المُذْهِب للعقل.

يمكننا أن نواصل سرد أوجه الشبه إذا ما نظرنا إلى طول أمد الانحطاط الاقتصادى الإسبانى ووجدناها حربيًا أمة قوية، كما أنها الأمة الأكثر ابتكارًا وتجديدًا فى المعدات الحربية، فالوحدات الحربية الإسبانية الشهيرة المسماة **Tercio** كانت مقبولة لدى الجميع وكانت تشكل جزءًا ضمن أفضل عناصر سلاح الفرسان فى أوربا، الذى كان فى إسبانيا، تلك الأمة التى استطاعت تقويم البنية التنظيمية الحديثة للقيادة العسكرية، فهناك رتبة "الجنرال" ورتبة "أمير البحار" **almirante** وهى رتب حربية إسبانية. نعود مرة أخرى ونقول إن لفظة **Almirante** هى عربية الأصل.

بعد فترة من الزمن نجد أن القـوة الثالثة المناوئة لإسبانيا بعد إنجلترا وهولندا هى فرنسا، القوة الكبرى الأخرى فى القارة، حيث تمكنت عن طريق الالتزام والمرونة السياسية والإدارة الجيدة والكثير من الحيل والحبائل المكيافيلية والكثير من الحزم، من أن تنتزع من الأسرة المالكة الإسبانية "بيت النمسا" طموحاتها فى ملكية تشمل الكون كله والوحدة المسيحية أو أوربا ذات التوجه الواحد التى تحكمها الإمبراطورية الإسبانية. هنا يعود الفضل لفرنسا فى الإفصاح دون مواربة - وهو إفصاح عقلانى لكنه غير ذى قيمة أدبية كبيرة - عن أن حقيقة هذه المعارك والمشاحنات بين البلدين هى أنها حروب مصالح وطنية، بعيدة عن الاعتبارات الدينية أو الأخلاقية، وكانت معركة روكروا Rocroi (١٦٤٣م) هى المعركة التى قضت على سمعة وشهرة الجيش الإسبانى إلى الأبد.

لا يمكن للمرء أن يتخيل صورة أفظع، وربما أبشع، من التعبير عن التفوق من تلك التى لجأ إليها لويس الرابع عشر لإذلال إسبانيا من خلال موضوع بروتوكولى بسيط، ففى عام ١٦٦١م، فى بلاط سان خايمى فى لندن، أعلن السفير الفرنسى أنه إذا ما قَبِلَ المبعوث الإسبانى قبله فإن خدمه سوف يقطعون لجُم خيل الممثل الإسبانى، وكردّ على هذا قام الإسبانى بربط عربته بالخيل بواسطة سلاسل حديدية، وعلى الفور أرسل لويس الرابع عشر تهديداً إلى فيليبى الرابع مطالبًا فيها أن تكون للسفير الفرنسى الأسبقية على السفراء الإسبان فى كافة البلاطات الأوربية، وإلا فالحرب. ويمكن الحكم على الانحطاط فى القوة الإسبانية من خلال ما فعله فيليبى الرابع للحيلولة دون نشوب الأزمة، فأرسل اعتذارًا للويس الرابع عشر واعتبارًا من ذلك التاريخ سوف تكون الأسبقية الدبلوماسية لفرنسا.

وحتى لو كان هذا مجرد موضع من أصول الإتيكيت فهذا له دلالته، فقد ظلت إسبانيا على مدى قرنين من الزمان تصبو إلى الهيمنة السياسية على أوربا، إضافةً إلى أنها فرضت الموضات الثقافية فى كافة أنحاء أوربا وكان هذا العنصر الأخير حقيقة لا خيالاً، إذ تجلى فى مناحى شتى ابتداء من طريقة ارتداء الملابس وحتى فنون القتال،

والعودة إلى أصول الإتيكيت فى البلاط والأسلوب الدبلوماسى والسلوك فى مجتمع متحضر، وطبقًا لأوزوالد سبنجلر:

"أضفت إسبانيا طابعها على الحياة الأوربية وتأثر بها برلمان فيينا، وكذا فيما هو جوهرى بحيث ذهب إلى أبعد ما عليه حكومة بسمارك فى ألمانيا".

ثم يضيف مؤلف كتاب "انحطاط الغرب" قائلاً بأنه "ابتداء من عصر الملك الإسبانى كارلوس الخامس حتى عصر فيليبى الرابع عاشت أوربا القرن الإسبانى فى مجال الدين والفكر والفن والسياسة والعادات"، ولم يكن هذا هو المثال الأخير لإمبراطورية ضخمة مترامية الأطراف غير واعية بأخطائها الكثيرة، والسائرة مباشرة نحو الكارثة، ومع هذا أخذت تضع وسط الفساد والانحطاط البذور الضرورية لبلوغ غاية الإبداع الفنى.

رغم اللاتسامح والفساد، وعدم القدرة والأهلية، وترامى أطراف الإمبراطورية، فإن هذه الإمبراطورية الإسبانية التى تعيش حالة الانحطاط خلال القرن السابع عشر كان عليها أن تتعايش مع أقصى ازدهار للثقافة فى إسبانيا؛ إنه "العصر الذهبى"، عصر ازدهار الأدب والرسم فى إسبانيا وعصر رسّامين مثل الجريكو وبيلاثكيث وثورباران وموريّو، وعصر كتاب المسرح مثل لوبى دى بيجا وكالديرون دى لاباركا، وعصر الشعراء مثل كيبيدو وجونجورا، وعصر الروائى ثربانتس.

الفصل الثامن

العصــــر الذهبـــى

ظلت إسبانيا، خلال القرن السابع عشر، محتفظة بنصيب جيد من الكنز الأمريكى لتسدد ديونها وتكاليف حروبها؛ وقد قادت سرعة انتقـال الذهب والفضة من إسبانيا إلى أوربا إلى انخفـاض سعر العمـلة، فلا أحد كان يريد قبول العملة النحاسية المسماة Vellon، وكانت الإمبراطورية الإسبانية تضم أربعين مليون نسمة بما فى ذلك الستة عشر مليونا من الأوربيين خارج شبه جزيرة أيبيريا التى كان بها فقط تسعة ملايين نسمة. إلا أن الفوارق بين من معهم ومن ليس معهم أخذت تزداد بنفس المعدل الذى يتم فيه توزيع الثروة بطـريقة غير عـادلة، فقـد امتـلأت المدن بالشحاذين، وكـان بعضـهم يلحف فى السؤال ويحمل شهادة تعطيه الحق فى سؤال النـاس، وكان المكفوفون من المميزين، كما كانوا مخولين بترديد أغنيات وبيع الرّزنامات، إلا أن أغلب الشحاذين الإسبان الذين بلغ عددهم ١٥٠ ألف نسمة فى العصـر الذى عـاش فيه ثربانتس وبيلاثكيث كـان من الذين يتصنّعون إصابتهم بالتقـرّحات الدامية والحمّى المفاجئة.

يمكن أن يكون اللصوص من محترفى سرقة المنازل، أو أتقياء يسرقون الكنائس، أو متخصصين فى فتح أبواب أو متخصصين فى القدرة على انتزاع ملابس أحد المارة فى الشوارع؛ أما عصـابات القـرى فكـانوا من الجنود الذين فقدوا أماكنهم فى الجيش لكبر السن، وعصابات أخرى مكونة من الهـاربين من محاكم التفتيش، وثالثة مكونة من المزارعين الذين أفلسوا.

من كان يهرب من محاكم التفتيش؟ هم اليهود الذين كانوا قد تحولوا إلى المسيحية وسُمُّوا "بالخنازير" احتقاراً لهم ولم يغادروا البلاد عام ١٤٩٢م؛ كانوا عُرضة للمضايقات ومثار الشبهات وهدف المطاردات عندما لا تتوفر لديهم المهارات الكافية التى تدل على انخراطهم فى المجتمع المسيحى مثلما فعل آل توركيمادا، أو ربما أجداد القديسة تيريسا دى أبيلا، وكذلك أجداد ثربانتس؛ لكن من منا فى إسبانيا (وكذا من نحن معشر الإسبانوأمريكيين من أحفاد الإسبان) لم يجر فى عروقه دم يهودى ودم عربى بعد ألف عام من التعايش الحميم؟

وبغض النظر عن الشحاذين واللصوص والشطار، كان هناك فراغ كبير يفتح ذراعيه ويمدهما حتى يصلا إلى مصاف النبلاء، وفى هذا الفراغ سوف نجد أبناء الذوات hidalgos فى القاع وفوقهم الفرسان حتى نصل إلى قمة الهرم الاجتماعى، أى الكبار. كان هؤلاء مُعفين من الضرائب وكانوا يلجئون لمحاكم خاصة ولا يمكن إيداعهم السجون بسبب ما عليهم من ديون، ولهم الحق فى حمل السيف ويرتدون ملابس كانت ممنوعة على من هم أقل منهم درجة؛ كان كل فرد مرتبطاً بالقواعد والمزايا أو كان خلوا منها، ومن أى فئة اجتماعية.

كان هذا العالم من الناحية الرسمية عالماً منظماً وامتداداً للمفهوم الخاص بالعصور الوسطى التى عليها المكان وكذا المعنى العام والانسجام؛ غير أننا نجد أوربا الجديدة ونظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً جديداً تعرضت وحدته الدينية للتفسخ، وقامت فيه الطبقات الاجتماعية بكسر الطوق المفروض عليها وأخذت تبحث لنفسها عن مكان تحت الشمس، عن عالم يتسم بالمخاطرة المالية والجرأة فى العمليات التجارية التى يحصل المرء بموجبها على أرباح وفيرة؛ إنه عالم يتحرك فيه كل شىء ويكسر الحدود ويبتكر أنماطاً جديدة ولغات تصلح لعصر اقتصادى جديد، وهنا نجد أن إسبانيا لا يمكن لها أن تنعزل عزلة كاملة عن هذا التحول الضخم، ومع هذا قاومت الفوضى الخارجية قدر استطاعتها واضعة نصب عينيها الإيمان باستعادة الوحدة الكاثوليكية، لكن الأمر المؤسف أن هذا لم يكن إلا سراباً، إذ وجدت إسبانيا نفسها

مضطرة لاتخاذ موقف دوجماتى من الحياة، وكلما تواكبت درجة توافقها مع المثاليات الخاصة بالوحدة الدينية كان عليها فى الوقت ذاته أن تتخذ لغة أرثوذكسية (متشددة) حتى تحافظ على رؤيتها الموحدة للعالم.

نجد إذن أن الأزمة الإسبانية خلال العصر الذهبى كانت بين النظام الرسمى والفوضى غير الرسمية، وبين هذين ظهرت العديد من الإجابات التى قدمت للعصر الذهبى الإسبانى الشعور بالعجلة وربما أيضًا جماله، ففى أثناء هذا التوتر الممتد بين ما هو مسموح به وما هو مرغوب فيه، وبين ما يمكن رؤيته وما يجب أن يظل محجوباً عن الرؤية، بين ما يُقال وما هو مسكوت عنه، هناك جمال بالألوان وباللغة والدراما وهذا الجمال يفصح عن نفسه ويتفوق على أى صمت. تعايش كل ذلك فى إسبانيا فى ظل الإحساس بالخطر والإعلاء من الشأن والألمعية؛ وإذا ما تأملنا هذا الزمن القصير لوجدنا من النادر أن تكون أمة ما قد ذاقت قدرتها على تقديم إجابات ومجابهة التحدى الخاص بالرؤية الموحدة الدوجماطية والمنظمة للعالم. وانتشرت هذه الإجابات على مختلف الأصعدة ابتداءً من طبقة الشطار **Picaresca** وحتى التصوف.

لا توجد لوحة من اللوحات إلا ووجدنا فيها تعايشًا بين ما هو إنسانى وما هو إلهى، ويلاحظ أن ذلك كان بشكل محدد وواقعى مثلما نجد فى لوحة "تشييع رفات كونت أورجاث" فهى لوحة تنقسم إلى قطاعين أحدهما بشرى والآخر إلهى، وهنا نلاحظ أن هذه اللوحة التى أبدعها الجريكو لا يمكن أن تكون كاملة إذا ما جاءت منقوصة من هذا الجانب أو ذاك، فإذا ما قمنا بتقسيم اللوحة أفقيًا سوف نرى، وبشكل فريد، أن الجزء العلوى هو عبارة عن لوحة دينية رائعة تصور ملكوت السموات، أما الجزء السفلى فهو فى الحقيقة لوحة تصور جنازة رجل من رجال الجيش وكبار رجالات الدولة فى إسبانيا، فكافة الوجوه الموجودة تنطق بالملامح المتعرف عليها من خلال تراثنا وهى الفردية والشرف والكبرياء والمقاومة الرواقية **estoico**، لكن عندما نرى شخصية وسط اللوحة تنظر إلى السماء وربما تتلاقى مع نظرة الرّب الهابطة إلى الأرض، نجد أن كونت دى أورجاث يحظى بالقدرة الكاملة على التنقل بين السماء والأرض، وبذلك تتبع

كل واحدة منهما الأخرى وتندمج المادة والروح من خلال خلق الموت والحياة، والكبرياء والكرامة على الأرض والأمجاد فى الملكوت السماوى.

هنا نجد أنه قد ولد بين هذين العالمين، أو اجتماعهما معًا فى الحقيقة، فن لا ينخرط فى شئون الحياة اليومية وفى الصراع من أجل الحياة، لكنه، فى آن معًا، لا يضحى بنفسه مبتعدًا عن مُتع الدنيا. هنا يمكن القول بأنه بين هذين الطرفين وفى مجتمع شبيه أمكن لنا أن نرى ميلاد فن سرد قصصى عظيم، وكذلك العمل الرائع لكل من ثربانتس من الناحية التصويرية، وبيلاثكيث.

إطراء الجنون:

ولد ميجل ثربانتس عام ١٥٤٧م من عائلة فقيرة لكنها محترمة، وسار على درب والده، الطبيب الفاشل، فى طريق الحياة متنقلاً بين أرجاء إسبانيا كارلوس الخامس وفيليبى الثانى. ومن المؤكد أن ثربانتس كان تلميذًا للإسبانى خوان لوبث، ذلك الرجل الشهير الذى اعتنق توجهات إيراسمو، وربما كان ثربانتس أيضًا تلميذًا فى سلمنقة.

كان تأثير إيراسمو **Erasmo** على ثربانتس تأثيرًا واضحًا مثل تأثيره الضخم على مناحى الحياة الإسبانية فى بداية القرن السادس عشر، فقد تضرع هذا العالم من علماء روتردام **Rotterdam** للكنيسة أن تقوم بعملية إصلاح داخلية قبل فوات الأوان، وكان أيضًا المدافع عن ثقافة إنسانية جديدة؛ فكل الأشياء لها معان متعددة، فلا يمكن للعقل أو الإيمان أن يستنفدا معين الواقع. هنا نجد أن إيراسمو يطرى الجنون متذرعًا بأن كلاً من الإيمان والعقل هما مصطلحان نسبيان وليس مطلقان؛ وما يوضح مدى تأثيره فى إسبانيا كارلوس الخامس هو أن السيد ألفونسو دى بالدس، سكرتير الملك، كان من أنصار هذا الاتجاه الإيراسمى ويعترف بذلك علنًا، غير أنه بعد الانشقاق الذى حدث فى الكنيسة وبعد عملية الإصلاح اللوثرية، لم يعد إيراسمو هو الشخصية ذات الرونق، فقد صدرت الأوامر بمنع تداول كتبه، أما ملامحه التى خلدتها لوحة هُولْبين الشاب **Holbein J.** فقد تحولت إلى كاريكاتور بشع على يد محاكم التفتيش.

وهنا نقول إن ثربانتس كان على حق عندما لم يشر إلى تأثيره الفكرى عليه فى أى من كتبه، ومع هذا فثربانتس هو تجسيد للإيراسمية فى إسبانيا، حيث تتلاقى فيها تلك الدعايات اللصيقة بازدهار وانحطاط إسبانيا.

فى عام ١٥٣٤م كتب خوان لويس بيبس، المتخصص فى العلوم الإنسانية، إلى إيراسمو قائلاً:

"إننا نعيش زمناً غاية فى الصعوبة لدرجة أن المرء لم يعد يدرى ما هو أخطر شىء":

هل الصمت أو الكلام".

وبعد ذلك بقرن من الزمان نجد كيبيدو، شاعر الباروك العظيم والكاتب الساخر، يعبر عن استغرابه، بتساؤل يتعلق به هو وبالمجتمع الذى يعيش فيه:

أليست هناك روح شجاعة؟

هل علينا أن نشعر بما نقول؟

هل محرم علينا أن نقول ما نشعر به؟

كان كلاهما يعرف الموضوع الذى يتحدث فيه، فبيبس، الإيراسمى واليهودى الذى تحوّل إلى المسيحية، قد تم نفيه خارج إسبانيا وجرت مصادرة أمواله وإحراق أفراد أسرته على الملأ على يد محاكم التفتيش؛ كما أن الكتابات الجريئة التى جرى بها قلم كيبيدو كثيراً ما قادته إلى السجن؛ كما أن عدد الكتب التى منعتها محاكم التفتيش الإسبانية (بما فى ذلك كتب إيراسمو ومكيافيلى) كان يشير إلى قسوة تتجاوز القسوة التى عليها البابا فى هذا المقام. كما أن فيليبى الثانى منع الإسبان من الدراسة فى الخارج باستثناء الدراسة فى روما. هنا نجد أن هذا الانغلاق الفكرى أثر على استيراد الكتب ونشرها فى إسبانيا.

بدأ ثربانتس، البطل الصغير فى معركة ليبانتو ضد الأتراك، بالتّغنى بالأمجاد الأرثوذكسية للإمبراطورية، ومن ذلك تبريره للعبارة الشهيرة التى قالها فيليبى الثانى عن أن الأسطول الإسبانى قد هزمته "عـوامل الطبيعـة"؛ يقول ثربانتس: "مراكبنا لا يقدر عليها الأعـداء بل عانت من عاديات الطبيعـة من رياح عاصفة وبحـر هائج مائج وسموات ملبدة".

لكن عندما رحل فيليبى الثانى، نشر ثربانتس واحدة من قصصه "المثالية" وهى "الغيور ابن إقليم إكستريمادورا"، حيث نجد القصة فى الأصل تنتهى بكلا العشيقين وقد التقيا فى الفراش؛ غير أنه بعد أن قرأ أسقف إشبيلية نينيو دى جيفارا المخطوطة (وهو ما أطلق عليه أمريكو كاسترو لقب ملائكة مناهضة الإصلاح) أخذ يرفرف بجناحيه فوق العُشّاق ذوى الحظ النّكِد، وهنا نجد أن النص الذى نشر للرواية فيه أن العشيقين كل ينام بمعزلٍ عن الآخر ولم يُنْقص من عفافهما شىء. إذ قبل ثربانتس تنويهات صاحب القداسة.

كلما ألقى الواقع بثقله الذى لم تُرَاعِه الإمبراطورية المترامية الأطراف، وكلما تكاثرت سهام الرقابة عليه وأحدثت تأثيرها فيه، بدأ ثربانتس استخدام لغة الكوميك واللغة غير المباشرة المضادة للقواعد العامة التى كانت عليها الأمة.

هنا نجد أن ثربانتس يبتكر زوجين متنافرين، أحدهما فارس فقير يتخيل نفسه فارساً جوّالاً من فرسان الزمن القديم، يرافقه أحد الشطار هو مساعده سانشو بانثا؛ وهو هنا يمد جسراً بينهما، أى بين طرفى إسبانيا، أى الشطار وما هو صوفى، أو بمقولة أخرى بين واقعية ضيق ذات اليد والحلم الإمبراطورى؛ وبعبقرية شديدة تجتمع الدروع المنبعجة التى يرتديها دون كيخوته والنّهم الجامح لسانشو بانثا، واللغة الملحمية مع لغة الشطار؛ والنتيجة هى، بالطبع، الغموض بعينه الذى يريده إيراسمو، أى الجنون المعقلن، والعقل النسبى، والعمل الفنى. يتحدث دون كيخوته لغة تتسم بأنها تجريدية تمامًا، أما سانشو فلغته هى لغة المُحسّات النسبية، وهنا نرى أن كلتا الشخصيتين توحيان بوجود تفاهم بينهما، وبذلك تولد الرواية الحديثة عندما يكف

أبطالها عن الحديث بلغة واحدة، فالأبطال القدامى مثل أخيل Aquiles وعليس والملك أرثر ورولاندو يتحدثون جميعًا اللغة نفسها. أما فى الرواية فإن كل شخصية تتحدث لغتها الخاصة بها.

لكن الجنون يمكن أن يكون خطيراً بالفعل، هنا علينا ألا ننسى أن ثربانتس عاش فى عصر شهد إحراق محاكم التفتيش لجويوردانو برونو، وهذا ما حدث فى روما عام ١٦٠٠م، أى قبل نشر رواية "دون كيخوته" بخمس سنوات؛ وفى عام ١٦١٦م، أى بعد وفاة ثربانتس بعامين، أدانت الكنيسة الكاثوليكية، رسمياً، ما ابتكره كوبرنيكوس، وفى ١٦٣٣م تم إجبار جاليليو على التخلى عن أفكاره فى حضرة البابا. كما أنه توفى بعد ذلك بسنوات (١٦٤٢م)، وهو العام نفسه الذى شهد مولد إسحاق نيوتن؛ وعندئذٍ نجد أوربا المثل العليا لعصر النهضة تتحول إلى أوربا الآمال الضائعة وأوربا الحرب الدينية. فهل كان كل شىء ممكنًا كما حَلُمت به التوجهات الإنسانية خلال عصر النهضة؟ أو أن كل شىء الآن أصبح محل شك؟ فى العام نفسه، أى عام ١٦٠٥م، نشرت روايات "دون كيخوته" و"الملك لير" و"مكبث"، إننا أمام اثنين من الطاعنين فى السن المجانين وأمام شاب سفاح يظهرون على مسرح أحداث العالم ليذكّرونا جميعًا بالفخار والذل الذى تعيشه الإنسانية. هنا نجد أن شكسبير يترنم "بالعالم الجديد الجرىء". أما ثربانتس فهو يأسف لانقضاء العصر الذهبى:

> "فى ذلك العصر الجميل كان كل شىء مشاعًا... كان كل شىء سلامًا،
>
> وصداقة ووئامًا... لم يكن هناك غش، أو خداع أو لؤم يتداخل مع الحقيقة والبساطة..".

شارك ثربانتس شكسبير هذا العالم الكريه، وبالفعل مات كلاهما فى العام نفسه والشهر نفسه ٢٣ أبريل ١٦١٥م.

رجل إقليم لامانشا La Mancha :

أرسى ثربانتس بكتابه "دون كيخوته دى لامانشا" قواعد الرواية الحديثة عند الأمة التى تلح على رفض الحداثة، فإذا ما كانت إسبانيا فى عصر محاكم التفتيش قد فرضت وجهة النظر الواحدة والدوجماطية والأرثوذكسية بالنسبة للعالم، نجد ثربانتس يتخيل عالمًا تتعدد فيه وجهات النظـــر، ويفعــل ذلك من خـــلال السخرية التى تبدو وهى تلبس رداء البراءة التى عليها روايات الفروسية؛ ثم يذهب إلى ما هو أبعد من هذا، وهو أنه إذا ما قامت الحداثة على وجهات النظر المتعددة، فإنها، أى هذه الرؤى، تقوم على مبدأ الحيرة.

من الطبيعى أن يكون دون كيخوته رجلاً مؤمنًا وغير شكاك أو تنتابه الحيرة، كما أن يقينه مستمد من قراءاته، وإيمانه نجده فى كتبه وفى "كلماتها، كلماتها، كلماتها".

عندما يترك دون كيخوته قريته ويتجه صوب حقول إقليم لامانشا، يترك وراءه كتبه ومكتبته أى يترك وراءه ملاذه؛ فالسيد كيخوته قارئ لكتب الفروسية ويؤمن بكل شىء يقرؤه، وبالتالى فكل ما قرأه حقيقة. القراءة عند دون كيخوته هى جنونه، فالطواحين عنده هى العمالقة لأن هذا هو ما تقول به الكتب التى قرأها، وعندما يهاجمها ويسقط على رأسه يستخلص من ذلك أن هذا يمكن أن يكون بفعل السّحرة والجان، لأن ذلك هو ما قرأه، وليس بمقدور أحد أن يقنعه بعكس ذلك. ينهض دون كيخوته مهزومًا، ويمتطى من جديد صهوة مُهْرته، ويخرج من جديد لدرء الظلم وهزيمة الأوغاد وحماية اليتامى والأرامل، فهذه هى المهمة التى كُلف بها بناء على ميثاق الشرف الذى تتضمنه كتبه، إلا أنه عندما ترك قريته وكتبه وخرج لحقول منطقة مونتيل، فإنه قد خلف وراءه أيضًا العالم المثالى الذى كانت عليه العصور الوسطى، وهو عالم متين كأنه الحصن، إذ كان لكل شىء مكانه المحدد، ثم دخل فى عالم عصر النهضة، ذلك العالم الجديد الجرىء، الذى تحركه رياح الغموض والتغيير، حيث كل شىء أصبح محل شك؛ وهنا نجد أن عبقرية ثربانتس تكمن عندما قام برسم معالم واقع الإيمان من خلال الكتب التى وضع دون كيخوته محتواها فى رأسه، أخذ يرسى دعائم واقع الشك فى الكتاب نفسه الذى سوف يحيا فيه دون كيخوته، أى رواية "دون كيخوته دى لامانشا".

هنا نجد بداية الحيرة وقد غرست فى أول جملة تبدأ بها الرواية "فى مكان من لامانشا لا أريد أن أتذكر اسمه"؛ فعندما يكون المكان نفسه موضع شك وهو المكان الذى تدور فيه أحداث الرواية يبدأ ثربانتس مشواره فى وضع أسس الشك بالنسبة لمؤلف الكتاب؛ من هو مؤلف "دون كيخوته"؟ هل هو شخص يُدعى ثربانتس؟ هل هو مؤلف عربى جرت ترجمة عمله على يد مؤلف عربى آخر؟ أم أن المؤلفين كُثُر سواء كانوا حقيقيين أو افتراضيين ممن يسمون كيخوته من المختلقين؟ الذين استمروا على نهج النص الأصلى أو قلّصوه؟ أم أن المؤلف الحقيقى هو التابع الأمىّ سانشو بانثا الشخصية الوحيدة الذى نراه موجوداً فى الأحداث كافة التى تقع من "دون كيخوته" باستثناء إرساله ليحكم تلك الجزيرة الوهمية المسماة باراتارى **Barataria**؟ عندما يوضع تأليف موضع شك فإن ثربانتس يضع مفهوم المرجعية نفسه موضع شك.

الأسماء محيرة فى رواية دون كيخوته فاسم "دون كيخوته" هو ببساطة الاسم الحربى لأحد أعيان الريف ويدى ألونسو كيخانو - أو كيخادا -، إلا أن الشخصية تطلق على نفسها أيضًا "فارس الشخصية الحزينة"، بينما نجد شخصيات أخرى تجعل من أسمائها مجرد لوحة كاريكاتورية، طبقًا للظروف، وقد وصل الأمر بقدرة التخيل التى عليها دون كيخوته إلى القول بأنه يستطيع تحويل مُهرة مُضعضعة إلى جواد مقدام هو روثينانتى. ومن هى تلك السيدة المثالية عند دون كيخوته؟ هل هى فتاة ريفية عادية ذات صوت أَجشّ تفوح منها رائحة الثوم، أم هى الأميرة العذبة دولثينيا؟

نجد أيضًا أن نوع الكتاب هو أيضًا موضع شك، ففى إطار التجديد الذى أدخله على روايته نجد دون كيخوته يضم فيها كافة الأنواع الأدبية التى كانت موضة ذلك العصر وهى قصص الفروسية وقصص الشطار والمسرح داخل المسرح والقصيدة الرعوية وقصص الحب والرواية البيزنطية، ويجمع كل هذا ويصبه فى نوع جديد هو نوع الأنواع، الرواية، التى شهدت تجديدات لتشمل العالم بأسره بما فى ذلك التعددية التى عليها.

نجد إذن أن ما يؤكد على هذا التنوع فى وجهات النظر هو أننا نرى فى دون كيخوته، ولأول مرة فى الأدب، أن الشخصيات تكتشف أنها تتصرف وأنها جزء من الرواية، وأنه ينظر إليها من مناظير عدة وشديدة الحداثة: إنه قارئ الكتب التى نشرت من خلال هذا التجديد الآخر وهو الطباعة.

الإيمان والشك، واليقين والحيرة. هذه هى موضوعات العالم الحديث التى أسس عليها ثربانتس الرواية الأوربية الحديثة، وهنا نجد أن ديستوفسكى يطلق على "دون كيخوته" بأنه "الكتاب الأكثر إثارة للحزن، لا يضارعه كتاب آخر فى هذا فهو تاريخ خيبة الأمل". إنها هالات النور الخاصة بالآمال الكبرى تنطفئ رويداً رويداً، وهذا ما سوف يكون أحد السمات التى عليها الكثير من السرد القصصى الحديث. فى نهاية المطاف يعود دون كيخوته إلى قريته ويسترد وعيه، وبدا له أن هذا هو الجنون، وعندما يتحول دون كيخوته من جديد إلى ألونسو كيخادا يواتيه الموت.

لكن أليس هو العجوز أحد أعيان القرية المسمى ألونسو كيخادا – أو كيخانو – هو الذى وافته المنية بينما يظل دون كيخوته على قيد الحياة إلى الأبد فى كتابه، بشكل تجتمع فيه الفروسية والجنون والكوميك والبطولة؟ ألم يقض على الشك وخيبة الأمل بالحب؟ يعرف دون كيخوته حقيقة من هى دولثينيا: إنها الفتاة البسيطة الريفية التى تُدعى ألدونثا. هو يدرك ذلك ويقبل به، ومع هذا فلأنه يحبها يقول:

> "إنها الأميرة الأكثر رفعة على وجه الأرض، ويكفينى أن أفكر وأعتقد أن الطيبة ألدونثا لورنثو هى الجميلة الشريفة، أما فيما يتعلق بالحسب والنسب فهذا لا يهم كثيراً... أرسمها فى مخيلتى كيفما أشاء... وليقولوا ما يقولون".

لوحة "لاس منيناس" [الوصيفات]:

إذا ما كان الاتجاه الفكرى المناهض للإصلاح ومعه محاكم التفتيش يحتمان أن تكون هناك وجهة نظر واحدة، فإن ثربانتس سوف يجيب بأنهم يرونا وأننا لسنا وحدنا، وهناك الآخرون من حولنا، نقرأ، يقرؤوننا، لم ننته بعد من مغامرتنا ولن تنتهى منها يا سانشو ما دام كان هناك قارئ على استعداد لفتح كتابنا حتى يعيد إلينا الحياة. نحن ثمرة وجهة النظر الخاصة بالعديد من القراء الذين مضوا والحاضرين ومن سيأتون فى المستقبل، لكننا موجودون دائمًا عندما يقرؤون دون كيخوته أو يشاهدون لوحة "لاس منيناس".

رغم وجود الكثير من اللوحات التى تستلهم دون كيخوته - ابتداءً من أوجارث Hogarth وحتى دومير Daumier ومن دوريه Dore حتى بيكاسو، ومن إدواردك E.Cruikshank خلال القرن التاسع عشر حتى أنطونيو ساوْرا خلال القرن العشرين - فإن العمل الفنى الأكثر قربًا من كتاب ثربانتس نجده فى صالة هادئة وواسعة فى متحف البرادو بمدريد.

عندما ندخل هذه الصالة، نفاجئ الرّسام دييجو دى سلبا بيلاثكيث، وهو يقوم بمهمته التى هى الرسم. من يرسم بيلاثكيث؟ هل يرسم الأميرة أم الوصيفات أم القِزْمة أم الفارس المتشح بالسواد الذى يوشك أن يدخل من خلال أفق مضىء؟ أو أنه يقوم فى واقع الأمر برسم اثنين من الشخصيات لا نكاد نراهما فى المرآة المدفونة فى الحائط الكائن فى العمق والأكثر قتامة فى مَرسم الفنان، أى والدى الأميرة، ملك وملكة إسبانيا؟

يمكننا أن نتخيل على أية حال أن بيلاثكيث يقف هناك ويمسك ريشة بيد وحامل الألوان باليد الأخرى، يرسم اللوحة التى نقوم بتأملها فى واقع الأمر، لاس منيناس، ويمكننا تخيله حتى ندرك أن أغلب الشخصيات، ما عدا الكلب النائم أو الراعية الواعية بشكل يزيد عن الحد، ترمقنا نحن، إنها تنظر إلىّ وإليك. فهل يمكن أن نكون نحن الأبطال الحقيقيين لهذه اللوحة، التى يقوم بيلاثكيث برسمها فى هذه اللحظة؟

يدعونا بيلاثكيث ومعه البلاط بكامله إلى أن نرتبط بالرسم وندخل فى اللوحة، وفى الوقت ذاته يخطو الرّسام خطوة إلى الأمام ويتحرك فى اتجاهنا. هذه هى الدينامية الحقيقية لهذه اللوحة الرائعة. إنها تمنحنا حرية الدخول إلى اللوحة والخروج منها. لدينا مطلق الحرية لنرى اللوحة، وينسحب ذلك على العالم أيضًا فى رؤيتنا له بطرائق متعددة وليس بطريقة واحدة دوجماطية وأرثوذكسية. كما أننا واعون بأن اللوحة والرسام يرمقاننا. ومن جانب آخر نرى أن اللوحة التى يقوم بيلاثكيث برسمها، أى قطعة القماش المشدودة التى نراها فى اللوحة، تدير لنا ظهرها وهى لوحة لم تنته بعد فى الوقت الذى نقوم فيه نحن بمشاهدة ما نعتبره المنتج النهائى؛ وبين هاتين البدهيتين الأساسيتين هناك فضاءات ضخمة ومثيرة تفتح أمامنا، أولها ينسب إلى المشهد الأصلى: أى أن بيلاثكيث يرسم الأميرة والوصيفات اللاتى شعرن بالمفاجأة والفارس المتشح بالسواد الذى نراه داخلاً فى الأفق والملك والملكة وقد ظهرت صورتهما فى المرآة. فهل حدث هذا المشهد بالفعل؟ أى هل كان الجميع على هذا الحال أمام الرسام أم أن بيلاثكيث تخيل المشهد بالكامل أو من خلال بعض عناصره؟ كما نتساءل هل انتهى بيلاثكيث من رسم اللوحة؟ لم يكن بيلاثكيث رسامًا شعبيًا على زمانه، وهذا ما ينبئنا به خوسيه أورتيجا إى جاسيت، واتهمه بأنه يقدم لوحات لم تنته. وعلى زمن بيلاثكيث نجد أن الشاعر العظيم كيبيدو يتهمه بأنه لا يرسم إلا "بقعًا متناثرة". لكن، ألا يشكل كل هذا نوعًا من الانفتاح فى عالم انغلق على ما هو دوجماطيقى وعلى وجهة النظر الواحدة؟ ألا يؤكد لنا بيلاثكيث بأن الدنيا كلها وهذه اللوحة وهذه الحكاية السردية كلها أشياء لم تنته بعد؟ كما أننا نحن كائنات غير مكتملة رجالاً ونساءً حيث لا يمكننا أن نعلن اكتمالنا؟ وأننا داخل حدود ضيقة وحقيقية، بل نحن كائنات منقوصة حتى عند الممات لأننا، سواء نُسينا أو ذُكرنا، نسهم فى خلق ماضٍ يجب على نسلنا الحفاظ عليه حيًا إذا ما أرادوا أن يكون لهم مستقبل.

يعلمنا ثربانتس القراءة من جديد، ويعلمنا بيلاثكيث أن نرى من جديد، ولا شك أن هذا الموقف هو الجدير بكبار الكتاب والفنانين، غير أن هذين الاثنين، وهما يعملان داخل قلب مجتمع منغلق، قادران على إعادة رسم ملامح الواقع بأدوات الخيال، فما نتخيله هو أمر ممكن ويمكن أن يكون واقعًا بالدرجة نفسها.

دون خوان والقديس خوان:

عندما جرى تعيين دييجو دى سيلبا إى بيلاثكيث رسّامًا للبلاط فى عصر الملك فيليبى الرابع، عام ١٦٢٣م، فإنه، أى الرسام، أراد وضع فاصل واضح بين حريته الفنية التى يعتبرها هبة من هبات الطبيعة، وبين خدمته للملك الذى كان مجرد وسيلة لغاية، وبمواربة شديدة لم يقدم بيلاثكيث نفسه أبدًا على أنه رسام بل خادم الملك؛ وعندما أرسل إليه البابا عُقْدًا من الذهب تكريمًا له على فنه، أعاده إليه بيلاثكيث؛ فهو لم يكن رسامًا بل هو موظف فى البلاط، واستطاع بيلاثكيث بهذه الطريقة أن يحرر نفسه من أية قيود نحو الملك اللهم إلا رسمه هو وأسرته فى مراحل العمر المختلفة، أى كلما تحوّلوا إلى نوع من الأثاث المسرحى، واكتسبوا سمة هى أنهم مجرد رموز ضمن فن تجاوزهم منذ زمن.

يقول أورتيجا إى جاسيت إن بيلاثكيث كان متباعدًا، وكان فنان الأبعاد؛ متباعدًا عن البلاط وعن موضوعاته وعن تقنيته، ولا يصبح "واقعيًا" إلا عن بعد، ذلك إننا عندما نشاهد لوحاته عن قرب تبدو لنا كثيرة التفاصيل وتجريدية وجريئة ومُخَدِّرة. وهنا فإن الرسم بهذه الطريقة كان يوجد من أجل الفن، والمكان كان يوجد من أجل الملك، وكان على بيلاثكيث أن يُحْدث هذا التمييز حتى يزدهر ويواصل العيش وحتى يحافظ أيضًا على روح الدعابة التى هو عليها، فقد كان هناك اعتقاد شائع بأن فيليبى الرابع كان نموذج دون خوان، ظئَر النساء فى إشبيلية، طبقًا للوصف الذى نراه له فى النسخة الأصلية للعمل الذى نُشر عام ١٦٣٠م من تأليف الراهب جابريل تيث، صاحب التوقيع أو الاسم المستعار الشهير به وهو "ترسو دى مولينا". وبعد ذلك، وبشكل غير مألوف، سوف يتحدث عن نموذج لدون خوان يتمثل فى رجل واعد هو السيد ميجل دى مانيارا، الشهير بمغازلاته للراهبات خارج محابسهن الديرية. أما الملك فيليبى الرابع فقد كان يشعر بميل للممثلات أكثر من ميله لوصيفات المسيح، أصبح له ثلاثون ابنًا سِفاحًا ولم يعترف إلا بواحد فقط هو السيد خوان ابنه من الممثلة ماريا كالديرون، وعندما يقضى وطره من معشوقته كان يرسل بها إلى الدير حتى يضمن ألا يطأها أحد من بعده،

ما عدا دون خوان؛ فقد رفضت إحدى سيدات البلاط مغازلات الملك وقالت له: "سيدى، أنا لا أميل للعيش فى الدير". وبلغت شهرة الملك فى هذا المقام حداً كبيراً يكاد يتوازى أو يتساوى فقط مع توباته الملتوية ومع علاقاته القريبة براهبة أجريدا **Agreda**، صديقته وناصحته الأكثر استدامة معه.

فى إطار هذا البلاط المفعم بالدسائس الجنسية والتوبات والممارسات التناسلية بين أفراد العشيرة الواحدة كان لا بد من ظهور الأقزام والبهاليل الذين رسمهم بيلاثكيث، وكذلك الأمر بالنسبة لابن الملك ووريث عرشه كارلوس الثانى، الذى أطلق عليه المسحور **hechizado**. كان كارلوس الثانى آخر ملك فى الأسرة النمساوية، وقد رسمه كُويلّو **Coello** وكأنه صورة طبق الأصل، أو البديل، للبهاليل المشوهين الذين رسمهم بيلاثكيث: أى العجز الجنسى والجهل والذى لا يصبر عليه أحد؛ وفوق كل هذه الشخصيات المشوهة يجب أن تطير أو تنزلق شخصية الحرية والإباحية، وكذلك دون خوان الليبرالى وهو يهرب من أسوار الأسكوريال، ويفر من الأديرة، وهو فى حالة تنقل دائم حيث يجد توافقًا بين سرعة المتعة وسرعة التغيير، منطلقًا ومندفعًا خارج الحدود المرسومة؛ فأغنية الصوت الواحد **aria** الشهيرة فى مقطوعة "دون جيوفانى" لموزار تقول لنا بأن البطل له عشيقات فى إيطاليا وفرنسا وتركيا، وفى إسبانيا تحديداً له "ثلاث وألف عشيقة". دون خوان، إذن، هو مؤسس السوق الأوربية المشتركة للجنس، هو مكيافيلى الجنس، وهو فى حالة هروب دائم من الانتقام، لكنه فى الأساس فى حالة هروب من السأم والتكرار، وربما لا يحب إلا نفسه. على أية حال ما يعوزه هو الرضا، فحياته هى الحركة والتغيير والتنقل، لا يشبع ولا يرتوى ولا يرضى ولا يعزّيه شىء، اللهم إلا الموسيقى، وليس الرسم أو الشعر اللذان يحاولان اللحاق به؛ دون خوان هو الهارب وموسيقاه هى الهروب، وقد استطاع موزار، ولا يضارعه أحد فى هذا، أن يرصد حركته الدائمة من خلال مقطوعته الشهيرة "دون جيوفانى". غير أن أول دون خوان إسبانى "ظئر النساء فى إشبيلية"، لتيرسودى مولينا، كان رجلاً شاباً وغير مجرّب وقائمة عشيقاته غير طويلة؛ هن فقط أربع نسوة، على سبيل التحديد والدقة، وليس هناك حديقة للمتعة إلا إشبيلية وقصورها وأديرتها؛ ولكن إذا ما كان السيد خوان الذكرى يطارد النساء، فكيف يمكن

درء هذه المطاردة من النساء، من تلك اللاتى على شاكلة ما رسمهن إسبانى آخر فى عصر فيليبى الرابع، هو فرانثيسكو ثورباران F.Zurbaran، حيث نجد عذراوات لوحاته وشهيداتها ضمن صفوف النساء الأكثر قدرة على الإثارة والمطاردة واللاتى لم تُرين قبل ذلك فى أى لوحة؟ العُرى عند ثورباران ناعم وغير ساخن لكنه عندما يُلْبسهُنّ فليس باستطاعة أحد مقاومتهن. الملابس فى لوحات ثورباران هى مثل الملابس فى فن الفلامنكو، أى تحمل فى طياتها المتعة والإثم كوجهى عملة لا ينفصلان.

ورث ثورباران هذا عن العذراء الإسبانية الشهيرة، وعن النساء اللاتى عشن خلال القرون الأولى للمسيحية، حيث فضلن الاستشهاد على الجنس ورفضن العذاب أو المطاردة، وبخاصة عندما يأتى ذلك من طرف من هو غير مسيحى أو رجل فى صفوف الجيش الرومانى ومقابل ذلك الرفض قدمن حياتهن. رسم ثورباران هذه الشخصيات الفريدة الموزعات الشتات بين الميول الجنسية والشوق إلى القداسة، يطاردهن عشاق مرفوضون وآباء غير راضين؛ هن نساء على استعداد أن تُقَطّع أوصالهن وأن يحرقن، وعلى استعداد لارتداء زى الرجال وأن يتهمن، وهن فى زى الرجال، بأنهن آباء لابنة صاحب اللوكاندة مثلما حدث للقديسة مارينا. هن نساء مجبرات على ارتداء زى الرجال بغية إغلاق الدائرة وأن يُتهمن بأنهن يطاردن الراهبات مثلما رأينا فى حالة القديسة مارجاريتا.

وأيًا كانت الظروف فإن ثورباران يلبسهن جميعًا الحرير والإستبرق وطُرَحًا متعددة الألوان، وعباءات ناعمة منسدلة؛ يلفهن بالألوان الوردية والخضراء الشاحبة، والأقمشة البرتقالية والألوان الصفراء الباهتة؛ يُلبسهنّ قبعات من القش البسيط؛ يمسكن بعكاكيز على شاكلة ما يفعل الحُجاج وعمائم ذهبية وهياكل من المعدن تغطيها الفساتين وسلال فواكه وأكاليل الزهور. كما يقدم لهن أيضًا رموز استشهادهن؛ فهو يعيد إلى دوروتيا Dorotea سلة الزهور التى أرسلت من السماء إلى القاضى الرومانى الذى حكم عليها بالإعدام.

نجد أيضاً القديسة أبولونيا **Apolonia** وهى تحمل أسنانها (أى تلك الأسنان التى لم يتمكن فيليبى الثانى من ضمها إلى مجموعته)، والقديسة لوثيا **Lucia** وعيناً على طبق. هناك نتيجتان مهمتان لذلك الغموض الذى يلف هذه الجنسية المقدسة عند ثورباران: أولاهما هو أن الوصيفات السماويات يمكن تقديمهن لا على أنهن فقط رموزاً للخلاص بل، وفى هذه الحالة، على أنهن المعادل للهلاك. هن شخصيات مماثلات عملياً للقديسات، يعُدن للظهور الآن كشياطين فى لوحة ثورباران الخاصة بالنزعات التى كانت تراود القديس جيرونيم؛ فالقديس يفزِّعهن بحركة ذراعيه وكأنهن الذباب، إلا أنهن، فى ملابسهن الفاخرة، يعزفن على الهارب **arpa** والجيتار ويغنين، ولا شك أنهن كن يترنمن بأغنية **Vol che Sapete** التى هى جزء من مقطوعة "زواج فيجارو" لموزار. هنا نجد أن كلاً من ثورباران وموزار يسألوننا هذا السؤال: ما الذى نعرفه فى حقيقة الأمر عن الحب؟ وهذا السؤال ليس إلا السؤال الذى يطرحه أيضًا ذلك الشاعر الصوفى الأعظم فى إسبانيا وهو سان خوان دى لاكروث، غير أن ذلك يدخل فى إطار توتر يتجاوز أى تخيل من جانب دون خوان أو ثورباران أو موزار؛ فسان خوان دى لاكروث، الذى عاش فى عصر فيليبى الثانى، كان راهباً، وحاول تطبيق الإصلاحات التى نادت بها سانتا ثيريسا دى أبيلا **S. T de Avila** بحذافيرها طبقًا لما وضعتها بالنسبة "لجماعة الكرمل" التى لم يتم الالتزام بها بجدٍ حتى نهاية العصور الوسطى؛ فبالنسبة للقديس خوان، نجد الرمز المؤسس للجماعة، جبل الكرمل، قد تحول إلى رمز للصعود، فى رحلة روحية تنطلق من الجسد وتتجه للخلود المطلق وهى ضرورية لمشاهدة الله، الذى لا يُرى ويغيب عن أنظار البشر مهما كانت.

بلوغ سدرة المنتهى هو مُنى الروح الأعظم، فكل ما كتب سان خوان دى لاكروث يتخلله هذا الهدف؛ كما أن مجرد الاقتراب يحظى بالرفض، حيث إنه يتسم بالضعف والضآلة، وهنا نجد أن سان خوان يحدثنا عن استسلام الروح كاملة لله، فمن خلال أعماله الإبداعية الأربعة (الصعود إلى جبل الكرمل، والليلة المعتمة التى عاشتها الروح، والأنشودة الدينية، وشعلة الحب الحية) نرى مراحل البحث التى تقوم بها الروح فى طريق الله. وقد تجردت من الرغبات الأرضية بغية الاتحاد بالذات العلية وقد تزوجتها وبلغت غاية المُنى والمراد.

تكمن مشكلة هذه الرحلة الصوفية التى قام بها سان خوان فى أن الطريق الذى سار فيه كان مليئًا بالأشواك، وكان أبرز هذه القضايا وأكثرها صعوبة أن يعرف سان خوان أن الربّ هو "العدم"؛ إنه "العدم" الأعلى، وبلوغه يعنى هو الرحيل نحو هذا العدم الذى لا يمكن لمسه أو رؤيته أو فهمه حتى فى الإطار الحسى الإنسانى؛ الربّ ليس مُحَسًا، متباعد، ولا توجد علاقة بينه وبين الكائن الإنسانى، هذا الموقف الصعب، والذى لا يرحم على الإطلاق يتسبب فى هزيمة من هو أكثر إيمانًا فى صفوف المؤمنين، لكنه لا يتغلب على سان خوان الصوفى الإسبانى الأعظم، والقادر على التضحية بكل شىء فى سبيل هذه الرحلة "التراسندنتالية" أو الانتقال إلى غير رجعة وهى رحلات غاية فى الرفعة فى منظومة الأخلاق الإسبانية:

"إن كل كيان وذات للمخلوقات هو لا شىء مقارنة بالربّ اللانهائى،
وكل جمال المخلوقات مقارنة بالجمال اللانهائى للرب ما هو
إلا جماع القبح".

آمن سان خوان بذلك؛ وبغض النظر عن الصعوبة الكبرى فى الاتحاد بالرب فإن هذه الصعوبة فتحت شهيته أكثر، فإذا ما كانت المُحسّات موجودة ومحاطة بالصمت والظلام فإن الشاعر سوف يلفه الصمت والظلام. ومن الطبيعى أن المشكلة أنه فى خضم هذا الصمت المطبق وفى هذه الظلمة الظلماء ربما لا يكون هناك اتصال اللهم إلا الاتصال بين الأموات؛ فالله لا يُرى بينما نحيا، لكن يمكننا أن نراه عندما نموت؛ هذا هو معنى القصيدة الجميلة والمُتَلهِّفة لسان خوان دى لاكروث وعنوانها "أشعار تصدر عن الروح التى تتألم حتى ترى الله"، وربما كانت واحدة من قصيدتين من أَجمل القصائد المكتوبة باللغة القشتالية. تكمن عبقرية سان خوان فى أنه عندما خلف وراء ظهره العناية بكل ما هو مادى ودنيوى وحسّى، وَضُحَ له أن أمامه أحد طريقين للوصول إلى الله، أحدهما هو الموت، أما الآخر فهو الشعر. وبينما كان يطرح على نفسه هذه الأسئلة حول استحالة الوصول إلى الله، وحتى لو كانت المحاولة من خلال الشعر،

فإن سان خوان يتحد مع الرّب تحديداً من خلال الشعر؛ ومن خلال البحث الدؤوب فى الظلمة الظلماء لليل الشك يصل إلى ما يريد: الاتحاد مع الرّب. فيوم سان خوان، فى القصيدة الكبرى الأخرى فى اللغة الإسبانية، وهى "الليلة المعتمة"، يُترجم إلى صوفية شعرية حيث الروح هى المؤنث والرّب هو المذكر؛ غير أنه رغم أنف سان خوان دى لاكروث من المستحيل الهروب من المُحَسَّات ومما هو تاريخى من خلال السّرد الذى يصل إلينا فى عبارات رمزية؛ وأيًا كانت رمزيتها فإنها تأخذنا من خلال يد الشاعر إلى مغامرة جنسية تبدأ فى عمق أعماق الليلة "هى"، ليس لها نور آخر أو دليل أو هدى إلا ما يضطرم فى قلبها، وهذا النور الداخلى هو الذى يقودها إليه "هو"، الذى يعرضها "هى" وينتظرها "هو" وذلك حتى تصيح "هى" قائلة:

"آه أيها الليل الذى جمعت بين العاشق والمعشوقة، معشوقة
فى العاشق وقد اتحدت".

إلا أن الموضوع لا ينتهى عند هذا الحد لأنها "هى" تحدثنا عن أنه على صدرها الناهد ليس هناك إلا "هو" ولنفسه "هو"، و"هو" ينام و"هى" تداعبه. وعندئذٍ تهب الرياح وتبعثر شعرها فى الوقت الذى تجرح فيه يده، "هو"، الهادئة حنجرة المعشوقة ويسيطر على كل مشاعرها؛ عندئذٍ تقول "هى":

"بقيت، ونسيت نفسى
وأسندت وجهى على عشيقى: توقف كل شىء
وتركت نفسى، والعناية بها
بين زهور السوسن مَنْسِية".

ربما كانت قصيدة "الليلة المعتمة" أعظم قصيدة صوفية فى اللغة الإسبانية، كما أنها القصيدة الأكثر جنسية، وربما كانت الأكثر صوفية لأنها الأكثر جنسية.

الحياة حلم:

هل يزداد الفن ثراء من خلال الكفاح ضد المفاهيم المتحجرة والمنهى عنه؟ حقيقة الأمر هى أن الكثير من الأعمال الفنية الكبرى ولدت فى تناغم مع القناعات التى عليها الحكام ومطالب المجتمع، وكان ذلك أمراً ملحوظاً خلال العصر الكلاسيكى وخلال العصور الوسطى. غير أنه إذا ما قبلنا بأن العالم الحديث قد وُلِدَ من رحم التقلّصات النقدية واكتسب شرعية بفضلها، فإن علينا أن نعتبر التشدد الذى كان عليه التيار الإسبانى المعارض للإصلاح الكنسى كان حركة مناهضة للتحديث، ولو أنها تعرضت للالتفاف حولها على يد ثربانتس وبيلاثكيث وتيرسو دى مولينا وسان خوان دى لاكروث، فهم جميعاً كانوا يطرحون تجربة نقدية من الداخل، من داخل النفس البشرية؛ فكان سان خوان دى لاكروث شاعراً رغم أنه شاعر تعرض للإدانة والسجن على يد أعداء الإصلاح الدينى، والذى انضم إليه – أى تيار الإصلاح – وانخرط فيه بعد لقائه بسانتا تيريسا دى أنبيلا.

ما أريد أن أقوله هو أن الإجابات على حركة مناهضة الإصلاح، كان من الممكن أن تظهر ليس فقط من الخارج، كما فعل ثربانتس وبيلاثكيث، وإنما من قلب هذه الحركة نفسها. ولا شىء يوضح ويفصح عما نقوله أكثر من حياة وأعمال اثنين من القديسين الإسبان هما: سانتا تيريسا دى خيسوس (١٥١٥-١٥٨٢م) التى كانت خلطة عجيبة من صلابة الإرادة والنشاط والذهن غير الواثق؛ عزمت على أن تعيد التقشف إلى جماعة الكرمل، واستمدت قوتها من جذورها المحلية القشتالية وربما كان مصدر هذه القدرة على المقاومة والعيش يرجع إلى أصولها اليهودية؛ كانت محاربة لذلك الموروث الحربى الذى هو روح حرب الاسترداد **Reconquista**؛ فكل إخوة القديسة تيريسا كانوا جنوداً وهاجروا إلى أمريكا، وأدت بها الواقعية التى عليها إلى الخروج من أعماق الحياة اليومية أى من ربق العشيرة والأسرة والمطبخ، وكانت هى الوحيدة القادرة على التفوّه بهذه العبارة: "إن الرّب فى كل مكان من المطبخ وبين الأوانى". تغذى طبعها الصعب أيضاً من عيشها فى منطقة الحدود التى هى أرض قشتالة،

وعن هذه الأرض تحدثت القديسة عندما كان عليها أن تترك مسقط رأسها، مدينة أبيلا: "لا أريد أن أحمل شيئًا من أبيلا ولا حتى ترابها"، وقال عنها فيليبى الثانى: امرأة رحّالة، كما سمّاها لحوحة. إلا أنه بعد فترة، وبفضل حماية الملك استطاعت على مدار حياتها أن تؤسس اثنين وثلاثين ديرًا جرى إصلاحها، وكانت مقتصرة على النساء فقط لكنها أصبحت للرجال أيضًا بعد لقائها بالقديس خوان دى لاكروث عام ١٥٦٧م.

لم تكن القديسة تيريسا على درجة العبقرية الأدبية التى عليها سان خوان دى لاكروث، وربما يرجع موضع القصور فى كتاباتها أنها تحاول أن تشرح كل شىء، إلا أن ما يرفع من شأنها هو التواضع الذى لا يتوافق مع شخصيتها العامة القوية، تكثر الشكوك فى كتب سانتا تيريسا وكذا حديثها عن قلة معارفها وخيانة ذاكرتها لها، إلا أن كل كتاباتها تنطق بكل ما عندها من نور داخلى، فما كانت تحاوله القديسة تيريسا هو إزالة كل ما يتعلق بسيرتها حتى تتحول من الألف إلى الياء إلى ذات تأملية محضة، وقد قالت فى هذا المقام أن ليس هناك طريق آخر لبلوغ فضل الله، كما أن رمز الحياة الداخلية هو فى جوهره قشتالى، ألا وهو الحصن، الحصن ذو الأسوار العالية الذى نشهده فى سرد أحداث حرب الاسترداد وعند قراءتنا لقصص الفروسية، إذ كان هذا الحصن هو سكن الروح المسيحية وملاذها، ففى داخله يبلغ المرء الكمال إذ تجد الروح الفرصة للتأمل فى الذات الإلهية.

انتقد البعض الإصلاحات التى قامت بها القديسة تيريسا واعتبرها إصلاحات تخلو من مرارة وبعيدة، إذ كانت تفرض قاعدة من قواعد التأمل شديدة البعد عن مفهوم الشفقة المسيحى؛ وهنا كانت تجيب بأنها كانت هى وأخواتها تصلى من أجل هؤلاء الذين لا يصلون، وأن تقشفها ليس إلا للتكفير عن آثام الآخرين.

وإذا ما كانت جماعة الكرمل التى تم إصلاحها على يد سانتا تيريسا على قمة إنكار الذات، فقد كانت هناك جماعة أخرى تأسست عام ١٥٤٠م على يد جندى من الجنود القدامى، هو إيجناثيو دى لويولا، الذى سلط الضوء على الانخراط النشط فى العالم الذى يعيش فيه أعضاء الجماعة. سرعان ما تركت "جماعة المسيح" **Compania de Jesus**

أسوار الأديرة للعمل فى مهام تتعلق بالحياة الدنيا وبخاصة فى مجال التربية، ولم يكن اليسوعيون مجرد مدرسين فقط بل كانوا من يتلقون اعترافات الملوك الكاثوليك فى أوربا. لم يكن هناك أى نوع من التوبة أو الصيام أو الزىّ، ولم يكن هناك أى فرع نسائى؛ هناك فقط سلطة ذكورية شديدة المركزية، أى إننا أمام مجتمع يسيطر عليه الرجل ويخيم عليه أقصى قدر من المرونة فى الاتصال بالعالم الخارجى. وقد أدى التأثير البالغ والواسع لليسوعيين فى إسبانيا وأمريكا الإسبانية إلى إثارة الغيرة والصراع، وانتهى بهم المطاف إلى طردهم من الإصلاحات التنويرية التى قامت بها أسرة البوربون الملكية خلال القرن الثامن عشر. غير أن كلاً من سانتا تيريسا وسان إيجناثيو قاما خلال "العصر الذهبى" بإدخال التنوير على التشدد الدينى الذى كانت عليه الحركة المناهضة للإصلاح فى إسبانيا، وانسحب الأمر كذلك على ثمراتها الثقافية الرئيسية.

يمثل كل من القديسة تيريسا والقديس إيجناثيو التجديد الدينى: فقد عاشا على "الأرض" أى فى ذلك المُقام المتسلط مع المرأة أو فى العالم المفتوح بلا حدود الذى يعيشه الرجل سواء فى السياسة والإقناع والتربية والدسائس. أما سان خوان دى لاكروث فقد عاش فى السموات، وربما كان المسرح هو الحقل الأكثر أهمية بالنسبة لثقافة تيار مناهضة الإصلاح.

هذا الفضاء الذى يقع بين السماء والأرض يضم راهبًا ومؤلفًا دراميًا هو بدرو كالديرون دى لاباركا (١٦٠٠-١٦٨١م) وربما كانت مسرحية "الحياة حلم" هى المسرحية الأعظم بين كافة الأعمال المسرحية الإسبانية، فهى تقص علينا حكاية الأمير سيخسموندو **Segismundo** الذى حبس نفسه فى برجه، ويعتقد أن هذه هى الحالة الطبيعية التى عليها؛ فالسجن بالنسبة له "المهد واللحد"؛ وبالتالى لم يتمكن أو يتخيل أى شىء خارج محبسه، فوالده، ملك بولندا، قد وضعه فيه وهو رضيع؛ والسبب الذى يُساق فى هذا هو أنه قبل أن يولد سيخسموندو، كانت والدته، الملكة، قد حلمت حلمًا تكرر عدة مرات وهو "أنها سوف تضع مسخًا فى صورة بشر سوف يقتلها وهى فى حالة الولادة ويتحول إلى الأفعى الإنسانية المخيفة فى القرن".

وهذا بالفعل ما حدث فقد ماتت الأم، وقرر الملك، "حبس هذا الحيوان الضارى الذى ولد"؛ ها هو سيخسموندو يعيش فى الشقاء والعذاب والحبس؛ وكان الملك يريد بهذه الطريقة أن يحمى ملكه من "الأمير الأكثر قسوة والملك الأكثر عقوقًا"؛ غير أنه فى لحظةٍ ما عنّ للملك أن يخرج سيخسموندو من محبسه ويضعه على العرش ويراهن على أنه سوف يحكم بالحكمة والرفق والرأفة، "مكذّبًا فى هذا كل ما قاله عنه فى السابق"، لكن إذا ما اتضح أن سيخسموندو سوف يكون "متجبرًا وقاسيًا" فإن الملك سوف يفى بما وعد بإعادته إلى السجن وفى هذه الحالة سوف يكون المحبس عقابًا وليس قسوة.

ما فعله الملك فى حقيقة الأمر هو أنه كسر سلسلة الشؤم وفتح الباب أمام الحرية؛ فمن غياهب السجن وشؤمه انتقل سيخسموندو إلى قمة الحرية والشؤم، وأخذت النبوءة تصدق من خلال التصرفات الحرة لسيخسموندو الذى اتسم بالقسوة والإجرام، وعندما بلغ القمة هوى عائدًا إلى أسفل سافلين، وهناك جعلوه يعتقد أن كل ما فعله أو رآه أو أحسّ به أو أدركه وهو يقوم بدوره كأمير لم يكن إلا حلمًا. يعود إلى محبسه وهو يرتدى ملابس كأنه حيوان.

عاش كالديرون دى لاباركا حياة مديدة خلال "العصر الذهبى"، ووهبه العصر أيضًا وجهين: وجهًا نظر إلى الخلف، أى عصر ازدهار الإمبراطورية الإسبانية والوقعات الكبرى الخاصة باكتشاف العالم الجديد وغزوه؛ أما الوجه الثانى الذى كان عليه كالديرون وكذا القرن هو أنهما كانا يتأملان فى تلك اللحظة لحظات غروب شمس الإمبراطورية الإسبانية فى أثناء حكم الملك الداعر فيليبى الرابع وابنه السفيه الملبوس. نظر كالديرون إلى كلا الجانبين، وكان رجل مسرح من الطراز الأول، كما كان إسبانيًا وكاثوليكيًا وجنديًا وراهبًا. إنه أعظم مؤلف لهذه العِظات المسرحية القصيرة **autosacramental**، حيث نرى فى هذه الأعمال دفاعًا عن عقيدة وجود المسيح فى القربان المقدس ضد الهرطقة اللوثرية؛ ومع هذا فإن مسرحية "الحياة حلم" تتسم بحداثة تثير الاستغراب، وأصبحت مصدرًا لإلهام الكثير من الأحلام المسرحية ابتداءً من كليست **Lkeist** حتى استرنجبرج **Strindberg** وبيراندلو (بما فى ذلك بعض التنويعات الشعبية والتى نراها فى فيلم لبوستر كيتون **B. Keaton** وودى آلان)، غير أنه رغم هذه الحداثة

الشديدة هى عمل يجب أن نفهمه على أنه مسرح كاثوليكى لحركة مناهضة الإصلاح الإسبانية، نرى فيه أحداثًا من الطبيعة، حيث هبط إليها الإنسان، إلى التاريخ، وأصبحت لديه الفرصة، من جديد، للاختيار وبالتالى يكون عُرضةً للخطأ فيهبط مرة أخرى، لكن الخطيئة هذه المرة علاجها المعاناة والإيمان والفضيلة.

يقول سيخسموندو إن جريمته الكبرى هو أنه ولد، إنه يقارن نفسه بالطبيعة، التى هى أقل منه من حيث الروح وبالتالى هى أكثر حرية؛ يشعر بطل المسرحية بغيبة الحرية على أنها نوع من التقلص الراديكالى، ونوع من الشعور بأنه لم يولد أبدًا، و"شؤم يشير إلى أنك تُوفيت قبل أن تولد"، ويدفعه إلى الانتهاء من عملية الولادة فى التاريخ. فهل هى جريمة كبرى ألا يكون قد ولد على الإطلاق؟ قتل سيخسموندو والدته عند ميلاده؛ وبينما نرى أوديب وقد أدين بأن "يفعل"، نرى سيخسموندو وقد أدين بأن "يحلم"، فالحلم هو واقعه، لكن أى نوع من الواقع هذا "الحلم"؟ هل هو القاعدة وبالتالى فإن "اليقظة" هى الاستثناء؟ إنه الحلم فى إطاره المعروف، وحقيقته إنما هو أمر يخرج عن دائرة الزمان، يمكن أن يكون أبديًا، وربما بدأ منذ خمس ثوان. فى الحلم لا يمكن لمس الأشياء أو ملكيتها.

كتبت هذه المسرحية – الحياة حلم – عام ١٦٣٥م فى خِضَم الصراع بين اليسوعيين الذين كانوا يحبذون المسلك الحرّ والألمعية الإنسانية، وبين الدومنيكان الذين يتهمون اليسوعيين بالليبرالية، ومقابل ذلك يعلون من شأن العدالة الإلهية القادرة على كل شىء، ورغم أن كالديرون لم يتخل عن الإدلاء بدلوه فى هذا النقاش الكلاسيكى للمسيحية، فإنه قال رأيه وتناغم مع متطلبات الفن: فزمانه ومشكلاته، أى مشكلات أوربا ما بعد عصر النهضة، قد طرحت كلها على الساحة الموضوع الكبير الخاص بطبيعة الواقع؛ ما هو الواقع؟ وأين نعثر عليه؟ وكيف نحدد ملامحه؟ وكيف نعرف من أين أتينا وإلى أين نحن ذاهبون؟ كما عاش كالديرون أيضًا عصر الاتجاه المناهض للإصلاح، العصر الذى كان يدافع عن العقيدة **dogma**، واستخدم الفن لإلقاء الكثير من الظلال على الإمكانيات الخاصة بالحقيقة والواقع والحرية والقدرية؛ فهو يحول كل يقين إلى مشكلة، هو كاتب مسرح، ويدرك أنه من رحم الشك والأزمة يمكن أن يولد الهارمونى. وأى أزمة أكبر من تلك التى نجدها بين الطبيعة والحضارة، وبين الحلم والواقع؟

إقليم لامانشا La Mancha :

كتب راميرو دى مايثتو R. de Maeztu أن "دون كيخوته" هو الكتاب المثالى الذى يعبر عن الانحطاط الإسبانى، فهذا الفارس، ابن الحسب والنسب، طاعن فى السن لدرجة لا تتناسب مع المغامرات التى يعيشها، وقد انتهى عصر الملحمة فى إسبانيا، لكن ثربانتس ابتكر شبحًا ليبلغ إسبانيا نهاية هذا العصر الملحمى، وعندها قال دون كيخوته لإسبانيا: لقد هلَكتِ تعبًا، عودى إلى منزلك، وإذا ما كان الله رحيمًا بكِ فستموتين فى سلام، وقد فشل حلم اليوتوبيا فى العالم الجديد، وتلاشت ملامح الحلم فى مملكة كاثوليكية عالمية، وجاء ذلك بعد ثمانية قرون من حرب الاسترداد والاكتشاف والغزو، وبعد "السيِّد" Cid، وإيزابل الكاثوليكية، وبعد كريستوفر كولومبوس، وكورتيس، وسانتا تيريسا إى لويولا، وبعد معركة ليبانتو والأسطول البحرى، انتهت البهجة والفرحة.

ولا شك أن كانت هناك على مدار تاريخ إسبانيا وأمريكا الإسبانية ميول للقول بأن كوارث التاريخ كان لها جانبها المضىء وهو انتصارات الفن. فهناك فيليبى الثانى ومحاكم التفتيش والأسطول ومطاردة اليهود والمورو ومن تحولوا إلى المسيحية، وهناك محاسيب فيليبى الثالث والتصرفات الداعرة لفيليبى الرابع وسفاهة كارلوس المسحور، هذا من جانب. أما على الجانب الآخر فنجد دون كيخوته وسان خوان دى لاكروث وسانتا تيريسا دى أبيلا ولوحة "لاس منيناس (الوصيفات)" ومسرحية "الحياة حلم" ودون خوان والجريكو. لكن، ألا تشير إلينا هذه المقابلة بأن تاريخ إسبانيا وكذا تاريخ مستعمراتها الأمريكية إنما هو فى واقع الأمر ليس إلا تاريخ ومعضلة الذات عند أمتين، وثقافتين وواقعين وحلمين، فى محاولة يائسة ليرى كل منهما الآخر ويلتقى كل واحد بالآخر، ويتفاهما؟ هناك قيمتان متقابلتان، وعالمان من الواقع، يحلقان فى الفضاء أحيانًا، بالقفز فى الفراغ، والقيام بقفزة الموت للوصول إلى الشاطئ الآخر، شاطئ الرغبة، وهناك يتم اللقاء مع هدف الرغبة؛ ومن هنا فإن الشخصيتين اللتين نجدهما فى رواية ثربانتس - دون كيخوته وسانشو بانثا - تحتفظان بقيمتهما من خلال التناقض

والجاذبية المنتشرة فى أنحاء الدنيا إزاء هذه الملامح. ومن خلالهما يتم التعرف على معضلة إسبانيا، ويقدر على ذلك كل الناس فى كل الأزمنة، فكلنا نكافح مع ما هو مثالى وما هو واقعى، ونكافح بين ما هو مرغوب فيه وما هو ممكن، وكلنا نواجه مطالب وواجبات مجردة ونحاول تقليصها إلى حجم مثير للسخرية من خلال اللامعقول، وكلنا نود لو أننا نعيش فى عالم عقلانى حيث العدل له ملامح ملموسة؛ وكلنا أحياناً ما نتحول إلى شخصيات ملحمية مثل دون كيخوته، لكننا نعيش فى أغلب أوقات حياتنا حياة الشطار مثل سانشو بانثا، وكلنا نود لو أننا كنا ذوات قيمة أكبر مما نحن؛ لكن تربطنا بالأرض الحاجة إلى الطعام والهضم والنوم والحركة، يريد سان خوان أن يتحول إلى صمت، بينما تقول سانتا تيريسا: "الرّب كامن بين الأوانى".

كلنا، معشر الرجال والنساء، من إقليم لامنشا، وعندما نفهم أن ليس أحد منا تقياً، وأننا جميعاً مثاليون وواقعيون، أبطال ولا معقولون، مكونون من جزأين متساويين هما الرغبة والخيال، مثلما نحن عليه مكونون من لحم ودم، وأن كل واحد منا فيه شىء من المسيحية واليهودية وبعض الشىء من المورو والكثير من القوقازية والسود والهندية، دون الحاجة للتضحية بأى من مكوناتنا فإننا ندرك فى حقيقة الأمر عظمة إسبانيا وإذعانها، وعصرها الإمبراطورى وعصرها الذهبى، وانحطاطها الذى لا مناص منه.

هذه المطالب سوف تكون مطروحة على عجل وبإلحاح أكثر من أى وقت مضى، وسوف تقوم بذلك المجتمعات الإسبانية فى العالم الجديد. وإذا ما تم إنقاذ الثقافة فى إسبانيا من خلال الخيال والرغبة، بمبعد عن الحدود الضيقة للسلطة، فإن ذلك سوف يتحول إلى ضرورة ملحة عند الرجال والنساء فى المستعمرة الأمريكية، ذلك أنهم – أى نحن – رأينا أنفسنا وقد أصبحنا بين عالمين هما عالم السكان الأصليين وثقافته التى تحطمت، وعالم جديد سواء كان أوربياً أو أمريكياً. وهنا نقول إن إقليم لامانشا بلغت ملامحه درجة الكمال فى الأمريكتين.

الفصل التاسع

الباروك فى العالم الجديد

كانت المُثُل الخاصة بعصر النهضة موضوعة على المحك على مدار أطول عصر من عصور العنف فى التاريخ الأوربى: إنها الحروب الدينية.

خلال الفترة بين الإصلاح **Reforma** وسلام وستفاليا **Westfalia** (ذلك الإقليم الألمانى) عاشت المثاليات والواقع حالة طلاق من جديد، وكان ردّ الفعل، إزاء هذا الانفصال، ذا طبيعة فنية من جديد؛ فقد تمكن الإصلاح البروتستانتى من طرد الصور وإزالتها من كنائسهم على اعتبار أنها دليل على وثنية بابوية، لكن هذا التزمت انتقل فى شكل غير عادى لإحداث نوع من التعادلية الحسية فى الموسيقى، وبخاصة الموسيقى العظيمة لخوان سباستيان باخ. وكان على التوجه المتزمت لحركة مناهضة الإصلاح أن يتنازل بعض الشىء ليفسح الطريق أمام ما هو مُحَسّ، وتجسد ذلك فى فن الباروك، الاستثناء التوسعى والدينامى والاتجاه نحو نظام دينى وسياسى كان يريد أن يرى نفسه موحداً وساكنًا وأبديًا، وتحول فن الباروك الأوربى إلى فن مجتمع متحول، يعيش تغيرات جذرية ومضطرب الأمواج من وراء القناع الجامد الذى عليه، وإذا ما كان ذلك حقيقة فى أوربا الكاثوليكية فإن هذه الحقيقة تصبح أكثر حدة فى المجتمعات الوليدة فى العالم الجديد، إذ ربما كانت العقبات التى تعترض طريق التغيير أكبر بكثير من تلك التى توجد فى أوربا.

ألححت كثيراً على أن اكتشاف أمريكا جَرت ترجمته فى عصر النهضة على أنه الاكتشاف الكبير لمكان لليوتوبيا؛ إلا أنه سرعان ما زادت المسافة، فى هذا العالم الجديد،

بين المثاليات والواقع على شاكلة ما حدث فى أوربا، وتحوّل الفردوس الأمريكى سريعًا إلى جحيم، فقد نقل الأوربيون إلى أمريكا أحلام اليوتوبيات الفاشلة وتحولت هذه الأخيرة إلى كوابيس استمرت وانتشرت على إيقاع السلطة الاستعمارية، وبدلاً من أن تتحول الشعوب الأصلية إلى الطرف المستفيد من اليوتوبيا أصبحت ضحية الاستعمار، فقد انتزع منها إيمانها وعقائدها القديمة وكذا أرضها التى ورثتها، ورأت هذه الشعوب نفسها مُجبرة على قبول حضارة وديانة جديدتين، بينما كان عصر النهضة يواصل الحلم بيوتوبيا مسيحية فى العالم الجديد. تحطمت أركان اليوتوبيا على أرض الواقع المرير للاستعمار والذى يتمثل فى النهب والاستعباد واستئصال شأفة البشر. وهنا حدث فى العالم الجديد مثلما حدث فى أوربا إذ ظهر الباروك ليملأ الفراغ القائم بين الواقع والمثاليات، غير أنه اتسم بسمة أخرى فى العالم الجديد لم يستطع كريستوفر كولومبوس أو كوبرنيكوس أن يقدماها ألا وهى وجود مساحة أخرى، تتمكن فيها هذه الشعوب من وضع أقنعة لعقائدها القديمة وحمايتها، وفوق كل هذا استطاع الباروك أن يقدم لنا جميعًا، نحن معشر الشعوب الجديدة للأمريكتين، أى المولدين من أبناء الهنود والإسبان، طريقة جديدة نعبر من خلالها عن شكوكنا وحالة الغموض التى تلفنا.

ماذا كان موقعنا على خريطة العالم؟ وإلى من ندين بالولاء؟ هل لآبائنا الأوربيين؟ أم لأمهاتنا من ثقافات الكيتشوا أو المايا أو الأثتيك أو الشبشاس **Chibchas**؟ هل ندين بذلك للآلهة القدامى أو الجدد؟ ما هى اللغة التى سوف نتحدث بها؟ هل هى لغة المستعمِر؟ أو لغة المُستَعمَرِين؟ لقد طرح اتجاه الباروك فى العالم الجديد كل هذه الأسئلة على نفسه، وليس هناك شىء يمكن من خلاله التعبير عن حالة الغموض التى نحن عليها أكثر من هذا الفن، فن الوفرة الذى يقوم على ركنى الحاجة والرغبة؛ هو فن الوفرة الذى يقوم على اليقين ويقوم، بسرعة، بسد الفراغات التى توجد فى حياتنا الذاتية والاجتماعية، بعد الغزو، ويستخدم فى ذلك أى شىء فى متناول اليد.

إنه فن التناقض، أى فن الوفرة، لدرجة أنه يغرق بالفعل فى ثنيات ثرائه، لكنه أيضًا فن من لا يملكون شيئًا، فن الشحاذين الذين يجلسون فى ساحات الكنائس، والفلاحين الذين يفدون إلى الكنيسة لتبارك لهم فى حيواناتهم وطيورهم، أو يستثمرون

حصاد ما ادخروه بعد عام من العمل الشاق وكذا ثمن حصادهم فى الاحتفال بيوم القديس الحامى لهم. الباروك هو فن الانتقال، يشبه مرآة يمكننا أن نرى فيها دومًا ذاتنا المتحولة، هو فن يحكمه أمر فريد ومسيطر هو أن الثقافة الأمريكية الجديدة أصبحت رهينة العالم الذى تحطم والخاص بالسكان الأصليين، والعالم الجديد سواء كان أوربيًا أو أمريكيًا.

هناك مقولة شائعة عن حى السكان الأصليين فى مدينة بوتوسى، أكبر عاصمة للمناجم فى أعالى البيرو، تقول بأنه كان يعيش فيه طفل يتيم أتى من الأراضى المدارية الوطيئة فى شاكو Chaco، وكان لهذا الطفل اسم فى الأسطورة هو خوسيه كوندورى؛ وفى بوتوسى تعلّم الأشغال الخشبية وفنون النقش والنجارة. وفى عام ١٧٢٨م أصبح هذا المهندس الهندى الذى علّم نفسه هو الذى يشيد الكنائس العظيمة فى بوتوسى، ولا شك أن هذه الكنائس هى ألمع الأمثلة على ما يعنيه الباروك فى أمريكا اللاتينية، فيبين أشكال الملائكة وأشكال ثمرة الأناناس فى كنيسة سان لورنثو. نجد أميرة من الإنك تحمل كافة رموز ثقافتها المهزومة وهى رموز تحدوها آمال جديدة فى الحياة. هناك الهلال الخاص بفنون الشعوب الأصلية الذى يستوعب حالة السكينة التقليدية التى عليها ثمرة الأناناس الكورنثية، كل هذا يتداخل مع أوراق الشجر فى الغابة الأمريكية والأوراق ذات الفصوص الثلاثة فى حوض البحر الأبيض المتوسط، وها هى جنيّات عُليس تعزف على الجيتارة البيروانية، كما نجد عالم النبات وعالم الحيوان والموسيقى والشمس فى العالم القديم على هذه الأرض يستعيد حياته من جديد وبقوة، ولن تكون هناك ثقافة أوربية فى العالم الجديد اللهم إلا إذا كانت رموزنا الأصلية مقبولة مثلها مثل الرموز الأخرى.

وبغض النظر عن الإمبراطورية والذهب والسلطان، وبغض النظر عن الحروب بين الأديان والسلالات، نجد أمامنا عالمًا جديداً جريئًا آخر يتشكّل فى الأمريكتين، بأيد وأصوات أمريكية؛ إنه مجتمع جديد وديانة جديدة، بلغة جديدة خاصة به وبعاداته وحاجاته، هنا نجد أن هذا الواقع الجديد أصبح بمثابة تحدٍّ لإسبانيا، ودفعها لتحديد مهمتها الثقافية، مثلما كانت روما مركزًا لما يقرّب بين الثقافات وليس لما يباعد بينها.

"لكل الأزمنة القادمة" :

هذا التوجه الذى يقرب بين الثقافات سرعان ما أصبح على المحك، وذلك من خلال وجود ثقافى آخر، يتمثل فى السُّود الذين وصلوا إلى نصف الكرة الغربى فى صورة خدم برفقة سادتهم الإسبان، فبعد فترة طويلة من المكوث فى إسبانيا أصبحوا أُناساً مُمَسّحين ومتأسبنين، وأدى اختفاء الكثير من السكان الأصليين فى الكاريبى، بسبب الأشغال الشاقة والأمراض، إلى تحوّل الخدم السود الذين قدموا إلى العالم الجديد عبر إسبانيا إلى عبيد جاءوا بهم من إفريقيا مباشرةً وخاصة من السنغال وأنجولا.

وضع التاج الإسبانى النظام الخاص بتجارة العبيد لصالحه؛ ففى عام ١٥١٨م منح كارلوس الخامس لأحد محاسيبه من الفلامنك موافقة يتمكن بمقتضاها من إدخال أربعة آلاف عبد إفريقى فى المستعمرات الإسبانية؛ وابتداءً من ذلك الحين أخذ السكان السود فى إسبانوأمريكا يزدادون بمعدل ثمانية آلاف فرد فى العام حتى وصلوا إلى ثلاثين ألفًا عام ١٦٢٠م، أما فى البرازيل فقد وصل أوائل السود عام ١٥٣٨م، وطوال القرون الثلاثة التالية نجد أن عدد العبيد الإفريقيين الذين عبروا المحيط الأطلنطى يصل إلى ثلاثة ملايين ونصف؛ وقامت البرتغال باستيراد أعداد من السود، طوال عدة مرات، لدرجة أن عددهم تجاوز عدد الهنود الذين وجدوهم هناك. أما فى الوقت الحاضر فإن القارة الأمريكية تضم أكبر تجمع سكانى من السود خارج إفريقيا، وأيًا كان مكانهم فقد كانوا شديدى الارتباط بالاقتصاد الزراعى، أى بالزراعة المكثفة والواسعة للمنتجات الاستوائية. هذه المعادلة الصعبة - أى العبيد السود وزراعة الأرض - كانت شديدة التعقيد نظرًا للمنافسة الشديدة بين القوى الكبرى من أجل السيطرة على تجارة العبيد القادمين من إفريقيا، على أساس أنهم مصدر الإنتاج فى العالم الجديد.

وجد العبيد السود أنفسهم محاطين بقيدين هما مطالبة السياسة هذه، والتجارة الدولية، وبالتالى لم يكن باستطاعتهم اللجوء إلى ما يمليه الضمير المسيحى على من استعبدوهم، فقد كان الزعماء فى إفريقيا يصطادونهم من أجل المال ببيعهم إلى تجار

الرقيق الأوربيين، الذين كانوا يتذرعون بأنهم يحررون العبيد من العنف الذى يتعرضون له فى الصراعات القبلية، وفى الوقت ذاته نجد الكنيسة المسيحية تبرر ما تفعله بالقول بأنها تنقذ هؤلاء من الوثنية.

لكن هذه الممارسة الواسعة للنفاق والظلم لم تستطع القضاء على الروح الإبداعية والمتمردة التى عليها السود فى أمريكا، فكثيراً ما كانوا يتمردون ويهربون ويخرّبون، وغالبًا ما يفشلون فى محاولتهم التحرر من أسرهم، غير أنهم يفوزون فى بعض الأحيان ويتحولون إلى رؤساء عمال وحرفيين ومُرَبّى ماشية وحمالين. كان عملهم مكثفًا ولم يقتصر ذلك على مجال الزراعة بل شمل البناء وتجارة المعادن النفيسة والرسم والنجارة والحياكة والأحذية والطهى والحلاقة. من الصعب تصور العمل والحياة فى العالم الجديد بدون ملمح ثقافة السود، فهم فى البرازيل قد ساعدوا فى اكتشاف مجاهل القارة وسبر أغوارها، وأسهمت فرق من السود وقادتهم من بنى جلدتهم فى محاربة الهولنديين، وفى الدفاع عن ريو دى جانيرو ضد الهجوم الفرنسى، وكانوا من العناصر الأساسية فى عملية الغزو وكانوا هم السكان والتطور الذى حدث فى البرازيل، وهم أيضًا الذين تمردوا.

شهدت بداية القرن السابع عشر أوليات حالات التمرد الذى قام به السود فى المكسيك، حيث تمكن الزعيم الأسود المتمرد يانجا من السيطرة على مساحات ضخمة فى خليج المكسيك وأجبر نائب الملك على التفاوض قبل أن يتم القضاء على التمرد باستخدام السلاح فى نهاية المطاف، وبالنسبة لمن نجوا بأرواحهم سُمح لهم بتأسيس قرية "سان لورنثو دى لوس نجروس" فى إقليم بيراكروث. من جانب آخر شهدت فنزويلا حالات تمرد للسود خلال القرن الثامن عشر وكان ختامها التمرد فى كورو Coro عام ١٨٩٥م، وأثار تلاحم هذا التمرد مع ثورة الاستقلال فى هاييتى، وإقامة إمبراطورية للسود هناك، فى إثارة الفزع عند الطبقات العليا فى فنزويلا من "الملوّنين" قبيل حروب الاستقلال. أضف إلى ذلك أن السود، فى أثناء التمرد الذى قام به مانويل إسبينوزا فى مدينة كاراكاس، طالبوا بحقوقهم الكاملة ولم يقفوا عند هذا الحد بل وصل الحد أنهم

أرادوا أن يفرضوا على سادتهم من السيدات البيض خدمتهم كطبّاخات وغسّالات؛ وفى كثير من الأحيان يختفى المتمردون نحو الداخل ويقيمون قرى وبلدات يُطلق عليها "الأكواخ quilombos"، وقد استمر بعض هذه القرى، فى بالمارس دى ألاجُوَاس، بالبرازيل، حتى مرحلة متقدمة من القرن السابع عشر، وأدى تعداد سكانها الذين يبلغون عشرين ألف نسمة إلى تحولها إلى دولة إفريقية فى قلب أمريكا الجنوبية لها تقاليدها الإفريقية. ومثلما حدث مع الهنود فقد كان اللقاء مع الأوربيين هو الذى حوّل السود إلى سكان العالم الجديد وإلى أعضاء فى ثقافة مختلطة.

عندما نتحدث عن ثقافة السود فى الأمريكتين نجد أن اللغة سرعان ما تأقلمت بمرونة عالية مع التغيرات واختلاط السلالات المفاجئ، إذ كان من الضرورى اتخاذ لغة لفهم الآخر وفهم رؤساء العمال للآخرين الذين كانوا فى الأغلب الأعم من السود ولكن من أقاليم مختلفة، والأكثر من هذا التوصل إلى حالة فهم الزوجات الجديدات للعبيد، فأى لغة كان يتحدث بها الأبناء؟ من البدهى أن المستعمرات الأيبيرية حققت من خلال اللغة قاسمًا مشتركًا بين سكانها من السود (سواء كانت اللغة الإسبانية أو البرتغالية) وكان هذا القاسم أقوى بالمقارنة بالمستعمرات الإنجليزية والفرنسية (الكريُويُّو - المولّدين - أو البدجين Pidguin). وقد عكس هذا المسلك درجة أعلى من التسامح والمرونة التى كانت عليها المستعمرات الإسبانية والبرتغالية؛ وكان الخروج على القاعدة الدينية العامة أمرًا غير مسموح به فى المناطق التى يسيطر عليها البروتستانت فى الكاريبى، بينما كان الأمر عكس ذلك فى المناطق الخاضعة للكاثوليك، وإذا ما كان هناك ملمح مشترك بين إفريقيا والعالم الجديد فقد كان هو الملمح الدينى وبخاصة فى كوبا، حيث نجد ذلك ملموسًا فى جذورهم، وهى - الجذور - التى نجدها فى دولة يوروبا Yoruba التى هى نيجيريا الحالية وبخاصة فى مدينة أويو Oyo فى مملكة أولكامى Ulkami التى تحولت إلى ثقافة لوكومى "Lukumi" التى تُعَد حتى اليوم الاستمرار الدينى والجمالى والملموس لهذه الجذور فى التراث الكوبى.

أدى هذا التوفيق بين المتناقضات "المسيحية - اليوروبية Yoruba" فى كوبا إلى إحداث نوع من الحيوية والنشاط يقارن بما عليه ذلك الاتجاه فى كل من المكسيك والبيرو.

إلا أن الأمر فى كوبا وصل إلى حد أن هذه الديانة التى تجمع بين المتناقضات أصبحت ذات اسم هو **Santeria**، وكان يمارس طقوسها ثلاثة أرباع السكان فى الفترة التى بدأت فيها الثورة الكوبية. وعندما ننتقل إلى المكسيك نجد الإيقاع نفسه إذ تحولت الإلهة تونِنتزين **Tonantzin** إلهة الأثتيك إلى عذراء جوادالوبى السمراء، وفى كوبا تحولت إلهة البحر الإفريقية، يامايا **Yemaya**، إلى نويسترا سنيورادى لارجلا **N.S. de la Regla**، حامية البحارة وكذا ميناء هافانا، وفى الوقت ذاته نجد الإله الإفريقى "أوجون"، إله الحدادين، تحول إلى سان بدرو الذى تلقى المفاتيح الجديدة للفردوس.

هذا التوجه الدينى الذى نتحدث عنه يمكننا أن نراه بوضوح أكثر فى شخص القديسة باربارا، تلك الشهيدة المسيحية التى حُبِسَت فى برج للحيلولة بينها وبين خُطَّابها، وفى هذا البرج حدث لسانتا باربارا مثلما حدث فى مسرحية كالديرون دى لاباركا، "الحياة حلم"، أى إنها حَلُمَت. تحولت إلى المسيحية، وأمرت السلطات الرومانية والدها بقتلها، وهذا ما فعله الأب الذى هلك بعد ذلك مباشرة بأن صعقه البرق. كانت جميلة كإحدى الشخصيات التى رسمها ثورباران، وكانت كأنها الطيف مثل إحدى شخصيات مسرح كالديرون. تم تمثل سانتا باربارا فى الديانة الإفريقية الكوبية فكأنها شانجو **Xango**، إله الحرب، ذلك أن سانتا باربارا تحولت فى أوربا المسيحية إلى القديسة الراعية لرجال المدفعية ورجال المناجم، نظرًا للربط بينها وبين البرق.

يُعتبر التمرد واللغة المستخدمة جزءًا من استمرارية الثقافة الإفريقية الأمريكية، وإليهما أضيفت ملامح الذات التى ما زالت قائمة والتى تتمثل فى روعة الأداء الإيقاعى وحركة الجسد وجماليته وقواعد الموسيقى والرقص؛ فمنذ البداية نرى أن الموسيقى الإفريقية أثمرت إيقاعًا خاصًا مستقلاً وحرًا ومتمردًا سواء بالنسبة للمراقب أو الراقص، بدلاً من الارتباط بنظام ثابت أو محدد سلفًا مثلما هو معروف بالنسبة للموسيقى الغربية؛ كذا الأمر بالنسبة للموسيقى الإفريقية الأمريكية إذ نجدها منذ البداية ترسم لنفسها نظامًا وتمارس أنماط الموسيقى الحديثة حيث يلاحظ أن مركز الإيقاع الواحد سرعان ما يتحول إلى عدة مراكز وكل واحد من هؤلاء يُوَلِّد ردود فعل

مختلفة عندهن ينصتون إليه، وازداد ثراء هذا التنوع الموسيقى من خلال الخيال الإبداعى الراقص للثقافات السوداء فى الأمريكتين، أى الرقص كتمثيل والرقص كاحتفالية، وتداخلا لدرجة أصبح التمييز بينهما غير ممكن. وعلى طول مسار هذا التوجه اكتسب الجسد إحساساً بالواقع والجمال والحركة، وهى عناصر غائبة عن قواعد وأسس الثقافة الكاثوليكية وثقافة "الكريّو" (أى المولّدين) والسلالة المختلطة، المتعلقة بالجسد.

اجتمعت كل هذه العناصر، وهى متعة الاحتفالية الجسدية والإبداع اللغوى الذى لا يتوقف وجمال الحركة والروح المتمردة، لتصب فى حدث سياسى مركزى أشار إليه عالِم الاجتماع الأمريكى فرانك تاننبوم **F. Tannenbaum**، حيث يشير إلى أن الثقافة السوداء قد استقر مُقَامها فى الأمريكتين فى مختلف الأزمنة ولا شك أن هناك عنصر حاسم فى تحديد ملامح الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية هو الخيال والكلام والإيقاع الذى نجده فى الحوض المشترك للسواد، أى جنوب الولايات المتحدة والكاريبى، أى المجتمع الثقافى الذى امتد من أورينوكو والأمازون حتى نهر المسيسبى من خلال الجزر.

ربما كانت الثقافة الإفريقية الأمريكية الشاهد ذا الصوت الحىّ على الظلم فى الأمريكتين: فالأفعال والعمل والقوانين واللغة التى يتحدث بها السود تلتقى كلها فى التيار الأقوى المتجه نحو العدل الذى عرفه العالم الجديد، كما أن باقى الأمريكتين انتهى به الأمر ليفهم أن مصير الثقافة الإفريقية الأمريكية يمكن أن يكون القاسم المشترك لطبيعة العدل فى القارة بكاملها، ولا بد أن هذه الطبيعة مكتسبة اكتساباً عميقاً وليست مجرد أمر ظاهرى، وبالتالى من الصعب بلوغها. وهذا هو ما يقوله لنا الشاعر الأسود **Aime Cesaire** من مارتنيكا إذ يشير إلى "أن طبيعة الثقافة الإفريقية الأمريكية إنما تصدر عن شعب يُسْلِم ذاته مستمتعاً، إلى جوهر الأشياء وينبض بنبض الدنيا". وحتى يمكن الدفاع عن هذه الطبيعة أو تلك السمات من خلال ممارسة العدالة نجد أن الثقافة السوداء قدمت لنا بعض أبرز العقليات القانونية والسياسية والبرلمانية فى العالم الجديد.

نجد إذن أن ليست هناك ثقافة فى العالم الجديد قد ولدت من رحم المعاناة الشديدة والألم مثلما ولدت ثقافة الرجال والنساء والأطفال السود الذين وصلوا إلى العالم الجديد على متن مراكب الاستعباد، وقبلها حاول الكثير منهم الانتحار حتى قبل أن تبدأ الرحلة. وعندما صعدوا إلى ظهر المركب جرت تعريتهم وكيّهم على صدورهم وقيدهم بالسلاسل أزواجًا، وجرى بيعهم بالمقاس وكانوا ينامون، فى أثناء السفر، فى مساحات تكاد تكون مثل القبور فى بطن المركب ويتم رصهم كأنهم سردين وبدون أى رعاية طبية. ومن الأمور الشائعة هناك الاختناق والجنون وخنق البعض بهدف إيجاد فراغ للتنفس، كما كان هناك تمرد وإن هذا غالبًا ما كان الفشل من نصيبه. كتب بروسْبِر ميرميه، مؤلف "كارمن" رواية وضع لها عنوانًا هو "تامانجو" Tamango حيث يروى وقائع تمرد حدث بالفعل ونجح على متن مركب من مراكب العبيد، ومع هذا لم يعرف العبيد كيفية إدارة دفة السفينة وهلكوا جميعًا.

ومن البراهين التى تؤكد على الرغبة فى البقاء هو أن هذه الثقافة جاءت بعد معاناة لكنها قادرة على الاستمرار وقوة الدفع الذاتى وأن تولد من جديد فى إطار احتكاكها بالثقافات الأصلية فى العالم الجديد، كما أن هذا هو أيضًا برهان على أنها لم تُهزم بالمعاناة أو النقمة المبررة؛ وجدت الثقافة السوداء فى العالم الجديد - مثلها مثل ثقافة الهنود - وسيلة للتعبير عن ذاتها من خلال الباروك، فعلى الشاكلة التى ظهر فيها التوجه الباروكى الإسبانوأمريكى من تونتزينتلا Tonantzintla، فى المكسيك، حتى بوتوسى فى أعالى البيرو، من خلال تلاقح الثقافتين الهندية والأوربية، نجد أن الانصهار الحضارى الأسود والبرتغالى قد أسهم فى خلق ظاهرة من أعظم الظواهر فى العالم الجديد، ألا وهو الباروك البرازيلى الإفريقى البرتغالى، فى إقليم "ميناس خيرايس" M.Gerais الإقليم الأكثر غزارة فى استخراج الذهب خلال القرن الثامن عشر.

فى هذا المكان استطاع المُوَلَّد أليجاندنيو Aleijandinho إقامة عمل يعتبره الكثيرون قمة الإبداع الباروكى فى أمريكا اللاتينية، كان أليجاندنيو ابن عبدة سوداء ومهندس معمارى برتغالى، إلا أن والديه والدنيا كلها تخلوا عنه، كان الفتى يعانى من البرص،

وبالتالى فبدلاً من أن ينخرط فى مجتمع الرجال والنساء انضم إلى مجتمع باروك من الحجارة، فالتماثيل الاثنا عشر الخاصة بالرسل (الحواريين) والتى نحتها أليجاندنيو على السلم المؤدى إلى كنيسة كونجونياس دو كامبو **Congonhias do Campo** لا تسير على طريق التوازى والتناغم الذى كان عليه النحت الكلاسيكى، فهى على شاكلة المنحوتات الإيطالية التى أبدعها برنينى **Bernini** (ولو أنها بعيدة تمامًا من الناحية الجغرافية) حيث إن هذه الأخيرة عبارة عن تماثيل فى حالة حركة وثلاثية الأبعاد تنزل متجهة صوب المشاهد؛ إنها تماثيل متمردة منكفئة على آلامها الأسطورية وعلى نقمتها الإنسانية.

هذا الطابع الدائرى لفن الباروك، الذى يتطلب وجود وجهات نظر معينة من خلال الانتقال، يرفض أن يقدم لأحد شيئًا وجهة نظر مميزة، إذن نجد أن مبدأ تأكيد التغيير أمر أبدى، والأزمة التى يمثلها هذا الفن، القائمة بين عالم الأشياء المرتبة الذى تعيشه القلة القليلة وعالم الأشياء غير المرتبة الذى يعيشه السواد الأعظم، قد تجسدت على يد هذا المعمارى المولد فى كنيسة "نويسترا سنيورا دل بيلار" فى أونرو بريتو **Onro preto**، عاصمة المناجم فى البرازيل خلال العصر الاستعمارى؛ فالكنيسة من الخارج عبارة عن مستطيل متكامل الأضلاع، أما من الداخل فالأضلاع منحنية ومتعدد الأضلاع وبيضاوى مثل كرة كولومبوس، أى مثل بيضة المكتشف، فالكرة مستديرة ويمكن رؤيتها من زوايا متعددة.

هنا نجد أن رؤية أليجاندنيو تنضم إلى رؤى الفنانين الآخرين فى أيبيريا والعالم الجديد الهندى الأمريكى؛ ففى كوجونياس وأوروبريتو **Ouro Preto** تجتمع كل رؤانا، نرى بأعيننا ويكتمل تجسدنا، والشىء المثير هو أن هذه الرؤى مجتمعة يعبر عنها رجل منعزل، أى شاب أصيب بالبرص ويقال إنه كان يعمل ليلاً فقط أى عندما لا يراه أحد. لكن ألم نقل عن البرازيل بأنها البلد الذى ينمو ليلاً بينما البرازيليون نائمون؟

كان يعمل ليلاً تحيط به الأحلام، وربما استطاع أليجاندنيو أن يجسد تلك الأحلام التى يعيشها معاصروه، فلم يكن أمامه طريق آخر للحديث معهم إلا من خلال صمت الحجارة، وكلما اتخذ الحجر الشكل الخاص به فإن هذه الثقافة الجديدة، ثقافة الباروك الأمريكية، والثقافة الهندية الإفريقية الأيبيرية نادت بأن يكون لها صوت ووجدت هذا الصوت فى أعظم شاعر ولدته أمريكا فى عصر الاستعمار.

"روحى موزعة الشتات":

لم يكن أحد يتخيل أن سيخرج من دير فى المكسيك فى عصر الاستعمار صوت امرأة، راهبة، تحول مع الزمن إلى واحد من أعظم الأصوات الشعرية الباروكية خلال القرن السابع عشر، ويذهب الكثيرون إلى أبعد من هذا باعتبارها واحدة من أعظم الأصوات الشعرية على مر العصور.

ولدت خوانا دى أسباخى **J. de Asbaje** وسط المكسيك عام ١٦٤٨م، وربما كانت طفلة غير شرعية، وعندما بلغت السابعة من العمر رَجَتْ والدتها أن تسمح لها بارتداء ملابس الأولاد، حتى تتمكن من الدراسة فى الجامعة، وقادتها ألمعيتها إلى بلاط نائب الملك خلال يفاعتها، وهناك أثارت إعجاب المدرسين الجامعيين بما عليه من معارف فى شتى الحقول ابتداءً من اللاتينية وانتهاءً بالرياضيات. كانت خوانا واحدة من المثقفين التى يبدو أنها على علم بكل شىء من الألف إلى الياء رغم البُعد والعزلة والقيود التى فرضها عالم السياسة والعالم الدينى الذى عاشته. بلغت شهرة واسعة وحازت ثناء، غير أنها سرعان ما أدركت الصعوبات التى تواجهها كاتبة فى المكسيك فى عصر الاستعمار، فلم تواجه فقط المعارضة الذكورية والرقابة الكنسية بل كان عليها أن تواجه الاختطاف الذى كان سائداً والتهديدات التى تؤرق إحساسها بالأمان، ولم يكن أمامها إلا الالتحاق بالكنيسة آملة أن تجد ملاذها فى المكان الذى سوف يأتى يوم تهاجمها فيه، إلا أن صومعتها فى دير سان خيرونيمو درأ عنها كافة الأخطار، وفى هذا المكان جمعت خوانا أكثر من أربعة آلاف كتاب وأوراقها وأقلامها ومحبراتها وآلاتها الموسيقية،

فهى هنا يمكنها أن تكتب عن كل شىء، وتعبر عن قريحتها ومعارفها بحرية، وهنا، فى هذا العالم الخاص بالديانة والآداب، اللذين اجتمعا لزمن، عُرفت باسم الأخت خوانا إينس دى لاكروث.

ولما لم يكن هناك أحد أكثر صمتًا فى هذا المجتمع الاستعمارى أكثر من النساء، فإن امرأة هى الوحيدة التى عبرت عن صوت هذا المجتمع وهى على وعى كامل بما يمليه العقل وما يمليه القلب: "موزعة الشتات/ روحى قد اختلط عليها الأمر/ فمن جانب يتملكها الشوق/ ومن جانب يسيطر عليها العقل".

الشوق؟ العقل؟ الاستعباد؟ أين إذن مكان اليقين والإيمان والقبول الأعمى لكل ما أمر به الدين وليس ما أملاه العقل أو الشوق؟ وبعد كل هذا من كانت هذه الراهبة الرائعة التى أثارت الإعجاب بها فى أوربا والصديقة الحميمة وربما الصديقة الجنسية لزوجة نائب الملك، وهى تترأس من قلايتها بلاطًا شخصيًا وتقول: "أعانى من كونى عاشقة ومعشوقة"؟

وبعد فترة لم تعد قلايتها صالحة لحمايتها من بطش السلطة الذكورية والشديدة المحافظة المتمثلة فى من يطاردها وهو أسقف المكسيك، أجيار إى سيكسس Aguiar Y Seixas؛ فعندما كان عمرها أربعين عامًا حِيلَ بينها وبين مكتبتها وآلاتها الموسيقية وريشة الكتابة ومحابرها، وألقى بها فى غياهب الصمت وماتت وهى فى الثالثة والأربعين من عمرها (١٦٩٥م).

ومع كل هذا استطاعت أن تهزم من أسكتوها، فقد استطاعت أشعارها أن تعانق، وإلى الأبد، القوالب الشعرية وكلمات الوفرة التى عليها العالم الجديد وأسماءه وجغرافيته الجديدة ومملكة النباتات والحيوانات فيه، وهذا كله لم تره عين أوربية قط قبل ذلك، وكانت تتساءل عما إذا كانت أشعارها جزءًا من نبات هذه الأرض التى تحيا عليها: "أى مشروب سحرى/ من الأعشاب الهندية/ من وطنى، يتخلل حروف كلماتى/ التى أخرجته؟".

أشياء لم يرد ذكرها فى الإنجيل:

هنا نجد أن الجمع بين المتناقضات فى المعتقد الدينى، وتوجهات الباروك الإفريقى الأمريكى والشعر الأوربى الأمريكى للأخت خوانا، ليست إلا عناصر أطلقت عليها المؤرخة بيجى ليس Peggy Liss عبارة "التبادل الأطلنطى" أى شبكة التجارة والثقافة والسياسة التى سرعان ما ربطت بين أوربا والأمريكتين بعد عام ١٤٩٢م.

على قاعدة هذه "الإمبراطوريات الأطلنطية" كان هناك تبادل فى حقل الجديد وأشياء لم تُرَ قبل ذلك عند الأوربيين والأمريكيين، فبعد عام ١٤٩٢م هاجر جزء من عالم النبات وعالم الحيوان بكثرة من قارة إلى أخرى وأحياناً ما تم ذلك فى معرض الأشياء الغريبة، أما الآن فهى منتجات منتشرة وشائعة مثل الطماطم والشيكولاتة. فى البداية نجد أن أوربا خشيت من أن تكون الطماطم سامة، ومع الأيام أخذوا يكتشفون مزاياها الرائعة، وكلمة طماطم مشتقة من اللغة الأثتيك Xilomatl، وعندما نعرج على الإيطاليين نجد أنهم هم الذين اتخذوا لها هذا الاسم Pomodor الذى ربما كان أجمل أسمائها، ومعناه التفاحة الذهبية مع ما يحمل ذلك من تنويه بالفردوس سواء كان فردوس المتعة أو الخطيئة، وكأنه من الممكن الفصل بين الصنفين. أما الشيكولاتة Xocolatl فهى كلمة أخرى من لغة الأثتيك ومنتج آخر من هذه الأرض، وكانت فى عصر إمبراطورية موكتيزوما نباتاً رائعاً وفيراً، لدرجة أنها كانت العملة المتداولة.

كان الإمبراطور موكتيزوما يستمتع وهو يشرب الشيكولاتة، غير أن أوربا اعتبرت أن هذا المنتج، فى البداية، مُرّ بشكل يزيد عن الحد عند الكثيرين ممن تذوقوه، ومع هذا فإن سيدات إسبانيا جُنّ جنونهن بهذا المشروب غير جيد الطعم، وعندما تزوج لويس الرابع عشر أميرة إسبانية أدخل الشيكولاتة إلى قصر فرساى. وإذا ما كانت الشيكولاتة وفيرة فى المكسيك فإن السكر كان قليلاً فى أوربا وارتفعت أسعاره كثيراً وأخذ يوزن فى كفتى الميزان. فى العالم الجديد ازدهر إنتاج السكر فى المناطق المدارية، وغزا آفاقاً جديدة، واستطاع أول منتج له، وهو جونثالو دى بيبورا، فى جزيرة "الإسبانية" أن يحقق ثروة طائلة. وعندما مات الكثير من السكان الأصليين من العمال حل محلهم العبيد السود فى مزارع السكر.

كان كريستوفر كولومبوس أول من رأى رجالاً ونساءً يسيرون فى شوارع قرية وهم يدخنون التبغ، كان ذلك فى السادس من شهر نوفمبر لعام ١٤٩٢م، وبالتحديد فى جزيرة كوبا، ولم يمض الكثير من الوقت حتى أخذ العالم القديم بمثل هذه العادة شأنها شأن الكثير من الموضوعات الجديدة القادمة من العالم الجديد، وتطلب الأمر كل ظُرْف وبهاء السير والتر رالى **W. Raleigh** ليكون التبغ سلعة مقبولة فى إنجلترا رغم أن الملك يعقوب الأول حذر من أن هذا النبات "يجعل الأعضاء الداخلية للجسم كأنها مطبخ"؛ لكن إذا ما تم اكتشاف أمريكا لأن الأوربيين كانوا يريدون المزيد من الفلفل الأسود على موائدهم فإن التابل الوحيد الذى تم العثور عليه فى العالم الجديد هو الفلفل الأحمر الحار أى الـ**agi** الذى تحدث عنه الأب جوزيف دى أكوستا بأنه "الصلصة الرئيسية لكافة الأطباق"، وفى كتابه "التاريخ الطبيعى لجزر الهند الغربية"، ١٥٩١م، حذر ذلك الأب السمين وذو البشرة المائلة للحمرة، الذى صعد ونزل المناطق الجبلية المرتفعة فى جبال الأنديز، من أن الفلفل الأحمر الحار "هو كما يقولون يؤلم فى دخوله وخروجه"، ويذهب فى تحذيره إلى أبعد من هذا بالإشارة إلى أن تناوله بكميات كبيرة "يثير الشهوة". وكانت أوراق الكوكا هى الأخطر من المادة السابقة، فهى ورقة تنمو فى جبال الأنديز ويمضغها الناس ويقول عنها ذلك الأب بأن المرء عندما يتناولها يمكن "أن يسير ويعمل لمدد طويلة دون أن يتناول أى شىء غيرها...".

يوجد فى أوفنبورج **Offenburgo**، ألمانيا، تمثال أو تذكار للسير فرانسيس دارك **F.Drake** يمسك ثمرة بطاطا فى يده. ونقرأ فى النص المرافق لهذا التذكار ما يلى: "إلى السير فرانسيس دارك، الذى أدخل البطاطا إلى أوربا **AD** ١٥٨٠م" ثم يضيف النص: "باسم ملايين الفلاحين الذين يباركون ذكراه الخالدة".

ومع هذا فعندما وصلت الثمار الأولى للبطاطا إلى أوربا بدت كأنها شىء قذر شبيه بالخصيتين أو "الكمأة" **trufa** و **Kartoffel** و **Cartruffles**. كما أن هناك طائفة دينية روسية حذرت من أن البطاطا لم يرد ذكرها فى الإنجيل، وقالت بأن هذا النبات هو من النباتات المخيفة، ولم يكونوا يتصورون أن الفودكا سوف تصنع من البطاطا المتخمرة.

كانت الذرة، خبز العالم الجديد وهدية كيتزالكواتل، هى النبات الذى عثر عليه كورتيس ووجده وفيراً فى الأمريكتين؛ أرسلته أمريكا إلى أوربا مقابل القمح، وطوال فترة طويلة من الزمن استخدم الأوربيون الذرة كعلف للخنازير، وهى حيوانات تم استئناسها وبعد ذلك ذهبوا بها إلى العالم الجديد برفقة المجازر الأولى.

ربما شكلت قطعان الماشية والخيل أكبر ملامح التجديد على الإطلاق، وإذا ما كان برنال دياث قادراً على تحديد عدد الخيول التى وصلت إلى المكسيك برفقة كورتيس (ستة عشر حصاناً) فبعد ذلك بسنوات هرب بعضها من الغُزاة وعادت إلى حالتها الأولى طليقة وأخذت تشكل قطعاناً كبيرة تنتقل عبر المساحات الشاسعة بين كلورادو وباتاجونيا.

هاجر القمح والمواشى نحو الجنوب، على شاكلة ما فعلت القبائل القديمة القادمة من آسيا، وأصبحا هما القاعدة الأساسية للثروة الزراعية والحيوانية فى نصف الكرة الجنوبى فى هذا العالم، فى أوروجواى والبرازيل والأرجنتين، وتم استئناس القطعان البرية على يد القراصنة الإنجليز والفرنسيين والهولنديين، وقد أطلق عليهم هذا الوصف bucaneros لأنهم كانوا يقومون بتجفيف وتدخين اللحوم، وهى طريقة يطلق عليها bucan عند هنود منطقة الكاريبى.

لم يكن كل شىء سلاماً، فقد شهد العالم الجديد وجود أصناف من الكلاب هى الماستين Sabuesos, Mastin التى كانت تستخدم فى تعقب الهنود الهاربين، والعبيد السود من بعدهم، وفى بويرتوريكو نجد بونثى دى ليون يعتبر أن كلابه مهمة للغاية لدرجة أنه كان يجعلها تشاركه الطعام وغنائم الحرب والراتب الذى يتقاضاه الجندى الإسبانى، وفعلت الكلاب أيضاً مثلما فعلت القطعان الأخرى، إذ أصبحت حرّة طليقة وشكلت جماعات برية منتشرة فى كل مكان.

وبالنسبة للنباتات التى جاءت من أوربا إلى العالم الجديد، يلاحظ أنها لم تحظ بهذا الانتشار الواسع، إذ كانت محط سيطرة ورقابة، ويعد الزيتون والعنب والبرتقال والليمون من هذه النباتات الجديدة الأوربية التى جاءت إلى الأمريكتين، وبلغت حقول الكروم أهمية كبيرة لدرجة أنها كانت فى شيلى فى عصر الاستعمار تحت الحراسة

المسلحة: وكان هذا مسلكاً رائعًا يستند إلى أن تكون شيلى هى التى ظلت تنتج أفضل نبيذ فى أمريكا اللاتينية؛ أما بالنسبة للنارنج فسرعان ما انتشر فى الأراضى الواقعة جنوب المناطق الاستوائية، وكلما تاهت إحدى النعاج فى المناطق المدارية فسرعان ما تتوالد مع غيرها بشكل رائع فى المناطق المرتفعة وفى السهول الجنوبية. واستقر الحمار بقوة فى الأمريكتين، غير أن عينيه الحزينتين عكستا بعض الاستغراب لما شهدت من حيوانات جديدة فى أمريكا لم يرد ذكرها فى سفينة نوح طبقًا لما أشار إليه أكوستا، وها هى الآن تظهر فى أعالى جبال الأنديز مثل البيكونيا **Vicunias** (نوع من اللامة) والجواناكو **guanacos** (الأنواع الوحشية من اللامة)، بينما تحلق فى سماء المكان طيور لم ترها قبل ذلك عيون الأوربيين مثل الكوندور **Condor**، القوى والرشيق، والنسور ذات الأجنحة التى ترفرف بسرعة والنظرات الثاقبة ومهمتها تطهير المدن والشوارع إذ تهبط فوراً على أية فرائس من الأجساد.

وها هى الببغاوات التى تتكلم، والجواكسولوتل **guaxolotl** الأثتيكى اللذيذ، والذى أطلق عليه الفرنسيون دِنْدون **dindon**، أى عصفور العالم الجديد، بينما أطلق عليه الإنجليز، الذين كانوا دائمًا فى حيرة من أمرهم، مسمى "**turquia**"، وها هو طائر الكيتزال **quetzal** تخبو حياته فى القفص، وكان من الطيور التى تعشق الطيران بحرية فى الفضاء. وها هو الدجاج الحبشى **Guajolete** يقدم على المائدة، بينما الببغاء يردد عباراته فى صحن المنزل، والكيتزال الذى يخبو فى القفص، والنسر يحوم حول سقف المنزل، وتحت كل هذا نجد المدن الجديدة فى الأمريكتين.

المدينة الباروك:

نشأت مدن جديدة، مثل مدينة الفضة فى بوتوسى، وأدى ذلك إلى انتشار النفوذ الإسبانى داخل القارة، وهذا ما نجده منتشراً، بمعنى أن الاقتصاد الزراعى واقتصاد المناجم فى الأمريكتين يحظى بمناطق عمرانية حضرية كانت إسبانيا تمارس سلطاتها انطلاقًا منها، غير أن داخل هذه المدن سرعان ما شهد فوارق طبقية عنيفة وبالتالى

حالات توتر شديدة. وبالنسبة للمدن الموانى (مثل هافانا وسان خوان فى بويرتوريكو وقرطاجنة الهند، وماراكيبو وبالبارابيسو) نجد أن إيقاعها سريع من حيث تطوير حضارة حديثة تجارية مفتوحة على التأثيرات الأجنبية ومهيأة للتعايش الذى تشهده شوارعها؛ كانت هذه المدن الواقعة فى الداخل وفى المناطق الجبلية (مثل المكسيك وبوجوتا ولاباث، وكيتو وجواتيمالا)، وكذلك عن المدن المطلة على السواحل التى تحولت إلى عواصم لنائب الملك (مثل ليما وبوينوس أيرس) ذلك أن الانفتاح على التجارة كان مكبوح الجماح بفضل القواعد البروتوكولية الواجب اتباعها فيها.

كان الحلم الذى لم تفصح عنه الكثير من هذه العواصم أن تتحول إلى مدينة خاصة بالبلاط وهذا ما أضفى عليها مسحة من الطفيلية نراها واضحة فى تقسيماتها الحضرية بين الحاكمين والمحكومين (من ليس لديهم شىء). عكس هذا نجده فى أى عاصمة أوربية، فرغم ما بها من ظلم، كان يوجد بها قطاع وسط يتطور بفضل نشاطه التجارى والمهنى؛ لكن الوضع فى أمريكا الإسبانية يختلف حيث كان هناك ذوو الجاه hidalgos لأنهم يملكون، خارج المدينة، المناجم والأموال. وكان هدف هذا الإسبانى الأمريكى من ذوى الجاه أن يكون مخدومًا ومُطاعًا ويحظى بالاحترام والإعجاب، وكان يحيط نفسه عادةً بهؤلاء الأفراد الذين يمكنهم أن يؤدوا له هذه الخدمات، والفارق بالنسبة للعالم الجديد هو صعوبة الحصول على الاحترام الذى كان يحظى به الرجل الإقطاعى، وكانت عبارات السخرية والهجاء هى الأداة فى وصف طموحات عِلْيَة القوم الذين رست سفنهم فى بحر الخواء، فمن هم من ذوى الحظوة قليلو العدد، أما المُهَمّشون فهم كُثُر، وبينهما نجد مزيجًا مدهشًا من الشطار واللصوص والساقطات والشحاذين، حيث يحتلون المشهد مثلما هو الحال فى المدن الإسبانية التى عاشت الباروك فى العصر الذهبى.

التوتر قائم بين من يملكون ومن لا يملكون، بين علية القوم من الأغنياء منهم والفقراء، وبين علية القوم من ذوى الأصول الإسبانية والآخرين من المولدين الحاقدين غير الخلوقين والطموحين والساخرين، الأمر الذى أدى إلى تفتيت الفوارق الجامدة بين

الطبقات العالية والوطيئة. ومن جانب آخر نجد الهنود والسود والمولدين، وكلهم من الفقراء، وقد أخذوا فى الازدياد وشكلوا تهديداً للطبقات العليا، فهناك التمرد الهندى الذى شهدناه فى السنوات الأولى من الاستعمار، وخلف ذلك العديد من أشكال التمرد فى مختلف المراحل الزمنية؛ ففى عام ١٦٢٤م تعرض قصر نائب الملك فى مدينة المكسيك لحريق أضرمه فيه عدد كبير من العمال فى المناطق الحضرية وكان فى مقدمتهم رهبان تمردوا على الوضع واحتجوا على "سوء الإدارة"، هناك أيضًا التمرد الشهير الذى وقع عام ١٦٩٢م من جرّاء قلة السلع الغذائية وارتفاع الأسعار، حيث هاجم المتمردون القصر وبعض المبانى الحكومية.

قدم لنا برناردو دى بالبوينا وصفًا طريفًا ورشيقًا للحياة فى واحدة من الحواضر الباروك فى العالم الجديد، وبرناردو هذا هو شاعر إسبانى جاء إلى المكسيك وهو فى طفولته، وكتب عما أطلق عليه عظمة مدينة المكسيك عام ١٦٠٤م، وفى الفصل المخصص للحديث عن "الهدايا ومناسبات المرح" يحدثنا عن "الهدايا والاحتفاليات بأشكالها المختلفة" بما فى ذلك الحوارات والألعاب والدعوات والحدائق ورحلات القنص والحفلات الراقصة والموسيقية، والموسيقى، والصخب، وهى "حفلات وكوميديات جديدة كل ليلة" واستخدامات جديدة وما يَعِنّ للسادة وسيطرة العربات والحناطير والكراسى والأسرّة والنساء وأغطية الرؤوس والزينات، والأزواج "الذين يعانون الآلام والمتاعب"؛ جاء كل هذا الوصف مغموسًا فى الصقيع والتطريز والمشاعل والجواهر والجواهرجية واللآلئ والأحجار الثمينة واللؤلؤ الصغير **aljofas** كأنه الدمع، والذهب والفضة وتطريزات بارزة تسمى "**recamados**"، ويخدم كل هذا جيوش من الخدم، وهذا ما هو إلا برهان واضح وفصيح على الأوضاع التى تشهدها "إسبانيا الجديدة" من حيث هى مفترق لطرق التجارة:

فيك تجتمع إسبانيا مع الصين،

وإيطاليا مع اليابان، وفى نهاية المطاف

عالم كامل للتجارة والالتزام..

تعرضت هذه المفاهيم للسخرية والهدم على يد مؤرخين تناولوا بالسرد عاصمة أخرى من عواصم نواب الملك، هى ليما؛ هنا نجد أن ماتيو روساس دى أكيدا يسخر من البنية العليا للمجتمع فى ليما وأنه مُحاط بـ:

ألف شاعر من ذى القامات الشديدة التواضع

وسيدات لا يكاد يعرف الشرف لهن طريقًا،

ومحتالين والوقواق كل يغنى على...

ويحدثنا نائب الملك بأنه مُحاط "بالشحاذين والفرسان البخلاء واللاعبين الذين لا قدر لهم والمقامرين"، بينما رجال البوليس ليسوا إلا "لصوصًا متمرسين"، ويختتم حديثه بالقول بأن المدينة ذات "شمس غير ساطعة وإشراقة معتمة: تلك هى مدينة ليما وحياتها". عندما نتأمل ما كتبه سيمون دى أيّانكى فى وصف ليما فى العصر الاستعمارى نجد أنه يذهب إلى أبعد من هذا ويتجاوز الخطوط الحمراء، فالمدينة عنده هى "مدينة الهنديات والمولدات والسامبا والصينيين والمولدين والسود ... وسوف ترى فى كل شىء عمالاً صينيين ومولدين وسوداً، والقليل جداً من الإسبان... كما سترى أيضًا الكثير من الهنود الذين هجروا الأرض الزراعية هربًا من سداد الضرائب وخدمة الفرسان".

نجد إذن أن الرغبة فى أن يكون المرء شيئًا آخر هى التى تسود المجتمعات الحضرية فى عصر الباروك التى توزعت بين الأغنياء والفقراء، وجماعات دينية تتصارع فيما بينها، والحب الولِه ومقابله الرفض للجنس والجسد. نجد إذن أن العصر الاستعمارى شهد تعايشًا بين التشدد الدينى وبين انتشار السلوكيات الداعرة.

كتب رولان بارثيس **R. Barthes** أن السّادية لها الأولوية فى المناطق المتخلفة، فالقسوة أو العنف الجنسى يمكن ممارسته بسهولة فى مجتمعات تتسم الحدود الفاصلة بين طبقاتها بالحزم، حيث يمكن إيجاد ذلك الرفيق الجنسى واختياره بسهولة (من بين صفوف الخدم)، ويسهل أيضًا استبعاد من كان هدف الرغبة والمتعة،

والحصانة بالتمتع بها ولو أن ذلك فى أماكن بعيدة عن العيون. كانت المدن الإسبانوأمريكية تتسم بهذه الصفات، إضافةً إلى بُعد آخر - الحصانة، والاختباء - يتعلق بعالم الأديرة.

يطالعنا أيضًا الكاتب المكسيكى فرناندو بنيتث، من خلال صفحات كتابه "الشياطين فى الدير" بالكثير من القصص التى تتعلق "بالخيالات المُبْهرة" التى عاشتها المجتمعات فى أمريكا اللاتينية والمصحوبة بالممارسات الداعرة، أى الجنسية المكتومة. وعلى زمن الأخت خوانا، نجد أسقف المكسيك أجيار إى سيكسس، يكره النساء لدرجة أنه لا يسمح لهن بالوجود فى حضرته، وإذا ما تصادف لقاؤه بواحدة منهن كان يضع كفيه على وجهه؛ كما كان يكره الماء (وهذا واحد من المخاوف الإسبانية الكاثوليكية) لدرجة كبيرة، وعندما يغضب كان يسير وهو يتوكأ على عكازين ويستخدمهما بعنف، كما عرف ذلك الشاعر كارلوس دى سيجوينثا إى جونجورا، صديق الأخت خوانا وراعيها، حيث كسر الأسقف عويناته وشج وجهه فى معرض نقاش لاهوتى حاد، تمكن ذلك الأسقف أيضًا من إلغاء مهارشة الديكة واللعب والروايات، والنساء إن أمكنا.

فى هذا العصر الذى سادته هذه الروح المتشددة لهذا الأسقف، والذى شهد سقوط الأخت خوانا، ظهر متشددون آخرون، أقل قامة من الأسقف، لكنهم على الدرجة نفسها من التشدد، وسرعان ما ظهرت آثارهم، فهناك قسّ يُدعى بارثيا، ظهر فى نهاية القرن السابع عشر، يقرر جمع كل نساء مدينة المكسيك ويودعهن دير بلين Belen حيث لن تراهن بعد ذلك عيون الرجال. ولا شك أن ما فعله هذا الأب هو قدرته على جمع أكبر عدد من الساقطات والممثلات ولاعبات السيرك؛ وبعد أن وضعهن فى الدير حاول عشاقهن من الرجال فك أسْرِهن واغتيال الأب بارثيا، فحاصروا الدير، وعندما ساد التمرد بين النساء وقلن للأب إذا ما كانت هذه هى السماء (الجنة) فإنهن يفضلن الجحيم، فانتابه الجنون وحاول الانتحار من خلال حقن نفسه شرجيًا بالمياه المباركة.

في زمن التشدد هذا الذى يتسم بتحريم الجنس ومثالية الزواج بالمسيح وعُذْرية الأمومة، نجد أن الكثير من الراهبات المكسيكيات انتابهن الرعب من أجسادهن فعصبْن أعينهن وأبلغن عن رغبتهن فى أن يكن عمياوات وفاقدات لحاسة السمع وأخذن يلحسن أرض صومعاتهن حتى استطعن أن يشكلن صليبًا من اللُّعاب، وعانت أجسادهن السّياط من قبل خادماتهن، ولطخن أنفسهن بدماء حيضهن.

ويضيف بنيتث أن الرهبان استمتعوا أيضًا بالكدمات على طريقة ما كان يتلقاه سان خوان دى لاكروث، فهم يرون أن ذلك عوض عمّا كان المسيح يعانيه وهو مصلوب.

اليوتوبيا الأخيرة والمتمرد الأول:

كان آخر حدود لليوتوبيا فى العالم الجديد هو المبشرين من اليسوعيين فى باراجواى، فقد حصل هؤلاء على حق تحرير الهنود "الجواراني" **guaranies** من ربقة الوثنية وذلك للسيطرة عليهم وحكمهم فى إطار جمهورية مسيحية تشبه "مدينة الرّب على الأرض"، وبدلاً من موت الهنود من الأعمال الشاقة أو الجدرى، نجدهم - هنود باراجواى - وقد ألغوا استخدام العملة، وأقاموا الملكية الجماعية وعاشوا حياة هانئة تقوم على التوزيع العادل للثروة.

لكن هذه اليوتوبيا ظلت معزولة، نظرًا لأن ملك إسبانيا أعطى لليسوعيين الحق فى أن يتحابوا ويحبوا الهنود ضد المستعمرين الإسبان والبرتغاليين الراغبين فى السيطرة عليهم وعلى أراضيهم. ومع هذا من المناسب التساؤل فيما إذا كانت اليوتوبيا المسلحة يمكن اعتبارها يوتوبيا؛ فهم منزوعو السلاح ولا حماية لهم وبالتالى طرد اليسوعيون من إسبانيا، أما أملاكهم فى الباراجواى فقد صادرتها أسرة البوربون عام ١٧٦٧م واستولت عليها جيوش من القرى المحرومة والمستعبدة التى وجدت لها صوتًا يعبر عنها فى لحظةٍ ما، هو توباك أمارو.

فى الرابع من نوفمبر عام ١٧٨٠م نجد أن "الرّيس" Cacique الهندى خوسيه جابريل كوندور كانكى، ابن محافظة تويلا Tuila فى منطقة الأنديز يُنَصِّب نفسه آخر أباطرة الإنك Incos، باسم توباك أمارو، وينادى بعودة السلالة الحاكمة الهندية، وحمل السلاح ووقف فى مواجهة الحكومة الإسبانية، وتبعه جيش من الحوذيين من الهنود، وبسط توباك أمارو الثورة فى أنحاء البلاد.

كانت ثورة مخضبة بالعنف والرمزية، فلما كان الإسبان قد أظهروا تعطشهم الشديد للذهب، لم يكن أمام توباك أمارو إلا القبض على الحاكم الإسبانى وإعدامه بإجباره على شرب الذهب المصهور، ولما كان الهنود لا يهزمون إلا بسلاح الفرسان الإسبانى فإن توباك أمارو، بعد القبض عليه، شهد المصير نفسه ولكن بطريقة أخرى عام ١٧٨١م، يصف لنا شاهد مجهول الاسم موت هذا "الرّيس" الهندى الثورى بقوله:

> "خرجوا به إلى وسط الميدان، وهناك قطع السيّاف لسانه، وفكوا قيوده وسلاسله ووضعوه على الأرض، وقيدوا يديه ورجليه بأربعة قيود، وربطوا هذه القيود بأربعة خيول بحيث يقودها أربعة من المولدين كل يسير فى اتجاه مختلف، وكان مشهداً مروعًا لم تشهده هذه المدينة من قبل، ولست أدرى السبب فيما حدث: هل كانت الخيل خائرة قواها أم أن ذلك الهندى كان من حديد، إذ لم تستطع أبداً تقطيع جسده إلى أشلاء، وبعد فترة طويلة ظلوا به وهو معلق فى الهواء وكأنه عنكبوت، ووصل الأمر "بالناظر" Visitador الذى حركته الشفقة على هذا الرجل الذى لا يستطيع أكثر من هذا، بأن أصدر للفريق أمرًا بقطع رقبته، وهذا ما حدث، وبعد ذلك تم حمل الجسد إلى المقصلة حيث قطعت أوصاله... وقد حضر هذا اليوم جمع غفير من الناس لكن وسط كل هؤلاء لم يُرَ أى من الهنود، أو على الأقل لم يُر أى ملبس هندى وسط الجمع، وإذا ما كان هناك فقد كانوا متدثّرين بالعباءات. تحدث أمور يبدو

أن الشيطان هو الذى يحيكها ويهيئها، وذلك حتى يزداد تمسك هؤلاء الهنود بعقائدهم ومفاهيمهم؛ أقول هذا بعد أيام من الجو اللطيف والأيام الهادئة جاء يوم لم تطلع فيه الشمس ويتكاثر الرعد فى كل مكان مهدداً بالمطر. وفى الساعة الثانية عشرة عندما كانت الخيول تشد معلقة جسد الهندى فى الهواء، هبت رياح عاتية، الأمر الذى دفع بالناس وكذا بالحرس إلى الجرى هرباً. وفى هذا قال الهنود بأن السماء والطبيعة فزعتا لموت هذا الرجل من الإنك، وأن الإسبان خونة وليسوا بشراً إذ قاموا بقتله بقسوة... بهذه الطريقة انتهت حياة خوسيه جابريل توباك أمارو وميكائيلا باستيداس".

فى زماننا هذا نجد الشاعر بابلو نيرودا يكتب مشيراً إلى أن جبال الأنديز وكذا البذور ما زالت تكرر فى صمت كلمة "توباك". إنه موروث من التمردات والخيانات التى لا نهاية لها. وها نحن نرى موروثاً آخر عبارة عن طموحات يوتوبية لا نهاية لها، سواء كانت عنيفة أو عقلانية، وكلها كانت البصمة المسيطرة على الأراضى الإسبانية فى العالم الجديد. وعندما اعتلت أسرة البوربون عرش إسبانيا بعد الأسرة النمساوية، أعلنت بوضوح إقبال عصر العقل، وكان ذلك أيضاً عصر الرسام الذى تخيّل حلم العقل بإنتاج كائنات مخيفة.

الفصل العاشر

عصر جُويَا Goya

فى الأول من نوفمبر ١٧٠٠م، يوم ذكرى الموتى، توفى آخر ملوك الأسرة النمساوية، وهو كارلوس الثانى، ولم يترك وريثًا للعرش، وكان هذا الملك آخر حلقة فى سلسلة "خوانا المجنونة" Juana la loca، ابنة إيزابل الكاثوليكية، وقد قال عنه أحد كتاب سيرته بأنه قد وُضع له السمُّ قبل مائة عام على وفاته.

ها نحن نرى أن كافة بذور الجنون والمرض التى زُرعت طوال عصر حكم أسرة هابسبورج تتركز وتتكثف، فى نهاية الأمر، فى هذا الطفل المسكين الأحمق الذى لم يتمكن أبدًا من إغلاق فكّه الناتئ، والذى لم يتعلم السّير إلا وهو فى السابعة من العمر، أطلق عليه "المسحور" Hechizado، وتم الإبقاء على حياته، كما يقولون، لأسباب تتعلق بأمر الدولة، إذ كانت الغاية هى أن يظل للإمبراطورية الإسبانية رأس ظاهر يمثلها حتى تتمكن من فرض نفسها على الدول الأوربية الأخرى. وقد وقع أحد الأمور العجيبة عندما زار هذا المسحور القصر الصيفى لآل هابسبورج، وهو فى مزرعة سان إلدفونسو، وبالقرب من شيقوبية Segovia، إذ سرعان ما اشتعلت النار فى المكان.

جرى إعادة بناء القصر على شاكلة قصر فرساى، سيرًا على الأسلوب الريفى، وكان هذا فى عصر ملك إسبانيا الذى خلفه وهو فيليبى الخامس، حفيد الملك

لويس الرابع عشر ملك فرنسا. اعتلى فيليبى الخامس عرش إسبانيا بناء على نتائج حرب "الاستخلاف" الإسبانية، التى أدت هذه المرة أيضًا إلى مواجهة أخرى بين فرنسا وإنجلترا فى صراعهما حول مسألة من يجب أن يعتلى عرش إسبانيا ويمسك بدقة أملاكها الشاسعة.

كان وجه آخر ملوك أسرة هابسبورج يمثل كل تلك الجوانب والعناصر التى كانت أسرة البوربون تريد تحديثها وإصلاحها وتجاوزها، ألا وهى ذلك الموروث الذى يخدم الأحكام المسبقة واللاتسامح والبعد عن الحداثة. نعيش من جديد فصلاً آخر من الصراع الطويل الذى تعيشه إسبانيا بين ما هو تقليدى وما هو حديث، الأصالة والمعاصرة، وسوف تستمر أحداث هذا الفصل طوال القرن الثامن عشر، وتجلت خلاله بشكل دائم تلك المعركة الثقافية، فى كل من إسبانيا وأمريكا الإسبانية، بين القديم والجديد.

أعلن التنوير عن بداية عصر جديد فى تاريخ البشرية، فقد ترك الماضى وراءه وهو ماض لا عقلانى وبربرى، ونُودى بالمستقبل: إذ الإنسان قابل للكمال ويكفيه أن يطبق أمور العقل على المهام الخاصة بالتقدم والتطور، وأصبحت السعادة ممكنة على هذه الأرض، بفضل العلم والتربية والنمو الاقتصادى. وضع عصر التنوير أوربا على أعتاب الثورة الصناعية؛ فهل تنضم إسبانيا إلى هذا التيار الذى عم القارة، أو ستبقى مرة أخرى بعيدة عنه؟ هل ستفيق إسبانيا فى نهاية المطاف من سُبَاتها خلال الليل الطويل فى الأسكوريال، وتدخل إلى مملكة شمس قرن التنوير؟ هناك رجُلان يقفان وسط هذه الصحراء الثقافية، أحدهما متخصص فى الدراسات الإنسانية ومفكر ورجل دولة من أصول نبيلة، أما الآخر فهو رسّام غرائزه فيها اندفاع وأصوله متواضعة، صعد إلى سموات الشهرة على جناحى عبقريته الفنية. اسم رجل الدراسات الإنسانية هو ميليشور جاسبار دى خوبيّانوس، أما الرسام فهو فرانثيسكو دى جويا إى لوثينتى.

"ثورة سعيدة" :

فى عام ١٧٨٩م جلس خوبيّانوس(*) Jovellanos أمام جويا Goya، وثمرة ذلك هى لوحة رائعة، لكنها اللوحة الأكثر إثارة للحزن للإنسان الذى يناضل من أجل التنوير خلال القرن الثامن عشر، إنه فيلسوف أوربا التى عانقت مثاليات عصر التنوير: العقل والوضوح والتسامح دون الجرعة الكافية من اللاتفاؤل إزاء هذه، إنها واحدة من اللوحات العظيمة التى تمثل سيرة الرجل، وقد تكشفت من خلال النظرة والموقف الجو العام الذى يحيط بالرجل وكل ما يحيط به وكذا حياته، إضافةً إلى الإطار العام لزمانه.

ولد فى محافظة أستورياس، شمال إسبانيا، وهو الابن الحادى عشر فى ظل نظام أسرى يحكمه الابن الأكبر دوماً، وكان الهدف من تربيته هو حياة اللاهوت، غير أنه بعد أن فشل، بقدرة قادر، فى الامتحانات الخاصة بهذا الطريق قدم إلى مدريد فى اللحظة المناسبة ليصعد إلى عربة الإصلاح التى تبنتها أسرة البوربون، عندئذٍ، لفت انتباه كونت دى أراندا، الوزير القوى الجانب فى حكومة الملك كارلوس الثالث، وخلال فترة امتدت طوال أربعة عشر عامًا، أى بين الثالثة والعشرين والسابعة والثلاثين من عمره، أخذ خوبيانوس يترقى فى المناصب، من قاضى فى دائرة الجنايات فى إشبيلية، إلى عضو فى الأكاديمية الملكية بمدريد. من جانب آخر نراه يصف نفسه وهو يدخل إلى عالم القانون "مسلحًا بالمنطق القوى والميتافيزيقا الغامضة والتى لا جدوى من ورائها، والتى كانت ثمرة دراساته الدينية"، كما أن هناك صديقًا آخر له فى تلك الحقبة يصفه بأنه الرجل الذى ظل "مرفوع الرأس" وأنه "كان يسير بخطًى واثقة ورشيقة طبيعية رغم أن البعض كان يصفها بالتصنّع".

وضع خوبيانوس، القاضى، نصب عينيه هدفًا هو تنظيف السجون الأندلسية ووضع نهاية للتعذيب الذى كان شائعًا فى تلك الأماكن، وتحوّل إلى رمز لسياسته

(*) أحد أبرز الكتاب الإسبان خلال القرن الثامن عشر.

الإصلاحية بأن ترك الباروكة التقليدية التى كان القُضاة يضعونها على رؤوسهم وكان يظهر فى المحاكم وهو عارى الرأس. وبينما كان آخرون يخوضون معارك التحديث مستندين فى ذلك على الشكليات، نجد أن خوبيّانوس كان على اقتناع بأن عصر التنوير يجب أن يكون شيئًا يتجاوز حدود الشكليات.

توقفت قوة الدفع التجديدية التى وقفت وراءها أسرة البوربون الإسبانية، لبعض الوقت نظراً للتمرد الشعبى الذى أعقب تلك التمردات المسماة "تمرد إسكيلاتشى" Squillace، عندما قامت بعض الجماعات الثائرة يوم الأحد "أحد السّعف" فى عام ١٧٦٦م بمهاجمة مقر إقامة الماركيز إسكيلاتشى، الوزير فى بلاط الملك كارلوس الثالث؛ كان هذا الماركيز من أصل إيطالى وقد حكم عليه بأنه مذنب فى قيامه بالعمل على إصدار مرسوم يقضى بمنع استخدام القبعة من صنف Chambergo وكذا العباءة، طبقًا لرأى السلطات، ذلك أن هذين الملبسين يحميان المجرمين الذين يتسترون تحتهما ويساعدانهم على الهروب من يد العدالة.

عكس ذلك حدث بالنسبة لمواطنى مدريد، حيث جرى تحفيزهم على استخدام القبعة ذات الأطراف الثلاثة والعباءة القصيرة والملابس التى تجعل من المستحيل على المرء أن يتخفى. وعندما أهمل أهالى مدريد ما يمليه المرسوم المذكور أخذت مجموعات خاصة من البوليس تقطع طرف القبعات باستخدام المقص وعلى الملأ وذلك حتى تأخذ القبعة الجديدة Chambergo شكلها الحديث رغم ما قد يفعله ذوو التقاليد القديمة من تزيين غطاء الرأس.

احتل السكان المتمردون شوارع مدريد وتوجهوا صوب القصر الملكى، وأجبروا الملك وأسرته على مغادرة المدينة، ولم يجد شيئًا فى تهدئة الجماهير إلا إقالة الوزير إسكيلاتشى. من جهة أخرى نجد أن الرياح قد أتت بما لا يشتهى الملك الإصلاحى، على المستوى الدولى، فقد تمكنت إنجلترا من هزيمة إسبانيا فى حرب الأعوام السبعة، ورغم أن منطقة جبل طارق كانت قبل ذلك فى يد البريطانيين، فقد زاد الطين بلة إذ تم الاستيلاء على كل من هافانا ومانيلا، ولم تَعُد إلى السيطرة الإسبانية إلا بعد التنازل عن فلوريدا وكافة الأراضى التى استعمرتها إسبانيا شرق نهر المسيسبى.

وحتى يمكن مقاومة هذه العاديات والدفع بعجلة الإصلاح والتحديث إلى الأمام نجد أن الملك قد عين رئيس وزراء حازمًا هو كونت أراندا، أما مستشاره الرئيسى وموسوعته الشخصية فسوف يكون القاضى الشاب ابن أستورياس خوبيانوس، الرجل الذى ردّد كثيرًا فى خطاباته ومقالاته وتصرفاته عبارة "الثورة السعيدة" لعصر التنوير التى حازت شهرة فى عالم المثقفين وفى الدوائر العلمية؛ صاح خوبيانوس بأعلى صوته: "يجب أن نفتح الباب أمام النور" فى كافة أنحاء إسبانيا وممتلكاتها، فما تحتاجه إسبانيا فى نظره "هو العلوم ومبادئ الاقتصاد والتحلى بالروح العام للتنوير".

ها نحن نجد مُربين وكُتاب على شاكلة خوبيانوس ورجال دولة مثل كونت أراندا يتحكمون فى دفة إسبانيا واتجاهها صوب التطور والبراجماتية والاتصال بالآخرين والتربية العامة وتم تأسيس اثنتى عشرة شركة متخصصة فى بث الفنون، وتم إطلاق ألف فكرة للتحديث الاقتصادى، وصدر مائة مرسوم تهدف إلى استزراع روح التنوير الإسبانى تحت راية الملك كارلوس الثالث.

وبعد قليل أتت الرياح بما لا تشتهى السُّفُن، فقد مات كارلوس الثالث، وتولى الحكم بعده ابنه كارلوس الرابع الرجل الذى اعتلى العرش وسرعان ما وقف وهدم معظم ما فعله والده، وكان هذا نوعًا من الطقس غير المحسوب. كان ما يهم كارلوس الرابع الحياة الجيدة أكثر من التعليم الجيد؛ ولم يكن الملك من ذوى العقليات الفذة، وبذلك كان من السهل تطويعه على يد زوجته الملكة، ماريا لويسا دى بارما، التى كانت تتفجّر أنوثة، والمعروفة بلقب إحدى بضائع الجبن، هو "البارميسان".

هناك فضيحة عاشتها الملكة وهى معاشرتها لضابط يبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا هو مانويل جودوى M.Godoy، الذى رُقِّى إلى درجة رئيس وزراء، وبعد الهزائم التى منى بها أمام فرنسا عام ١٧٩٥م، عينه الملك "أمير السلام"، وقد عكس كل هذا كيف أن محاباة الأقارب ومحاباة الغير والفساد قد ذاعت وانتشرت وحلت للأسف محل روح عصر التنوير التى كان ينادى بها كارلوس الثالث.

ومحصلة ذلك أن خوبيانوس أخذ يعاني، لكنه ظل مرفوع الرأس، وأدرك أن عصر كارلوس الثالث قد ولّى، وعندما بدأ كارلوس الرابع مطاردة الوزراء القدامى من أنصار عصر التنوير، ظل خوبيانوس على تأييده لهم رغم أن الكثير منهم كان غير قادر على مساندة نفسه. ففى مقدمة ملعونة للمطاردات التى حدثت فى ذلك العصر، نجد أن أحد الوزراء المتهمين يعترف فى رسالة وجهها إلى خوبيّانوس قائلاً: "أستشعر الخوف، سوف أكون مُترقبًا، وسوف يُدرج اسمى فى قائمة المستبعدين؛ أريد أن أكون بطلاً ولكن لا أستطيع ذلك، إننى أتخبّط..."، كانت الرسالة واضحة أمام خوبيانوس: عليك أن تترك الآخرين يقومون بدور البطولة؛ المكارثية ليست بالأمر الجديد سواء كان ذلك بصحبة الباروكات أو بدونها.

ابتداءً من تلك اللحظة لن نجد أحداً تتجسد فيه المعضلات الناجمة عن قراره البقاء على وفائه للمثاليات الخاصة به، ويحافظ، فى الوقت ذاته، على نفسه أفضل من خوبيانوس؛ إذ عاد إلى منزله فى إقليم أستورياس راضيًا عمّا فعل أخلاقيًا وثقافيًا، من حيث محاولته تحويل أفكاره إلى واقع على الأرض التى عاد ليعيش فيها؛ كان إقليم أستورياس أرضًا غنية فى مجال الزراعة وباطنها ثرى بمناجم الفحم، وهنا انتهز خوبيانوس الفرصة ليجعل إسبانيا أكثر وعيًا بثرواتها؛ فقد أخذت الثورة الصناعية تقترب ويجب على إسبانيا ألا تقف مكتوفة الأيدى هذه المرة، وهنا أسس خوبيّانوس معهداً للمناجم فى أستورياس، وشجع على استخدام الفحم لتوليد الطاقة، وفتح موانى جديدة ومهد طرقًا جديدة نحو قلب إسبانيا وهى طرق كانت إسبانيا بحاجة ملحة إليها فى إطار الإصلاح الزراعى؛ كما أدان تكديس الأراضى بدون جدوى فهى أرض غير منتجة فى يد عدد قليل من الإقطاعيين الغائبين عن المسرح؛ وكان يشعر بالألم الشديد لظروف العيش اللاإنسانى فى الريف حيث النعاج كانت تحظى باهتمام أفضل من الاهتمام بالبشر، كافح أيضًا من أجل بناء المدرسة والمحفوظات archivo والرى والاتصالات، وأطلق عليه لقب "رحّالة التنوير" حيث نفذ إلى أنحاء كثيرة ومنعزلة من أرض الأجداد.

انتهى حلم التقدم خلال قرن التنوير الإسبانى عندما فقد الملوك الفرنسيون عقولهم، أما الملوك الإسبان، الذين قرروا ألا يفقدوا هم الآخرون عقولهم، فقد عادوا إلى السلطة المطلقة الشديدة المحافظة. هنا توقف قطار التحديث ابتداءً من قيام الثورة الفرنسية. هنا نتساءل: ألم تكن التربية والعلوم والإصلاح هى نفس أسلحة الثورة؟ ألم يعلن ميلتشور جاسبار دى خوبيانوس، بأعلى صوته، أن الظلم هو الذى يساعد على أن تتأسس رفاهة الأغنياء على تعاسة الفقراء، وقال "بأن سعادة الدولة تكمن فى قمعها لأعضاء الدولة نفسها"؟

فى عام ١٧٩٤م، كان خوبيّانوس قد بلغ الخمسين من العمر، التى كانت تعتبر مرحلة الشيخوخة فى ذلك العصر؛ بمبعد عن البلاط الملكى، ظل فى أستورياس وسعد بالقيام بعمل، وهو فى المؤخرة، لصالح أفكاره التقدمية؛ وخشى على نفسه، مثلما كان ذلك عند الكثير من الأصدقاء، أن يوجه إليه اتهام على الملأ وبعد ذلك يتعرض للعقوبة؛ لكن لما كان موقفه وأخلاقه الرفيعة من الأمور التى تثير حفيظة أعدائه فقد جاءته عام ١٧٩٧م هدية مسمومة قدمها له جودوى Godoy والملك كارلوس الرابع، إذ عُين سفيرًا لإسبانيا فى روسيا؛ وهنا واكب هذا المنصب العام شعور شخصى بالكرب؛ فهل عليه أن يقبل المنصب رغم أنه كتب قائلاً: "سوف أفعل الخير وأحول دون الشر ما استطعت"، أو أن ينأى بنفسه عن تلك المبادئ إلى الأبد ويتعاون مع حكومة فاسدة واستبدادية وطائشة مثل حكومة الملك كارلوس الرابع؟ على أية حالة لم تكن هناك أمانٍ كثيرة تداعب خيالات الفيلسوف؛ "سعيد إذا ما استطعت الحفاظ على حب وتعاطف الجمهور الذى استطعت الفوز به فى هذه المرحلة من الحياة!".

منصب عام، أوجاع خاصة، وأصبحت أحلامه "أضغاث أحلام" "لدرجة أن الحجارة تستثير دموعى"؛ دُعى إلى تناول الطعام مع جودوى فى حضور زوجة رئيس الوزراء وحضور عشيقة جودوى المغنية بيبتا تودو، وهذه هى المغامرة النسائية الثالثة له، إذ إن أولاها كانت لجودوى مع الملكة نفسها الملقبة بـ"بارميسانا". هنا نجد أن خوبيانوس أشار فى مذكراته اليومية إلى أن "هذا المشهد قضى على ما أشعر به من ضيق،

فروحى لا يمكن لها أن تعانى، فلم آكل ولم أتحدث ولم أستطع التصالح مع روحى وهربت من هناك...".

لكن جودوى كان مصممًا على اصطياد هذا الفأر الثقافى، وربما كان يتسلى باللعب معه وكأنها لعبة القط والفأر، فعندما عرض وزير العدل على خوبيانوس أحد المناصب الكبرى الخمسة فى وزارته، فى إسبانيا كارلوس الرابع، كان هناك أفق كبير من السلطة مفتوحًا أمام ناظرى الفيلسوف، فقد عمل خوبيانوس طوال ثمانية أشهر بحسن نية، وكانت محاكم التفتيش هى عدوه، غير أن خوبيانوس عندما تعوّد على السلطة تم إبعاده بسرعة مماثلة لسرعة تعيينه، وتعرض أصدقاؤه وأنصاره للسب والدسائس والسجن فى بعض الحالات، وطُبّق عليه قانون التجميد، إذ أضفت الكآبة بظلالها رويدًا رويدًا على جلسات الدردشة التى كان يعقدها خوبيانوس فى مدينة خيخون Gijon، وازداد عزلة. هنا كان الفيلسوف يتساءل فيما إذا كان أصدقاؤه الذين تعرضوا للترهيب وأولئك من غير الشكورين سوف يعودون يومًا إلى تلك الأمسيات: "هل سيعودون؟ لم يعد يهمنى أى شىء!"، هذا ما كتبه فى مذكراته اليومية. وأخذ يعد العدة، من منظور رواقى، لتلقى ما لا يمكن درء وقوعه، فكان يرى أن سلوكه كان سلوكًا شريفًا وعفيفًا وأنه إذا ما كان الأمر كذلك سيتمكن من تحمل ما يترتب على سوء المصير، وعلى أية حال لم يتبق فى يديه إلا شهادة ضميره، وهذا الضمير "يتهمنى بمواطن الضعف هذه التى هى لصيقة بأى إنسان".

كان هذا هو خوبيانوس، الذى يجسد مرة أخرى الرواقية الإسبانية، لكنه هذه المرة مرسوم فى لوحة لجويا، جالسًا على كرسى مدهون بماء الذهب يمسك ورقة فى يده التى تتكئ على ركبته اليمنى، أما رأسه فهى مستندة على اليد الأخرى بينما المرفق يتكئ على منضدة للعمل المليئة بالكتب والأوراق، هناك ريشة وتمثال لإلهة المعرفة، "مينرفا" Minerva، أى إن الذكاء المسلح يراقب العالم: غير أن الألوان الذهبية وتمثال الإلهة يقلّان فى الأهمية عن القيمة المدنية للوحة، فالرجل بدون باروكة يرتدى بنطلونًا وسترة levita برجوازيتين، وجوربًا بسيطًا وحذاءً ذا إبزيم. ولو كان خوبيانوس من

آمريكا الشمالية لقلنا إنه ابن عم بنيامين فرانكلين، لكن، فى حقيقة الأمر، هذه اللوحة هى نسخة تنويرية من اللوحة الرائعة التى رسمها الجريكو "الفارس الذى يضع يده على صدره"، التى هى بدورها صورة طبق الأصل، خلال القرن السابع عشر، للملامح التاريخية الأبدية التى نراها فى جزء من إسبانيا وتمثل المعادل التصحيحى لتوجهات الشطّار أو القسوة، أو ما هو غريب أو قوى. إنه التوازن السليم بين الغطرسة التى عليها الأقلية والتواضع الذى عليه الأغلبية، إنها لوحة إنسان تَدَثّر بقانونه الداخلى، تحميه قيمه وكبرياؤه وقناعاته الخاصة، فى بحر أمواجه هى الدسائس والتربيطات والعاديات.

كان خوبيانوس آخر واحد فى سلالة الفيلسوف سنيكا فى إسبانيا، وكان عليه أن يستخدم كل ما بوسعه، لمواجهة الهجوم المحدق به؛ قُبض عليه فى مارس ١٨٠١م فى موطنه فى أستورياس، فقد وشى به واشٍ بأنه يقرأ "الكتب الممنوعة"، وأصرّ هذا الواشى على إبعاده عن أرضه بمسافة كبيرة، وقطع الاتصالات عنه وكذا المراسلات؛ ثم تضيف رسالة الواشى أن خوبيّانوس يجب أن يكون عبرة "لهؤلاء الأباحيّين" الذين يسيرون وراء أفكاره؛ جاءه زوّار الفجر وحاصروا منزله، وانتزعوه من سريره، وصادروا أوراقه، وفى اليوم التالى نُفى يرافقه أربعة من الحراس المسلحين؛ وجرت محاكمته سريًا، وبعد فترة من السجن قضاها فى إحدى الرهبانيات **Cartiya**، تحول "رحّالة التنوير" إلى سجين فى حصن بلفر **Belver** فى جزيرة ميورقة، وهناك ظل ست سنوات طوال.

كان هناك ردّ فعل على عدم الأهلية والفساد الذى كان عليه الثالوث غير المقدس والمكون من كارلوس الرابع وزوجته بارميسانا وجودوى، فوّحد الصفوف حول وريث العرش، فرناندو، حيث قامت مجموعة من المتمردين فى بلدة أرانخويث **Aranjuez** (حيث القصر الملكى الصيفى) بإجبار الملك كارلوس الرابع على التنازل عن العرش لابنه؛ كان جودوى على وشك السقوط، وكان أحد المراسيم الأول التى صدرت عن الحكومة الجديدة إخراج خوبيانوس من الحصن السجن.

إلا أن نابليون كان سريع التصرف مقارنة بأى من ملوك أسرة البوربون، فقبل أن يتمكن الملك فرناندو السابع من وضع قدمه فى مدريد قام نابليون باختطاف الأب والابن، أى كارلوس الرابع وابنه فرناندو السابع، ومعهما جودوى وعشيقته، الملكة ماريا لويسا، وتم ذلك فى بايونا Bayona؛ وبعد ذلك مباشرة فرض نابليون دستورًا ليبراليًا، وألغى محاكم التفتيش وضريبة المبيعات آنذاك alcabala، وحرم الإقطاعيين والكنيسة من كثير من المزايا التى كانوا يتمتعون بها، وأعلن حقوق الإنسان. ودعا آل بونابرت، أى نابليون وأخوه خوسيه الذى أصبح ملكًا على إسبانيا، خوبيانوس للانضمام إلى "المهمة الكبرى" التى ستجعل من إسبانيا أمة حديثة.

توجهت أنظار خوبيانوس نحو مدريد. فهاهم سكانها قد هبوا ضد قوات الاحتلال الفرنسى، وعندما قدمت فرنسا الحرية للإسبان بدلاً من استبداد الملوك، صاح الإسبان "تحيا السلاسل!"، وبدلاً من الحرية تم اقتيادهم إلى الحائط الكبير. رسم جويا هذا المشهد الذى لا يُنسى، كانت ليلة الثانى من شهر مايو عام ١٨٠٨م. هنا اتخذ خوبيانوس قراره. سوف أحارب من أجل إسبانيا ومن أجل استقلالها وليس من أجل أسرة البوربون الحمقاء والفاسدة والمغرورة، وهم الذين رسمهم جويا جميعًا، أى الملك كارلوس الرابع وأسرته.

كافحت إسبانيا، وهزمتها آلة الحرب الإمبراطورية لبونابرت؛ وعندما شعر خوبيانوس بأن كل شيء ضاع عاد إلى موطنه فى أستورياس، فأصاب الناس الجنون هناك، فحملوا الفيلسوف على الأعناق فى مشهد احتفالى، كأنه النصر، إلى منزله، وتم إضرام النار للاصطلاء والاستنارة احتفالاً بعودته، وأضاء الناس جميعًا منازلهم تكريمًا لخوبيانوس وأعلنوه "أبًا لهذا الوطن"، لكنه وجد أنه قد جرى نهب منزله وكتبه ولوحاته، وقامت بذلك قوات الماريشال نى Ney. مرة أخرى نجد الفرنسيين على أعتاب إقليم أستورياس، لم يكد خوبيانوس يبحر فى ليلة عاصفة متوجهًا إلى قرية للصيادين إذ كان الإبحار مستحيلاً، هناك توفى إثر التهاب رئوى، وارتفاع فى درجة الحرارة وهذيان كان يردد فى أثنائه "أمة بلا رؤوس، أمة بلا رؤوس".

حلم العقل:

فى إسبانيا عصر التنوير نجد أنها كانت مسرحاً لحالة من التوتر الدرامى قطباه قوة العقل، وتحذيرات الخيال الفنى، وكان الأبطال على هذه الخشبة كل من خوبيانوس ومعه وجهه الآخر أو مضاده وهو جويا. فقد وصل كلاهما إلى مدريد بينما كان النظام الإصلاحى لكارلوس الثالث فى أوجه؛ لكن إذا ما كان خوبيّانوس مثقفًا أرستقراطيًا، قدم من محافظة تكاد تكون عنوانًا للجدارة والعزة، هى أستورياس، نجد أن جويا كان ابنًا غريزيًا ومن العامة من محافظة قاسية وغليظة هى أرغن **Aragon**، كان ابنًا لحرفيّين، وشكله كان يدل على ذلك؛ جاء من أعماق إسبانيا، من قرية "فويندى تودوس **Fuendetodos**"، وهى قرية يُقال عنها إنها "تثير الرعب". كان أهلها غلاظًا شدادًا، لكنهم أيضًا أقوياء الإرادة وأحيانًا ما يتسمون بالفظاظة، وهم أيضًا حالمون ولكن بمعزل عن الأبصار. إقليم أرغن هو أيضًا الوطن الصغير عند جويا المعاصر، الذى هو المخرج السينمائى لويس بونويل **Luis Bunel**.

كان جويا قوى البنية كث الشعر، عيناه حالمتان، لكن بهما وميض معدنى، كان أنفه أفطس، مرتفعًا؛ فمه غامض، حسّى، ناتئ كأنه كِلْية وسط وجهه العريض، قمصانه مفتوحة عند الرقبة تفصح عن صدر كث الشعر ذكورى، أما حذاؤه فهو ملطخ بالطين والرّوث. كان يحب الشعب وله روح متفتحة وعادةً ما كان ينخرط فى الاحتفالات الشعبية، وبالفعل فقدت إحدى أذنيه السمع بفعل مسابقة بين العربات فى أرغن، وكانت له قدرة رائعة على العمل.

عُيّن جويا رسّامًا بالبلاط عام ١٧٨٦م، ودخل إلى عالم الفساد والخداع خلال انحطاط أسرة البوربون الذى أعقب الملك كارلوس الثالث؛ فها هو عالم الدوقات الجميلات والفلاسفة اللامعين والأمراء البلهاء والملكات الخائنات رغم قبحهن، وهاهم ذوو الحظوة من الأقرباء، هناك أيضًا مصارعو الثيران والممثلات اللاتى ركبن سفن الغرور والأنانية، كل هؤلاء يحيطون به: الخداع والفساد، وأيضًا الوسامة والحسّية ورغبة عارمة فى الحياة، فقد كان عصر التنوير فى إسبانيا قرن أضواء المسرح وحلبات مصارعة الثيران ولهو الأرستقراطية؛ سوف يصبح جويا رسّام هذا العالم.

عندما طُلب منه أن يُدخل السعادة والنور، فعل هذا بألف طريقة، فها هى اللوحات الكبرى التى تسكن متحف البرادو بمدريد تصوّر لنا السموات الوضّاءة والظلال الحميمة لصيف مثير بمدينة مدريد، وتعكس هذه المجموعة الرائعة من المشاهد المرحة وغير المشمسة والمُداعِبَة والتى تسير أحيانًا على إيقاع ثربانتس فى تصوير الجو الشعبى، مُناخ مدريد خلال عصر أسرة البوربون وتزامن هذا مع نمو المدينة وزينتها فى عهد الحكومة التقدمية. هنا نجد أن مدريد شهدت فى عصر كارلوس الثالث بناء أجمل الآثار وتعبيد طرقها: متحف البرادو، ونوافير نبتونو، وثيبلس، وبوابة ألكالا. وهنا نجد أن خوبيانوس كان على حق عندما قال بأن تأسيس مدينتين جديدتين فى إسبانيا هو الأفضل والأقل تكلفة مقارنة بتكلفة غزو مدينة أجنبية.

لكن غاية جويا، حتى عندما كان يرسم مشاهد جميلة بالأسلوب السابق على الأسلوب الذى اتبعته المدرسة الانطباعية، وهى مشاهد الاحتفالات الشعبية، مثل الاحتفال بالقديس إيسيدور بمدريد، أو تلك اللوحة الرائعة التى تظهر فيها فتاة تحت شمسية بينما يغازلها عشيقها، نقول كانت غاية جويا من وراء هذا إدخال وليس التبيان، أى إنه أدخل الشعب فى عالم الأرستقراطية، فالمرأة ذات الحسب والنسب تمر بعربتها وتتبادل النظرات مع الباعة الجائلين، ونرى الأرستقراطيين وهم يتنزهون فى ملابس مصارعى الثيران، بينما الممثلات هُنَّ ملكات مدريد؛ ومن خلال هذه العناصر يفرض نفسه أسلوب التأنّق "الحليوة" الذكورى والأنثوى؛ أى انتصار الشكل على المضمون، وعبادة الجمال والشباب وتأصيل الوضعية فى الصورة والموقف والمسرحة: كل هذا كان يبحث عن مصدره من خلال الطاقة الشعبية؛ فها هى الطبقة العليا قد نزلت إلى الأحياء، وكان جويا هو الذى رسم أيقونة هذا العصر من خلال لوحتيه العظيمتين لدوقة ألبا **D. de Alba**.

نجد فى إحداهما "الحلْوة فى ثيابها" **la maja vestida** السيدة العظيمة وهى تتخفى فى رداء فتاة من عامة الشعب، أما اللوحة الثانية "الحلوة عريانة" نجد جويا ينزع عن الدوقة ملابسها وكشف لنا عن مفاتنها وعذوبة اللون الوردى لنهديها والإثارة الجنسية

الغامضة والنعومة الجسورة لإبطيها الحليقين؛ لم تكن "الحلوة" موديلاً كأنها إلهة أسطورية، فهذه المرأة لها لقب أرستقراطى وقناع شعبى، فهل كان كلاهما مجرد قناع فى نهاية المطاف؟ أليس الجسد قناعًا للروح والخيال ولمخاوفه وأشواقه؟

ها نحن نجد جويا الناقد وقد نقل من خلال النظرة المشهد الخاص بالنبلاء الذين ارتدوا قناع البروليتاريا، من خلال الظلال الحادة والضوء الأكثر رهافة؛ فلوحة "Los Caprichos النزوات" هى حولية ما بعدها حولية للجنون الإنسانى ونفاقه ونقاط ضعفه وفساده، ومكمن جمال التقنية التى استخدمها جويا وهى الحفر باستعمال الأحماض aguafuertes بألوانها البيضاء والسوداء والرمادية، هو عرض هذه المشاهد الخاصة بالانحطاط الأخلاقى، بمبعد عن أى هدف للوعظ والإرشاد، فاللوحات الخاصة "بالنزوات" قد أخذت تتجه فى نهاية المطاف إلى نقد العقل، ونقد التفاؤل اللانقدى، ونقد الإيمان بالتقدم بلا حدود.

يطيب لى مقارنة وقفة الكبرياء، شبه الجمهورية، التى عليها ميلتشور جاسبار دى خوبيانوس، التى رسمها له جويا، بأشهر لوحة ضمن مجموعة "النزوات" وهى "حلم العقل يثمر أشكالاً خرافية". إنها اللوحة الأساسية للرجل المفكر جالسًا أمام منضدة للعمل، يمسك ورقة فى يده بينما تستند رأسه على اليد الأخرى، وقد تحولت هذه اللوحة إلى نزوة العقل النائم، وكما خرجت من بين جوانحه الأشكال الخرافية سواء كانت من مكنون النفس أو من العالم؛ نجد أيضًا أن الإطار العام والمشهد هما نفس الشيء الذى نجده فى اللوحة، لكن فى هذه اللوحة المنقوشة والمحفورة نجد خوبيانوس، المربى، وقد واتاه النُعاس لمدة دقيقة بعد أن رسمه جويا فى حالته الاعتيادية العقلانية. وها نحن الآن، فى حلم العقل، نرى أجنحة الخفافيش الطائرة فوق رأس الفيلسوف، وها هى طُيور "السِنْف gargola وأم الصخر Lechuzas تنهب حلمه فى التقدم والتنوير، ويتحول العقل بشكل بشع إلى كائن تم امتصاص دمه. غير أنه إذا ما نسى العقل حدوده وتخلى عن نقد ذاته ونقد وليده وهو التقدم ربما استحق أن يعيش هذا الكابوس، وربما كانت الأحلام الخاصة بالأشياء المخيفة هى التى تتمخض عن العقل.

أشرت قبل ذلك إلى أن الموروث الرواقى لإسبانيا يتجسد بشكل درامى فى شخص خوبيانوس وأعماله، إنه زمن يشهد موروثًا إسبانيًا عظيمًا آخر، وهو الإيراسمية خلال عصر النهضة، وإنه، أى هذا الموروث، ليس بعيداً عن هذه الشخصية.

لكن، هل ينام خوبيانوس، بشكل أبدى، حلم الموت، أو إنه يغفو هنيهة، وهو فاقد الأمل، حلم العقل؟. "الثلاثاء يوم ٢٠ - هذا ما كتبه فى آخر صفحات يومياته.- حلم قصير، سحب . برد". وعندما نام خوبيانوس تحررت الأشكال المخيفة التى خرجت من لدن العقل. ومن خلال هذه المقارنة المثيرة والدرامية بين السُّهاد والحلم وبين واقع الإنسان المستيقظ وخيالات الإنسان النائم، نجد جويا يلقى بالكثير من الضياء على أعماله كاملة (ترافقها الكثير من الظلال. فالضياء والظلال نادراً ما تنفصل عن بعضها عند هذا الفنان)، وهو يوحد بهذه الطريقة بين الحرية غير المشمسة للوحات الأولى وبين أعماله الأخيرة، أى تلك "المرحلة السوداء" الشديدة الحرارة التى عاشها عجوز أصم، يصر وهو فى السبعين من عمره على الرسم فى الوقت الذى انتهت فيه الحفلة، أى عندما قرر بلاط كارلوس الرابع خيانة معنى التنوير وعندما غزت جيوش نابليون إسبانيا.

فى هذا الإطار نجد هذا التصميم الرائع الذى خرج من يدى جويا يظهر رويداً رويداً، على قطعة قماش تتبدى كأنها شريط سينمائى على أرض إسبانية وكونية فى آن، فى زمن، قديم ومعاصر، منير مثل سموات فصل الصيف فى إقليم قشتالة بإسبانيا، ورهيب كأنه الصقيع خلال فصل الشتاء. فوق هذه المساحة وفى ذلك الزمن الذى يقوم فيه التاريخ باستعراض شياطينه - السلطة والخيلاء والفخار والجرأة والمذابح - ويؤذى الطبيعة بالدم والموت فإننا نجد أن شخصية جويا تظهر فى نهاية المطاف وكأنها الرّب المُفْنى والمجنون ساتورنو. وبين شياطين التاريخ وأملاك الطبيعة نجد أن جويا قادر على أن يستلهم رد فعل الفن ولو كان ذلك بشكل مؤلم وعبقرى.

مات فرانثيسكو جويا إى لوثينتس فى بورديوس عام ١٨٢٨م وهو فى الثانية والثمانين من عمره، بعيداً عن الأرض التى ولد فيها. وبعد أن ترك نابليون إسبانيا وأخذ يدخل فى السنوات الأخيرة التى شهدت هزائمه ونفيه، نجد فرناندو السابع، الشديد الرجعية، يعود إلى عرش إسبانيا ويتصرف كأن شيئًا لم يكن (فأسرة البوربون - طبقًا للمقولة الشهيرة لتلراند Talleyrand - لا ينسون أبداً لكنهم لا يتعلمون شيئًا)، ودهس الدستور الليبرالى الذى صدر عام ١٨١٢م وموروث خوبيانوس. ولم يكن أمام جويا إلا المنفى، وعندما مات دفن فى فرنسا.

وبعد ذلك بسنوات عديدة - ١٨٩٩م - طلبت الحكومة الإسبانية نقل رفات هذا الفنان العظيم إلى مدريد؛ وعندما أمر القنصل العام لإسبانيا فى بورديوس باستخراج رفات جويا اكتشف أن هذا الرفات بلا رأس؛ وعلى الفور، أرسل تلغرافًا للوزارة فى مدريد يقول: "الهيكل العظمى لجويا بدون رأس. فى انتظار تعليماتكم".

فأرسلت الحكومة الردّ التلغرافى التالى: "أرسل جويا سواء كان برأس أو بدون رأس".

تحيا السلاسل!

جويا سفّاح؛ وهذا من منظور التخيل، إذ نجد ذلك عندما رسم بلاط كارلوس الرابع وأسرته دون أية مواربة لهالة البلاهة التى تحيط به أو الواقعية الشديدة التى تتجاوز مجرد التصوير الفوتوغرافى لشخصياته. كما نجد ذلك فى لوحته التى رسمها لرئيس الوزراء جودوى وهو منحن فى كرسىّ الميدان العاجى محاط بعناصر النشاط الحربى، وما يبرزه الرسام هو الكسل الفظ الذى عليه هذه الشخصية وما بها من انتفاخات وإهمال، وهنا نجد أننا نكاد نشم رائحة الثوم تفوح منها.

من المنظور الحرفى أيضًا نجد أن جويا قدّم حياة الأبدية للجريمة، بأن رسم رجال المقاومة فى مدريد وهم يُعدَمون رمياً بالرصاص على يد القوات الفرنسية، إنها عملية اغتيال فيها تناقض، فهؤلاء الثوريون الفرنسيون قد جاؤوا لتحرير الشعب الإسبانى من أُناس مثل كارلوس الرابع وجودوى، إلا أن الكبرياء الوطنى الكبير للإسبان لم يكن أمامه إلا هذه الإجابة على الفرنسيين، فلو كان الأمر على هذا النحو "لتحيا السلاسل!". ولا شك أن الإسبان لم يكونوا يتوقعون أن هذه الروح الوطنية وهذه التكتيكات التى أتت بها المقاومة، وصيحة الاستقلال نفسها، سرعان ما انتزعها المتمردون فى أمريكا الإسبانية فى كفاحهم ضد ملك إسبانيا.

اللوحة الأولى: رسوم حائطية فى كهف ألتاميرا: الصورة العلوية - بموافقة كريمة من المتحف الوطنى للآثار بمدريد، الصورة السفلية - أرشيوماس

اللوحة الثانية: لوحة الجيرنيكا لبابلوبيكاسو - بموافقة من "آرت ريرش N y"
حق الملكية الفكرية - المتحف الوطنى: مركز الفنون - الملكة صوفيا - مدريد إسبانيا

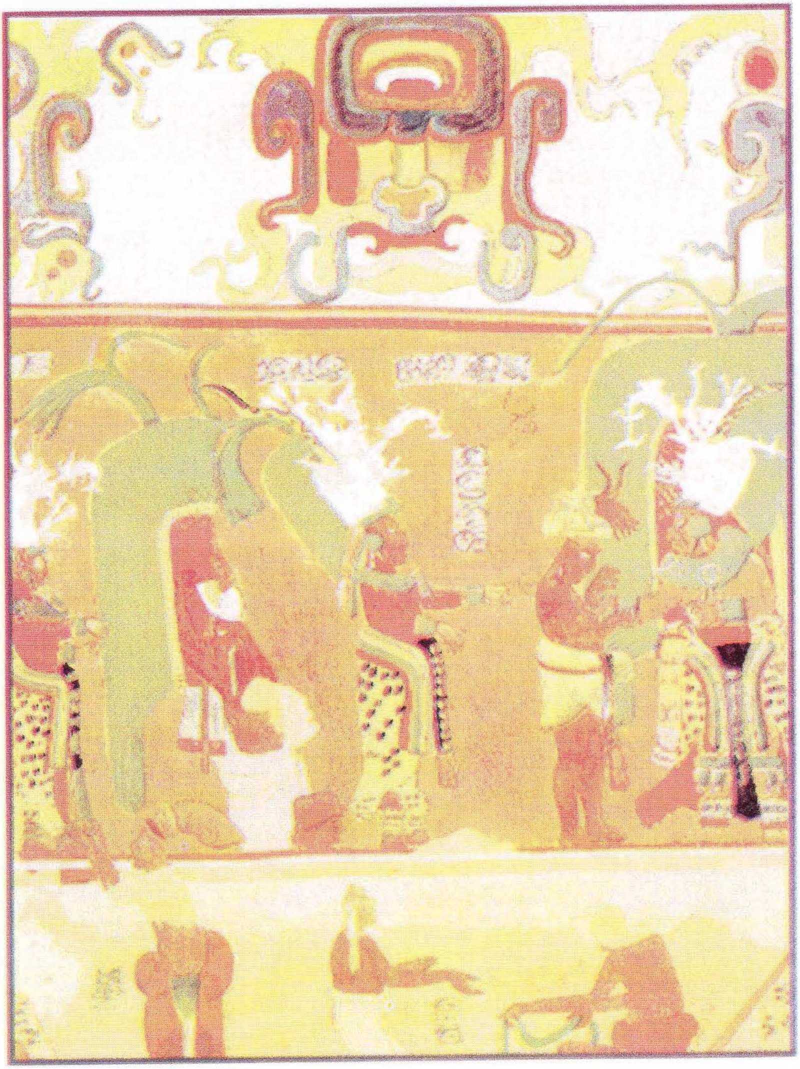

اللوحة الثالثة: رسوم حائطية ليوناماياك - المكسيك.

صورة بموافقة المعهد الوطنى للأنثربولوجيا والتاريخ - المكسيك

اللوحة الرابعة: قطعة نحتية لكواتليك (المكسيك)

صورة بموافقة المعهد الوطني للأنثربولوجيا والتاريخ - المكسيك

اللوحة الخامسة: تونانزيتيلا - بويبلا - المكسيك

صورة بموافقة المعهد الوطنى للأنثربولوجيا والتاريخ - المكسيك

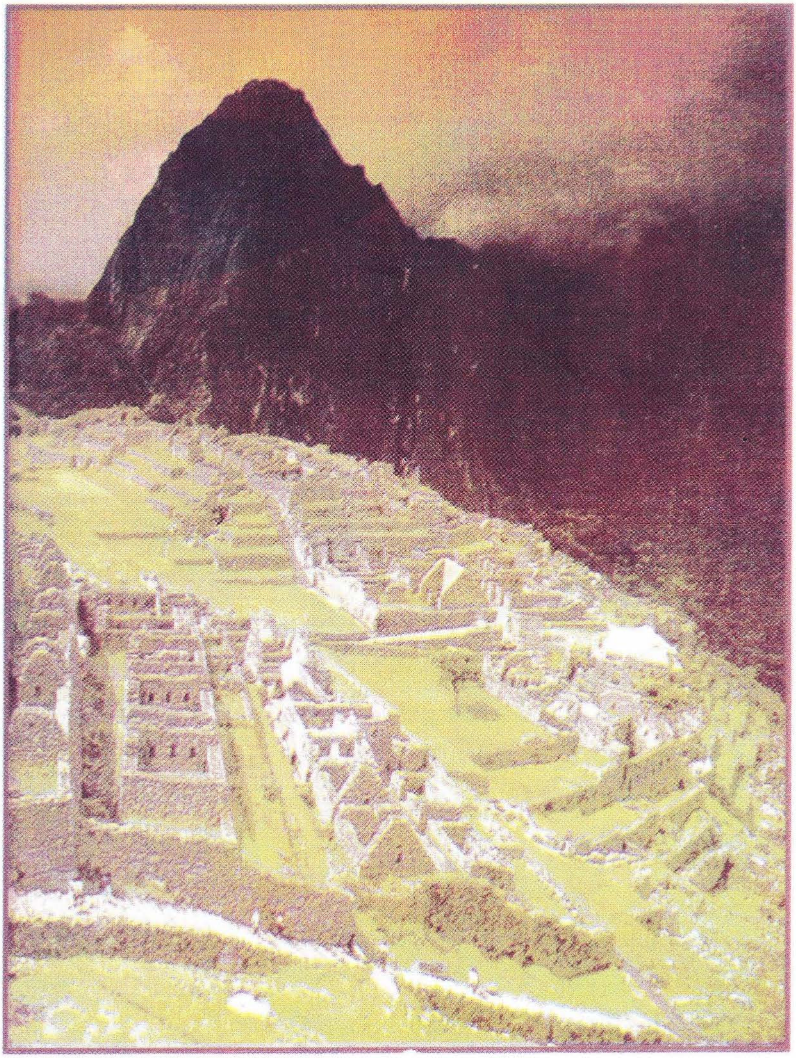

اللوحتان السادسة والسابعة: ماتشوبينشو - وكالة أوفرسايز

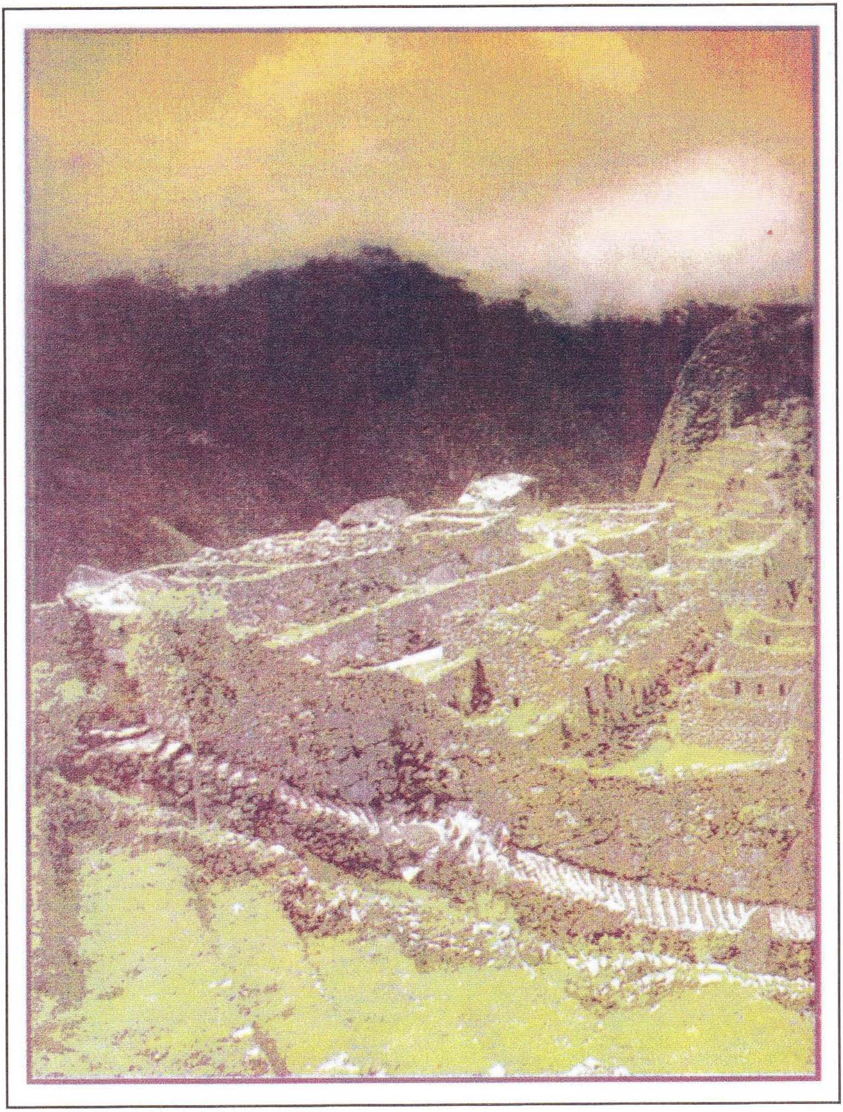

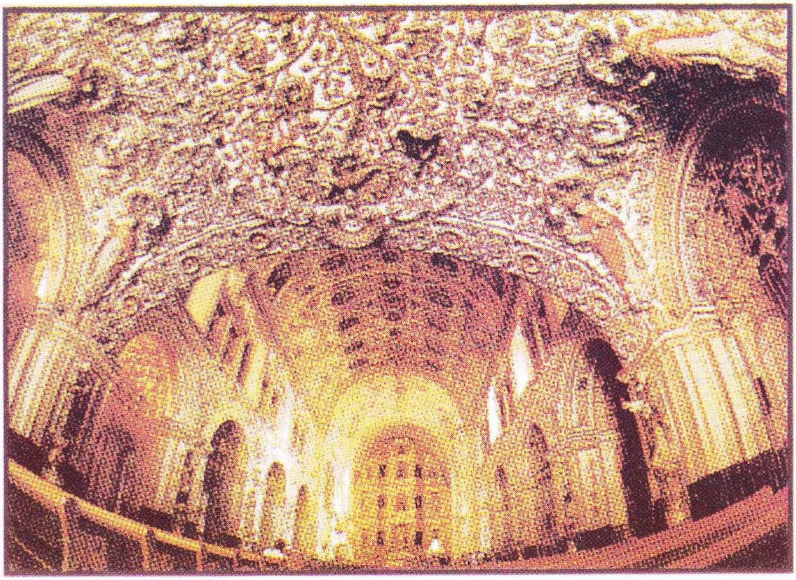

اللوحة الثامنة: ديرسانتو دومنجو أواكساكا - المكسيك
المعهد الوطنى للأنثروبولوجيا والتاريخ - المكسيك

اللوحة التاسعة: الجريكو "جنازة الكونت أوجاث" خيراو دون/ أرت ريسورش

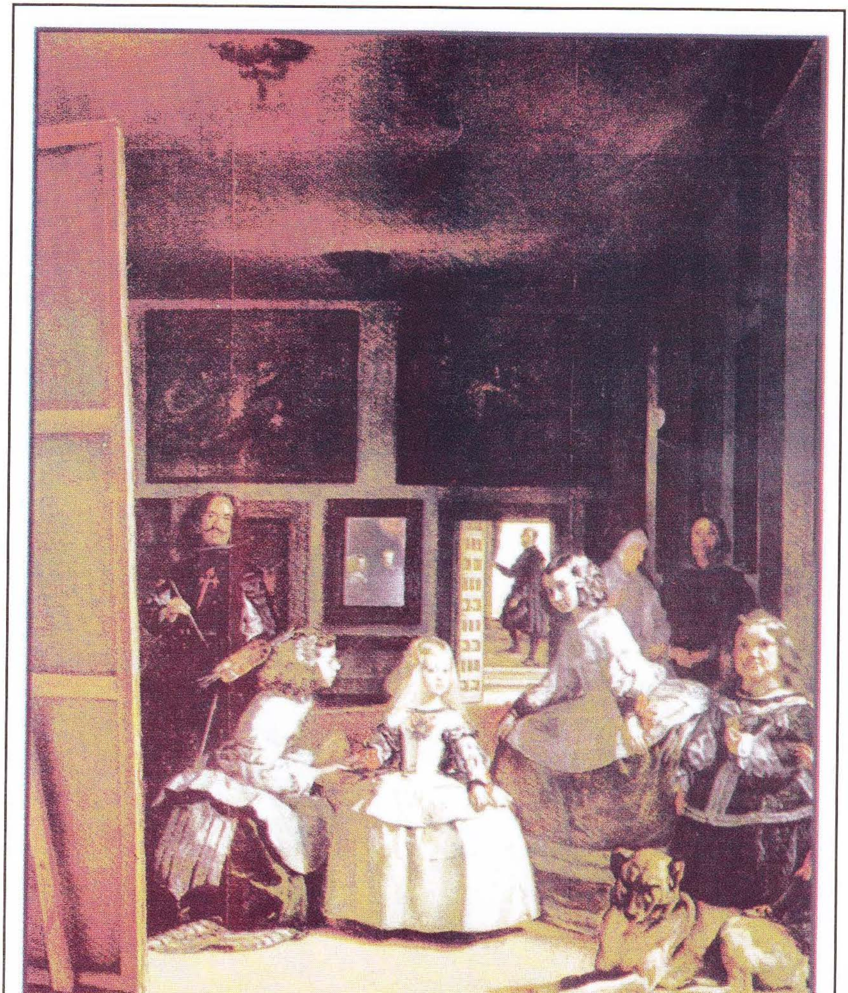

اللوحة العاشرة: بيلاثكيث "الوصيفات" - متحف البرادو - الحقوق محفوظة -
يمنع منعًا باتًا إعادة إنتاج الصورة كليًا أو جزئيًا

اللوحة الحادية عشرة: أعمال نحتية لـ"ألخياندنيو" – جنوب أمريكا – بتكتورى إنجلترا

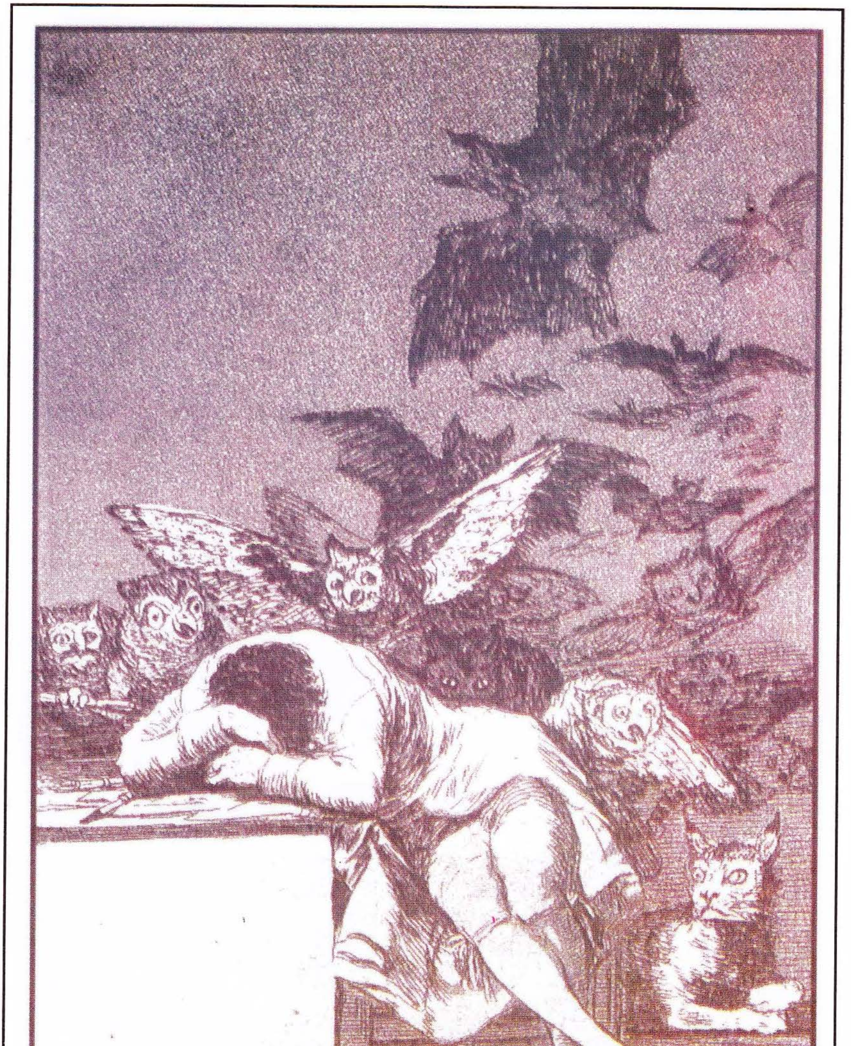

اللوحة الثانية عشرة: جويا "حلم العقل يسفر عن وحوش" (أمور تعن للمرء)
موروث ويليام ب. بابكوك - موافقة كريمة من متحف الفنون الجميلة/ بوسطون

اللوحة الثالثة عشرة: أورونكو، بروموتيو (رسم حائطى) كوليج بومونا

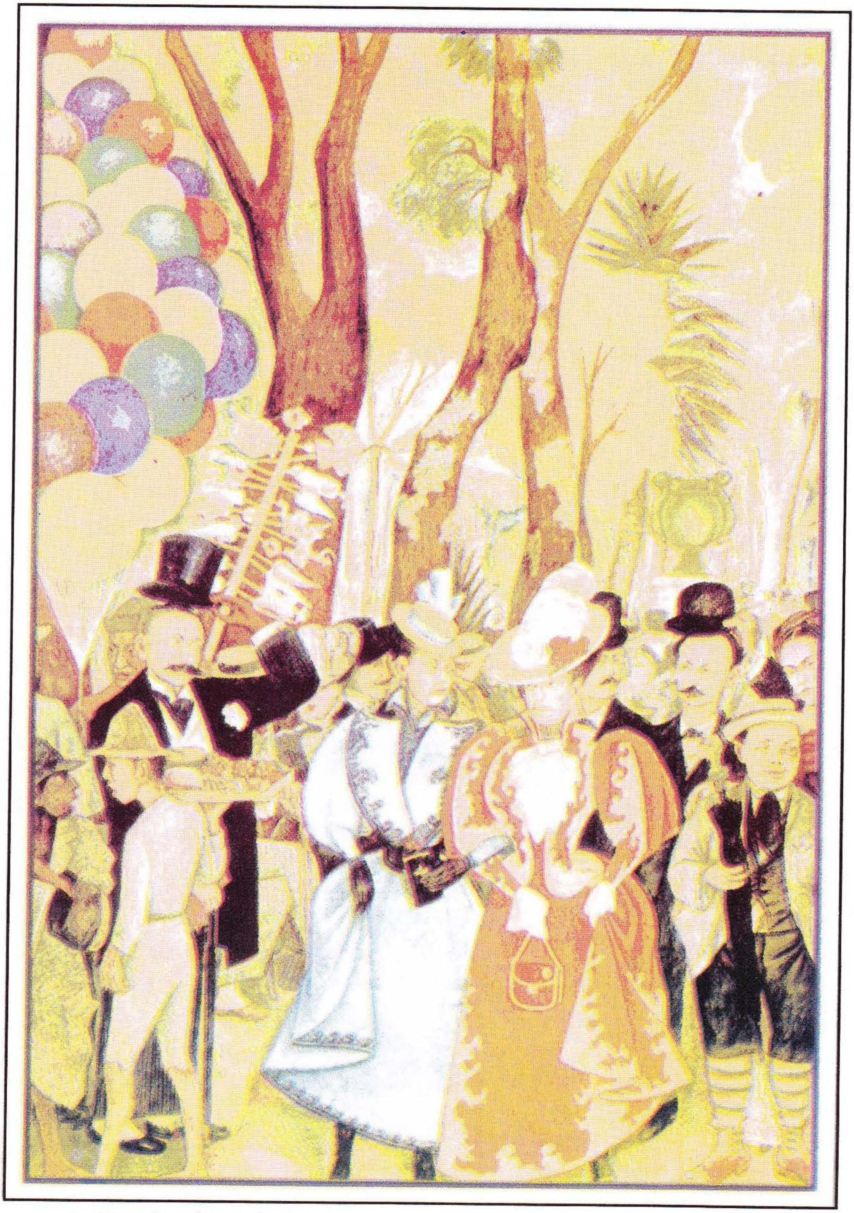

اللوحة الرابعة عشرة والخامسة عشر: دييجو ريبيرا "حلم أمسية أحد أيام الآحاد
فى ألاميدا سنترال" (رسم حائطى) المعهد الوطنى للفنون الجميلة بالمكسيك

الفصل الحادى عشر

نحو الاستقلال: الكثير من الأقنعة والمياه العكرة

اتسمت المسافات الفاصلة بين أجزاء القارة الأمريكية بالضخامة، ولم يقتصر الأمر على المعنى المُحَسّ لهذه الكلمة، فحتى اليوم ونحن فى عصر السرعة نجد أن السفر من مدينة بوينوس أيرس حتى مدينة المكسيك يستغرق ست عشرة ساعة طيران، وكانت المسافة تستغرق عدة شهور فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٠م)، ومن هنا نشعر بمفاجأة كبيرة عندما نرى أنه فى غضون عام واحد، ١٨١٠م، ظهرت عدة حركات استقلال بسرعة عجيبة وتزامن مثير، ابتداء من المكسيك، أى مقر نائب الملك فى "إسبانيا الجديدة"، حتى بوينوس أيرس، مقر نيابة الملك فى "ريو دى لابلاتا". وفى شهر أبريل تمكنت مدينة كاراكاس من إقصاء القائد العام الإسبانى، وفى مايو طردت بوينوس أيرس نائب الملك، أما فى الخامس عشر من سبتمبر ثار الأب إيدالجو، على النظام الإسبانى فى المكسيك، وفى اليوم الثامن عشر من الشهر نفسه والعام نفسه بدأت أنشطة حركة الاستقلال فى سانتياجو دى شيلى.

إنه تزامن مثير وليس ذلك لعدم وجود اتصالات أو للبَوْن الشاسع فى المسافات التى كانت تعتبر العنصر السلبى فى المعادلة. أما العنصر الإيجابى فهو القاسم المشترك من حيث اللغة والأهداف التى وحدت الحركات الوطنية، من المكسيك حتى الأرجنتين، الأمر الذى يعكس وجود روابط روحية وثقافية عظيمة بين مستعمرات

إسبانيا فى أمريكا. أما بالنسبة لفقدان هذا الإحساس بالمصير المشترك بعد الاستقلال، نظراً لسياسات محلية وتوترات إقليمية فهذا أمر آخر، إلا أنه فى عام ١٨١٠م كانت حركات الاستقلال فى إسبانوأمريكا تعيش فى حميمية مع نفسها.

غير أن الأمر الأكثر إثارة للاستغراب هو أن الاستقلال قد تم بفضل ترامى أطراف الإمبراطورية الإسبانية فى أمريكا وبفضل العادات والولاءات وكذا الخلافات القائمة بين شبه الجزيرة الأيبيرية والعالم الجديد ابتداء من عام ١٤٩٢م؛ ومع فجر القرن التاسع عشر لم تكن حركات الاستقلال هذه أمراً بدهياً، فلو كان هناك من أحد أبناء ثقافة "الكريّو" **Criollo** "المولدين" فى إسبانوأمريكا من أطل من شرفته فى المكسيك أو كاراكاس أو بوينوس أيرس فى أول يوم من عام ١٩٠١م وراهن على أن إسبانيا سوف تفقد كل أملاكها فى العالم الجديد عام ١٨٢١م باستثناء كوبا وبويرتو ريكو، لكان ذلك مخاطرة غير محسوبة منه.

ورغم صلابة هذه العلاقات الروحية ورباط الدم، فإنها كانت واهية وأضعف من الوعى بالذات والإرادة الوطنية واختلاف المصالح بين إسبانيا ومستعمراتها التى فضلت السير فى التيار الكبير للاستقلال: أى إننا نشهد ميلاد الأمم الإسبانوأمريكية. لكن من أين أتى هذا الوعى الجديد؟ وكيف تطوّر؟ ومن كانوا هم الممثلين؟ ثم يعقب هذه التساؤلات التساؤل الضمنى: من هم هؤلاء الإسبانوأمريكيون؟ فى عام ١٨١٠م، أى عام البداية الثورية، نجد أن هناك ثمانية عشر مليوناً كانوا يعيشون تحت الحكم الإسبانى فى المنطقة الواقعة بين كاليفورنيا ورأس "أورنوس" **Hornos**؛ منهم كان هناك ثمانية ملايين من أبناء السكان الأصليين من أبناء العالم الجديد، ولم يكن هناك إلا مليون أسود من الخُلّص الذين جيء بهم من إفريقيا وكان وجودهم ثمرة تجارة العبيد، كما نجد أربعة ملايين من سلالة القوقاز سواء كان من الإسبان من أبناء شبه جزيرة أيبيريا أم من سلالة الكريو **Criollo**، أى أنهم من سلالة الأوربيين الذين ولدوا فى العالم الجديد؛ نعرف أن "الكريّو" **Criollo** هم فى أغلبهم من أصول إسبانية لكن قد اختلطت بهم بعض الأسماء الفرنسية أو الألمانية أو الأيرلندية – مثل **O'Higgnis**

أو O'Reilly – وكان عددهم يتجاوز تعداد الإسبان من أبناء شبه جزيرة أيبيريا بنسبة ٩: ١، وفى الوقت ذاته نجد أن الإسبانوأمريكيين من السلالة البيضاء يشكلون المجموعة الأكثر دينامية وأصالة من بين المجموعات العرقية، يبلغ خمسة ملايين نسمة عام ١٨١٠م. كانوا خليطًا من باقى المجموعات العرقية ويصنفون طبقًا لأسماء بيزنطية مستهجنة: كان المولد ابنًا لرجل أبيض وامرأة هندية، أما الخليط Mulato (هو اسم مستهجن لأن اللفظة مشتقة من لفظة mula: بغلة) من أبيض وأسود. هناك صنف آخر يسمى Zambo وهو ابن الهندى والزنجى، أما المسمى Terceron فهو من المولد والأبيض، أما الرابع Cuarteron فهو المولد من الثالث Terceron والأبيض، بينما نجد أن اجتماع كل من الـ terceron والمولد mulato يسفر عنه ما يسمى Tentenelaire، أما الرابع Cuarteron والأسود فيتولد عنهما Saltapartras.

هناك أمران نذكرهما جيدًا مع كل هذا وهما أن "الكريّو" Criollo كانوا أغلبية بالمقارنة بالإسبان، لكن الكريّو Criollo أنفسهم يصبحون أقلية مقارنة بالأغلبية الملونة؛ وهذان الأمران هما اللذان حدّدا طبيعة "الاستقلال الإسبانوأمريكى"، إذ كان الكريّو Criollo يتمتعون بوعى حاد بأنهم فى أعلى نقطة فى الهرم الخاص بالمجتمع المحلى، ومع هذا قاموا بدور ثانوى أمام الإسبان من أبناء شبه الجزيرة الأيبيرية فى حقول مهمة والمزايا والوصول إلى الثروة وتولى المناصب العامة واتخاذ القرارات السياسية؛ رغم هذا فإن الإنهاك الذى كانت عليه إدارة أسرة هابسبورج فى إسبانيا (إضافةً إلى المسافات الضخمة الفاصلة) أسهم فى نمو شعور بالاستقلال الذاتى والقدرة على أن يتولى الكريّو Criollos شئونهم بأنفسهم. هذا التساهل الذى عليه الإدارة الاستعمارية قد اتضحت معالمه وأصبحت أبدية من خلال هذه العبارة "يتم الانصْياع للقانون لكن لا ينفذ".

هذا الأمر بالتحديد هو ما تغير فى ظل النظام الإصلاحى المتشدد الذى عليه الملك كارلوس الثالث سليل أسرة البوربون، فبعد أن قامت هذه الأسرة بتقييم الأداء الذى قامت به الأسرة النمساوية التى حكمت إسبانيا قبلها خلال السنوات الأخيرة

أدركت أن هذه المستعمرات كانت تقوم بتمويل العاصمة الإسبانية بمبالغ أقل بكثير مما تقوم به المستعمرات البريطانية والفرنسية فى العالم الجديد، كما أن أمريكا الإسبانية، فى الوقت نفسه، كان إنتاجها من المعادن والزراعة والمواشى أكثر بكثير، ويزداد تعداد سكانها وتتسع مدنها؛ فلماذا لا تتلقى العاصمة المزيد من الأموال؟ أو بمقولة أخرى: لماذا حجزت المستعمرات المزيد من الأموال ولا ترسل إلا القليل؟

رغم أن التاج الإسبانى كانت تحدوه الرغبة فى ازدياد الازدهار سواء بالنسبة له أو بالنسبة للرعيّة من الأمريكيين، فإنه كان يريد تطوير مجتمع من المصالح الاقتصادية، إلا أن هذه الأخيرة ظهرت مغلّفة بفلسفة سياسية جديدة كانت ترفض التجربة والخبرات المتراكمة على مدى القرون الثلاثة السابقة؛ نجد إذن أن الأمر ما هو إلا ثورة تأتى من أعلى، مفروضة من داخل الحكومة، وليست نابعة من لدن إرادة المحكومين والنقاش الدائر بينهم، وهذا ليس أول مرة ولا آخر مرة يحدث بهذا الشكل، وبالتالى فقد كانت ثورة غير قادرة على فهم الأسباب التى أثارت حفيظة الصفوة الاستعمارية، ذلك أنه عند الضغط على العالم الإسبانوأمريكى فى القالب الخاص بالوحدة العضوية مع إسبانيا، فإن إسبانيا، بذلك، كانت تهدد العديد من المصالح المحلية التى نمت وتطورت خلال القرون الثلاثة التى هى عمر الاستعمار آنذاك، ومنها الشعور بالاستقلال الذاتى، والشعوب بالذات. من جانب آخر نجد أن هذه السلطات أو القوى المحلية كانت وصلت إلى درجة عالية من الحصانة، بالإفادة من طول المسافات الفاصلة بين إسبانيا و"مملكتها الهندية" المجردة، وبين الأهداف الواضحة والمحددة للسكان الأصليين الكريّو Criollo.

فى عام ١٨٠١م، نجد أن الإنسان ابن تلك الثقافة Criollo، وابن بوينوس أيرس أو كاراكاس أو المكسيك، يتساءل فيما إذا كان هو أو أبناؤه سوف يظلون على الوضعية التى هم عليها كطبقة اجتماعية. ألم يكونوا قد أخذوا فى التحول إلى أمة، وبالتحديد أمة من سلالة Criollo؟ لقد شعروا، على أية حال، بالسخط بطريقة عنيفة ومتباعدة، وتلجأ إلى التدخل الغيور والحاد، والحيرة والحنق وهم ينظرون إلى الطريقة التى تنفصل بها الملكية الإسبانية عن أبوّتها التقليدية الإنسانية.

طرد اليسوعيين:

هناك بُعد ظاهرى ومثير، زاد من تسارع الشعور بالذات فى كافة أنحاء أمريكا الإسبانية ألا وهو القرار المهيب الذى صدر عن العرش بطرد جماعة اليسوعيين من إسبانيا ومستعمراتها.

رأت الأمة والدولة البوربونية، أن سلطاتها لا تنافسها سلطات أخرى تزيد عن الحد تمارسها هيئات أخرى، بما ذلك الكنيسة وكذلك الفئات ذوات المزايا مثل الأرستقراطيات القديمة من الإقطاعيين فى كل من قشتالة وإقليم الأندلس؛ غير أنه بدلاً من الهجوم المباشر فضل التاج الإسبانى أن يعبر عن رغبته فى التحديث بالإشارة بإصبعه إلى هيئة قوية، لكنها لا تبلغ قوة زائدة، ومهيمنة، لكن ليس على كل شىء، وترتبط بالكنيسة وبالأرستقراطية. وبمقولة أخرى: لقد تم اختيار جماعة اليسوعيين لتكون بمثابة رسالة موجهة إلى حُمَاتهم الأقوياء. لقد قرر كارلوس الثالث ومعه وزراؤه اتهام "جماعة يسوع" بأنها كانت وراء التمرد على الوزير إسكيلاتشى يوم أحد السعف عام ١٧٦٧م؛ فقد بث بين المتمردين السعى من أجل الحصول على مزيد من الاستقلال عن البابا، وعلى أساس أن هذه الجماعة قريبة وحليفة لروما؛ لكن الملكية كانت تنوى اختراق الأرستقراطية الإسبانية القديمة والمحافظة، التى كانت تعارض الإصلاحات البوربونية، كما أنها شديدة القرب من اليسوعيين؛ وهنا نجد أن حالة شبه الاحتكار التى كانت لليسوعيين على التعليم قد جرى تدميرها بغية الدخول فى نظام تعليمى أكثر ليبرالية.

وأيًا كانت الأسباب الكامنة وراء طرد اليسوعيين فإن هذه الأسباب كانت غير حكيمة على الإطلاق بالنسبة للعالم الجديد، وها نحن نرى تناقضًا آخر وهو أن الإصلاحات البوربونية دفعت إلى المزيد من دراسة العلوم فى إسبانيا، لكن فى العالم الجديد نجد اليسوعيين هم الذين شجعوا مثل هذه الدراسات الحديثة، فبدلاً من التمترس وراء علوم اللاهوت انتزع اليسوعيون السلطان من جماعة "التوميين" **Tomistos** الذين كانوا قد سيطروا على الفكر السياسى من خلال دروس القديس توماس دى أكينو،

وفى الوقت ذاته حاولوا تحديد التوجهات "التومية" من الداخل وقدم اليسوعيون للصفوة فى إسبانوأمريكا أطباقًا شهية لفلسفة ديكارت وليبنتز **Leibniz**، وكانوا هم الذين قد أتوا إلى أمريكا الإسبانية بروح الإصلاح التى تبنتها أسرة البوربون. فشلت سياسة التاج، لكنها لم تدرك أن جهودها فى مجال تحديث التربية قد سبقتها إليه جماعة يسوع وأن التحديث فى أمريكا الإسبانية – وهذا هو الأهم – أصبح يعنى تحديد الملامح الذاتية لأمريكا الإسبانية، وهذا هو ما أدركته جماعة يسوع ولم يدركه التاج.

خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر كانت أمريكا الإسبانية قد أخذت تعيش مغامرة اكتشاف ذاتها الحديثة، وسرعان ما تجاوزت التحديثات التى طرحتها مدريد، سواء من حيث الانتشار أو العمق، وأصبحت هناك وشيجة قوية بين اليسوعيين وهذا التجديد الخاص بالتعرف على الذات.

وهنا، لا نستغرب أن قرار الطرد الذى صدر عام ١٧٦٧م كانت له آثار عنيفة فى المستعمرات حيث كان الصدام بين هذه الجماعة والتاج عنيفًا، فقد هبت مجتمعات كاملة فى كافة أنحاء القارة ضد قرار طرد اليسوعيين، وهنا نجد أن نائب الملك – الماركيز دى كروا **Croix** – المُكلف بتنفيذ عملية طرد اليسوعيين، يعترف فى رسالة بعث بها إلى شقيقه يقول فيها: "لقد كانوا هم المُلاك الحقيقيين لشغاف القلوب وكانوا ضمير الناس فى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف". لكن كان يمكن للماركيز أن يقول ذلك فى رسالة أو جلسة خاصة، أما على الملأ فقد كشف عن الوجه الغليظ والمتسلط للملكية الإسبانية، وحكم بالموت على من يقاومون تنفيذ القرار وحذرهم بقوة بأن:

> "على الجميع أن يعرفوا، من الآن فلاحقًا أن رعية الملك العظيم الذى يجلس على عرش إسبانيا إنما ولدوا لكى يصمتوا ويطيعوا وليس للنقاش أو إبداء الرأى فى الأمور العليا التى تخص الدولة".

هذا الموقف الصارم للغاية لم يكن مجرد نزوة صدرت عن نائب غير رصين للملك، يفرض إرادته بيد من حديد على مستعمرة أمريكية بعيدة. فكلماته تؤكد البراجماتية الفعلية التى نجد من خلالها أن الملك كارلوس الثالث قائد التنوير يأمر محاكم التفتيش:

"ممنوع منعًا باتًا أن يقوم أى أحد بالكتابة أو الكلام أو المعارضة لهذه القرارات سواء كان ذلك بالسلب أو الإيجاب. وهنا أفرض الصمت فى هذه المادة على كافة الرعية ومن يخالف ذلك سوف يُعامل على أنه خائن لجلالة الملك".

عندما طُرد اليسوعيون من البرتغال وإسبانيا وأملاكها جاءوا بالطبع إلى أبواب روما، لكن البابا - الذى خشى من إغضاب الملكيات الأيبيرية - أغلق الباب فى وجه هؤلاء الإخوة الطيبين الذين انتظروا فى إحدى المرات لأسابيع طويلة وهم فى مراكبهم الراسية فى الميناء الرومانى "أوستيا" **Ostia**، وهم يعانون المرض والغثيان، آملين أن يُقْبَلوا، حتى ندم البابا على ما فعل. وإذا ما كانت إسبانيا والبرتغال قد حرّمتا على نفسيهما هذه العقليات من جماعة يسوع فلماذا لم يفد البابا منهم؟ لكن الجانب الذى أفاد من هذه العقليات أكثر من البابا، وانتصر لنفسه فى هذه الحادثة المضحكة المبكية، كان أمريكا الإسبانية، فمن ملجئهم فى روما فعل اليسوعيون الإسبانوأمريكيين الكثير ومن ذلك التآمر ضد ملك إسبانيا.

غير أن الأمر الأقوى من هذا هو أنهم تناغموا مع القضية الخاصة بالأمر كله؛ لقد انتقموا من التاج الإسبانى بأن كتبوا التاريخ الوطنى للمستعمرات. هنا نجد أن خوان إيجناثيو، اليسوعى الشيلى كتب (من روما وبالإيطالية) "التاريخ الوطنى والمدنى لشيلى"، بينما نجد اليسوعى المكسيكى فرانثيسكو خابيير كلابيخيرو يكتب أيضًا (من روما وبالإيطالية) "التاريخ القديم للمكسيك".

أدت هذه الكتب دورًا مهمًا فى الشعور بالذات عند الأمة الإسبانوأمريكية الصاعدة، وعند الصفوة من الكريو المولدين **Criollos**، من البيض وإسبانوأمريكا، وكذلك الحال بالنسبة للطبقات المختلطة التى دخلت فى حقول التعلّم وتنامى دورها وقدرتها على التوافق والتناغم مع أماكنها الأصلية؛ وقد حدث هذا التناغم من خلال الواقع الأمريكى من حيث إنه تاريخ أمريكى وجغرافيا أمريكية. هناك يسوعى آخر هو خوان بابلو دى بيسكاردو إى جوثمان، الذى ولد فى أريكيبا **Arequipa** كتب كلمات رائعة،

من منفاه فى لندن عندما احتفل العالم الجديد بالذكرى المئوية الثالثة لاكتشافه على يد كريستوفر كولومبوس.

"العالم الجديد هو وطننا، وتاريخه تاريخنا، وفيه يجب أن نتأمل وضعنا الحالى حتى نتخذ من أجله القرار المناسب للحفاظ على حقوقنا ... إنه تاريخنا على مدى ثلاثة قرون هنا .. وهذا يمكن اختصاره فى كلمات أربع: غير المرغوب فيه، والظلم، والخنوع وفقدان الأمل ...".

فى المكسيك نجد الناشر والعالم أنطونيو دى ألثاتى يبدأ نشر مجلة "الجازيت" Gaceta عام ١٧٨٨م، ووعد من خلال صفحاتها أنه سيكتب عن هؤلاء الرجال الذين نوّروا "أمتنا الأمريكية الإسبانية". وكتب قائلاً: "إن الأمة المكسيكية كانت تملك ناصية ثقافاتها وتاريخا وتراثها، وكان هذا الموروث التراثى هنديًا وأوربيًا".

تلقى ذلك الوعى بالمكان والزمان فى هذه القارة دفعة قوية بفضل وجود العالم الألمانى البارون ألكسندر فون هومولت، الذى قام بجولة فى إسبانوأمريكا بدأت عام ١٧٩٩م أدرك فيها هذه الثروات المتنامية فى المستعمرات، كما أسف لأن هذه الثروات تفيد إسبانيا أكثر من إفادتها المصالح المحلية؛ وقال العالم الألمانى أيضًا بأن أمريكا الإسبانية فى حاجة إلى أن تُخفّض عنها الضرائب، وفى حاجة إلى المزيد من العمليات التجارية وإلى طبقة متوسطة وإلى حكومة أفضل. لكن لم يكن من الممكن التوصل إلى شىء من هذا دون أن تزداد مساحة الحرية المتاحة.

واجهت طبقة الكريّو (المولّدين) Criollo، فى أمريكا الإسبانية، معضلة ليست شديدة الاختلاف عن تلك التى واجهتها العاصمة الإسبانية؛ فإلى جانب نمو الثروة الاقتصادية وتنوع الأعمال، زادت الانقسامات الاجتماعية والتناحر الطبقى، وهذا ما أبرزه الاقتصادى الأمريكى مانكور أولسون، حيث يشير إلى أن النمو الاقتصادى المتسارع يمكن أن يعقبه عدم رضا سياسى خاصةً عندما تكون "التورتة" كبيرة لكن توزيعها ليس على الإيقاع نفسه.

ألوسون، هو اقتصادى محافظ، ومع هذا يعطى الحق لماركس متفهمًا بأن تطور نظام بعينه يمكن أن يقود إلى أزمة، وأن التقدم الذى يطرأ على الأنظمة الاجتماعية، وكذلك جوانب الفشل الناجمة، يمكن أن يقود إلى زوال هذه الأنظمة. إنها كلمات تتوافق تمامًا مع مصير إسبانيا ومستعمراتها الأمريكية.

الأمة الكريّو Criollo :

خلال بداية القرن التاسع عشر وجدت إسبانيا - الوطن الأم - نفسها تعيش موقفًا من مواقف الفساد المتزايد فى الجهات العليا للدولة وتشارك بشكل دائم فى حروب فى القارة وبين القارات، وكان كل هذا يستنفد مواردها المدنية ويجبرها على أن تعود ببصرها المرة تلو الأخرى إلى المستعمرات بحثًا عن تمويل النفقات من خلال فرض المزيد من الضرائب؛ وفى المقابل نجد أن المزايا الممنوحة للمستعمرات كبديل لما تقدمه لم تأت إلا متأخرة وقطـرة قطـرة، ودائمًا ما كانت ترتبط بمصالح العاصمة وما يعود عليها من فائدة من كل هذا، وكان على التنمية الإسبانوأمريكية أن تكون خاضعة لاحتياجات إسبانيا التى تحدث نفسها وتتحرر فى الإطار الذى تسمح فيه لمستعمراتها تمويل التزاماتها الدولية بشكل أفضل من النظام المختل الذى كانت عليه الأسرة النمساوية.

بين الحين والآخر تطلع علينا الأسرة المالكة بخطابٍ قاس ومستبد وغير ضرورى، ويمكننا أن نقرأ مختصرًا له فى كلمات نائب الملك ربيّاخيخيدو **Revillagigedo** عندما نصح من خَلفَه فى المكسيك:

> "يجب ألا يغيب عن ذهنك أن هذه المستعمرة يجب أن تكون تابعة للأصل وهو إسبانيا، ويجب أن تفى عهدها معها ببعض الفوائد مقابل حمايتها، ومن هنا فإن هناك حاجة كبرى إلى مواءمة هذه التبعية وأن تكون الفائدة متبادلة".

كان يمكن لهذا المواطن الكريو (المولّد) Criollo المقيم في مدينة المكسيك، أو كاراكاس أو بوينوس أيرس أن يخرج إلى شرفة منزله ويشكو من أنه يدفع الضرائب ولا يجد مقابلاً لذلك يتمثل في الوضعية السياسية له أو التحاقه بالوظائف العامة، ورغم أن الإجراءات الخاصة بتحرير التجارة قد تحسنت على يد الملكية البوربونية فإن شهية الكريو المفتوحة للاتجار أكثر، وبشكل مباشر مع أطراف أخرى على المستوى الدولي، كما أن اقتصاديات إسبانوأمريكا قد انفتحت على المنافسة التجارية الدولية؛ فمن كان يُقبل على شراء المعاطف Poncho أو المهاميز المصنوعة في الأرجنتين بينما يمكنه الحصول عليها بسعر أرخص وبجودة أعلى وبسرعة باستيرادها من إنجلترا؟ أدى هذا الموقف إلى ظهور مشكلة جديدة وهي ما إذا كانت المصالح التجارية في أمريكا الإسبانية سوف تضحي بإنتاجها المحلي في ميدان المنافسة الدولية، أو أن الإنتاج الإقليمي يجب أن يحظى بالحماية من هذه المنافسة. وبغض النظر عن قرارات مثل هذه فإن الكريّو قد وعوا بأن وحدتهم وبقاءهم مهدّدان، ويأتي التهديد من جانب الأغلبية التي ليست من جلدتهم وهم الهنود والسود والمختلطون - أي تلك Pardocracia كما أطلق عليها في فنزويلا -.

كان القرن الثامن عشر شاهداً على عدة احتجاجات شعبية، تزعم أحدها السود، بينما الهنود أخرى، لكنها جميعًا كانت قصيرة العمر، وظل الأمر كذلك حتى عام ١٧٨٠م حيث نشهد الثورة الهندية بقيادة أمارو حيث وصلت إلى عمق أعماق الجماهير من الكريّو Criollo. غير أن التمرد الأسود والمولد، الذي قام به هؤلاء في كورو Coro، في فنزويلا، هو الذي أدى إلى تجميد هذا التأثير؛ ففي عام ١٧٩٥م حمل الآلاف من السود والمولدين السلاح وقتلوا الإقطاعيين وهم في أماكن عملهم وأعلنوا "الجمهورية وعتق العبيد" واعتمد على "قانون الفرنسيين" أي النموذج المثالي للثورة الفرنسية. جرى قمع السود بقسوة، بينما تحول البعض منهم إلى مجموعة من الهاربين وأسسوا جماعات مستقلة في أعماق الغابات والسهول أي في المناطق التي لا تصل إليهم فيها يد الكريو أو نيابة الملك.

أخذ الكريو الإسبانوأمريكي يتباعد رويداً رويداً عن العاصمة الإسبانية ويتباعد عن الأغلبية الوطنية الخاصة به، ووجد نفسه مضطراً للمبادرة في اتخاذ القرار قبل أن

ينتزعها منه الشعب أو الملكية، وجد نفسه مضطراً ليترأس ثورته، وعليه أن يقودها لمصلحته ولا يشرك فيها إسبانيا، وكان عليه أيضاً أن يطرد عن نفسه خطر إمكانية أن يشاركه فيها السلالات الأخرى المهجنة أو السود أو الهنود؛ هذه الحسابات التى تتسم بالبرود والبعد عن أى مواربة سوف تجد لها غطاء أو عباءة دافئة أو فاترة هى الوعى القومى الوليد، والشعور بالوحدة من المنظور التاريخى والجغرافى، وبالتالى فهى تستبعد الإمبريالية الإسبانية وتتعامل معها بندية.

وهذا هو ما وضعته أمة الكريو نصب أعينها على أمل أن يتسع أفق دوافعها الأخلاقية والسياسية والقانونية والوطنية والعاطفية للجمع بين الحاجة المستمرة للملكية الإسبانية وعلاقاتها بمستعمراتها وكذلك النداءات المتزايدة التى عليها الأغلبية الملونة لتتمتع بقدر مساوٍ من الحرية.

أخبار العالم:

نجد أن الغاية من التحصينات فى سان خوان فى بويرتوريكو، وفى هافانا، وكذا تلك الأخرى فى قرطاجنة الهند، والأسوار فى سان خوان دى أيوا فى بيراكروث هى حماية المستعمرات من الهجمات المعادية وكذا من التأثيرات الأجنبية.

وها هى الأسوار والتحصينات تتصدع بشكل واضح للعيان، فقد بدأت أخبار العالم تنفذ من خلالها، وتزايد وعى المجتمعات الإسبانوأمريكية بذاتها، وأصبحت كل يوم أقل استعداداً لتقوم بدورها الهامشى أو التابع التى رسمته لها إسبانيا، وشعرت أن آمالها قد غذتها أحداث ثلاثة قدمت إلى العالم الجديد فى شكل موجات عاتية بلغت التحصينات القديمة التى أقامتها إسبانيا وأخذت تضربها بعنف وزادت من إضعافها.

تمثلت هذه الأحداث الثلاثة فى ثورة الاستقلال فى أمريكا الشمالية، والثورة الفرنسية وغزو نابليون لإسبانيا؛ وأسفرت جولة البارون فون هومبولد فى ازدياد قوة أحلام أبناء المهجر من الكريّويين **Criollos** من إسبانوأمريكا، فقد عرض ذلك العالم

الأمريكى حلاً للأزمة (تقليل الضرائب والمزيد من التبادل التجارى وحكومة أفضل). وكان هذا الحل يتجاوز الولاء لإسبانيا وكذلك الاعتبارات البراجماتية ليظلوا حلفاء للتاج الإسبانى؛ وعندما نشر هومبولد كتابه "مملكة إسبانيا الجديدة"، كانت هناك أمة جديدة قد أخذت تتبدى فى نصف الكرة الغربى، وسارت فى هذا على روشتة العالم الألمانى طلبًا للنجاح. من جانب آخر كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد هبت ضد بريطانيا العظمى، وكانت نقطة البداية هى تمرد على الضرائب فى بوسطن؛ وهناك صدر دستور عِمَادُه الحريات الشخصية والحكم الجيد؛ وأخذت الطبقة المتوسطة هناك تحبذ تنفيذ القيم الغائبة فى العالم المتحدث بالإسبانية: أى الصناعة والتربية والتوفير؛ والأدهى من هذا كله هو أن إسبانيا ساندت الثورة فى أمريكا الشمالية كجزء من سياسة مدريد المعادية لبريطانيا، فخلال اشتعال الثورة فى أمريكا الشمالية كانت الموانى الإسبانوأمريكية مفتوحة للسفن المتمردة التابعة للثورة، أما الآن وبعد انتصار الثورة نجد أن الولايات المتحدة قد تحولت إلى الشريك التجارى الرئيسى لكوبا، بينما تجوب سفنها البحار لأغراض تجارية على شواطئ المحيط الهادى ومنطقة الكاريبى فى العالم الجديد المتحدث بالإسبانية.

كان إعجاب إسبانوأمريكا بالثورة الأمريكية إعجابًا عظيمًا خلال السنوات الأولى للجمهورية، والتى كانت فى الوقت ذاته السنوات الأخيرة للإمبراطورية الإسبانية فى الأمريكتين؛ ومع هذا فإن الإلهام الأيديولوجى الأكبر جاء من لدن الفلاسفة الفرنسيين خلال عصر التنوير واستطاعت الأفكار العظيمة لهؤلاء أن تلبى احتياجًا عميقًا للألمعية الجديدة فى إسبانوأمريكا ولو أنه أحيانًا ما يكون غير واضح، فقد كان المحامون والبيروقراطيون ورجال الدين والمدرسون والطلاب ورجال العلوم المبتدئون فى حاجة إلى رؤية جديدة للعالم الذى كان قد تحدث عنه فى الماضى، وبطريقة دوجماطية، علم اللاهوت الكاثوليكى فى الماضى، فبدلاً من القديس توما الأكوينى، نجد توما بينى T.Paine وتوما جيفرسون، وبدلاً من سان أغسطين نجد مونتسكيو وفولتير وجان جاك روسو، وعلى سبيل الخصوص خوان خاكوبو روسّو، "مواطن جنيف" وكلماته التى لا تُنسى: "الإنسان يولد حرًا، لكن فى كل مكان نجد المقيد بالسلاسل". ربما كان روسو الكاتب

الذى ترك أكبر أثر فى تاريخ وآداب ومشاعر أمريكا الإسبانية؛ كان يمثل كتاب عصر التنوير، الذين يحملون المبادئ الجديدة للنظام الاجتماعى والسياسى، والوقوف ضد الكنيسة والملكية والاعتراض على الحق الإلهى للملوك، والانتصار لسيادة الشعوب.

كانت هذه التوليفة تصيب الرؤوس بالدوار وفعلت ذلك بالقساوسة فى القرى الصغيرة، وبالمحامين فى عواصم المحافظات، وبأوائل الكُتاب الوطنيين فى العواصم القديمة للمستعمرة؛ لقد تعلم الجميع اللغة الفرنسية على عجل وذلك للاستمتاع بهؤلاء الكُتاب وكأنهم أمام نبيذ معتق من بورجونيا **Borgona**؛ هنا علينا أن نتخيل شاباً من دارسى اللاهوت يقوم بقراءة فولتير لأول مرة فى المستعمرات، أو أن نتصور أحد المحامين الشبان وقد شغف حباً باللغة الخطابية والمفاهيم الأخلاقية لروسو، فقد كان ذلك الكاتب يجبر القارئ على الفعل وعلى تحويل الكلمات إلى واقع معيش.

الإرادة العامة هى حقوق الإنسان والاستقلال الوطنى، وهذه كلها كانت الأفكار التى أخذها أبناء المهجر الأوربى المولدون **Criollos** الذين اعتنقوا مفاهيم عصر التنوير، وسار معهم فيها أبرز المهجنين رغم أنف النداءات المتكررة التى صدرت عن محاكم التفتيش:

> "إنها موجة من الأدب المثير للفتن الذى تتخلله المفاهيم العامة للمساواة والحرية لكافة الناس، وهو أدب مناهض لأمن الدولة".

دخلت الكتب الممنوعة إلى إسبانوأمريكا بطرق مبتكرة، فلما كانت الكنائس والأديرة مُعفاة التفتيش الذى تقوم به إدارات الجمارك قام الكثير من القساوسة من أنصار التنوير - فى أوربا - بملء الصناديق المرسلة، وكذا بعض الرموز المقدسة مثل ظُلَّة المذابح وأوانى حفظ القربان المقدس **eucaristia**، بالكتب والمخطوطات والشعارات الممنوعة، وربما كان فولتير ليغير رأيه فى المقولة التى نادى بها "اقضوا على الكنيسة" لو أنه كان قد عرف أن كتابه **Candido** سوف يسافر من إسبانيا إلى أمريكا موضوعاً فى "ظُلَّة مذبح كنسى **Criollo**".

أحدثت قراءة هذه الكتب أثرها فى شباب المثقفين فى إسبانوأمريكا، وأصبحت سنداً جديداً لهم تجاوز الدروس الجيدة والسيئة التى كانت عليها الثورة الفرنسية. وكما هى العادة نجد أن الصورة العامة التى كانت سائدة خلال ذلك العصر، وهى الصورة الأقوى من أى تحليل متأن ودقيق للأحداث والأفكار، قد تغذت على صور المقصلة والرعب والنفى وقتل الملك، أو أن هذه الصورة هى البهجة بالبطولة الثورية والرسم على الحوائط بالألوان الثلاثة والحماس الشعبى، لكن الاهتمام كان قليلاً بأحد جوانب الثورة الفرنسية، وهو أنها فى غضون شهور قليلة تمكنت من نشر أفكارها المتعلقة بالحقوق السياسية فى مساحة ضخمة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، وأحدث تحولاً عميقاً فى نظام الملكية فى أوربا، فها نحن نرى أربعة ملايين من الناخبين الجدد يدلون بأصواتهم، وها نحن نرى انتخاب مائة ألف قاض، واثنى عشر ألف رجل قانون مدنى خلال الفترة من ١٧٨٩ حتى ١٧٩٠م؛ تم إلغاء نظام الإقطاع والنبلاء والألقاب الموَّرثة التى تنتقل من جيل إلى جيل، وزالت المحاكم الخاصة بالنبلاء وحلت محلها محاكم عامة لكل الناس، وسُحبت الثروة من الكنيسة وتوحدت الأمة الفرنسية وتوازى هذا بإزاحة العوائق الموضوعة على التجارة الداخلية.

ومحصلة هذا هو أن شخصية مثل نابليون بونابرت ظهرت من العدم، وكان ذلك الرجل خير برهان على أن حلبة السباق مفتوحة أمام جميع الألمعيات؛ وأصبح فوق القمة بفعل حركة المَدّ الثورى، وكان نابليون يرى نفسه دوماً كممثل لليبرالية والتقدم والأفكار الجديدة رغم الاستبداد السياسى الذى برّره بظروف الحرب وتحدى أوربا الرجعية، وكان نابليون، حتى فى أثناء الحرب، قادراً على أن يخلق موقفاً قانونياً جديداً، إذ كان أداؤه التشريعى مثيراً للغاية، فها نحن نرى القانون المدنى الفرنسى والنظام الضريبى الحديث وقانون العقوبات وجوقة الشرف، والأنظمة التربوية والإدارية الحديثة والميزانية المتوازنة على زمن الحرب. لقد أبرز نابليون ما الذى يستطيع أن يصل إليه أحد أبناء الطبقة البرجوازية من خلال القوة أو الإرادة أو الألمعية: يمكنه أن يصل إلى كل شىء. لقد أمرنا نابليون بإنشاء "البلاط الأول" وتكوين أوليات خدمة الإطفاء فى باريس، وكان هو الذى بدأ تطبيق خدمة البريد فى مصر؛ وهنا وجد الشباب من أبناء

المهجر الأوربى فى إسبانوأمريكا أنفسهم أمام هذا النموذج وحلموا بأن كل شىء ممكن، فقد كان يكفى تطبيق تشريع تنويرى جديد حتى يتغير وجه أمريكا الإسبانية.

وصل تأثير الحروب التى خاضها نابليون إلى المستعمرات الأمريكية وتمثل ذلك فى صورة علاقات تجارية جديدة، وكلما ازدادت الأمور تعقيداً بشأن الأزمة الأوربية، أخذت إسبانيا تترك مستعمراتها لتكون أكثر تبعية فى التجارة مع الدول المحايدة، وخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية، حيث شهدت هذه العلاقات توسعًا ملحوظًا خلال تلك الفترة، ومع التجارة زادت أيضًا المنافسة وبخاصة البريطانية التى هددت الصناعات المحلية وبخاصة فى "ريو دى لابلاتا".

وبالفعل، نجد أنه فى عام ١٨٠٦م قام البريطانيون بغزو مدينة بوينوس أيرس وحاول البريطانيون أن يكون لهم رأس جسر فى "بلاتا". هنا نجد أنه بينما هربت القوات الإسبانية ونائب الملك من المكان، هبت المقاومة الشعبية الأرجنتينية وعلى رأسها سانتياجو لينوس، حيث صدوا الهجوم الإنجليزى، وتكررت هذه الدراما فى العام التالى؛ وهنا نجد أن إحدى اللوحات الموضوعة فى "متحف التاريخ" فى بوينوس أيرس ترسم لنا الجنرال الإنجليزى بيريسفورد، ذليلاً يسلم سيفه للقائد الأرجنتينى لينوس؛ ومن المشروع فى هذا المقام الشعور بالفخار الذى ملأ صدور كافة أفراد المقاومة، ذلك أن الأرجنتين قد هزمت إنجلترا، التى كانت تنتصر على إسبانيا دائمًا. وكان السؤال الذى لا مناص منه: هل يمكن للأرجنتين اليوم أن تهزم إسبانيا؟

أخذت فكرة القومية تكتسب قوة غير عادية، أما الفرصة المتاحة للتأكد من هذه المشاعر الفياضة والآمال العريضة والمخاوف والأفكار المتعلقة بالعلاقات بين إسبانيا ومستعمراتها الأمريكية فقد حانت فى اللحظة التى وثق فيها نابليون بصلابة موقفه فى الجبهة الشرقية بالتحالف مع روسيا وبالتالى اتجه لغزو إسبانيا البوربونية.

هنا يمكن التساؤل فيما إذا كان الجمود الذى كانت عليه الإمبراطورية الإسبانية فى العالم الجديد، الذى بدأ مئويته الرابعة، يمكنه تأخير حركات الاستقلال الوطنى لو أن الموقف الإسبانى قد تغير بشكل جذرى؛ لأول مرة منذ الغزو الإسلامى لشبه جزيرة

أيبيريا عام ٧١١م نرى إسبانيا تتعرض لغزو أمة أجنبية، فقد خسرت أسرة البوربون العرش الذى تمثل فى هذا الملك الأبله وهو فرناندو السابع، وحكمت بدلاً منه أسرة بونابرت التى تجسدت وبقوة فى شخص خوسيه شقيق بونابرت والذى سرعان ما أطلق عليه الشعب الإسبانى "بيب بوتيا Pepe Botella"، ورغم أن هذا الشعب قاوم الغُزاة الفرنسيين بجرأة وجسارة، فواقع الأمر أن الأسرة المالكة أصبحت رهينة نابليون فى بلدة بايونا وأن إسبانيا لم يعد يحكمها الإسبان.

ما هو الردّ الذى سيأتى من المستعمرات؟

بعد ثلاثة قرون من الإدارة الاستعمارية، نجد ظهور واقع جديد غير متوقع ويلفت الانتباه بقوة لدرجة خطف معها أبصار الجميع من سكان أمريكا الإسبانية، لقد اختفت الملكية من على ظهر الأرض سواء كانت تحكمنا بمهارة أو بغباء أبوى أو طغيان وهى بعيدة عنا أو قريبة منا لا مبالية أو مهتمة بنا.

كانت أسئلة أبناء أمريكا الإسبانية لا مناص منها: إذا لم يعد هناك ملك فى إسبانيا هل يعيدوا إلينا سيادتنا؟ إذا لم تكن هناك حكومة إمبراطورية شرعية فى إسبانيا، ألسنا الآن مستقلين؟ أو الذهاب إلى أبعد من هذا: هل من واجبنا أن نحافظ على هذه المستعمرات حتى تسترد الملكية الإسبانية وضعها؟ هل يمكن لنا أن نتصرف باسم التاج الإسبانى ضد نابليون؟ لحق بكل هذا وانضم إليه ما حدث من تأثير للنموذج الأمريكى والفرنسى، وهنا: هل يمكن لنا أيضًا أن نطرد السلطة الاستعمارية؟ هل يمكن إحلال نظام جمهورى محل نظام ملكى؟ هل يمكن أن نكون نحن أيضًا أممًا حديثة ومستقلة نقوم بالتبادل التجارى مع الجيش وننشر الكتب ونقرأ ونتحدث بحرية ونتحرر إلى الأبد من رقابة محاكم التفتيش؟

أما الآن، أى فى تلك اللحظة المتعلقة بخضم الأحداث الإسبانية، نجد كبار رجال الكنيسة فى أنحاء أمريكا الإسبانية يفيقون، على أساس أن ذلك هو الطريق الوحيد الذى يجب أن تسير فيه القوى الاجتماعية فى إطار الشرعية وذلك بغية تقييم الأحداث فى

إسبانيا ومستقبل المستعمرات، ففى المجمع الكنسى فى بوينوس أيرس، مايو عام ١٨١٠م، اجتمع العسكريون والميليشيات المحلية وكلهم ثقة فى أنفسهم لانتصارهم المزدوج على الإنجليز، فلأول مرة نجد جيشًا محليًا من أمريكا اللاتينية يذوق حلاوة الانتصار والشعور بالذات القومية، وبفضل هذا النجاح أصبح الكريّو قادرين على القبض على نائب الملك الهارب سوبر يمونتى، وأنهم أيضًا على قناعة بقدرتهم على رفض السيطرة الإسبانية مثلما فعلوا قبل ذلك تمامًا مع الغزو البريطانى.

ها هم الآن فى المجمع الكنسى، هؤلاء الذين قرءوا فولتير وروسو، ينتظرون تطبيق أفكارهم العامة حول الحرية والإرادة العامة وسعادة الجميع، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى، من ذلك. كان بين الجالسين، ولكن بمعزل بعض الشىء عنهم، فتى شاب يلقى ببصره إلى بعيد وكأن اللوحة لا يمكن أن تتسع لنظرته أو عزيمته؛ إنه الفتى ماريانو مورينو، المتحمس من اليعاقبة والرجل الذى جسد المطالب الليبرالية للألمعية، وأضاف إلى كل ذلك المطالب الاقتصادية للطبقة العاملة فى مجال الشركات فى الأرجنتين، حتى تكون هناك تجارة حرة وتقل القيود الضريبية، وأن يكون هناك أسطول تجارى مستقل.

توفى مورينو الذى كان يحبه الجميع وهو فى الواحدة والثلاثين من العمر، غير أن الاحترام لشخصه كان كبيرًا لدرجة أنه استجيب لأرملته الشابة بأن تظهر صوره بدون أى آثار للجدرى على وجهه والذى عانى منه فى حياته.

ساعدت الأحداث أيضًا على تهيئة الأعضاء من صغار المراتب الكنسية، الذين كانت لهم اعتراضاتهم على الحكومة الإسبانية، فقد أضيروا من جرّاء الإصلاحات التى نادت بها وطبقتها أسرة البوربون، وكان ذلك من خلال قانون سيئ صدر عام ١٨٠٥م حيث انتزع منهم كل مزاياهم البسيطة وألغى كافة الرهونات الدينية على الملكية الزراعية. كانت الغاية من هذا القانون المتشدد سداد تكاليف الحرب ورشوة نابليون، وذلك بأن تقدم إسبانيا لإمبراطور الفرنسيين دعمًا قدره خمسة ملايين بيزو من الذهب.

وفى هذا العام نفسه، ١٨٠٥م، جرى تدمير الأسطول الإسبانى فى معركة ترافالجار Trafalgar، أما المبالغ المالية التى تم اقتناصها من الكنيسة، فى ظل القانون المسمى "بقانون التدعيم L.Consolidaciones" فقد كان مصيرها دخول جيوب علية القوم التابعين للبوربون، وأخذ الصغار من أصحاب المراتب الكنسية فى أمريكا الإسبانية يصدرون الصحف المثيرة مثل "فجر شيلى"، للأب كاميلو إنريكث، فى سانتياجو، ويشجعون على الاجتماعات التآمرية التى تتخفى وراء أقنعة الحوارات والدردشات الأدبية مثل تلك التى كان ينظمها الأب ميجل إيدالجو فى المحافظة المكسيكية، أو المشاركة فى اجتماعات مجلس الأساقفة فى بوينوس أيرس.

نحن إذن أمام رجال الكنيسة والمثقفين وضباط الجيش، ومن بين هؤلاء جميعًا خرج قرار الوقوف صفًا واحدًا أمام هذه الأحداث الجِسام التى تقع وذلك لاتخاذ قرار يتعلق إما بالاستمرار فى الولاء لإسبانيا والاستقلال المؤقت حتى يتم طرد نابليون ويعود إلى العرش فرناندو السابع، وإما الانفصال الجذرى والنهائى عن التاج الإسبانى. ها قد أتت مياه الاستقلال عكرة وبدأها أبطالها بشكل مقنع.

الفصل الثانى عشر

سيمون بوليفار وخوسيه سان مارتين

تركت هذه الأفكار والخيارات والأحداث الحاسمة أثرًا قويًا فى نفس فتى أرستقراطى فنزويلى عصبى وغير صبور، ذى عقل متفتح وكأنه على شاكلة عينيه السوداوين المتقدتين؛ اسمه سيمون بوليفار، وبينما كان يقرأ بنهم شديد كتابات الفلاسفة الممنوعة، تساءل أيضًا: ألا يمكننا أن نقوم نحن بالعمليات التجارية وأن نفكر لأنفسنا وأن نحكم أنفسنا بأنفسنا؟

هو وريث أسرة، غاية فى الثراء، من الإقطاعيين وضباط الجيش؛ عرف الحزن والوحدة منذ نعومة أظفاره، فقد توفى والده عندما كان سنه ثلاثة أعوام، أما أمه فقد توفيت وهو فى التاسعة من العمر؛ وابتداء من ذلك الحين سوف يعتبر بوليفار مرضعته السوداء إيبوليتا **Hipolita** كوالد وأم حقيقيين؛ جرى نقاش طويل حول التلاقح السُّلالى لبوليفار، فالأسماء الأولى التى كانت تحمل هذا الاسم قدمت من إقليم الباسك فى إسبانيا متجهة إلى فنزويلا خلال القرن السادس عشر الميلادى وبعد قرنين من الزمان – كما أشار إلى ذلك جان ديسكولا – تحولت إلى سلالة مختلطة ومهجنين **mulatos**، بخاصة "وأنهم وسط هنود واهنين وسوداوات جميلات".

نجد أن اللوحات التى تصور بوليفار تسلط الضوء على هذا التلاقح السلالى أو تعلى من شأنه أو تمحوه أو تقلل منه، لكن علاقته بمرضعته هى أمر له دلالته القوية؛ وهنا نجد أن الروائى الفنزويلى أرتورو أوسلار بيترى، يقول بأننا جميعًا – من خلال

مرضعاتنا السوداوات أو الهنديات - ننسب إلى الثقافات الثلاث فى أمريكا الإسبانية. وإذا ما كنا بيضًا خلّصًا فنحن أيضًا سود وهنود، أيضًا فإن الأسود الخالص أو الهندى القُحّ شريك فى هذا العالم الأوربى، أى إن الثلاثية الثقافية ليست مسألة عرقية، فالثقافة هى التى تفرض نفسها على العرقية.

فى عام ١٧٩٩م، عندما كان عمره تسعة عشر عامًا، بدأ رحلة طويلة إلى أوربا وهى من الرحلات المعهودة بالنسبة للشباب ممن هم فى وضعيته الاجتماعية خلال القرن الثامن عشر، وكانت تلك الرحلة - طبقًا لما كتب ديسكولا Descol - "اكتشافًا للعالم القديم". أسلم بوليفار نفسه للمتعة وهو الفتى الصغير السن والعصبى. كان راقصًا غير عادى وعاش العالم المعتم الذى صوره جويا فى إسبانيا: أى النزهة فى مدريد وقضاء الليل فى المسرح والاحتفالات فى الهواء الطلق فى القصر الصيفى، أى فى مزرعة سان إلدفونسو، كما عشق فتاة من أصل فنزويلى، اسمها ماريا تيريسا رودريجيث، التى كانت تكبره بعامين. وبعد مضى ثمانية أشهر على زواجهما انتهت حياة هذه الزيجة نهاية مأساوية، فقد أصابت ماريا تيريسا حمى أودت بحياتها، وهنا نجد أن الحب فى زمن الغضب يترك بوليفار أرمل وعمره تسعة عشر عامًا، ومنذ ذلك لم يتزوج، اللهم إلا إذا اعتبرنا أن كلاً من الاستقلال والثورة عروسا الأبديتان.

وصل إلى باريس عشية إعلان نابليون تتويج نفسه ملكًا فى كنيسة نوتردام؛ وإذا ما كان بوليفار الشاب قد رأى فى هذا خيانة للوعد بالمساواة والحرية الذى جاء من رحم الثورة الفرنسية، فإن ذلك أكد له أنه على حق فى توجهاته الجمهورية وقاده إلى اتخاذ قرار دائم وهو مقاومة أى نزوة لإقامة ملكية فى العالم الجديد. وعلى أية حال فإن المصالح والاهتمامات التى يبحث عنها بوليفار لم تكن موجودة فى أوربا نابليون بل فى المواقف المحددة فى أمريكا الجنوبية، وأيًا كانت نوعية التناقضات التى كانت له مع الثورة الفرنسية، أو العظمة والبساطة لبونابرت، الإنسان والإمبراطور، فإن من البدهى أن بوليفار قد ترك كل ذلك وراء ظهره ليركب بحر الثورة بشكل درامى ومتحمس وخطابى ويقينى، فمن "ساكرمونتى" Sacromonte فى روما وبرفقة راعيه ورفيق رحلته، سيمون رودريجيث، أعلن بوليفار هذا الوعد المهيب الذى هو استهلال للتاريخ:

"أقسم برب والدىّ ... أقسم بشرفى وأقسم بوطنى أنه لن ترتاح لى ذراع أو تهدأ روحى حتى أتمكن من كسر القيود التى كبلنا بها السلطان فى إسبانيا!".

وفى بوعده. وإذا ما كان هناك آخرون يتحدثون عن الاستقلال المؤقت بينما إسبانيا رهينة فى يد الفرنسيين، أو عن الولاء لفرناندو السابع - أى القناع الفرناندى - فإن بوليفار أسقط كل الأقنعة وأعلن بمجرد عودته إلى فنزويلا أن أمريكا الإسبانية يجب أن تكون مستقلة استقلالاً تاماً عن إسبانيا وأن تؤكد ملامحها الذاتية: "لنقم، بلا وجل، بوضع حجر الأساس للحرية فى أمريكا الجنوبية، والتردد هنا هو الإذعان بعينه".

من كان ذلك الرجل، ذلك الأرستقراطى الذى كان يكافح من أجل المساواة، هذا الرجل الشديد الثراء الذى وهب حياته للثورة؟ إنه بوليفار ذو الحدس الإنسانى، الذى كان بمقدرته أن يشعل ويخوض حرباً بنفس درجة العنف التى لا ترحم والتى عليها أعداؤه، إنه المحارب والفيلسوف الذى دخل التاريخ وهو يفكر بصوت مرتفع، إنه الرومانسى الشغوف الذى لا يصبر والذى يريد أن يبلغ أشياء كثيرة فى وقت قصير: منها الديمقراطية والعدالة وكذلك وحدة أمريكا اللاتينية.

غير أنه قبل كل شىء كان بوليفار رجل عمل وعبقرية حربية استطاعت أن تعطى مساحة ضخمة توازى أوربا نابليون، أى من الكاريبى حتى المحيط الباسيفيكى عند حدود البيرو، الرجل الذى يسترد قوته ويعود للهجوم بعد كل هزيمة حتى ولو كان وهو فى منفاه المؤقت فى جامايكا، وأخذ يصارع "الحرب حتى الموت" أى ضد القادة الإسبان الذين كانوا يتركون أسراهم مقيدين بالأغلال ومربوطين بأعمدة تحت لهيب الشمس حتى يبلوا أحياء. وقد استطاع بوليفار أن يدرك جيداً الموقف فى إسبانيا أفضل من هؤلاء المترددين، فغيبة ملك إسبانيا، فرناندو السابع، باختطافه، لا يعنى أن نابليون أصبح يحكم المستعمرات الإسبانية، فقد ظلت هذه المستعمرات، فى وضع غير مؤكد، فى يد الجيوش الإسبانية المعدة جيداً والمرتبطة بأوامر نواب الملك وبالقيادات العامة التى لم تفكر ولو للحظة واحدة التخلى عن مواقعها أو إعلان عدم ولائها للأسرة البوربونية بشكل دائم.

ولنذهب إلى أبعد من هذا إلى القول بأن الغزو النابليونى لم يترك فقط إسبانيا بدون ملك وإنما كان قد أثار رد فعل القوى الليبرالية فى شبه جزيرة أيبيريا، فبينما يحاول الفرنسيون السيطرة على رجال المقاومة الإسبانية نجد أن البلاط الملكى النائم أخذ يستيقظ وينظم نفسه لملء الفراغ فى السلطة ويقدم للملكية عملاً جيداً: إنه الدستور الليبرالى، اجتمع رجال البلاط فى قادش وأعدوا وثيقة سياسية تؤذن ببداية الحداثة فى إسبانيا. كان هناك من الحضور الكثير من ممثلى المستعمرات الأسبانو أمريكية، غير أن السلطات الاستعمارية ابتداء من المكسيك حتى سانتياجو دى شيلى، راقبت كل ما يحدث بفزع: فهناك غيبة ملك فى إسبانيا وهناك دستور ليبرالى وكذا استقلال أمريكا، وهى كلها عناصر تنطق بقوة ومحذرة بأن عصر السلطات الملكية قد انتهى.

عندما عاد نابليون ببصره نحو الشرق، وما تلا ذلك من آثار مدمرة، وبدأ حملته المشئومة على روسيا، شعر الموظفون الإسبان فى المستعمرات بأن من حقهم البدء فى خطوات أخذت تزداد عنفًا مع الأيام مقارنةً بتلك التى كان يمكن اتخاذها لو كانت هناك سلطة أو رأس مرئية لها فى مدريد. وبعد فترة نشهد عودة الملك فرناندو السابع بتسلطه ورجعيته عام ١٨١٤م وهى عودة زادت من الحماس للعنف ضد المتمردين، وعندما عاد الملك إلى عرشه رفض القَسَم على دستور قادش وحوّل إسبانيا إلى قلعة للنظام المحافظ الجديد فى أوربا، وسرعان ما عرف هذا التوجه باسم "الحلف المقدس" الذى جرت مباركته فى مؤتمر فيينا.

فى ظل هذه الظروف قام القادة الإسبان بتطبيق الإرادة الحديدية التى لا ترحم للقضاء على حركة التمرد، وكان رد بوليفار على ذلك بأن كال لهم بالكيل نفسه، فأعلن الحرب، حتى الموت، على إسبانيا وبلا هوادة:

> "إن كل إسبانى لا يقف ضد الطغيان ويؤيد القضية العادلة... سوف يعتبر عدواً وخائنًا للوطن، وبالتالى لا بد من رفع السلاح ضده ... يا معشر الإسبان ويا أهل جزر الكنارى، الموت لكم، ولو أنكم غير مبالين، إذا لم تعملوا بهمة ونشاط فى طريق حرية أمريكا".

أعلن حرية العبيد مقابل مشاركتهم فى جيش المتمردين، لم يستجب الإسبان لمبادرة بوليفار بإصدار بيان مقابل، كما أن العبيد اتخذوا موقفًا محايداً: فهاهم الكريّو، من سلالة الأوربيين، يخشون من مساواتهم بالعبيد أكثر من خشيتهم من الاستمرارية الاستعمارية، وبالتالى كافحوا من أجل الاستقلال للوصول إلى الحرية الاقتصادية، لكنهم رفضوا أية تنازلات تتعلق بمساواتهم بالسود! أدرك هؤلاء - السود - أن إسبانيا لم تقدم لهم شيئًا، وربما يحدث الشىء نفسه مع الاستقلال. ومع هذا فإن جيش بوليفار اكتسب قوة بفضل ظهور قادة محليين الذين قاموا بتنظيم جماعات من سكان السهول قَدِموا من المناطق الحارة فى أورينوكو Orinoco، وهم على استعداد لخوض الحرب مقابل تملكهم للأرض؛ قبل بوليفار هذا المطلب، وصدرت صكوك فى هذا المقام سوف يكون من الواجب التصديق عليها بمجرد النصر فى الحرب. هنا نجد أن المُشاة أصبحوا غير قادرين على المطالبة بأراضيهم، وعكس ذلك فعل قادتهم إذ سيطروا على مساحات شاسعة؛ وكان أبرزهم خوسيه أنطونيو بايث، وهو أحد رجال السهول، يمثل النموذج المضاد لنموذج بوليفار، إنه سانشو بانثا تابع دون كيخوته فى رواية ثربانتس وهو السانشو البوليفارى؛ جسده مربع، ضخم الرأس، يكاد لا يعرف القراءة والكتابة لكنه شديد الارتباط بالأرض والناس، وقد ضمن هذا الرجل لبوليفار تزويده بسيل لا ينقطع من الجنود.

أخذ بوليفار يقول فى إحدى مداخلاته الخطابية: "إذا ما وقفت الطبيعة ضدنا فسوف نحاربها ونجبرها على طاعتنا". هذه الملامح الرومانسية فى القول والعمل عند بوليفار أضحت بدهية عندما ترأس مسيرة قام بها "فتيانه الملاعين" فوق القمم الجبلية الثلجية فى جبال الأنديز وسط الغابات الاستوائية وما بها من عناكب قاتلة، وقام بتحرير كولومبيا فى بوياكا Boyaca، وفنزويلا فى كارابوبو Carabobo. كانوا يلاقونه بحماس وهالات الانتصار فى كل مكان ويعلنونه "المُحَرِّر". لم يكن بوليفار يحلم فقط باستقلال إسبانوأمريكا: بل بوحدتها؛ لقد رأى بلادنا كسلالة بشرية مصغرة ... أى كونًا كبيراً: "لسنا أوربيين، ولسنا هنوداً، بل نحن سلالة وسط، نتاج السكان الأصليين والإسبان". ومن ملامح الألمعية عند بوليفار قدرته العجيبة على الدعاية وروح الفكاهة

والسخرية من نفسه؛ وإلى جانب التصريحات الرنانة هناك أخرى طريفة فى إطار النقد الذاتى، وهى بذلك تعكس ليس فقط حسّه بنسبية الأشياء ولكن أيضًا شعوره العميق بالمصير والفشل المأساوى: "هناك ثلاثة من الحمقى فى تاريخ البشرية هم يسوع ودون كيخوته وأنا ...".

حملة الأنديز:

ابتداءً من "أورينوكو" وحتى نهر بلاتا، كانت هناك أمة تكافح من أجل استقلالها وتطرد التاج الإسبانى وفى الوقت ذاته تضع مكانه سلطة جديدة على رأسها الجيوش المحلية، ويعود أول انتصار إلى عام ١٨٠٦م عندما تمكنت الميليشيات المحلية فى الأرجنتين من صدّ القوات الغازية الإنجليزية فى ميناء بوينوس أيرس.

وبعد اجتماع مجلس الأساقفة فى الخامس والعشرين من مايو لعام ١٨١٠م، استطاعت الأرجنتين أن تدعم، وبسرعة، استقلالها بأن طردت نائب الملك وعقدت تحالفًا بين الميليشيات والمثقفين الذين تكاتفوا فيما بينهم فى دفع عجلة الثورة إلى ما وراء السهول Pampas حتى وصلت إلى الأقاليم التعدينية (المناجم) فى بوتوسى، فى أعالى بيرو. كانت الثورة الأرجنتينية الأكثر راديكالية فى إسبانوأمريكا، وامتدت سريعًا، انطلاقًا من قاعدتها الحضرية والأوربية، وهى بوينوس أيرس، ونشرت أفكار التنوير فى قرى السكان الأصليين فى أعالى البيرو، وهى قرى شعر سكانها بالاستغراب والدهشة لكل ما يحدث، وفى أعلى منطقة فى أمريكا الجنوبية ألغت الثورة الأرجنتينية الضرائب ووزعت الأرض والتعليم والمساواة، لم يستوعب السكان هناك هذه الإجراءات بشكل جيد وهم سكان من الأميين ويجهلون اللغة القشتالية، أما بالنسبة للجوانب الأخرى فإن قوانين الثورة لم تكن فاعلة ما دام أن إسبانيا وجيشها الرابض على الأرض باقيان، وقد تمرس جيشها فى منطقة من المناطق الإستراتيجية فى أمريكا الجنوبية وهى البيرو وعاصمتها الرائعة.

فى هذه المنطقة، أعالى البيرو، نجد الحدود الحربية بين القوات الفعلية التابعة لمدينة ليما وبين القوات الثورية التابعة لبوينوس أيرس، وهى منطقة شهدت ركودا لا يكاد ينقطع بواسطة قوات الميليشيات فى الإقليم التى يترأسها قادة مهرة وشديدو الطموح. لقد قام رجال العصابات بعمليات فى المؤخرة وكانت عملياتهم لا تتوقف الأمر الذى أدى إلى وقوع الإسبان فى شَرَك، لكن العمليات لم تكن نصراً حاسماً للأرجنتين؛ وربما كان الأثر الناجم عن ذلك هو زيادة سلطة هؤلاء الزعماء الانفصاليين كل فى "جمهوريته الصغيرة" republiquetas. وفى هؤلاء أمكن لرجالات الدولة فى الجمهوريات الوطنية فى إسبانوأمريكا أن يتخيلوا مخاطر التفكك والتشرذم والتشاحن الدائم بين السلطات المركزية والقوات السياسية المحلية.

هنا نشهد ظهور الزعيم الكبير الثانى فى حروب أمريكا الجنوبية، الذى عكف على كسر حالة الركود أو اللاسلم واللاحرب؛ إنه خوسيه سان مارتين أحد ضباط الجيش الأرجنتينى، أدرك هذا الضابط أن ثورات الاستقلال لن تكتمل ما دام أن هناك قوات إسبانية متمترسة فى البيرو. كان هذا الضابط يبلغ من العمر آنذاك تسعة وثلاثين عاماً، وقد حارب فى صفوف الجيش الإسبانى ضد الفرنسيين فى إسبانيا؛ قرر أن يحدث تغييراً جذرياً فى الموقف وذلك من خلال هجوم مباغت على القوات الملكية فى القطاع الجنوبى وهو شيلى.

لكن شيلى كانت محمية بسور هو جبال الأنديز لدرجة أن هانيبال لو كان حياً لما جرؤ على عبور هذه الحدود العصيّة، غير أنه مع نهاية عام ١٨١٦م، كان الضابط سان مارتين قد نظم اقتصاداً للحرب فى مدينة مِنْدوثا فى السلاسل الجبلية الفرعية الأرجنتينية فى الأنديز، وكانت الغاية تكوين جيش يستطيع به طرد إسبانيا من القطاع الجنوبى من نصف الكرة الغربى. وانطلاقاً من مدينة مندوثا كان يمكن لسان مارتين العمل بمبعد عن المؤامرات السياسية فى بوينوس أيرس ويكثف جهوده فى المهمة التى وضعها نصب عينيه.

كان سان مارتين دقيقًا فيما يفعل وبطلاً مثلما كان حاله فى كل تصرف له، فقد طلب من الفقراء قمصانًا وعباءات، وطلب الجواهر من الأغنياء، وسلمه الجنود القدامى مذنباتهم Cometas، والمزارع قطعان خيولها، وقام بتصنيع مدافعه وباروده وكذا الزى لجنوده؛ وأرسل بالجواسيس إلى شيلى وذلك لبث الشائعات الكاذبة وخداع الإسبان وجعلهم يعتقدون أنه سوف يهاجم من خلال الأراضى الهندية الواقعة جنوب مرتفعات أكونكاجوا فى الأرجنتين Aconcagua، وأبلغ الهنود فى المنطقة الإسبان، بلا تعجل أو تؤدة، بالموقف الذى رسمه سان مارتين.

أرسل إليه رئيس الأرجنتين بوريّدون Pueyrredon ألفى سيف ومائتى خيمة من خيام المعسكرات: "لو ذهب العالم إلى الجحيم، أو الشيطان، أو ضاع كل شىء، فالعجب كل العجب! لا تطلب منى شيئًا آخر".

لم يكن سان مارتين فى حاجة إلى المزيد وكلف كل جندى أن يسهر على مصيره هو، وعين العذراء "القائدة العامة للقوات"، وفى الثامن عشر من يناير عام ١٨١٧م بدأ صعود جبال الأنديز، ورافقه فى الرحلة ٥٤٢٣ جنديًا وبغلاً وحصانًا وثمانى عشرة قطعة مدفعية ومؤن تتضمن عربة محملة بالقمح. كان سان مارتين يتوقع حملة طويلة وصعبة، فأخذ معه أيضًا بنائين وخبازًا والكثير من الفوانيس وعربات المياه وعربة محملة بالخرائط.

صعدت القوات لأكثر من ثلاثة عشر ألف قدم، إلى جوار الجبل الأكثر ارتفاعًا فى أمريكا الجنوبية، هو جبل أكونكاجوا، وواجهت الرياح والجليد والرماد البركانى وحاربوا الملكيين فى شعاب الجبال واستطاعوا الاستيلاء على حامياتهم، وكافحوا أيضًا داء الجبال المسمّى Soroche، أى الغثيان من الارتفاعات العالية.

فى الثانى عشر من فبراير وصل سان مارتين إلى الجانب الآخر من جبال الأنديز تحت ضوء القمر، وخلال فجر ذلك اليوم هبط على القوات الإسبانية ودخل المعركة الفاصلة، تشاكابوكو Chacabuco؛ فى ميدان القتال وبعد أن توقف القتال كان هناك خمسمائة جندى قتلى مُبعثرون على الأرض ولم يُقتل إلا اثنا عشر متمردًا. عانق سان مارتين حليفه،

الجنرال الشيلى برناردو أو إيجنيز B. O'Higgnis، فكلاهما كان يعرف أن القطاع الجنوبى فى الأمريكتين أصبح حرًا من الأطلنطى حتى الباسيفيكى. أصبح استقلال الأرجنتين وشيلى أمرًا واقعًا، ولم يتبق إلا الإبحار شمالاً وطرد الإسبان من حصنهم فى بيرو.

لكن خلال حملة الأنديز بلغ الرجال قمم الجبال وأصبحوا فى قمة حالتهم المعنوية، وقد أوضحت لنا مسيرة سان مارتين أننا معشر الإسبانوأمريكيين كنا قادرين على تنظيم صفوفنا، والعمل بدقة وبجرأة وجسارة لهزيمة الصعاب الكبرى، وهنا فإن عبور الأنديز إنما هو مثال ومثار فخر وعلامة مضيئة لمستقبل أمريكا الإسبانية.

سان مارتين وسيمون بوليفار:

أبحر سان مارتين من بال باراييسو Valparaiso، فى شيلى، قاصدًا تحرير بيرو بقوات بحرية تحت قيادة أمير البحار الأيرلندى لورد توماس كوشران L.T. Cochrane وثلة من القادة الإنجليز الذين يرتدون جاكتات بيضاء وشارات ملونة. دخل سان مارتين ليما فى شهر يوليو من عام ١٨٢١م وأعلن استقلال بيرو؛ وهناك أدرك عمق الواقع الاستعمارى؛ أى إن هناك مقدمة من الإحباطات كانت فى انتظار الجمهوريات المستقلة الأمر الذى أصاب سان مارتين بمرارة شديدة: عُين "حامى بيرو"، فقام المُحَرر بإلغاء الضرائب على السكان الأصليين، وإلغاء الأشغال الشاقة الإجبارية فى المناجم، إلا أن الصفوة فى بيرو التى لم تقدم إلا القليل لجهود الاستقلال، تعللت بأن الحرية سوف تؤدى إلى هروب من العمل فى المناجم وغيرها من المزارع وسوف تقضى كذلك على النظام الاستعمارى الخاص بملكية الأرض. إذن أصبح المرسوم الذى أصدره سان مارتين حبرًا على ورق، على شاكلة ما حدث بالنسبة "لقوانين الهند" التى سبقته (إذ إن بيرو المستقلة ألغت العبودية عام ١٨٥٥م أى قبل سبع سنوات من إعلان إبراهام لنكولن فى هذا المقام). وقد لخص لنا جون لينك J. Lynch فى كتابه الكلاسيكى عن تاريخ ثورة الاستقلال الطبقات العليا فى بيرو:

"كانت هذه الطبقة حريصة على ما تتمتع به من مزايا وواعية للطبقة السفلى تحتها بدون أية مزايا ... لم يكن يعنيها كثيراً بقاء الحكم الإسبانى أو انتصار من ينادون بالاستقلال، بل كان يعنيها درجة السلطة والسيطرة التى ستكون فى يدها بغض النظر عن النظام الحاكم".

فى عام ١٨٢٢م التقى هذان المحرّران العظيمان، سيمون بوليفار وسان مارتين، وكان اللقاء لأول وآخر مرة فى ميناء جواياكيل Guayaquil فى الأكوادور. ما هو موضوع الحوار الذى جرى؟ دارت الكثير من التكهنات حول الموضوع، إلا أن كل شيء يبدو أنه يشير إلى أن الموضوع الرئيسى كان التنظيم المستقبلى الذى ستكون عليه هذه الأمم التى تحررت، كانا على اتفاق بالنسبة لجوهر الاستقلال ولكن ليس الأمر بالنسبة للشكل. فهل كان سان مارتين يشعر بالميل إلى الحكومة الملكية؟ ألم يستطع أن يؤثر على بوليفار الجمهورى الذى لا يحيد؟ وأياً كانت التكهنات فمن الواضح أن فكرة إقامة نظام ملكى فى أمريكا الإسبانية ماتت إلى غير رجعة، أما بالنسبة للنمط الذى كان يجب أن تكون عليه الجمهوريات فقد ظل معلقاً.

جرى أيضاً طرح الموضوع الشائك بالتعاون بين القائدين، فسان مارتين، الأكبر سناً، قدم نفسه ليكون الرجل الثانى بعد بوليفار، لكن هذا الأخير رفض العرض. وخشى سان مارتين أن تشب حرب بينهما يمكن أن تكون بمثابة نزاع سياسى وهذا ما كان يقلقه وينفر منه. لم يكن الأرجنتينى يريد أن يدخل فى باب النِّدية للفنزويلى؛ وبالفعل قال لبوليفار: لقد أديت واجبى، أما ما يأتى فهو دورك، سوف أعود إلى منزلى.

كان سان مارتين يؤمن إيماناً جازماً أن العسكريين لا يجب أن يتولوا السلطة، كان يريد مؤسسات قوية وليس رجالاً أقوياء؛ ونصح الأرجنتين بألا تسلم قيادها "للجندى المنتصر":

"إن وجود الجندى المنتصر، مهما كانت درجة انتصاره، هو أمر مخيف بالنسبة للدول التى تنشأ من جديد... فهل يمكن أن أتحول أنا، من تختارونه، إلى جلاد لأبناء وطنى؟... لا، أبداً، أبداً".

لم يلوث يده فى الحرب ولم يرد أن يفعل ذلك فى زمن السلم، وكان موقفه شديد الالتزام أخلاقيا، لكن هل يمكن لنا أن نناقش الأسباب التى ساقها؟ هل كان عليه أن يخاطر ويحكم الأرجنتين وذلك للحيلولة دون التهديد الذى يتربص بها ألا وهو الحكم العسكرى الذى قد يصيب تاريخ بلاده بالتسمم؟

من المستحيل أن نعرف ذلك.

اتخذ سان مارتين قراره، وتعرض للمطاردة والتجسس عليه من قبل الحكومات الأولى للجمهورية، وفى نهاية المطاف اختار منفاه فى فرنسا، ومات وهو فى الثانية والسبعين من العمر، دون أن يعود إلى الأرض التى حرّرها.

أما بوليفار فقد ظل يقلب هذه المشكلة على مختلف أوجهها: كيف نحكم أنفسنا بعد الاستقلال؟ هنا يمكن القول بأن المحرّر استنفد كل طاقاته بحثًا عن حل، ففى المؤتمر الذى عُقد فى أنجوستورا **Angostura**، حيث تمت صياغة دستور ١٨١٩م، حاول بوليفار الحيلولة دون اتخاذ مواقف متشددة التى يمكن أن تؤثر سلبًا على وجود أمريكا الإسبانية خلال القرن التاسع عشر، أى هل طريق الطغيان أو الفوضى؟

"إننا لا نطمح إلى المستحيل، فليس الأمر من أجل أن نحلق عاليًا فى إقليم الحرية، ننزل إلى عالم الطغيان، أى إن الانتقال من الحرية المطلقة يعقبه السلطة المُطلقة وبين هذين هناك الحرية الاجتماعية".

وللوصول إلى هذا التوازن طرح بوليفار ما أطلق عليه "الاستبداد الماهر"، أى حكومة قوية، قادرة على فرض مبدأ المساواة القانونية فى تلك المناطق التى يسيطر عليها الظلم والاضطهاد العِرقى؛ ويحذر بوليفار من "أرستقراطية المرتبة العليا والوظائف الأخرى والثروة" فرغم:

> "أن هؤلاء يتحدثون عن الحرية وعن الضمانات، فإن ذلك من أجلهم هم ومن أجل ما يريدون وليس من أجل الشعب ... إنهم يريدون المساواة ليعلوا هم ... ولكن ليس ليكونوا على مستوى الطبقات المعدمة...".

وإذا ما كان بوليفار يبحث عن "حكومة قوية وعن استبداد مستنير" (فرنيس جمهوريتنا يمكن أن يكون دستورنا كأنه الشمس... التى تهب الحياة للدنيا")، فإنه لا يسقط فى الموروث الاستبدادى الإسبانى بل يخفف من وطأته من خلال تكوينه وتربيته الثقافية فى فرنسا، وإذا ما كان تلميذ مونتسكيو من حيث إلحاحه على أن تتواءم المؤسسات الحكومية مع الثقافة، فهو ليس من الفيدراليين الأمريكان، فهو يرفض اتجاهاتهم بشكل صريح: يقول: (علينا أن نتأمل "روح القوانين"، وليس ما تمليه واشنطن)، كما أن هناك تأثيراً آخر أشد عمقاً هو تأثير جان جاك روسو ورؤيته "للفضيلة السياسية"، الأمر الذى دفع به إلى طرح سلطة رابعة، هى الأخلاق، وذلك كملحق للدستور وعنصر ثالث للتأمل فى المستقبل؛ فبين السلطة الأخلاقية "غير القابلة للتطبيق العملى" فى زمننا الحاضر، وبين "شمس" الرئاسة لم يعثر بوليفار على ما كان مونتسكيو يفترض وجوده، ألا وهو المجتمع المدنى.

ربما كان يخشى سلطة الزعماء **Caciques** المحليين الذين جعلوا من الجمهوريات الوليدة كأنها البلقان فى كثير من الأحوال بسبب طموحاتهم. من جانب آخر نقول إن بوليفار لم يضع فى اعتباره أبداً النماذج البديلة للحكم الذاتى من خلال "التناغم الثقافى" الذى كان لا يزال باقياً فى كثير من المجتمعات الزراعية؛ لكنه فى الوقت ذاته استثار رؤية ممتازة لوحدة أمريكا اللاتينية، مبكرة لكنها دائمة ومفتوحة على تطلعات المستقبل وعلى الواقع المتغير فى السياسة الدولية. وفى ندائه "لمؤتمر المدن **C. Anfictionico**" الذى عقد فى بنما عام ١٨٢٤م طلب بوليفار من أمريكا اللاتينية البحث عن وسائل للمصالحة والوحدة والتناصح، ومن الأمور ذات الدلالة البالغة هنا أنه لم يَدْعُ الولايات المتحدة الأمريكية، فربما كان يعرف بأمر الرسالة التى بعث بها توماس جيفرسون إلى جيمس مونروى، والتى ترجع لعام ١٨٢٣م، حيث ينوه رجل الدولة الأمريكى إلى توسع سريع تقوم به الولايات المتحدة خارج حدودها وذلك لتغطية "كافة أرجاء القارة الشمالية وربما الجنوبية أيضاً". ربما أيضاً كان يعرف بأمر رسالة جيفرسون إلى لافايت التى ترجع إلى عام ١٨١٧م حيث نجد أن ديمقراطى فيرجينيا كان يعتبر "إخوتنا فى الجنوب" غير مهيئين للحصول على الاستقلال؛ وكتب يقول: "إن الجهل والأحكام الظالمة

ليست قواعد ملائمة للحكم الذاتي: أي أبناء أمريكا اللاتينية"، واختتم رسالته بقوله: "إنهم غير قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم".

أجاب بوليفار على ذلك بطرح سلطة أخلاقية كان يجب، طبقًا لكلماته، أن "تساعد على إصلاح الطابع العام والعادات التي خلفها لنا الطغيان والحروب"؛ هذه الفكرة "ترجع إلى العصور القديمة" على أساس أن التنوير الأخلاقي كان يشكل المطلب الأول للممارسة السياسية في إسبانوأمريكا.

وحقيقة الأمر، هي أن احتياجاتنا الأولى والدائمة تتمثل في وجود مجتمع مدني مستقل، أي تعددية مستقلة ذاتيًا، من الأنشطة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، والتي عليها تقوم المؤسسات الديمقراطية المرنة والدائمة؛ ولما كان المجتمع المدني التعددي والهيئات التأسيسية الديمقراطية غائبين، فقد كتب بوليفار مشيرًا إلى "أمة ليبرالية" أقامتها الدولة، التي سوف تقوم أيضًا بتربية – أي إقامة – مواطَنة ديمقراطية، فهل يمكن الوصول إلى هذا بدون قوة؟ وإذا ما كان الأمر يتعلق بالقوة، أليس من الأنسب أن يحكم الجيش الأمة؟ وإذا ما كانت هناك أمة يحكمها الجيش هل يمكن أن تكون ليبرالية وديمقراطية؟

لا شك أن حروب الاستقلال حررت الكثير من القوى الاجتماعية المتعددة والمجددة، إنها قوى غير متجانسة وما زالت بكرًا، وقد شعرت بعدم حاجتها مقاسمة بوليفار في كدره وضيقه. كانت هذه القوى هي الأغلبية الهندية والسود والمهجنين وهي قوى لم يتم تمثيلها حتى في المؤتمر التأسيسي في أنجوستورا. كان هؤلاء هم الإقطاعيين مُلّاك الأرض من الكريّو **Criollo**، وهم الذين لم يؤيدوا الاستقلال خوفًا من ضياع أملاكهم أو حصول سلالة **"Pardos"** على سلطة ما؛ وفوق كل هذا كانوا هم القادة العسكريين الجُدُد، مثل بايث **Paez**، حيث أخذوا يسيطرون على مساحات شاسعة من الأراضي التي منحها بوليفار مقابل خدماتهم في زمن الحرب. وسرعان ما أطلق هؤلاء مبادرتهم والتي بمقتضاها أنه إذا ما كانت هناك ضرورة للوحدة والقوة فهم القادرون على تقديمها.

أداروا جميعهم ظهورهم لبوليفار وتخلوا عن المحرر فى مسيرته الطويلة وحيداً نحو الموت، لكن هذا الطريق كان يمر عبر الدكتاتورية والفشل. انتاب بوليفار الخوف من أن تعم الفوضى والتشرذم والتفكك فى الجمهوريات الجديدة، فأعلن نفسه عام ١٨٢٨م دكتاتوراً باسم الوحدة؛ والآن، يجب على المُحَرِّر أن يواجه كراهية المواطنين له بما فى ذلك محاولات اغتياله. فشلت إحدى محاولات اغتيال بوليفار عام ١٨٢٨م بفضل عشيقته ماثولينا ساينت، التى ألهت القتلة حتى يتمكن بوليفار من الهرب.

تملك بوليفار الشعور بالهزيمة، فعلى مدى عشرين عامًا من الكفاح وصياغة دساتير بيد وسَلّ السيف باليد الأخرى لدرجة "أننا لم يكن لدينا وقت متاح للتعلم ونحن ندافع عن أنفسنا" خارت قواه فسقط ضحية فقدان الأمل:

"أمريكا كاملة هى عبارة عن لوحة مرعبة من الفوضى الدموية... فكولومبيا تسير فى قفزات وتسقط فى وهاد، البلد تعيش حرباً أهلية ... وفى بوليفيا، نجد تعاقب ثلاثة رؤساء فى ثلاثة أيام وقتلوا منهم اثنين".

أسِفَ لذلك عام ١٨٢٩م، وعندما ترك مدينة بوجوتا **Bogota** فى منتصف ليلة الثامن من مايو لعام ١٨٣٠م خرج الناس إلى شرفاتهم وألقوا بمحتوى مَبْولاتهم على رأسه؛ فقال لمساعده العسكرى: "هيا بنا فالناس هنا لم يعودوا يحبوننا".

هذا حق: لقد تعرض للسب واتُّهِم بأن له طموحات دكتاتورية، واتُّهِم بأنه مجرم فى بلده فنزويلا، فواصل طريقه المحاذى لنهر ماجدالينا صوب البحر وأطال بذلك الرحلة وكأن الأمر مرتبط بإطالة عمره. هنا نجد جابريل جارثيا ماركيث يعيد تصوير هذه الرحلة الأخيرة لبوليفار صوب البحر، ويجسد أمامنا آلاف الذكريات واللقاءات والاستطرادات والذرائع التى هيأت للمُحرِّر إطالة عمره عدة أيام أخرى. إن هذه الرؤية الدائمة لرواية "الجنرال فى متاهته" إنما تفصح عن عقلية وألمعية إبداعية وخلاقة تجد جسداً يبلى لا يستطيع أن يتجاوب مع إرادة صاحبه.

ومن على فراش الموت فى سانتا مارتا، بعد ذلك بأسابيع، نجده، أى بوليفار، ينطق بمحتوى شاهد قبره: "أمريكا لا يمكن لنا أن نحكمها، ومن يخدم ثورة فهو يحرث فى البحر".

ها هو الفتى صاحب المُثُل والقائد الحربى العظيم ورجل الدولة الفاقد الأمل يموت وهو فى السابعة والأربعين من العمر.

صباح الاستقلال:

فى صباح اليوم التالى للاستقلال استيقظنا على حقيقة كلاسيكية مؤلمة حيث أدركنا وجود مسافة شاسعة بين المثاليات والأفعال، وكيف أن المثاليات كثيراً ما يتم تدميرها بفضل عدم الاتصال والعزلة وغيبة الهيئات التأسيسية وبؤس الممارسات الديمقراطية وعمق بين الانقسامات بين العاصمة والداخل، وبين المبادرات المحلية والحكومة المركزية، وبين ما هو تقليدى وما هو حديث، وبين الليبراليين والمحافظين. ومع هذا هناك نكتة شائعة فى بوجوتا تقول بأن الفارق الوحيد بينهم هو أن الليبراليين كانوا يذهبون للقُداس فى السادسة، بينما المحافظون يذهبون إلى قداس السابعة، إلا أن الفارق المرير، والفظ والقاسى والعميق ظل يتمثل فى عدم المساواة الاجتماعية.

أسهم كل هذا فى خلق فراغ فى حياة إسبانوأمريكا، فبعد خمسة عشر عاماً من الحرب المستمرة ندمنا على غيبة الملكية الإسبانية كمؤسسة سياسية مركزية؛ وحقيقة الأمر هى أن الملكية والكنيسة كانتا المؤسستين الأكثر قوة وقُدُماً، فهل تمكنت مدريد من التصرف فى الوقت المناسب للحيلولة دون نشوب ثورات الاستقلال؟ كان ذلك هو البرنامج أو الاتجاه الذى عليه كونت أراندا Aranda ذلك العجوز المعروف ورجل عصر التنوير الذى حذر كارلوس الثالث من انفجار سوف يحدث فى المستعمرات الأمريكية التابعة لإسبانيا وقدم له الحل لهذه المشكلة؛ كان يريد إنشاء مجتمع أو عصبة الأمم المتحدثة بالإسبانية فى أمريكا، وترتبط بإسبانيا وفيما بينها، على الشاكلة نفسها التى أصبحت عليها يوماً ما مستعمرات بريطانيا العظمى.

لم ينصت أحد لأراندا، وأودى العمى السياسى الذى أصاب كلاً من الملك كارلوس الرابع وفرناندو السابع، بحياة فكرة مجتمع الأمم؛ لكن ربما لم نكن مهيئين لنتحمل أعباء تقرير مصيرنا. وهنا نجد أن سان مارتين - طبقًا للقائد الإنجليزى ويليام بولس W. Bowles - كان ليأسف "لهذا الاستعداد الثورى الخطر الذى عليه الطبقات الدنيا؛ حيث إنها لم تتلقَّ تربية ووعيًا كافيين". ومن جانبه نجد عدوّ بوليفار، الجنرال سانتاندير Santander، بصفته رئيس كولومبيا يحوّل، برفق، هذا الخوف إلى نفاق جدير بـ Uriah Heep عندما قال:

"أبارك ألف مرة بلدة كونديناً مارك، هذا البلد الريفى والجاهل، لكنه ذو صفات جميلة وبخاصة طاعته التى تستحق التصفيق".

كانت هذه المواقف تشكل جزءًا من تبرير سوف يكون له صداه، الذى يزداد قوة مع الأيام، خلال القرن والنصف التاليين: لم نكن مهيئين للاستقلال؛ لم نكن جاهزين للديمقراطية؛ لم نكن جاهزين للمساواة، ولكن: متى يمكن أن تكون أمة ما جاهزة لهذا؟ فهل كانت كذلك إفريقيا السوداء أو الهند؟ وهل كانت كذلك الولايات المتحدة الأمريكية فى حقيقة الأمر؟".

لا يمكن لأحد أن يتعلم العوم إلا إذا ألقى به فى المياه، وما كان على أمريكا الإسبانية تعلمه، كان يمكنها أن تفعله من خلال الاستقلال، فقد تعلمنا أن التاج الإسبانى والكنيسة هما أقدم المؤسسات عندنا، وقمنا بطرد الملكية، وكان علينا أن نضع هذه الأخيرة - الكنيسة - فى موضعها الصحيح. تعلمنا أن واقعنا المجدد دائمًا هو المجتمع المدنى، تعلمنا الحاجة إلى طبقة متوسطة نشطة، ولكن لا يكون ذلك على حساب العقليات الإبداعية التى عليها المجتمعات الريفية. أخذت الدوائر الثقافية والأحزاب السياسية فى الإفصاح عن نفسها؛ لكن بين غيبة الملكية وضعف المجتمع المدنى، وبين واجهة أمة القانون وحقيقة الأمة الفعلية كان هناك فراغ سوف يتم ملؤه بالشىء الذى كان يفزع منه ويخشى سان مارتين وهو "الجندى المحفوظ، الرجل القوى، أى الطاغية".

سيطر الدكتاتور على المسرح فى أمريكا الإسبانية لزمن طويل.

الفصل الثالث عشر

زمن الطُّغَاة

انتشرت الثورة الأرجنتينية، خلال الفترة من ١٨١٠ و ١٨١٥م، من بوينوس أيرس، وهى تحمل رسالة واضحة للحرية، فقد عرفت ثورة مايو وحدة السلاح والآداب، طبقًا لمقولة دون كيخوته: "إن اجتماع الجيش والمثقفين من أجل هدف مشترك هو الاستقلال"، غير أن هذا التحالف سرعان ما واجه معضلة نمطية نجدها فى كافة المجتمعات الثورية: طارد المثاليين الديمقراطيين أصحاب المناهج والوسائل غير الديمقراطية، والغاية من المطاردة هى الوقوف ضد أخطار، فعلية أو متخيلة، على الثورة. ولهذا الغرض تم إنشاء "لجنة الصحة العامة" فى بوينوس أيرس، وكان لها صلاحية رصد المعارضة وقبول بلاغات الإدانة فى حق من يفترض أنهم من مناهضى الثورة وتنفيذ حكم الإعدام فيهم فى محاكمة عاجلة، وهذا ما حدث مع التاجر ذى الاتجاهات الملكية مارتين ألثاجا ومعاونيه عام ١٨١٢م. غير أن بذور التشدد هذه لا تفسر ظهور الأنظمة الطاغية فى أمريكا الإسبانية.

الثورات كان يحرّض عليها الحماس للتحرر، وهنا نعود مرة أخرى إلى الحالة الأرجنتينية حيث نجد خير مثال على ما نقول، فقد قام خوان خوسيه كاستلّى، ذلك الرجل الهُمَام المتعصب اليعقوبى، من بوينوس أيرس، بنشر أفكار التنوير الفرنسية فى "أعالى البيرو" وأخذ يبث ما كان يقول به روسّو وفولتير، بين الهنود الكيتشو والأيماراس، وألغى، بالقوة، الضرائب التى فرضت على الهنود وقام بتوزيع الأراضى ووعد بإقامة

المدارس والمساواة؛ وقد حدث كل هذا بشكل آلى كنتيجة لحالة تمرد دائمة. إذ كان كاستلى يقول لجماهير الهنود: "انهضوا، فقد انتهى كل شىء، نحن الآن متساوون". وفى شيلى، ثلاثون عاماً بعد ذلك، كان هناك كاتب أرجنتينى منفى، كان يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عامًا، يدعى دومنجو فاوستينو سارمينتو: كان هذا الرجل يشعر بالحنين إلى زمن الثورة والجسارة التى بدأت بها الأرجنتين ثورتها، ونقلت ثورتها إلى كل مكان وكانت تشعر "أنها موكلة من أعلى بالقيام بعمل عظيم". وها هى الأرجنتين تحصل على الجائزة:

> "فعلى مدار أربعة عشر عامًا لقّنت إنجلترا درسًا وجالت فى منتصف القارة وزودت عشرة جيوش بالسلاح وخاضت مائة معركة ميدانية وانتصرت فى كل مكان وشاركت فى كافة الأحداث وكسرت كافة الموروثات وعلّمت كافة النظريات وغامرت بكل شىء وخرجت سالمة [والآن] "تعيش وتغنى وتتحضر...".

فى آنٍ معًا كان سارمينتو يكتب وهو فى شيلى هاربًا من الطاغية السفاح خوان مانويل دى روساس فى بوينوس أيرس. فما الذى حدث للوعد بالمجد والحرية؟ "جاءت الجيوش مع الثورة ومعها المجد والانتصارات والنوائب. ومعها أيضًا هلّت التمردات والفتن".

هناك فتى شاب يُدعى سارمينتو، من سان خوان، شمال الأرجنتين، هو فتى شاب لامع، وعِصامِي، استطاع فى شبابه أن يمحو أمية بعض البالغين؛ وكان هذا الكاتب النشط على حق عندما أخذ يتساءل عن ضياع حلم الاستقلال بشكل مؤلم ابتداء من المكسيك وحتى الأرجنتين عندما كان القرن يشرف على منتصفه، ألم يضع الليبراليون فى حسبانهم إقامة جمهورية ديمقراطية مثالية تقوم، ثقافيًا وقانونيًا، على شاكلة النماذج الأوربية والأمريكية؟ أخذ كتاب "العقد الاجتماعى" لجان جاك روسو، "ينتقل سريعًا من يد ليد"؛ هذا ما كتبه سارمينتو فى كتابه الكلاسيكى "فاكوندو: الحضارة والبربرية"، وقال أيضًا: "إن روبسبير و"المجلس" **Convencion** هما نموذجان... وتظن بوينوس أيرس أنها استمرار لأوربا...".

ومعنى هذا أن سارمينتو، دون أن يدرى، قد رد على تساؤله، إذ إن منظرى الثورة الليبرالية ورجالات الدولة بها تخيلوا ديمقراطية إسبانوأمريكية مثالية وأعلنوها على الملأ؛ وكان سيمون بوليفار بينهم. إلا أن هذه الديمقراطية المقترحة من خلال القوانين والمعلنة من عَلٍ لم تضع فى اعتبارها التنويعات الكثيرة التى عليها الواقع الذى كان يجب تغييره حتى تتحول الديمقراطية إلى شىء أكثر من النية وتتحول الحرية إلى ما هو أبعد من إعلان نشره كاستلى Castelli على مجموعات الهنود الأميين فى أعالى البيرو، فهؤلاء لم يفهموا كلمة واحدة من الإسبانية.

رغم إلهامه الديمقراطى فإن مقاومة الهياكل القديمة، سواء الخاصة بالسكان الأصليين أو الاستعمارية كانت قوية ومضادة للتغيير، وتم التقليل من شأنها. هنا نجد أن الجمهوريات الجديدة، وقبلها كان التاج الإسبانى، أخذت تبدو أنها بعيدة عن المشاكل والهموم المحددة التى يعيشها العمال والفلاحون والذين كانوا ينظرون إليها من مواقعهم وهم فى القاعدة؛ كما كانت هذه المشاكل تبدو بعيدة عن ذهن الإقطاعيين والقادة المحليين السياسيين الذين كانوا يريدون زيادة سلطانهم ومزاياهم ولا يرغبون فى التفريط فيها وتسليمها للعمال. نجد إذن أن هذا الحماس الذى أعلنته الأرجنتين المستقلة بتضامنها مع ثورات أخرى، كما أن سارمينتو أشار إليه بانفعال، أصبح فى نهاية المطاف خطوة غير محسوبة بشكل جيد؛ فالأجراس الأرجنتينية التى قُرِعَت لفرض ثورة شاملة فى باراجواى تمخضت عن دكتاتورية كاملة على يد الدكتور جاسبار رودريجيث دى فرنسا، والذى أغلق باب الدخول إلى "جمهوريته"؛ كما أن الحملة التى أطلقها كاستلّى فى أعالى البيرو أفزعت الطبقات العليا المحلية التى أخذت من جديد تناصر الإسبان، وحاربت ضد الجيوش الثورية، وبعد فترة أعلنت الاستقلال لصالحها (أى لصالح هذه الطبقة) دون أية تنازلات للعمال.

وها نحن نرى انضمام طبقة جديدة من المُلاّك - مكونة من ضباط الجيش - إلى الطبقات العليا التقليدية ودعمت من موقفها، وهذه الطبقة الجديدة قد حصلت على الأرض لقاء الخدمات التى أدوها فى الحملة الثورية، سبق أن ذكرتُ آنفًا، أن بوليفار،

عام ١٨١٧م، وقع على مرسوم يعد بمصادرة الأراضى التى هى ملك الدولة فى فنزويلا لصالح جنود الجمهورية، إلا أن الكونجرس أعلن من جانبه أن الجنود سوف يحصلون على حقوقهم فى صورة صكوك يمكن المطالبة بها فى تاريخ لاحق على الحرب غير محدد. وعندما حل الميعاد نجد أن هذه البونات أو الصكوك لم يطالب بها رجال المُشاة من الأميين، بل كان الضباط الأقوياء من أباء الانتصار؛ وبهذه الطريقة نجد أن خوسيه أنطونيو بايث، ذلك الزعيم الجمهورى فى سهول فنزويلا، يحصل على مساحات شاسعة من الأراضى فى إقليم Apure، ورغم أنه لم يؤسس جمهورية انفصالية، فإنه أصبح القانون، ولا يبالى على الإطلاق بما تفعله حكومة كاراكاس.

شجعت حروب الاستقلال الطبقات العليا التقليدية على التمسك بالسلطة، وهيّجت طموحات الزعماء وأفلتت فى كلتا الحالتين عقال دينامية رهيبة أدت بهم إلى مواجهة الحكومات الوطنية والليبرالية الحديثة الظهور، ابتداء من حكومة بيثنتى جيريرو فى المكسيك وحتى حكومة برناردينو ريبادابيا فى الأرجنتين: وقد حلت محل الحكومتين دكتاتوريات رجعية: أى سانتا أنا فى المكسيك وروساس فى الأرجنتين. أحدث الغياب المفاجئ للسلطة الاستعمارية، بعد ثلاثة قرون، فراغًا واضحًا، وقد تم ملء هذ الفراغ رسميًا من خلال الحكومات الليبرالية المركزية، التى وَضُح عدم قدرتها على فرض سيطرتها محليًا. كما أن وجود هؤلاء الزعماء المحليين أصبح تحديًا للحكومات الوطنية الجديدة؛ لم تستطع هذه المثالية والسذاجة السياسية التى كان عليها الليبراليون الذين كانوا يقيمون فى العواصم أن تقف فى وجه قوى الطرد المركزى.

كان الليبراليون المركزيون يريدون فرض نظام شرعى على كافة أرجاء البلاد، وكانت هذه هى السياسة التى اتبعها برناردينو ريبادابيا فى الأرجنتين الرجل الذى استطاع خلال العشرينيات من القرن التاسع عشر أن ينشر التعليم ويقلل من سلطة الكنيسة ويتمكن من نقل مكثف لملكية الأراضى من الملكية العامة إلى الملكية الخاصة؛ غير أن الأمر الأكثر إثارة للسخرية فى هذا النموذج تمثل فى أن أراضى الدولة حصل عليها عدد قليل من المزارعين الذين فرضوا سلطانهم على مساحات ضخمة من الأراضى

التى أطلق عليها العزبة؛ ففى عام ١٨٢٧م، عندما وجد ريبادابيا نفسه مُجبراً على التنازل عن السلطة، كان قد جرى نقل واحد وعشرين مليون أكر Acre (مساحة الوحدة ٤٠٤٦,٨٦م٢) وزعت على خمسمائة فرد، واستقر نظام العِزَب هذا طوال فترة طويلة من الزمن.

سقط ريبادابيا، ولم يكن سقوطه بسبب قوانين الملكية الساذجة وغير المحسوبة بل لأنه رفض أن يتزحزح قيد أنمُلَة عن سياسته المركزية أو "الوحدوية" التى كانت تشجع على هيمنة بوينوس أيرس على الاستقلال الذاتى للأقاليم. لكن السلطان الحقيقى بما فى ذلك السلطان الذى يتحدى الحكومة الوطنية هو الذى يوجد فى الأقاليم؛ وهنا يبرز أمامنا اثنان من الزعماء المحليين الأرجنتينيين: إسْتَانِسْلاو لوبث، فى سانتافى، وفاكوندو كيروجا فى لاريوخا؛ نجد أن كيروجا هو بطل الدراسة الشهيرة التى أعدها سارمينتو عن السياسة والتاريخ والعادات الأرجنتينية، "فاكوندو" والعنوان الجانبى "الحضارة والبربرية". كان كيروجا، ذلك الزعيم المحلى، نموذجًا، من الناحية الجسدية، للبربرية بعينها؛ فها هى اللحية السوداء تنتشر بكافة أجزاء وجهه حتى الخدين، كما أن شعره المجعد الطويل يكاد يغطى جبهته وكأنه "حية رأس الإلهة ميدوسا". وطبقًا لسارمينتو كان فاكوندو قادراً على قتل إنسان بركلاته، وقد حدث ذات مرة أن شج رأس ابنه بفأس وذلك لأن الطفل لم يكف عن البكاء! وتمادى فى أفعاله لدرجة أنه أضرم النار فى المنزل الذى كان يعيش فيه والداه لأنهما رفضا إقراضه مبلغًا من المال، كما نشر فاكوندو رايات سوداء تحمل هذا الشعار: "الدين أو الموت"، لكنه لم "يركع" للرب، أو يعترف أو يحضر قُدَّاسًا. كان سارمينتو الليبرالى الجيد يريد أن يعلّم ويُمَدِّن ويُحدِّث العالم الذى يعيش فيه وهو عالم ذو توجهات غير متحضرة. ومع هذا فإن سياسة الحضارة كان يجب أن تنتظر حتى ينتهى زمن البربر.

بعد أن قام ريبادابيا – سواء كان عامداً أو غير واع بما يفعل – بنقل سلطات اقتصادية عملاقة إلى مجموعة محدودة من المُلاّك، كان على هؤلاء أن يتناولوا موضوعات محددة، فعلى سبيل المثال: من سيقوم بحماية مصالحهم بطريقة ملائمة؟

هل هم الزعماء المحليون أو الحكومة الوطنية؟ غير أن هناك اعتبارًا آخر أخذ يطل برأسه، فحتى تستمر الأمور وحتى تمتد الأملاك إلى السهول المترامية الأطراف، نجد أن نظام الملكية داخل الأرجنتين يستلزم أمرًا أصبح فيما بعد مبدأً رئيسيًا من مبادئ ثورة الاستقلال: حرية التجارة وحرية استيراد السلع المصنعة من الدول الأوربية ومن الولايات المتحدة، وتسهيل عملية التبادل من خلال تصدير القمح والصوف والجلود واللحوم الأرجنتينية.

أخذت هذه الدوامة من المطالب تتأرجح بشكل خطير فى إطار ذلك الفراغ الذى خلفته المَلَكية الإسبانية، الأمر الذى يفسر ظهور الطاغية الإسبانوأمريكى النموذجى مثل خوان مانويل دى روساس؛ أدرك هذا الشخص المكيافيلى، الذى يحظى بسمات الأسد والثعلب معًا هذه الثنائية القاتلة فى الأرجنتين، ففى هذا البلد نجد أن "المركزيين" يطلق عليهم "الموحدون"، إذ كانوا من أنصار التواؤم الذى يشمل العاصمة بوينوس أيرس والمنطقة الساحلية المحيطة بالعاصمة. كانت سلطة بوينوس أيرس تقوم على عمليات التصدير والاستيراد والزراعة والتمليح (المنتجات المملحة)، على هذه الأسس الثلاثة قامت ما أطلق عليها "حضارة الأبقار" فى الأرجنتين. من جانب آخر نجد أن الفيدراليين مستقلون ذاتيًا وإقليميون وكانوا من أنصار المشاركة المرنة بين المحافظات، وهنا فإننا إذا ما نظرنا إلى أمرها من الناحية المادية نجد أنها كانت قائمة على النشاط التعدينى وعمادها قطاعات عريضة من السكان المتنقلين الذين لا موظف لهم؛ كان عالمهم هو عالم مسالك الطرق التى يسير فيها الثور يجر العربة، فقد كانت الرحلة تستغرق ثلاثة أشهر من الحدود الشمالية للبلاد حتى بوينوس أيرس. وكانت المحافظة النائية هى مركز السلطة عند الزعماء المحليين.

وضع روساس، الرجل الشديد الثراء فى بوينوس أيرس، إستراتيجية خادعة بمقتضاها تقدم ضمن صفوف الزعماء الإقليميين كواحد منهم للدفاع عن المصالح الخاصة بالمحافظات، وكان ذلك ضمن عملية توطيد أركان السلطة المركزية؛ فمن الناحية السياسية أعلن ولاءه للفيدرالية وأقسم بالكفاح حتى الموت ضد الموحدين،

غير أنه استطاع، بفضل الخلط الذى أدخله على السياسة الأرجنتينية، أن يستقطب الزعماء المحليين أولاً، ثم هزيمتهم. وعندما مات كيروجا **Quiroga** ولوبث **Lopez** أصبح روساس هو سيد الموقف فى الأرجنتين، وكان ذلك باسم الفيدرالية التى كان يكن لها الاحترام الخطابى فقط. قام فى حقيقة الأمر بمحاربة الموحدين بطريقة شديدة القسوة مستخدماً قواته الفيدرالية ذات القبعات الملونة وزهور القرنفل من اللون نفسه وكانت الغاية أن يفرض ما قال إنه يحاربه: أى السلطة المركزية. وجد الإقطاعيون وكبار مُربِّى الماشية، فى روساس ضالتهم المنشودة؛ فقد ضمن هذا الطاغية سيطرة بوينوس أيرس والمزارع، أو العِزَب، وصناعة التمليح، وكذلك التزايد المستمر فى الاستيلاء على الأرض من خلال عمليات البيع والشراء والتبرعات، هنا أيضًا نجد أن الحكومة والمحيطين بها قد ضمنت لنفسها عائدًا مستمرًا من خلال السيطرة على جمارك بوينوس أيرس، وذهب الأمر إلى أبعد من هذا، فقد ازداد عدد هؤلاء الأفراد المتحالفين مع روساس بفضل مصادرة أموال الأعداء السياسيين للنظام، كما أن طبقة الإقطاعيين كانت له شكورة عندما استطاع توسيع رقعة الأراضى الرعوية بفضل حروبه المستمرة ضد الهنود.

سلم روساس السلطة للقوات المركزية، بينما كان يتغنى بأنه من أنصار الفيدرالية، هذا كله إنما يؤكد المرونة السياسية الشديدة التى كان عليها الدكتاتور الأرجنتينى، وعندما نتأمل ملاحظات المراقبين الأجانب له نجد أنهم يصفونه بأنه أشقر عسلى العيون قوى البنية. فى عام ١٨٣٥م نشرت المجلة الفرنسية **Revue des Deux mondes** تقول: "لا أحد يقدر على ترويض مُهْرة أو يكسر شكيمة حصان برى أو يصطاد فهدًا، أفضل مما يفعله روساس"، وهذا هو الواقع، فروساس لم يخف أبدًا طبيعته الديماجوجية:

> "كان ريبادابيا لا يهتم بما هو جسدى، فرجال الطبقة السفلى، أى رجال الأعمال الموسمية، هم من يعملون ويكدون... وهنا بدا لى منذ تلك اللحظة إحداث تأثير كبير على هذه الفئة العاملة إما للسيطرة عليها أو توجيهها، ووضعت أمام عينى الوصول

> إلى ذلك بكل السبل، ولهذا كان من الضرورى العمل الدؤوب والتضحيات الكثيرة بالوقت والمال وأن أتحول إلى رجل مثلهم من رعاة البقر وأن أتحدث معهم وأقوم بكل ما يقومون به، أن أحميهم وأجعل من نفسى الوصى عليهم...".

يتسم هذا الصنف من المنطق بالظُّرْف، وعكس ذلك ما نجده من الكتابات المغالية لأتباعه الذين أطروا قدراته العقلية ومعارفه الواسعة وحنكته السياسية وجرأته فى الحملات الحربية، ويقول كاتب هذا الإطراء والمديح بأنه رجل دولة لا مثيل له، فهو محارب مقْدَام وجرىء وماهر. وخلاصة القول نجد أن روساس بدا فى عينى هذا المادح "النموذج المثالى للسياسى والبطل والمحارب والمواطن العظيم".

هذا الصنف من التكريم الممجوج الذى ظهر فى صحيفة "لاجازيت ميركانتيل" **La G. mercantil** التى يسيطر عليها روساس، أضفت عليه التعليقات الأجنبية الكثير من الاعتدال، إذ اعترف رحّالة فرنسى أن روساس كان قد سيطر على الفوضى "التى كانت تنهب الأرض"، غير أن هذا الانتصار جرى وصفه على النحو التالى:

> "من المؤسف أن روساس ذهب فى تصرفاته إلى الطرف المضاد... فقد جعل نفسه فوق المؤسسات القائمة، وأجبر باقى السكان جميعًا على إطراء صورته، وأمر بإحراق البخور أمام صورته فى الكنائس، وركب عربته التى جرّتها مجموعات من النساء...".

وفى الوقت نفسه كان يقوم فيه بدور صديق الشعب، رغم أنه فى واقع الأمر كان يحمى مصالح الأقليات من الإقطاعيين؛ فقد بدا - روساس - على هذا النحو من خلال العبارة اللاذعة التى قالها سارمينتو:

> "لقد أدخل نظام مزارع تربية الماشية فى إدارة الجمهورية الأكثر ميلاً للحرب والأكثر حماسًا للحرية والتى قدمت التضحيات الغالية للوصول إليها".

فعل ما هو أسوأ من ذلك، فها هو الكونت أليخاندرو والويسكى A. Walewski، الدبلوماسى الفرنسى، ابن نابليون بونابرت وابن الأرستقراطية البولندية ماريا وايلويسكا M. Waleska يشير بوضوح إلى "أن روساس لم يكن بقادر على البقاء فى السلطة إلا بالقوة". "فهو إمبراطورى ومحب للانتقام" كما ارتكب الكثير من الأحداث الدموية التى تتوجه "بأكاليل الرعب"؛ لم يكن يسمح بالمعارضة وانتهى به الأمر إلى ما قال والويسكى Walewski من "إقامة نظام قمعى قانونى يطارد به أعداءه".

قام روساس بتكوين "العُصْبة" mazorca التى ربما كانت أول كتيبة للموت فى أمريكا اللاتينية، وكانت الغاية إسكات الأعداء؛ وهنا يقص علينا سارمينتو كيف أن الرئيس المحلى لهذه "العُصْبة"، بمدينة قرطبة، ويدعى بارْثينا، قد جاء إلى حفل راقص وألقى برؤوس مقطوعة لثلاثة من الشبان على حلبة الرقص، حيث كان أفراد عائلاتهم من الحضور فأصابهم الفزع الشديد؛ وفى هذا السياق نجد سارمينتو يشير إلى أنه "خلال الفترة من ١٨٣٥ وحتى ١٨٤٠م فإن الغالبية العظمى من سكان بوينوس أيرس قد مرت بالسجن (بروساس)". لماذا؟ وماذا فعلت؟ إنها لم تفعل شيئًا على الإطلاق "أنتم حمقى! ألا ترون أن المدينة يتم تربيتها؟..".

هى الفوضى أو الطغيان؛ لقد ساعدت هذه الحركة القمعية التذبذبية فى حياتنا السياسية على تقديم تبرير لروساس لاستخدام السلطة بالطريقة التى استخدمها، فقد وحد البلد، حتى أن سارمينتو أقرّ بهذا، وانتزع السلطة من الزعماء المحليين وعندما فعل ذلك فقد حال دون تفكك الجمهورية الأرجنتينية، وسرعان ما أدرك أنه من بين الحقائق التى كان يمكن أن تُقال عن الأرجنتين نجد أن الحقيقة الرئيسية فيها تتمثل فى أنه كان على بوينوس أيرس أن تقوم بدور أساسى، إذ كانت الجسر الوحيد القائم بين الأمة وباقى العالم، وكانت كذلك بين المركز التجارى الرئيسى للأمة والمنتجات الداخلية للجمهورية.

استطاع روساس أن يدير مسرحها السياسى بمهارة، فهو من الناحية الاسمية فيدرالى، ومن الناحية الفعلية مركزى، وأفاد من التناطح بين القوتين للتقليل من مقاومتهما وتركيز السلطة فى يده. ظل روساس على قمة السلطة ثلاثة وعشرين عامًا،

من ١٨٢٩ حتى ١٨٥٢م؛ وما زال الأرجنتينيون يتناقشون بحرارة حول شخصيته. ألم يتمكن من تحقيق الوحدة ويقضي على الفوضى ويحقق رواجًا تجاريًا على المستوى الدولي، ويدعم الوطنية ومقاومة التدخل الأجنبى والدفاع عن التنمية الداخلية القائمة على القوى الإنتاجية؟ هذه هي حجة المدافعين عن روساس، ولكن: هل يمكن للاشرعية والقسوة والإرهاب الذى يرتدى قناع النظام أن تكون كلها ثمنًا للحرية؟

طُغاة: أبرياء أم مذنبون؟

على الشاطئ الآخر من النهر الواقع فى منطقة الحدود مع الأرجنتين، فى منطقة بارانا Parana، كان هناك زعيم آخر حكم الباراجواى "كدكتاتور أبدى"، وكان ذلك خلال الفترة من ١٨١٤ حتى ١٨٤٠م؛ إنه الدكتور جاسبار رودريجيث دى فرنسا الذى أفاد أيما إفادة من الشعور الوطنى فى باراجواى لصالحه؛ فبلاده تقع بين الأرجنتين والبرازيل الطامحتين، لكنه لم يذعن لدوره كبلد فاصل بين عملاقين فى أمريكا الجنوبية، وهذا ما كان مضاداً لمصير هذه الجمهورية؛ فقد استند إلى أن باراجواى غير مستعدة لتستبدل الحكم الإسبانى بحكم البرازيل أو الأرجنتين، واستطاع الدكتور دى فرنسا أن يعزل أمته عن أى اتصال بالعالم الخارجى.

الباراجواى بلد يقع فى قلب أمريكا الجنوبية وليست له سواحل خاصة به، وظل هذا البلد الاحتياطى الاستعمارى لطائفة اليسوعيين، وها هو الآن مُحاط بجيران لهم طموحات فيه، وهنا استطاع الدكتور دى فرنسا جعل هذه العُزلة فضيلة وميزة، وأغلق أبواب البلاد بحجة إنقاذها من هيمنة وابتلاع الآخرين لها؛ فعين نفسه "الأعلى" ومنع التجارة والسفر إلى الخارج وكذلك خدمات البريد بين أمته الحصن وبين العالم الخارجى. وهنا نجد أنفسنا وكأننا نقرأ رواية لايفلين ووج W. Waugh، فالأجنبى الذى كان يستطيع دخول باراجواى يبقى هناك إلى الأبد، وغلف الدكتور دى فرنسا مغالاته الحديدية فى التعصب لوطنه بدثار من الشعبية. ومن باب الضرورة فإن جمهوريته المنطوية على نفسها كانت تعيش اكتفاءً ذاتيًا، فأقام اقتصاداً يهدف إلى البقاء وشجع

الحكم الديماجوجى للجماهير تحت قيادة الطاغية، وهاجم الكنيسة وأضعفها؛ ومع هذا، فكما حدث فى الأرجنتين نجد أن الطاغية يحمى فى نهاية المطاف مصالح الطبقة العليا سواء كان أفرادها من القدامى أو المحدثين؛ وها نحن نرى أن المُلْك الممتد زمنيًا للدكتور دى فرنسا يؤكد أمرًا، غالبًا ما يتم تجاهله، وهو أن جذور القومية اللاتينية الأمريكية تكمن فى اليمين ووضح بجلاء بأن الاستبداد الشعبى يستطيع فقط أن يضع قناعًا على الجمود الذى يفرضه الطاغية على المجتمع: أى إعطاء الانطباع بأن كل شىء يتحرك، ولكن لا شىء يتغير.

انتهت "الدكتاتورية العليا" للبرىء الدكتور دى فرنسا عام ١٨٤٠م عندما وافته المنية وهو فى الرابعة والسبعين من العمر. لم يستطع أن يخلص أمته من الحَزَن والغم والأزمة المستديمة، فخلال الفترة من ١٨٦٥ وحتى ١٨٧٠م حاربت باراجواى كلاً من البرازيل والأرجنتين، والمحصلة هو أن أغلب أبناء هذه الأمة الصغيرة من الذكور مات فى الحرب؛ تعرضت البلاد لكثير من الحروب حول غابات تشاكو **Chaco**، مع بوليفيا، واستمرت تحت وطأة الدكتاتوريات حتى أيامنا هذه.

عندما نبحث عن المعادل والمعاصر لكل من روساس (الأرجنتين) ودى فرنسا (باراجواى) فى المكسيك نجد أنه الجنرال أنطونيو لوبث دى سانتا أنا، لكنه كان أقل حظًا من رفاقه، فعلى العكس مما حدث لـ"دى فرنسا" الذى أصبح بطل قصة قوية لأوجوستو رُوَا باستوس **A.R.Bastos**، لم يستطع أحد أن يصور المكسيكى سانتا أنا تصويرًا أدبيًا، فهو شخصية ربما تستعصى على خيوط الإبداع الأدبى، ذلك أن حياته بها الكثير من الخيال الذى يتجاوز الخيال القصصى، فسيرة سانتا أنا نجد فيها الواقع وقد هزم الخيال؛ فها هو مرسوم على الجدران المعاصرة بريشة دييجو ريبيرا **D.Rivera**، وهى لوحات كأنها تصور حكايات كوميك مُفخَّمَة، لكن النمط الذى يلائم سانتا أنا هو قالب الدكتاتور اللاتينى الأمريكى الذى نجده فى أحد الأوبريتات. كان داهية ومُغْويًا، واستطاع التوفيق بين كافة هذه السمات فى إطار جرعة كبيرة من الجرأة والصلف، حيث رأس البلاد إحدى عشرة مرة خلال الفترة بين عامى ١٨٣٣ و ١٨٥٤م. إنه شخصية "جروتسك"، لدرجة أنه وقع فى شَرَك تنظيم انقلابات ضد نفسه.

فى عام ١٨٣٨م فقد سانتا أنا إحدى ساقيه فى "حرب الحلوى G. Pasteles" ضد فرنسا، وقد أطلق عليها هذا المسمى لأنه كانت هناك مجموعة من السفن الحربية الفرنسية التى ضربت مدينة بيراكروث مناصرة لمطالب خبّاز فرنسى جرى نهب حلوياته ومخبوزاته أثناء تمرُّد حدث فى مدينة المكسيك، وهنا نجد سانتا أنا يدفن ساقه المقطوعة فى كاتدرائية المكسيك فى إطار احتفالى ومباركة الأساقفة. غير أن الساق قد أخرجت من القبر وأخذت تحملها الجماهير فى كل مرة يخرج فيها سانتا ماريا من سُدّة الحكم، ثم دفنها من جديد وسط احتفالية وتبريكات عندما يعود الطاغية إلى كرسىّ الحكم؛ هنا يمكن أن نتساءل: هل كانت دائمًا الساق نفسها، أو عِوَضًا مسرحيًا عنها، أى طرفًا صناعيًا؟

إذا ما كان الدكتور دى فرنسا طاغية بريئًا ومتقشفًا، فإن سانتا أنا كان طاغية مذنبًا وكوميك، لكن لم يضحك أحد عندما فقد محافظة تكساس - أولاً - بفضل عدم كفاءته، وبعد ذلك كافة الجناح الشمالى للأراضى المكسيكية بما فى ذلك أريزونا والمكسيك الجديدة وكولورادو ونيفادا وكاليفورنيا وأجزاء من "أوتا" Utah، وكان ذلك على مذبح "المصير المعلن" للولايات المتحدة الأمريكية ذلك العملاق التوسعى الشاب، فى إطار مسيرتها الإمبريالية تجاه المحيط الباسفيكى. وقد أدان إبراهام لنكولن وحده "حرب البُلك Polk" (كما أُطلقَ عليها من قبَل ناقديها). من جهة أخرى نجد أن الكاتب هنرى دافيد ثورو H.D. Thoreau ومعه إدموند ويلسون - خلال حرب فيتنام - يرفض سداد الضرائب لتمويل الحرب، بينما نجد المكسيك فى عام ١٨٤٨م تفقد نصف ترابها الوطنى وتتحول الحدود الجديدة عند "نهر برابو" R. Bravo إلى جرح لا يندمل عند الكثير من المكسيكيين.

لم يَرْق سانتا أنا إلى أن ينظر إليه على أنه وطنى مثل روساس.

رد الفعل الليبرالى : بنيتو خواريث :

فى عام ١٨٥٤م نجد أن سانتا أنا، الذى أعلن نفسه "صاحب السمو Su Alteza Serenisima"، يتدثر بفروة لحيوان القاقم armino وأنفق مبالغ كبيرة من خزانة الدولة فى استيراد أطقم ملابس من الستان الأصفر، من باريس، لحرس القصر؛ فأطاح به رد فعل غاضب وكبرياء وطنى كان على رأسه الحزب الليبرالى حيث كان فى أحد صفوفه شخص على النقيض تمامًا من الرجل الذى هو فى سدة الحكم ويحمل على صدره العديد من النياشين. ذلك الرجل هو بنيتو خواريث، رجل يتسم بالبساطة، محامٍ من منطقة أواكساو، من أصول ترجع إلى السكان الأصليين "Zapoteca". عمل بالرعى عندما كان طفلاً، وكان أميًا ولا يعرف اللغة الإسبانية، وعندما بلغ الثانية عشرة ذهبت به أخته، التى كانت تعمل خادمة فى منزل رجل كنيسة علمانى، إلى مدينة أواكساكا، هناك تعلم خواريث القراءة والكتابة بالإسبانية وكان يتسم بذكاء حاد وطموح كبير، ودائمًا ما أطلق على من رعاه، وهو رجل الدين صالا نويبا، من طائفة الفرنسيسكان، "الأب المتبنى"، لكن خواريث لم يدرس علوم الدين كما كان صالا نويبا ينتظر، وفى عام ١٨٢٨م، وهو فى الثانية والعشرين من العمر، ترك هذا الفتى الشاب منزل القس ليدخل فى رحلة دراسية للقانون أهّلته ليكون بعد ذلك من أكبر الإصلاحيين ويصبح الرئيس الليبرالى للمكسيك خلال القرن التاسع عشر.

يمكننا أن نتخيل تلك المشاعر المتضاربة التى كانت تعتمل فى صدر هذا الفتى عندما ترك الكنيسة الصغيرة فى أواكْسَاكا، كانت القدرية إحدى السمات التى عليها السكان الأصليون، الأمر الذى هيأه لتحمل الكثير من الهزائم، ورغم أنه تربى فى أحضان قِسّ فقير كاثوليكى فإنه قد أصبحت لديه، من خلال المهنة القانونية، قوة إرادة استطاع بها تجاوز العقبات التى كانت تحول دون تحول المكسيك إلى أمة حديثة ومستقلة، ومن أمثلة هذه الصعاب سلطة الكنيسة التى تتجاوز الحد.

كان قراره الأول الفصل بين الكنيسة والدولة، فكانت "قوانين الإصلاح" تقضى بمصادرة الثروة الضخمة غير المستغلة التى لدى الكنيسة، وجعلها تدور فى عجلة الاقتصاد،

وانتزع من العسكريين والأرستقراطيين المحاكم الخاصة، وأكدت الحكومة أولوية تطبيق القانون المدنى وباقى القوانين العامة المطبقة على جموع المواطنين. والنتيجة هى أن الحزب المحافظ لم يتوان عن إدانة هذه القوانين، وهنا نجد أن خواريث، ومعه الليبراليون يتجهون بوضوح إلى حل: تبعية الجيش والكنيسة لسيطرة الدولة، وتبعية الجميع بما فى ذلك الدولة لسلطة القانون.

خاض المحافظون حرباً، على مدار ثلاث سنوات ضد خواريث وإصلاحاته، وعندما انتصر عليهم فى نهاية المطاف فى ميدان المعركة عام ١٨٦٠م، أخذ المحافظون يتجهون بعيونهم نحو الخارج ووجدوا من يساندهم، وهو بلاط نابليون الثالث فى فرنسا، حيث كان هذا الأخير قد تمكن من غزو الهند الصينية، وأخذ يحكم فى تلك الفترة ببسط النفوذ الإمبريالى الفرنسى فى الأمريكتين: كان ذلك هو حلم الإمبراطورة، الإسبانية، يوجين Eugenia de Montijo التى تخيلت وجود إمبراطورية لاتينية فى الأمريكتين قادرة على مواجهة القوة والتأثير المتزايدين للولايات المتحدة الأمريكية؛ لكن هذه الأخيرة كانت ضائعة فى "حرب الانفصال". هنا وجد نابليون الثالث الفرصة متاحة ليكون على قدر العظمة التى كان عليها نابليون العظيم.

حصل المحافظون المكسيكيون على مساندة نابليون الصغير، فاتجهوا إلى زيارة حصن ميرامار الكائن فى الأدرياتيكى، حيث هناك الدوق الكبير ماكسيميليانو دى هابسبورج، الذى كان يمثل أخاه الإمبراطور النمساوى فرانثيسكو خوسيه، بصفته حاكم "تريست Trieste". هناك، قدم له المحافظون عرش المكسيك، لكن ماكسيميليانو، ذلك الفتى الجذّاب طويل القامة والأشقر وذى اللحية، لم يكن رجلاً ذا إرادة قوية، فما كان من كارلونا، زوجته الطموحة وذات الحسّ السياسى، ابنة الملك ليوبولد، ملك بلجيكا، إلا الضغط عليه حتى يقبل التاج.

كان الأخوان، ماكسيميليانو وفرانثيسكو خوسيه يتوفران على مُثُل سياسية مختلفة فيما بينهما؛ ففى فينا نجد أن خوسيه - بعد أن قضى على حالات التمرد الليبرالية فى عام ١٨٤٨م - يحكم بطريقة أتوقراطية على شاكلة ما يفعله آل هابسبورج؛

وفى تريست Trieste – وقبل ذلك فى لومباردیا – نجد ماكسيمليانو من أنصار الإصلاحات الليبرالية، وفى هذا ساند الـ aggiornamento أو تحديث الكنيسة والإمبراطورية، إلا أن المحافظين المكسيكيين الذين حضروا إلى ميرامار عام ١٨٦٢م تجاوزوا عن هذه التفاصيل. كانت المكسيك فى حاجة إلى ماكسيمليانو لإعادة النظام واستقراره وللوقوف ضد الثوريين البربريين والفوضويين. كان الشعب المكسيكى يتوسل إليه ليقبل بذلك؛ فقام الجيش الفرنسى باحتلال الأراضى المكسيكية وها هو فى حاجة إلى ماكسيمليانو حتى يسود السلام. تم إجراء استفتاء مزور أشرف عليه الفرنسيون وكانت النتيجة لصالح ماكسيمليانو والملكية. كما أن هذين الزوجين الإمبراطوريين، ماكسيمليانو وزوجه كارلوتا، لم تكن أمامهما فرصة متاحة ليكونا على سدّة الحكم فى فيينا. وما أراده فى المكسيك هو إقامة ملكية حديثة تسير على مبادئ عصر التنوير الأمر الذى يجعل وجه فرانثيسكو خوسيه يحمرّ خجلاً. وضحت إذن هذه المنافسة بين الإخوة وتجسد ذلك فى المراسلات التى تمت بين بروكسل وفيينا وتريست ثم المكسيك فى نهاية المطاف. أقنعت كارلوتا ماكسيمليانو بأنه لو فوّت الفرصة المكسيكية فلن يكون ملكًا أبدًا بل سيقدمون له مملكة.

وإذا ما كانت الطموحات قد أعمت كارلوتا وكذا حاجتها الواضحة إلى أن تبرهن على أنها جديرة بالتربية السياسية التى تلقتها عن والدها، فقد كان عليها أن تنتبه جيداً عندما رست مركب "نوفارا" Novara فى ميناء بيراكروث وتدرك أيضًا طبيعة الطريق المتعرج الذى يمتد من الشاطئ حتى العاصمة، بغض النظر عن الزهور والزينات وأقواس النصر التى قدمها الهنود هناك. كان كورتيس قد سار فى الطريق نفسه سائرًا على قدميه قبل ذلك بثلاثمائة وخمسين عامًا، لكن الإمبراطور كارلوس الخامس لم ينتقل أبدًا إلى العالم الجديد، أضف إلى ذلك أن كلاً من ماكسيمليانو وكارلوتا ليسا إيرنان كورتيس، ولا حتى كارلوس الخامس، فقد صعدت عربتها الملكية المذهبة ذات العجلات الضخمة فى الطرق الريفية المكسيكية وواجهت صعوبات فى السير، ومنها بعض الكوارث المتلاحقة والأعطال وضيق الطريق وانقلاب العربة.

بدأت المسيرة الإمبراطورية بحوادث كوميدية، فعندما وصلت إلى مدينة المكسيك أقام الزوجان الملكيان فى غرف "سانتا آنا" فى القصر الوطنى؛ وأجبرهما البقّ على هجر الأسرّة والنوم على طاولة البلياردو، لكنهما سرعان ما انتقلا إلى الرفاهية فى حصن "شابولتبيك" Chapultpec، الذى كان حتى عهد قريب مقر المدرسة العسكرية المكسيكية التى قفز منها ستة من شباب الطلاب وهم ملفوفون بعلم البلاد ولقوا حتفهم رفضاً للاستسلام لقوات الغزو الأمريكية.

أخذ هذا الشعور المضاد للتدخل الأجنبى يوحد المكسيكيين من كل الأطياف ما عدا المحافظين الخُلّص والقُساة الذين كانوا ينتظرون، من خلال ماكسيميليانو استعادة الأراضى التى صادرها الليبراليون؛ ومن الطبيعى أن تكون الكنيسة بين صفوف هؤلاء، غير أن ماكسيميليانو حاول أن يبرهن على صحة مثالياته ويضفى الطابع الشخصى على شأن من شئون الدولة، فقرر الإبقاء على التشريعات الإصلاحية التى أقرها بنيتو خواريث؛ وهنا سُمعت صيحات الاحتجاج ابتداء من الإقطاعيات – خاليسكو حتى دهاليز سان بدرو Corredores – ألم يُفهم ماكسيميليانو أنه أُرسِل إلى المكسيك للحفاظ على المزايا وليس إلغائها؟ دعا ماكسيميليانو خواريث ليكون رئيس الوزراء فى النظام الإمبراطورى، لكن خواريث رفض: فإذا ما كان ماكسيميليانو يريد ديمقراطية، فليحاول الوصول إليها فى النمسا بتحرير الرعية من يدى أخيه فرانثيسكو خوسيه. واصلت المكسيك المعركة.

قام القائد الفرنسى أكيلس بازان A. Bazaine باختبار مدى قوة المقاومة المكسيكية وانتشارها وأجبر الإمبراطور على أن يدرك أن ليس هناك سلام إلا بهزيمة قوات خواريث وأنصاره من الجمهوريين، وبالتالى أجبر بازان الإمبراطور على توقيع مرسوم يقضى بإعدام أى مكسيكى يحمل السلاح؛ هذا القانون أطلق عليه "المرسوم الأسود" وعندما وقعه ماكسيميليانو فى الثانى من أكتوبر فإنه قد قضى على نفسه بالموت.

فى حصن شَابُولتْبك نجد اليوم العربة الذهبية لماكسيمليانو إلى جوارها عربة بنيتو خواريث البسيطة السوداء؛ وبهذه العربة طاف رئيس المكسيك بالصحارى الشمالية وهو يحمل معه الملفات ويخوض حرب عصابات ضد الفرنسيين، وكان الرجل وفيًا لما يقول:

"أينما كان موقعى، سواء قمة جبل أو فى عمق وادٍ من الوديان
وقد تخلى عنى الجميع، ربما لن أتخلى عن رفع راية الجمهورية
حتى يوم النصر".

تحوّل بنيتو خواريث وهو على مكتبه العربة إلى تجسيد للمصير المشئوم الذى كان عليه السكان الأصليون، وإلى تجسيد للقانون والشرعية الرومانية والرواقية الإسبانية؛ فقد أراد تحويل أحلام سيمون بوليفار وخوسيه سان مارتين إلى واقع: أى إقامة هيئات تأسيسية قوية، وليس رجالاً أقوياء؛ إنها الأولوية والسيادة للحكومة المدنية التى لا يوجد فيها أحد فوق القانون، لكن علينا أن نعود ونتصور مرة أخرى مشاعر ذلك الرجل، الذى كان راعيًا فى صباه، ثم انتقل فجأة إلى محامٍ تربى على مثاليات الحضارة الفرنسية، لكنه سرعان ما وجد تلك الحضارة تنقلب ضده وترفض حق المكسيك فى الاستقلال، لنتخيل أيضًا إرادة خواريث، الذى لا يملك مكتبًا إلا عربته ليدافع عن المكسيك مهما كان الثمن، وذلك حتى يتم إقرار المبدأ القائل بأن ليس من حق أى قوة أجنبية تقرير مصير حكومة أمة من أمريكا اللاتينية.

أصبح ماكسيمليانو وكارلوتا يترأسان بلاطًا لا وجود له، ولم يكن لديهما، فى حقيقة الأمر، ما يقدماه ولا شىء يتمكنان به من هزيمة خواريث. كانت نزوات ماكسيمليانو بشأن الاستقلال مثيرة للضحك، فالإمبراطور لم يكن مستقلاً، بل كان دمية فى يد نابليون الثالث وتسانده الأسلحة الفرنسية، فعندها قرر الإمبراطور الفرنسى، عام ١٨٦٧م، التخلى عن ماكسيمليانو، كان سقوط هذا الأخير أمرًا لا مناص منه. كانت هناك أمور أخرى عاجلة للغاية تشغل بال "نابليون الصغير" مثلما أطلق عليه عدوه فيكتور هوجو؛ فقد انتهت الحرب الأهلية الأمريكية، وكان نابليون قد ساند الجنوب،

وقام الجنوب بمساندة نابليون، وهنا نجد أن الطرفين كانا يريدان أن تكون المكسيك جزءًا من نظام العبودية والإقطاع الزراعى: لكن ها قد انتصر لنكولن والشمال، وفى الوقت ذاته نجد أحداثًا أخرى عند الحدود الشرقية لفرنسا إذ استطاع بسمارك توحيد ألمانيا تحت الهيمنة العسكرية لبروسيا، وأخذ يتطلع إلى الغرب ترقبًا للمزيد من الانتصارات والغزوات. من جهة ثالثة نجد رجال المقاومة المكسيكيين - الفلاحين نهارًا والجنود ليلاً - كانوا يتخفون ويموّهون ويتسمون بالسرعة فى تحركاتهم لدرجة أنهم كانوا جديرين بأن يرثوا تراث المقاومة الذى خلفه فيرياتو ضد روما؛ لم يدعوا لماكسيمليانو والفرنسيين أن يهزموهم. فى فرنسا نفسها كانت هناك حركة عامة لمناهضة حرب المكسيك، وتمثل ذلك فى المقالات الصحفية والمظاهرات العامة التى تطالب بإيقاف نزيف الدم فى المكسيك وتحتج على الصورة المتمثلة فى عودة رفات آلاف من الشبان الفرنسيين، فى نعوشهم من المكسيك. لم تكن هناك إلا علامة واحدة مضيئة فى سجل نابليون، هى تمكنه من غزو جنوب شرق آسيا، ابتداءً من خليج تونكين وحتى دلتا نهر نيكونج. وبعد مائة عام من الاحتلال سوف نرى هوشى منه، المعادل لبنيتو خواريث فى المكسيك، يخوض الحرب نفسها ضد الفرنسيين.

عندما انسحبت القوات الفرنسية، رحلت كارلوتا بسرعة إلى باريس، وفى قصر الرئاسة **Tullorias**، بالمدينة نفسها أنّبت نابليون على عدم وفائه. لم يُجْد ذلك نفعًا، فقد استسلم ماكسيمليانو ومعه مجموعة من الضباط المكسيكيين فى كيريتارو **Queretaro** فى الخامس عشر من مايو لعام ١٨٦٧م؛ جرى إعدامه رميًا بالرصاص بالقرب من المكان، فى مرتفعات كامباناس، ولم يسمع خواريث للنداءات الدولية بالإبقاء على حياة ماكسيمليانو، فقد حال الآلاف من المكسيكيين من ضحايا "المرسوم الأسود" دون خواريث والرأفة. واصلت كارلوتا حملتها فى أوربا؛ وفى أثناء استقبال البابا بيّو نونو لها فى معرض دفاعها عن قضية زوجها، مرضت مرضًا شديدًا وكان عليها أن تقضى الليلة فى الفاتيكان - فمن الناحية الرسمية نجد أنها المرأة الأولى التى تفعل ذلك - أصاب الجنون الإمبراطورة الشابة، وعندما كان عمرها سبعة وعشرين عامًا أودعت حصن بوكوتز **Bouchutz** فى بلجيكا مسقط رأسها، ومن هناك واصلت كتابة رسائلها

إلى حبيبها ماكسيمليانو: فلم يصل إلى علمها أبداً أنه مات، ولم تكن تأكل إلا ثمرة عين الجمل وتشرب من المياه التى تتفجر من العيون ذلك أنها كانت مقتنعة بأن نابليون يريد أن يقتلها بالسّم، ونادراً ما كانت تظهر على الملأ فى مناسبات مثل الجنازات والاحتفالات، وأخذ حجمها يتضاءل وأخذت تبتعد أكثر عن العالم المحيط بها، وعندما تمكن ابن عمها القيصر جيّرمو الثانى من غزو بلجيكا عام ١٩١٥م وضع على الحصن حرساً لحماية "صاحبة الجلالة إمبراطورة المكسيك".

توفيت كارلوتا عام ١٩٢٧م وهى فى السابعة والثمانين من العمر، هناك صورة لها وهى فى نعشها وعليها كوفية سوداء، يداها ملطختان مربوطتان بمسبحة، وشكلها، وهى ميتة، هو خليط عجيب من الجشع والبراءة؛ ويا له من فارق كبير بين لوحة هذه المرأة العجوز، ولوحة أخرى لها رسمها الفنان ونترهالتر **Winterhalter** وهى ملفوفة فى قماش التّفته والطُرَح، تتلألأ بشرتها وشعرها أسود وكبرياؤها يبعث على الرهبة، ويشع من عينها وميض من العبقرية وخفة الروح.

استقر رفات ماكسيمليانو أيضاً، وللأبد، فى ضريح آل هابسبورج فى فيينا، وكانت غرفة الإعدام المكسيكية قد فقأت إحدى عينيه برصاصة، ولم يستطع القائم على أمر تحنيط الجثة أن يعثر على عين أخرى صناعية زرقاء فى أرجاء منطقة كيريتارو **Queretaro**، وكان الحل هو عين سوداء لعذراء المنطقة جرى وضعها مكان عين الإمبراطور الذى أعدم رمياً بالرصاص، وها هو ماكسيمليانو ينظر إلى الموت، وهو فى وِهَاد كابوتشينوس بالمكسيك، بعين نمساوية زرقاء وعين سوداء لأحد السكان الأصليين. وختاماً نجد أن آل هابسبورج الذين غزوا المكسيك عام ١٥٢١م كانوا قد وضعوا أقدامهم فى إمبراطورية موكتيزوما القديمة. كان على ماكسيمليانو أن يتدبر الأمر جيداً المرة تلو المرة قبل أن يقوم بإعادة تمثيل دور كارلوس الخامس وفيليبى الثانى؛ ذلك أن المكسيك، الأرض التى كانت مسرحاً للملاحم التى خاضها الملوك الإسبان عن بعد، قد تحولت إلى مسرح مأساوى لأحد أحفادهم وهو ماكسيمليانو. كان تاجه تاجاً من الظلال كما أطلق عليه المؤلف المسرحى المكسيكى رودولفو أوسيجلى **R. Usigli**.

عودة الجمهوريات، وثقافات فى الانتظار:

دخل بنيتو خواريث مدينة المكسيك عام ١٨٦٧م وهو فى أوج الشعور بالانتصار وأعاد النظام الجمهورى الليبرالى، فهل تستطيع القوانين الإصلاحية والحكومة المدنية والنظام الديمقراطى والفصل بين السلطات والصحافة المستقلة وحرية الاقتصاد أن تتغلب على الموروث الثقيل لفوضى الطغيان الجمهورى؟ فى لحظة تكاد تكون متزامنة نجد أنه بعد سقوط روساس عام ١٨٥٢م، تعيش الأرجنتين تحت نظامين مدنيين متعاقبين - نظام بارتولوميه ميترى ونظام دومنجو فاوستينو سارمينتو - يحاولان قيادة البلاد فى طريق القضاء على الزعامات المحلية وتطويرها من خلال التوسع فى الاتصالات والتربية والهجرة الجماعية.

ها نحن نرى خواريث فى المكسيك وسارمينتو فى الأرجنتين يقودان، كل على حدة، جمهوريتين من إسبانوأمريكا هما الأكبر فى هذه الأصقاع، وفى هذا الإطار كان من الممكن أن نتصور أن أحلامنا فى الاستقرار الديمقراطى والازدهار الاقتصادى كانت سوف تتحقق فى نهاية المطاف. إلا أن هذه المثالية السياسية كانت مرتبطة بعنصر آخر جامع شامل، رغم أنه كان يتبدى ببطء، ألا وهو الوعى بالحياة الثقافية والتأمل فى هذا الأساس - الذى يكاد يكون جيولوجياً- فى المعتقدات، الثابتة أو المتغيرة، والعادات والأحلام والذكريات واللغة والمشاعر، فهذه العناصر كلها التى توجد فى القاعدة هى التى تحكم المجتمعات. كان على مجتمعاتنا، ابتداءً من المكسيك وحتى الأرجنتين، أن تتعلم الكثير من نفسها قبل أن تتمكن الثقافة والسياسة من الالتقاء حقيقة فى مجتمع ديمقراطى.

الفصل الرابع عشر

ثقافة الاستقلال

من المنظور الثقافى، نجد أن أمريكا الإسبانية المستقلة قد أدارت ظهرها للموروث الهندى والأسود، ونظرت إلى كلا الصنفين على أنهما موروث "بربرى". من جانب آخر نجد العكس حيث تمكن الموروث الإسبانى من إحداث الانقسام فينا بطريقة درامية، فقد اتهم الكثير من أبناء إسبانوأمريكا إسبانيا بأنها السبب فى كل المصائب التى حدثت لنا؛ فقد حرم الوطن الأم مستعمراته من كافة عناصر التقدم التى وصلت إليها أوربا، ابتداءً من الحرية الدينية وحتى الثروة الاقتصادية والديمقراطية السياسية. ألم تكن إسبانيا مسئولة عن متاعبنا الدوجماطية وقبول الوضع على ما هو عليه حيث كانت المزايا هى القاعدة، أما الشفقة فهى الاستثناء؟ فمن إسبانيا جاءتنا كل هذه المصائب، وكذلك موروث كنيسة ذات تأثير فاعل؛ باختصار أقول نحن مدينون لإسبانيا بكل تلك العناصر التى لا تقبل بها الحداثة الأوربية. أما فى الحياة السياسية فقد كنا نشعر بأننا لا نوضع فى الحسبان، حيث غابت الديمقراطية، وحقوق المواطن ملغاة، وهناك فارق بين ما يقول به القانون وبين الواقع وبين الحكومة والمحكومين.

علينا ألا نستغرب أن أغلب مجتمع الصفوة فى إسبانوأمريكا قد رفض التراث الإسبانى وأفصح عن أسباب ذلك جهاراً فى خطبة تلو الأخرى؛ هنا نجد أن سارمينتو تحدث باسم الكثير من الإسبانوأمريكيين بحماس كبير ولكن أيضًا بعدم عدل، لكنه كان مفعمًا بالسعادة عندما قال بأن إسبانيا ليس فيها كُتّاب أو علميون أو رجالات

دولة أو مـؤرخـون أو أى شىء يسـتـحق الذكر. كـمـا أشـار المؤرخ الشيلى خـوسـيـه بيكتورينو لاستاريّا إلى أن الفترة الفاصلة بين كريستوفر كولومبوس وسيمون بوليفار لم يكن هناك إلا "شتـاء أسْود" ساد إسبانوأمريكا، وعلل الشاعر الأرجنتينى إستبان إتشيبريّا الموقف بأننا كنا مستقلين لكن لم نكن أحرارًا، فرغم أن الأسلحة الإسبانية لم تعد تضطهدنا فإن تقاليدها وثراءها كانت تربطنا بها.

فتح هذا الموقف الحازم، الذى تمثل فى رفضنا لجزء جوهرى من ماضينا، فراغًا آخر فى تاريخنا المستقل، شبيهًا بالفراغ السياسى الذى عشناه بعد زوال الملكية، وكان لا بد من ملء الفراغ. اتجهت أبصار الكثير من الإسبانوأمريكيين نحو الشمال، أى نحو الولايات المتحدة الأمريكية، تلك الجمهورية الشابة فى العالم الجديد، والتى عرفت النجاح الفورى فى طريقها بينما كنا نسير من فشل لفشل، فقد كان الليبراليون من إسبانوأمريكا من أشد المعجبين بالولايات المتحدة فى بداية طريق العلاقات الطويل والمتعرج والذى لا مناص منه معها. كان هؤلاء مشدوهين بالحيوية التى عليها وما بها من مؤسسات سياسية والحافز التحديثى الذى عليه الديمقراطية الأمريكية. ولهذه الأسباب نفسها كان المحافظون من أمريكا اللاتينية يعارضون الولايات المتحدة؛ إذ كانوا يرون أن الخطأ الأكبر المضاد للوجهة المحافظة يتمثل فى الديمقراطية والرأسمالية والبروتستانتية والتسامح الدينى وحرية الضمير (الاعتراف؟). كما أسهمت راديكالية ثورة الاستقلال فى المزيد من فقدان الصواب عند طبقة المحافظين فى أمريكا الإسبانية، فالثورات التى تقودها واشنطن كانت لا ترحم، إذ أخذت تصادر أراضى المزارعين الموالين للبريطانيين، وحيّدت المحافظين وأجبرت ثلث السكان على الهرب من الولايات المتحدة واللجوء إلى مهرب محافظ فى كندا، وأحيانًا ما يغرقون فى بحار محافظة **Terranova**.

غير أن الأمر الأكثر أهمية هو أن المحافظين الإسبانوأمريكيين خشوا ما كانوا يتوجسون منه من الولايات المتحدة وهو الأطماع التوسعية. وفحوى القول فى هذا هو أن فلسفة المصير المعلن، كان قد صاغها كل من توماس جيفرسون

وجون كويسنى آدم J.Q. Adams؛ ففى رسالة ترجع لعام ١٨٢١م كتب آدم إلى هنرى كلاى H.Clay يقول: "لا مناص من أن يكون باقى القارة لنا".

أقنعت الحرب الأمريكية ضد المكسيك عام ١٨٤٧م، وفقدان بلدنا نصف ترابها الوطنى هؤلاء "الليبراليين"، بأن المحافظين أدركوا جيداً مدى الأطماع التوسعية للولايات المتحدة الأمريكية، وهنا نجد أيضًا أن القضية الثقافية لم تُحَل بسهولة، فإذا لم تكن الأنظار موجهة صوب الولايات المتحدة، فإلى أين نتجه بأبصارنا بحثًا عن إلهام وعن نماذج نتأسى بها؟ وجد القرن التاسع عشر لدول أمريكا اللاتينية الإجابة الفورية عن السؤال؛ إنها فرنسا، وباريس على سبيل التحديد، المدينة التى أطلق عليها بودلير "عاصمة القرن التاسع عشر". بدأ نفوذ باريس يتضح ابتداء من لاهاى حتى الجزائر، ومن سان بطرسبورج حتى القاهرة، غير أن هذا النفوذ فى كل من المكسيك (العاصمة) أو بوجوتا أو بوينوس أيرس جاء ليفى بالحاجة الجوهرية وهى ملء الفراغ الثقافى الذى خلفته غيبة إسبانيا.

كان رفض إسبانيا يعنى قبول فرنسا كمعبد جديد للحرية والذوق الجيد والرومانسية وكافة الأشياء الجميلة فى هذا العالم. وهنا نجد مؤرخًا آخر من شيلى، هو بنيامين بيكونيا ماكينا B.V.Mack، يكتب من العاصمة الفرنسية عام ١٨٥٣م: "كنت فى باريس ... عاصمة العالم وقلب الإنسانية ... إنها الكون مصغراً"، ومن جانبه يكتب ويتنهد الأرستقراطى البرازيلى: "لا شك أن العالم هو باريس".

خلال القرن السادس عشر كانت أمريكا الإسبانية يوتوبيا أوربا، وها نحن نرد الدين ونجعل من أوربا اليوتوبيا الخاصة بأمريكا الإسبانية خلال القرن التاسع عشر، لدرجة أن مدينة جواتيمالا قد أطلقت على نفسها "باريس أمريكا الوسطى"، وشوقنا الدفين، بالطبع، هو أن يأتى يوم تطلق فيه باريس على نفسها "جواتيمالا أوربا".

الأمر المؤسف فى هذا الإعجاب بأوربا، كما يشير إليه الكاتب الشيلى كلاوديو بيلث فى كتابه "موروث المركزية فى أمريكا اللاتينية"، هو أنه لم يمتد ليشمل النمطية الأوربية فى الإنتاج بل امتد فقط إلى الطريقة الأوربية فى الاستهلاك.

تباهت الطبقات العليا فى أمريكا اللاتينية باتخاذها الطرائق الأوربية فى الإنفاق والملبس والحياة، أما فى الأسلوب فكانت العمارة والأدب، وكذلك الأمر بالنسبة للأفكار الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وما لم تقلده هذه الطبقات هو أنظمة الإنتاج الأوربية لأن ذلك كان سيؤدى إلى تغيير أنظمة الإنتاج فى أمريكا اللاتينية، وتحولت الأوبرا إلى رمز للحداثة فى أمريكا اللاتينية التى تتسم بالرشاقة والأوربة؛ وابتداء من "مسرح خواريث" الكلاسيكى الجديد فى مدينة المناجم جوانا خواتو **Guanajuato** فى المكسيك، حتى "مسرح كولومبوس" فى بوينوس أيرس، كان كل شىء فيهما مذهبًا ومخمليًا أحمر اللون وستائر مرسومة وفواصل زمنية كبيرة بين الفصول، وفتحات صدر أو ظهر فى الفساتين تلفت الأنظار. ومن الأمثلة الدالة على هذا هو أن مجىء أول مصممة أزياء فرنسية إلى بوجوتا خلال الأربعينيات من القرن المذكور، وتدعى مدام جوترون، اعتبر لفترة طويلة من الزمن أحد الأحداث الكبيرة التى تشهد بأن العاصمة الكولومبية أصبحت حديثة فى نهاية المطاف؛ وقد أضافت صحفية كولومبية أن الأذواق فى بوجوتا، التى تحولت من عاصمة محافظة غير واضحة الملامح إلى عاصمة للبلاد مفتوحة على الدنيا، يمكن أن تتضح ملامحها فى أن الطبقات العليا كانت تحتسى فى عام ١٨١٠م الشيكولاتة الإسبانية الهندية، وفى عام ١٨٤٠م أخذت تتناول القهوة الفرنسية، وفى ١٨٦٠م الشاى الإنجليزى.

ورغم كل شىء فإن مثل هذا التقليد الشديد المنطقية - كما أطلق عليه عالم الاجتماع الفرنسى جابريل تارد **G. Tarde** - أحدث نوعًا من الحيوية فى مدن أمريكا اللاتينية، لكن الموت فى أمريكا اللاتينية، خلال القرن التاسع عشر، يمكن أن يكون هو أيضًا تقليدًا لأوربا، فهناك مقابر "ريكولينا"، وسط العاصمة بوينوس أيرس، وهى عبارة عن مدينة **Potemkin** فى حياة الأبدية، أو ديزنى لاند الموت حيث نجد علِيَة القوم من الأرجنتينيين مدفونة، كما يبدو أنهم فكروا أنهم يمكن أن يحملوا معهم إلى العالم الآخر ثرواتهم على ظهر الأرض؛ وهنا يمكن أن نتساءل عن أعداد رؤوس قطعان الماشية وعدد قدور اللبن وبالات الجلد المدبوغ التى كانوا يحتاجونها لبناء مثل هذه

الآثار الجنائزية التى تعن لهم، حيث الملائكة تطوف فوق اللوحات النصفية لهؤلاء البرجوازيين من كبار التجار، بينما يجرى عزف بوق جابريل للأبد عند مقبرة جنرال ارجنتيني مهم.

تقدم لنا هذه المدافن Recoleta رؤية للفردوس على أنه استمرار لحياة الرّغد التى تقوم على رؤوس قطعان الماشية والتجارة، وفى الوقت ذاته عندما نعود إلى المزارع نجد عقارات الأرياف والمزارع التى تقدم السكر والقطن والصوف والجلود والمطاط والقمح وذلك حتى يستمر إيقاع الحياة الليبرالية الاقتصادية فى أمريكا اللاتينية، لكن ليس نمط الحياة الليبرالية السياسية. أفادت أمريكا اللاتينية، بما فى ذلك البرازيل، من التوسع العالمى للرأسمالية خلال القرن التاسع عشر، حيث زوّدت الأسواق العالمية بالمواد الخام لكنها لم تزودنا نحن برأس المال اللازم للاستثمار والادخار.

أصبح كل التوجه الخاص بحياتنا الاقتصادية مُركَّزًا فى التجارة الخارجية، وكان ذلك حاجة يحددها عنصر بعيد تمامًا عن المبادرات التى تخرج من أمريكا اللاتينية، ألا وهو النمو الاقتصادى المتسارع فى كل من أوربا الغربية والولايات المتحدة فى مختلف الحقول بما فى ذلك السكان والتصنيع والتجارة والتربية والنمو العمرانى والمؤسسات السياسية والنقل والتجارة. لكن أمريكا اللاتينية لم تشارك فى هذا النشاط الاقتصادى إلا فى الجانب الخاص بالتوسع التجارى وأفادت بالطبع من ثورة التسارع التجارى؛ ففى عام ١٨٧٦م نجد أول باخرة ثلاجة تبحر من ميناء بوينوس أيرس متجهة إلى أوربا وهى محملة باللحوم المجمدة، وخلال العقد المذكور نفسه نشهد أولى شحنات تصدير القمح الأرجنتيني وهى تعبر المحيط الأطلنطى، وخلال الفترة اللاحقة مباشرة على الاستقلال استطاعت إنجلترا أن تتولى إدارة التجارة الخارجية لأمريكا اللاتينية والسيطرة عليها، لكن مع نهاية القرن نجد الولايات المتحدة الأمريكية تتحول إلى الشريك الرئيسى؛ هنا نجد أن كلتا القوتين الاقتصاديتين استخدمتا الأدوات نفسها فى مجال القوة الاقتصادية أى توقيع اتفاقيات شروطها لصالح تجارها، وكذلك الأمر فى القروض والائتمانات والاستثمارات والسيطرة على أدوات التجارة الخارجية للمعادن والمنتجات

الزراعية والمنتجات الطبيعية المطلوبة للتوسع الأنجلوأمريكى. كانت هناك قلة من السكان المحليين قامت بدور الوسيط سواء بالنسبة لعمليات التصدير أو بالنسبة لوارداتنا من المنتجات المصنعة من أوربا والولايات المتحدة، من تلك التى لا تُنتج فى أمريكا اللاتينية، لكنها كانت مطلوبة بالنسبة لسكان الحضر فى العواصم الكبرى، وفى الداخل أيضًا من أنحاء جمهورياتنا.

أدرك التجار من أبناء أمريكا اللاتينية، فى هذه المرحلة من التوسع فى الدخول فى علاقات حديثة للتجارة الدولية بأن ثرواتهم ومصيرهم يرتبط باستمرارية البُنَى الزراعية والتعدينية الموروثة عن الفترة الاستعمارية، وهى الإقطاعيات الضخمة والاستغلال المكثف للمعادن، وسوء تقدير جهد الأيدى العاملة. فهل كان ذلك هو معنى الاستقلال؟ استطاع مُلاك الأرض والمناجم الحصول على مكاسب ضخمة بينما كانت الأغلبية غارقة فى الفقر، ومع نهاية القرن التاسع عشر كان متوسط الأعمار فى أغلب دول أمريكا اللاتينية لا يزيد عن ٢٧ عامًا، وإذا ما تحدثنا عن الأمية لوجدنا أنها منتشرة بنسبة ٩٨٪ بين السكان؛ كان أكثر من نصف السكان من أبناء الريف، ويعيش أغلب السكان كذلك فى فقر مدقع. إنها "فترة الراحة الليبرالية" كما أطلق عليها كلاوديو بيلث، أى حياة الاستقلال التى لم تفعل شيئًا اللهم إلا تأكيد وتوطيد أركان الفقر الذى كان سائدًا خلال العصر الاستعمارى بالنسبة للأغلبية العظمى لمواطنينا.

أصبحنا خلال القرن التاسع عشر يتامى فى الرأسمالية الهامشية عندنا، فقد زاد حماسنا فى تبادل صادراتنا بواردات أوربية وذلك للحفاظ على إيقاع الأنماط الاستهلاكية ابتداء من الطبقة الوسطى وحتى العالية، كما أخذنا نسوِّف فى اتخاذ القرار بشأن أمر منطقى وحاسم لتحسين أوضاع الأغلبية؛ فالرأسماليون فى أوربا والولايات المتحدة قد احتفظوا فى يدهم بهوامش الربح وزادوا من المدخرات الأمر الذى ساعد على زيادة إنتاجيتهم بشكل كبير. لقد أنتجت كل من أوربا والولايات المتحدة ما على مائدة طعامها، أما نحن فقد قدمنا الحلو: الشيكولاتة والقهوة والسكر والفواكه والتبغ؛ هنا كان ألفونسو رييس محقًا فيما قاله: "كانت أمريكا اللاتينية تصل متأخرة إلى مائدة الحضارة".

مجتمع جديد:

حدث صدام بين الإصلاحات الليبرالية والتدخل الأجنبى والأزمة المدنية والتراث المحافظ والتجارة الخارجية، الأمر الذى أدى إلى اضطراب مجتمعات إسبانوأمريكا وتمخض عن مولد قوى جديدة إلى جوار توطيد دعائم طبقة الإقطاعيين والتجار والسياسيين، ألا وهى البروز البطيء للطبقة المتوسطة الحديثة، فها هم المحامون ورجال الأعمال الذين تزداد الحاجة إليهم لتشابك ونمو العلاقات الاقتصادية لأمريكا اللاتينية مع العالم، والعلاقات المتزايدة بين الريف والحضر وبين الطبقات الاجتماعية فى تلك التجمعات الحضرية التى تنمو بدينامية واضحة.

كان تعداد سكان مدينة بوينوس أيرس يبلغ عام ١٨١٠م ٤٢ ألف نسمة، عند إعلان الاستقلال، فزاد العدد إلى مائة وثمانين ألفًا عام ١٨٧٠م، وتواصلت الزيادة بدرجة كبيرة بفضل الوافدين الأوربيين حتى بلغت ستمائة ألف ومليون نسمة عام ١٩١٤م، أى مع بداية الحرب العالمية الأولى.

من جهة أخرى نجد أن ميناء بالبارايسو Valparaiso المركز التجارى المطل على المحيط الباسيفيكى فى شيلى، وكذا بالنسبة للتجارة فى المحيط الأطلنطى فى رأس "أورنوس"، قد تضاعف تعداد سكانه من اثنين وخمسين ألف نسمة عام ١٨٥٦م إلى مائة ألف نسمة عام ١٨٧٦م. وكان تعداد سكان مدينة المكسيك، بعد سقوط إمبراطورية ماكسيمليانو لا يكاد يبلغ الثلاثين ومائتى ألف، وهو عدد أقل بكثير من العدد الذى كان بها عند سقوط إمبراطورية موكتيزوما. وعندما سقط بروفيريو دياث P. Diaz، عام ١٩١٠م، كانت المدينة قد زاد عدد سكانها حتى وصل إلى نصف مليون نسمة، وبعد عام ١٨٧٠م، وخلال الستين عامًا التالية نجد كلاً من سانتياجو دى شيلى ومدينة كاراكاس يتضاعف عدد سكانهما خمس مرات، أما مدينة بوجوتا فقد تضاعف ثمانى مرات، بينما تضاعف عدد السكان أربع مرات فى مونتفيديو. أسهم الصحفيون والمثقفون والمدرسون والموظفون والتجار والأسر فى إضفاء طابع الحيوية على مدننا، كما أن بعض الرجال والنساء من ذوى الطابع الحضرى قد وجدوا فى

أنفسهم أفضل حماية ضد الميل المزدوج فى أمريكا اللاتينية وهو الدكتاتورية أو الفوضى، أى إن الاستقرار أصبح القيمة الكبرى التى جلبتها الطبقة المتوسطة، فقد شعرت بأن المحررين الذين عاشوا فى بداية القرن التاسع عشر قد مالوا إلى نماذج سياسية مجردة لأنهم لم يستطيعوا أن يؤسسوا عملهم السياسى على الوجود الفعلى للمجتمع المدنى؛ غير أنه قد ظهر الآن عنصران محددان فى ميدان السياسة والاقتصاد وهما الطبقة المتوسطة الحضرية والدولة الوطنية؛ بحث هذان الطرفان ماهية واحدة على مدار القرن التاسع عشر، وغالبًا ما وجدت الطبقة المتوسطة هذه الماهية فى صورتها هى؛ فهناك صورة الطبيب وربّة المنزل والأطفال وساعى البريد، كل ذلك تجاوز حدود ما هو موضة؛ إذ كان برهانًا على وجودها، ولم يكن الملوك والأرستقراطية الجهتين الوحيدتين الجديرتين بأن تظهرا فى الصورة؛ ففى المكسيك نجد لوحات خوان كورديرو، ولوحات بريليديانو بويِّريدون فى الأرجنتين، تصور ملامح الطبقات المتوسطة الحضرية، بينما نجد إيرمنخيلدو بوستوس هو نفسه يعمل ساعى بريد فى مسقط رأسه - جوانا خواتو - وهو يحدد هوية المواطنين البسطاء من أبناء المحافظات. فى نهاية المطاف، أصبح للطبقات المتوسطة فى إسبانوأمريكا وجه محدد، وإذا ما كانت قد عملت فى بعض الأحيان على تصوير نفسها بشكل مثالى، فمن كان سيلومهم على مشاعر الإحساس بالذات الذى اكتسبوه حديثًا وإحساسهم بالكبرياء وخروجهم من الظلمة إلى النور؟ ألا يكفى ذلك الوضع الاجتماعى لتبرير ثورات الاستقلال؟

نجد أن شيلى خلال القرن التاسع عشر تمثل أفضل نموذج لنجاح المجتمع البرجوازى فى أمريكا اللاتينية، وهى بلد بعيد، وجد نفسه مجبرًا على أن يعتمد على موارده الخاصة به أكثر من اعتماده على المراكز الكبرى الحضرية فى الإمبراطورية الإسبانية وهى المكسيك وليما. وقد أدى الهوس باستخراج الذهب فى كاليفورنيا وأستراليا إلى فتح أسواق كبرى أمام المنتجات الزراعية الشيلية فى حوض المحيط الباسيفيكى، فى الوقت الذى اكتشفت فيه أوربا النحاس والنترات فى شيلى واستوردتهما. أدى هذا الإحساس بالتفوق الوطنى إلى الدخول فى حرب ظالمة ضد كل من بيرو وبوليفيا وذلك من أجل السيطرة على ملح البارود فى صحراء أتاكاما Atacama؛

وهنا فقدت بوليفيا اتصالها بالبحر، بينما فقدت البيرو محافظاتها الجنوبية، أما شيلى التى سيطرت على تجارة المحيط الباسيفيكى من خلال ميناء بالبارايسو فقد شهدت ظهور ثروات وطنية ضخمة، وبرزت متزامنة مع هذا مؤسسات سياسية فريدة فى قارة أمريكا الجنوبية.

دفعت شيلى ثمنًا غاليًا لهذا التوسع الضخم، فقد أصبحت تابعة، بشكل يزيد عن الحد، لمنتجين اثنين: النحاس أو النترات، وارتبط دخل شيلى بالزيادة أو التدهور بأسعار هذين المنتجين. ارتبط إذن هذا البلد المستقل بالعالم المحيط لكن هذا الأخير ارتبط بدرجة أقل تدريجيًا بشيلى، وعندما بدأ إنتاج النترات الصناعية فى ألمانيا أصاب شيلى الإفلاس؛ كانت شيلى، فى عام ١٩١٨م، دولة تعيش حالة إفلاس أو إعسار اقتصادى سابقة على الأزمة الاقتصادية العالمية بعشر سنوات؛ غير أنه خلال سنوات الوفرة خلال القرن التاسع عشر كان التطور السياسى فى شيلى متوازنًا مع التطور الاقتصادى، فخلال الفترة من تلك التى حكم فيها دييجو بورتالس، خلال الثلاثينيات من القرن (١٨٣٠م)، حتى رئاسة خوسيه ماريا بالماثيدا خلال الحريات كانت مقتصرة نوعًا ما على الطبقة الوسطى والعليا، ولم تمتد إلى الفلاحين والعمال ومع هذا استطاعت - أى شيلى - أن تعيش حالة توازن سياسى يقوم على مبدأ "تنوع التميّز"، فقد شهدت الحياة السياسية تطور خيارات بين سلطة الكونجرس وسلطة الحكومة، بين الصناعة والتجارة، وبين القطاع الخاص والقطاع العام، ولنتذكر أن كلاً من المكسيك والأرجنتين، خلال الفترة المذكورة نفسها كانتا ترزحان تحت وطأة الطاغيتين سانتا آنا وروساس.

تحولت شيلى بالفعل إلى ملاذ مضاد للاضطهاد الأرجنتينى الذى مارسه روساس، وفتحت أبوابها أمام الكبار من هذه البلاد مثل الأرجنتينى سارمينتو والفنزويلى أندرس بيو، وأنشأت أفضل نظام تعليمى فى أمريكا اللاتينية، وكان مفكروها ليبراليين ومعادين للكنيسة مثل خوسيه بيكتوريانو لاستاريًا، وفرانثيسكو بلْبَاو، أما مؤرخوها فكانوا أفضل المؤرخين فى بلادنا مثل بنيامين بيكونيا **B.Vicuna.M.** ودييجو بَارّوس أرانا **D.B.Arana**.

جعل هذا كله شيلى أول أمة فى أمريكا اللاتينية حديثة نسبيًا، وكانت أولى البشائر الدالة على الحداثة فى جمهورياتنا وهى فى مرحلة اليفاعة، ظهور أدب الاستقلال، من الرواية والشعر، وكذلك الصحافة والتأريخ. تركزت الحوارات الثقافية الكبرى، فى بلادنا، خلال القرن التاسع عشر فى شيلى، الأمة ذات الطبقة المتوسطة الصاعدة وصاحبة جمهور القراء الذى يزداد عددًا يوم بعد يوم، والبلد ذات المؤسسات التى تشجع على حرية الصفوة. تحررت الصحافة فى نهاية المطاف من رقابة محاكم التفتيش وكانت فى هذا أفضل مجددة بين صحافة هذه البلدان، كما نعرف أن أكبر صحيفتين خلال القرن التاسع عشر تأسستا فى الأرجنتين مع فارق زمنى بينهما بلغ أربعة أشهر وهما "La prensa" عام ١٨٦٩م و "La Nacion" عام ١٨٧٠م؛ وكان باستطاعة أبناء أمريكا اللاتينية ذكر الكلمات والعبارات الشهيرة لرجل الدولة والشاعر الفرنسى لامارتين: "الصحافة هى الأداة الرئيسية للحضارة فى زماننا".

كان تعريف الحضارة هو المشكلة التى تركز حولها الحوار والنقاش الثقافى خلال القرن التاسع عشر، فماذا كانت هذه الدرجة الحضارية التى نصبو إليها والتى من خلالها نحدد ملامح الحياة الحديثة والرفاهية؟ كانت الإجابة هى أننا قررنا أن الحضارة لا تعنى أن يكون المرء هنديًا أو أسود أو إسبانيًا، وهذا نوع من التعريف بالنفى، وبدلاً من هذا أردنا أن نؤمن بأن الحضارة تعنى أن يكون المرء أوربيًا ويُفضّل أن يكون على الشاكلة الفرنسية.

هنا نجد أن طموحات التحديث التى ناصرتها الصفوة فى أمريكا اللاتينية انتهى بها الأمر بأن هزمت نفسها بنفسها، فقد قامت بإحداث تقسيم مصطنع لمكونات ثقافتنا وجعلته مبسطًا "الحضارة والبربرية" مثلما فعل ذلك سارمينتو فى العنوان المذكور الذى هو العنوان الجانبى لمُؤَلفه "فاكوندو: الحضارة والبربرية". وقد شرح فيه أن:

> "قانون الإنسانية يقضى بأن تنتصر المصالح الجديدة والأفكار الثرية والتطور على الموروث الذى أصابته الشيخوخة وعلى العادات الجاهلة وعلى المشاكل المؤقتة".

الحضارة والبربرية:

تمثلت "البربرية" الحقيقية فى هذه الأيديولوجية "المتحضرة" فى أنها تستبعد من مفهوم "الحضارة" كافة الأنماط البديلة للوجود وهى الهنود والسود والعموم، كما تستبعد كافة أنواع الملكية اللهم إلا أقرها الاقتصاد الليبرالى، وهنا نلاحظ أن هذا الموقف كان يستثنى بوضوح أسلوب الحياة الموروث القائم على الملكية العامة مثل نظام المشاع "ejido" فى الأراضى الزراعية فى المكسيك، ونظام الـ ayllu فى البيرو، ونظام المُنتج الزراعى المشترك. كانت هذه الثقافات البديلة ترتبط بمجموعة من القيم التى تختلف عن المدن، فالتراث ومعرفة الناس ببعضهم والقدرة على الحكم الذاتى بين المجتمعات التى كانت تعرف سكانها جيداً والعيش فى أحضان الطبيعة والتعامل الأمثل معها والتخوف من القوانين النظرية التى تفرض من عَل، كانت كلها جزءًا من هذه الحضارة البديلة التى رفضتها العقلية التقدمية خلال القرن التاسع عشر. هذا الصنف من الكسل المفرط سوف يكون عنصراً سلبيًا على أمريكا الإسبانية خلال القرن العشرين، إذ سوف يعود وكأنه قوس قزح أو طيف يطالب بوجوده. فى هذا السياق نجد أن أفضل نموذج لمجتمع بديل هو ذلك الذى طرحه الزعيم الريفى المكسيكى إيميليانو ثاباتا E. Zapata.

كانت الثقافة البديلة للهنود والسود بمثابة عقبة فى سبيل تقدم الصفوة الليبرالية خلال القرن التاسع عشر - هكذا نُظِرَ إليها - حيث قبلت هذه الصفوة بأيديولوجية جديدة اعتبرتها "علمية". لكنها لم تكن إلا اتخاذًا للفلسفة الوضعية لأوجست كانط Auguste Conte، ومعنى هذا، طبقًا لهذه الفلسفة، أن تاريخ البشرية يمر بمراحل مُزْمعة سلفًا وصالحة على المستوى العالمى؛ وكان يكفى أمة من أمم أمريكا اللاتينية أن تكتشف الفترة أو المرحلة التى تعيشها لتدخل، علمياً، إلى الحركة المتجهة نحو التقدم. كانت لافتة هذه الفلسفة: "النظام والتقدم"، وقد ألهمت كافة الحكومات فى أمريكا اللاتينية خلال القرن التاسع عشر، وانتهى بها الأمر لتكون برهانًا على تأثير أوجست كانط A. Conte ووصل هذا التأثير إلى مركز العَلَم الوطنى للبرازيل.

هيأت الفلسفة الوضعية الأمر أمام كبار سَدنة "الريال بوليتيك **real politik**" فى أمريكا اللاتينية أن يتقدموا للناس، لا على أساس أنهم يتدثرون بالأعلام الوطنية وإنما بفلسفة كانت تزيح الضباب الخاص بالماضى الميتافيزيقى، فلما كان من الممكن توقّع حركة المجتمع، كان ممكنًا أيضًا إدارة التغيير، وما يترتب على ذلك من نتائج ثانوية تتمثل فى إزالة العقبات من طريقه، التى كان أولها السكان الأصليون. هنا نجد أن الكاتب الأرجنتينى كارلوس بونخى **C.Bunje**، قد بارك فى كتابه الضخم، "أمريكا الخاصة بنا" **Nuestra America**، إدمان الكحول والجدرى والدرن الرئوى لأنها أمراض ساعدت فى تقليل عدد الهنود والسود فى الأمريكتين.

كانت الدعاية ضد الهنود الوجه الآخر للعملة والطرف الآخر الذى تمثل أوله فى رغبة محمومة لجلب الوافدين البيض إلى أمريكا اللاتينية، كما ظلت قائمة صورة الهنود السفاحين واللصوص، وفى هذا المقام هناك عبارة للصحفى المربّى الأرجنتينى خوان باوتستا ألبرد **J.B.Alberdi** تقول: "أن تحكم هو أن توطِّن". لكن قبل ذلك كانت هناك خطوة سابقة وهى إخلاء المكان من السكان؛ ففى عام ١٨٧٩م انطلقت القوات المسلحة من بوينوس أيرس تحت قيادة الجنرال خوليو روكا **J.Roca**، وكان هدف هذه القوات استئصال كافة الهنود من أرجاء الأراضى جنوب الأرجنتين، إذ كانت أراضى الرعى التى يستخدمها الهنود ضرورية للحضارة، أى للوافدين الأوربيين، ونجح الجنرال روكا فى مهمته نجاحًا كبيرًا، وهى المهمة التى أطلق عليها "حملة الصحراء" وكوفئ مرتين على فعلته من قِبَل رئاسة الأرجنتين.

فى شيلى نجد أن شعب ثقافة "الأراوكانو" **araucano**، كان غيورًا جدًا فى دفاعه عن استقلاله ولم يسيطر عليه الإسبان أبدًا؛ لكن سيطرت عليه فى النهاية البندقية والدراجة البخارية، حيث توجهت حملة حربية فى عام ١٨٨٠م وسيطرت عليه تمامًا وجعلته يعيش فى مناطق المحميات. وعندما نتأمل الوضع فى المكسيك نجد أن الحكم الدكتاتورى برئاسة بروفيريو دياث **Profirio Diaz** يعلن نفسه حكمًا "علميًا" يستلهم الفلسفة الوضعية، قام دياث، الرجل ذو الدم من أبناء السكان الأصليين من الثابوتيك **Zapoteca**،

بحملات بشعة على السكان المقيمين فى الولايات الكائنة شمال المكسيك وسونورا Sonora وسينالوا Sinaloa وشيهوهوا Chihuahua الذين تمسكوا بأرض الأجداد. كان دياث يريد أن يقدم هذه الأراضى للإقطاعيين الجدد من المكسيكيين الموالين له، وبالتحديد لأسرة ليمانتور، وإلى الشركات الأمريكية مثل شركة "ريتشاردسون للإنشاءات R. Cons. C." الكائنة فى لوس أنجلوس، وإلى شركة "ويلر دى فونيكس W.C. Phoenix" الكائنة فى أريزونا، فاستفز تمرّد توموشيك Tomochic فى شيهوهوا وفى أثناء العمليات القتالية ضد شعبى "ياكى" Yaqui و"مايو" Mayo تم اقتياد قادة هذين الشعبين وذهبوا بهم إلى أعالى البحار فى سفينة حربية مقيدين بالأغلال وألقى بهم فى المحيط الباسيفيكى. ثم جرى اغتيال قادة التمرد الذى قام فى ياكى، وجرت معاملة نصف سكان ياكى (ثلاثون ألفًا) بنقلهم حتى يوكاتان Yucatan فى مسيرة مفزعة، وجرى فصل النساء عن الرجال، وأُجبِرَت النساء على الزواج بعمال صينيين وأن تنسى أسرهن وتقاليدهن الأصلية.

إذن، ما هو مصدر هذه البربرية؟ هل هى المدينة أو الريف؟ من الواضح أن أيديولوجية التقدم كانت تتجاوز كافة الحواجز، وكان يتم التضحية بالهنود وهذا مُستباح، أما عملية الغزو فمن البدهى أنها لم تكن قد اكتملت، فها نحن الآن معشر الإسبانوأمريكيين المستقلين كنا الغُزاة الجدد، ونقوم بفعل الشىء نفسه الذى كان يقوم به من هم من نسل كورتيس وبيثارّو، ولم يتغير الأمر فى شىء إلا الزِّى.

كان هناك عنصر آخر من عناصر "النكوص" و "البربرية" فى الريف، وقد أطلق على هؤلاء الريفيين مسمى charros "الفرسان" واسم guasos "الفلاحين" فى شيلى و"رُعَاة البقر" gauchos فى الأرجنتين، كما أنهم كانت لهم لغتهم وصورتهم الخاصة التى رسمت ملامح ثقافة مختلفة عن ثقافة الحضر؛ إنهم أُناس قريبون من الطبيعة، من الغلاظ، الخارجين على القانون، رجال عصابات تمتطى صهوة الجواد، رجال مستقلون ومنعزلون وسط طبيعة عمياء ومنعزلة أيضًا، غير بعيدين عن العنف فى الحياة الاجتماعية، وعندما نتأمل سيرهم نجد أنها قريبة من سير اغتصاب الأراضى والاغتصاب أو إحراق الأخْصَاص أو ظهور وبرور قائد محلى، ولا يخلو من كل هذا تدخل أو اثنان

على يد الأجانب، أى إن الفلاح أو الفارس هو دائمًا قاب قوسين أو أدنى من الانخراط فى دائرة الجماعات المسلحة ويسلط بصره دائمًا، وأحيانًا دون وعى، صوب هوّة الثورة، ومن الناحية التراثية نجد الفارس **charro** وراعى البقر **gaucho** يقصان حياتهما من خلال الأغانى، فأغنية الفارس يُطلق عليها لفظة **corrido** وهى صنف من الأغانى تولّد عن "الرومانث" الإسبانى خلال العصور الوسطى وعصر النهضة، أى إنها قصيدة مكونة أبياتها من ثمانية مقاطع، ذات أسلوب سردى وتدخل فى الموروث الشفاهى غير أنها تعرضت للتعديل والإثراء.

الفلاح **Charro** وراعى البقر هما هيكتور **Hectores** وأخيل **Aquiles** فى الملحمة الزراعية فى أمريكا اللاتينية؛ وهى قصة ثانية تتأكد بالكلمات والأفعال، بمبعد عن الأشكال التقليدية للحضارة والتقدم؛ فراعى البقر، مثل الفلاح، يغنى قصته هو؛ وعندما يقوم المُغنون الجوّالون **Payadores** فى البرارى بالغناء، فإنهم يجعلوننا نشعر أن لهم سلطانا جاءهم من لدُن غيبة أى وسيلة من وسائل الاتصال بالعالم المحيط بهم، ومن بين موضوعات الغناء عند هؤلاء هو أن راعى البقر يبدأ الغناء وهو جنين فى بطن أمه، ويولد وهو يغنى ويموت كذلك على الحال نفسه، وما يغنيه هو بالطبع آلامه، وهناك أغنية هى وحدها القادرة على التخفيف عنه.

كانت أغنية هؤلاء الجوّالين هى صحيفة البرارى، وهى الكتاب الوحيد لرُعاة البقر، وهى، فى المحصلة، مصدر أبرز وأعظم عمل أدبى خلال القرن التاسع عشر فى إسبانوأمريكا؛ هى ملحمة "مارتين فيرّو"، التى كتبها خوسيه إيرنانديث. كان إيرنانديث كاتبًا من الحضر، قضى زمنًا فى البرارى، وأعلن معارضته لسارمينتو والفصل التعسفى الذى نادى به بين الريف والحضر، وبين الحضارة والبربرية، وعندما وصل إلى كرسى الرئاسة فى الأرجنتين عام ١٨٦٨م تجاوز - أى سارمينتو - كافة الحدود فى احتقاره لرُعاة البقر.

> "لم أحاول التجارة بدم رُعاة البقر، فهذا الدم هو سماد يجب أن يكون مفيدًا للبلاد. والدم هو الشىء الوحيد عندهم يُنسب إلى الكائنات البشرية".

كان إيرنانديث يريد الدفاع عن عالم المزارعين ويقف فى وجه استغلال المدينة وغطرستها. لم يكن مارتين فيرّو عقبة أمام التقدم، بل هو ضحية "نزوات مجموعة من القادة المتغطرسين ممّن لا قيمة لهم، لكنهم أفادوا من الضعف الإنسانى والعزلة".

يبدأ مارتين فيرّو قصيدته متذكرًا حياته كرجل حرّ، ثم أعقب ذلك مباشرة بالحديث عن معاناته على يد العسكريين والفاسدين من الزعماء من مُرَوّضى الخيول؛ فبعد أن جرى تجنيده فى الجيش، فرّ، ثم أُودِعَ السجن، ثم عاد فى نهاية المطاف إلى المنزل. لكن إيتاكا **Itaca**، بلدته، أصابها الدمار، وجرى اغتصاب بنيلوبى وخطفها، وبالتالى لم يعد أمام عُلَيس أى مخرج آخر لمواصلة رحلته إلا اللجوء إلى البرارى الواسعة التى لا يسود فيها القانون.

وأقسمت هذه المرة

أن أكون أسوأ من حيوان ضارٍ!

هكذا بدأ مشوار الجريمة، ويقال إن لفظة **gaucho**، وكذا اللفظة المماثلة لها دلاليا على الجانب الآخر من جبال الأنديز، فى شيلى، وهى **hauso**، إنما مردهما إلى لغة الأراوكان، ومن ألفاظها **guacho** بمعنى غير الشرعى واليتيم، الذى توفى عنه أبوه. هذا الشعور باليُتم وبأنه ابن سفاح، كان أحد البصمات الموروثة عن "الغزو"، والتى تتعلق بأبناء إسبانيا وعالم السكان الأصليين، ثم أخذت هذه البصمة تظهر من جديد وكأنها العلامة الخفية لهذه الشخصيات الوحيدة والعنيفة سواء فى سهول بلادنا أو جبالها.

اثنان فى التانجو: Two to tango

أخذت مدن أمريكا اللاتينية تتسع رويداً رويداً وأخذت تتزايد فيها أعداد الوافدين من الداخل من "الأبعاديات" والبرارى والمزارع والسهول. وقد حدثت هذه الظاهرة فى الأرجنتين قبل أى مكان آخر نظراً لأنه لم تكن هناك أية مدينة أخرى فى أمريكا اللاتينية قد نمت خلال تلك الفترة - نهاية القرن التاسع عشر - مثلما نمت مدينة بوينوس أيرس، أو أنها سرعان ما تحولت إلى مركز جاذب للوافدين.

كان تعداد سكان الأرجنتين لم يكد يبلغ مليونى نسمة عام ١٨٦٩م، وخلال الفترة من ١٨٨٠ وحتى ١٩٠٥م وصل إلى البلاد ثلاثة ملايين من الوافدين الأوربيين، وفى عام ١٩٠٠م نجد أن ثُلث سكان منطقة الساحل كانوا قد ولدوا فى الخارج.

ومع نهاية القرن التاسع عشر نجد أن كلا التيارين المهاجرين، التيار الداخلى والتيار الخارجى، أى رُعاة البقر والأوربيين قد تلاقيا وتداخلا على الشواطئ الضيقة فى بوينوس أيرس.

النجوم هى دليل

راعى البقر فى البرارى

قادته النجوم حتى المدينة، حيث ينزل من على صهوة جواده ليتوه فى حوارى وأزقّة الأحياء، كان الوافدون من الداخل لا يخضعون لقانون وليس لهم أرض أو رُفقة، وهم رعاة البقر القُدامى الذين هجرهم غيرهم، يسيرون، على غير هدى، على بلاط بوينوس أيرس، وهناك التقوا بالوافدين من أوربا فى البارات وفى تجمعات الساقطات فى المدينة. هى مدينة الرجال الذين يعيشون وحدهم، رجال بدون نساء، تعرف الجميع على بعضهم من خلال التانجو، وهى موسيقى للوافدين فى مدينة العُزلة ومدينة تعيش مرحلة انتقالية.

تقص علينا موسيقى التانجو حكايات الإحباطات والآمال ونقاط الضعف واللاأمان؛ وقد أطلق خورخى لويس بورخيس على هذه الموسيقى "الدردشة الكبرى لبوينوس أيرس"؛ لكنها، فوق كل اعتبار، حدث جنسى من الطراز الأول؛ وهناك مقولة إنجليزية تشير إلى ضرورة وجود اثنين لرقصة التانجو **Two to tango**: أى رجل وامرأة متعانقين. فى رقصة التانجو يقوم الزوجان بالسير فى ظل قَدَر فردى ومشترك فى آن، لكنهما يدركان استحالة السيطرة عليه، ومن هنا كان التعريف الدقيق للتانجو الذى قدمه المؤلف الموسيقى سانتوس ديسيبولو: "إنه فكر حزين قابل للتحول إلى رقص". وإذا ما نظرنا إلى جذور التانجو لوجدناها غامضة تماماً مثل وجوده فى الوقت الحالى،

لكن الأفارقة أو أبناء البحر الأبيض المتوسط يقدمون لنا صورة من الاتصال اللغوى بين اللفظة Tang، فى لغة السود التى تعنى يلمس، يقترب، وبين الجذر اللاتينى وهو الفعل Tangere الذى يعنى أيضًا يلمس ويقترب ويمثل. كل هذا، هو فى واقع الأمر، له أصداؤه القشتالية وهو الفعل: Taner أى يعزف الجيتار على سبيل التحديد.

وأيًا كانت أصول التانجو، فقد سافر إلى الخارج مع نهاية القرن، وانتقل من بؤر الدعارة فى بوينوس أيرس إلى صالونات باريس، فهل كان التانجو أحد أنواع "الحلو" القابلة للتصدير من بلادنا مثل الشيكولاتة والبنّ والسكر والتبغ؟ لقد تحول، على أية حال، فى الحسّ الأوربى إلى أول رقصة يتعانق فيها الزوجان على الملأ. وكان رد فعل البابا بيُو العاشر هو أنه منع "هذا الرقص الوحشى"، كما منعه الملك لويس ملك بافاريا على ضباطه، وفى إنجلترا نجد دوقة نورفولك Norfollk تعلن أنه رقص مناقض للطبيعة الحسنة والعادات الإنجليزية المحمودة، إلا أن الإنجليز، رجالاً ونساءً، عام ١٩١٤م، كانوا يفدون كل ليلة بأعداد كبيرة إلى "عشاء التانجو" فى فندق سافوى بلندن.

رغم نجاح التانجو على المستوى الدولى عاد إلى مصادره الأولى، إلى بوينوس أيرس، وإلى وظيفته الأولى فى استحضار ما عليه مدننا من غموض وأسرار وفقر مدقع وصعوبة العيش ككائنات بشرية فى الرقع العمرانية الحضرية فى مدننا. لكن المدن والريف أخذتا تشهدان ظهور ثقافة من اللقاءات والاختلاط والتشابك، وأخذ ذلك يتجلى فى اللغة والموسيقى وحركة الجسد والإيماءات والأحلام والذكريات والرغبات. ورويداً رويداً أدركت أمريكا الإسبانية أن الأمر لا يتعلق بأن نختار ببساطة بين الحداثة والموروث، بل يجب أن يكون كلا الطرفين حيًا وفى حالة حضور إبداعى؛ وشيئًا فشيئًا أدركنا أن البحث عن هوية ثقافية لا ينضب له معين سواء فى الانفتاح على الآخر أو تأمل الذات، فى الاختلاط أو العُزلة، فى الحضارة أو البربرية، بل كان هذا البحث يتجه صوب توازن عبقرى ومحكوم بين ما كنا قادرين على أن نقدمه للعالم وما نحن قادرين أن نأخذه عن العالم. مر الحوار الثقافى الخاص بالاستقلال بكل هذه المُعضلات،

وأصابنا الخوف من أن نكون نحن الذين أجبرنا أنفسنا على أن نكون شيئًا آخر، فرنسيًا أو أمريكيًا أو إنجليزيًا. هذه المُعضلة كانت ببساطة مرآة الصعوبة التى كنا نواجهها فى أن نوجد لأنفسنا مكانًا فى هذا العالم، والتعرف عليه وأن يتعرف علينا؛ لقد كافحنا إحساسنا بالزمن وكيف نعيش فى سياق خاص بنا وألا نحوله إلى خلط خطير بين الماضى كعلامة على التخلف وبين المستقبل كعلامة على التقدم.

استطعنا من خلال التطور الثقافى على مختلف الأصعدة سواء المتعلقة بالصفوة أو ما هو شعبى، أو ما هو رفيع وما هو فجّ، أن نكتشف أمرًا وهو أنه لكى يكون المرء تاريخيًا فإن الزمن يجب أن يكون جامعًا بين الماضى والمستقبل، ويمكن أن يكون فى هذا السياق هذا وذاك فى الحاضر، ولا شك أن أفضل فنانينا المحدثين قد أدركوا الأمر على هذا النحو.

أبدع الرسام المكسيكى دييجو ريفيرا – ق ٢٠ – لوحة حائطية، خلال عام ١٩٤٠م لفندق برادو بمدينة المكسيك، أمام حديقة "آلاميدا"؛ وفيها نجد أن الرسام وصف حلمًا فيه كافة الشخصيات التاريخية للمكسيك ابتداءً من "الغزو" وحتى الثورة، الرسام يضع أمامنا حلمًا لكنه يضع أيضًا الحوار العميق حول ذاتنا، فهل يجب أن تكون ثقافتنا هى الثقافة الأصلية أو ثقافة مستوردة، أى هندية أو إسبانية أو فرنسية أو أمريكية؟ الأمر ليس إلا معضلة مصطنعة؛ وكان هذا هو الرد الذى جاء من الكاتب الوطنى الكوبى خوسيه مارتى، الذى يمكن أن نرمقه وهو يرسل بتحية الفارس، رافعًا قبعته، إلى مجموعة من السيدات اللاتى يَمْرُرن بالرسم الحائطى عند حديقة "لا آلاميدا"؛ لقد وجد خوسيه مارتى، بكل تواضعه الرقيق، مفتاح حل هذه المعضلة القديمة، فهو لم يقف فقط عند حد التحذير من استيراد أنماط للتقدم بشكل غير انتقائى، بل ربط، بقوة، التقدم بالحاجات الفعلية للناس وبالموارد الفعلية للأمة وبالتكوين الاجتماعى الحقيقى لأمريكا الإسبانية.

نوّه لنا مارتى بأن نبرز الموارد والناس والاحتياجات والثقافة والتراث وأن نستخرج من كل هذا نموذجًا وطنيًا للتقدم، أشار فى مؤلف له بعنوان "أمريكتنا"

إلى "يجب أن تولد الحكومة من رحم البلاد فروح (و) شكل الحكومة يجب أن يكونا متوافقين مع التكوين الحقيقى للأمــة، والحكومة ليست إلا توازن العناصر الطبيعية فى البلاد [...]، وعلى أساس هذه القاعدة ربما يمكننا أن نبلغ الديمقراطية الحقيقية: [...]، وإذا لم تفتح الجمهورية ذراعيها وتحتضن الجميع وتتقدم يصاحبها الجميع فإنها تموت".

تكوّن كل هؤلاء بفضل التثقيف الذاتى، ووصل الأمر عند مارتى أن خمّن قدرة أمريكا اللاتينية فى المستقبل على أن تساهم بحرية فى مصير العالم:

"فالشعب الذى يريد الموت لا يبيع بضاعته إلا لشعب واحد، أما الشعب الذى يريد أن ينقذ نفسه فهو الذى يبيع لأكثر من شعب... يجب إحداث توازن فى المجال التجارى لضمان الحرية".

لا زال الحل الذى اقترحه مارتى هو الأفضل؛ ويمكن بلوغ التوقعات والطموحات القومية دون التضحية بالمساهمة الكاملة فى العالم الشديد الارتباط ببعضه ومتعدد الأقطاب الذى ينتظرنا خلال القرن الحادى والعشرين، وهو الحل الذى أصبح أهم الحلول وأولاها؛ فمارتى يطلب منا ألا ننسى أحداً، وألا ننسى شيئًا، وسرعان ما وجدت الثقافة المنفتحة على كل شىء، والتى يقترحها مارتى، نماذج خاصة بها طرحها كتّاب مثل روبين داريو – من نيكاراجوا – الشاعر الذى تجتمع فيه السمتان: أنه لاتينى أمريكى وأنه أوربى. ونرى الأمر نفسه فى أعمال هذا الرسام العبقرى المكسيكى الذى ظهر مع نهاية القرن وهو خوسيه جوادا لوبى بوسادا. استطاع الكثير من هؤلاء العباقرة – خوسيه مارتى وبوسادا، وروبين داريو والأخت خوانا إينس دى لاكروث، وكذا النحّات أليجاندنيو Alejandinho – أن يفصحوا عن إبداعهم الأصيل من خلال كل هذا الثراء التراثى الذى هو لحسن الحظ الجماع الأساسى للوجود الأمريكى اللاتينى. نجد إذن أن التنوع الثقافى أو التعددية الثقافية لم تكن عند كبار الكُتّاب فى بلادنا عبئًا بل تحولت إلى مصدر للإبداع.

هيكل عظمى فوق درّاجة:

كان خوسيه جوادا لوبى مؤرخًا للواقع المعيش من خلال هذه اللوحات المثيرة واللافتة للانتباه، وهى لوحات منبثقة من الملاحظة المباشرة عندما يطل من نافذة مطبعته على مدينة المكسيك. قام بوسادا برسم وطبع اللوحات وصحف الحوارى للشعب الذى كان يطالب بالريبورتاج المباشر والمثير، الذى يتناول ما كان يحدث، حتى نعرف من قتل من ومن ولدت طفلاً برأسين ومن فاز فى انتخابات الرئاسة وكم من الوقت ستصمد طائرة ورقية فى الهواء. هذه اللغة الشعبية التى استخدمها بوسادا هيأت للجماهير فى المناطق الحضرية، وكذا للوافدين من الأميين من أبناء الريف، ما يمكن أن يُقال عنه أنه النذور العلمانية أو حوامل الأيقونات وكذلك الوسائل الأخرى ذات الطابع الشعبى الدينى، أى تلك اللوحات، على القصدير أو الخشب، التى لا زال من الممكن رؤيتها حتى اليوم فى الكنائس المكسيكية؛ وبفضل كل هذه العناصر يقوم المتعبدون بتقديم شكرهم للعذراء أو القديس الحامى لما تلقوه من كرم؛ وإذا ما كان ذلك منبثقًا عن الثقافة الزراعية المكسيكية فإن العمل الفنى لخوسيه جوادا لوبى بوسادا، كان أيضًا تكهنًا بما ستكون عليه لوحات الجرافيت الحديثة التى نلحظ وجودها اليوم فى الولايات المتحدة ابتداءً من نيويورك وحتى لوس أنجلوس، فهذه اللوحات إنما هى صوت الفقراء على شاكلة لوحات بوسادا.

انتسب بوسادا إلى هذا الصنف الغريب من الفنانين الذين يرتبطون بشكل واضح بوسيلة تعبير كونية عن الثقافة: إنها ثقافة الخطر وثقافة ما هو غريب وثقافة الأطراف واللاقولبة، وفى هذا المقام نجد بوسادا أحد أبناء العائلة الإسبانية المكونة من جويا ولويس بونيويل، إذ استطاع فنه أن يجعل ما هو غير مركزى عالميًا، ولهذا السبب نفسه نجده شديد الالتصاق بثقافة الحوارى التى تفتقد لمن يعبر عنها بالصوت والكلمة. تكثر عمليات الاغتيال عند بوسادا، فأبرز لوحاته نجد فيها نساء من الطبقة العالية ترتدين فساتين سوداء طويلة، تطلقن الرصاص على بعضهن البعض. رسم بوسادا مشاهد للانتحار والموت والخوف، فها نحن نجد شابًا يلقى بنفسه من أعلى برج للأجراس

فى كاتدرائية المكسيك، ومصارع ثيران يصرعه الثور، وخيّاطًا حكم عليه بالموت لأنه قطع القصبة الهوائية لزوجته. كما نلمح كثرة الجنس والمعاكسات وشرب الخمر والرقص. وقد تم اكتشاف واحد وأربعين شاذًا جنسيًا وهم يرتدون ملابس النساء فى حفلة رقص خاصة، كما ولدت كائنات مخيفة، وطفل وجهه فى إليتيه ورجل ذى سيقان بدلاً من الذراعين وخنزير بوجه إنسان.

غير أن هناك وجه آخر بشع للكوارث التى يقدمها بوسادا على أنها حلم وكابوس فى آن؛ وهذه الكوارث هى التى تحدث فى روح كل فرد وليس فى عالم الأحداث اليومية؛ فكل من لوحة جويا "النزوات Los Caprichos"، ولوحة "الشياطين demonios" لبوسادا، وما بهما من فظائع طائرة وكائنات غريبة (أطلق عليها الشّح والشبق والتراخى والحقد) إنما تدغدغنا وتعضنا وتنفذ إلى داخلنا، بينما تتولى الحيّات قتلنا بأذرعهن القاتلة؛ كما تظهر الأشباح فى وضح النهار لترهيب السيدة باتشيتا، بائعة الشموع التى تجلس على الناصية. إنها الأشباح والشياطين والخفافيش وحيوانات التنين، تتلاقى كلها فى هذه اللوحة الفريدة لبوسادا، ففيها - أى اللوحة - نجد جاذبية المُولد، الذى يُطلق عليه "مسرح التمنيات T. de la Ilusion، كما أن مدخله ليس إلا فم شيطان مفتوح بما فى ذلك أنيابه، ينتظر أن يلتهم المشاهد الذى دخل لحضور آخر الحفلات أو أحداثها، وهى حفلة بلد لم يكتشف أبدًا"، ويرافقه فى هذا صف ضابط هو الموت كما يطلق عليه شكسبير فى مسرحيته هاملت.

الموت ينتظرنا فى المولد وفى الكرنفال الذى يفصح عن الطبقات الاجتماعية وعن الخيالات السياسية، إنه العرض العظيم للمساواة حيث تذوب الحدود والفوارق بين خشبة المسرح والجمهور، وبين الممثل والمشاهد، وبين من ينظر ومن يُنْظر إليه؛ هذا اللقاء الكرنفالى وهذا المذيب للسلطة، منذ فجر تاريخ الدنيا، يقود بوسادا إلى رؤية مرحة وساخرة للموت؛ هنا نجد أن لوحته المسماة "الجماجم" ما هى إلا تجسيد تم إعداده للاحتفال بيوم القديسين ويوم الموتى؛ يصعد فن ما هو مخيف ومُقْبِض إلى أعلى درجاته من خلال أحدث وسائل النقل وهى الدراجة، التى تظهر فجأة فى مقابر متخيلة؛ ففى عام ١٨٩٠م أصبحت الدراجة موضة المدينة - مكسيك العاصمة - وحدثًا ربما لم

يكن بعيداً عن مظاهر أخرى للتقدم مثل إقامة أول محطة للطاقة الكهربائية عام ١٨٩٨م، والمنطاد الذى حلّق فوق المدينة عام ١٩٠٢م وجاء به السيد خواكين دى لاكونتوبّا ورحلة الطيران الأولى التى قام بها بعد ذلك بقليل السيد برانيف Braniff؛ غير أن هذه الوقائع "الحديثة" لم تكن تنفصل أبداً عن متاعب الماضى، وهذه اللوحات تستلهم إلى جوار التقدم التشاؤم والجهل والعصابات المسلحة.

وبضربة عبقرية واحدة استطاع بوسادا أن يحل معضلة هذه التناقضات ويجمعها فى شخصية الموت على دراجة، وبذلك يصهر ما هو قديم وما هو جديد فى الموت الذى لا مناص منه؛ فالدراجة تحمل الأنيقات والقتلة وأعضاء مجلس النواب والأطباء المزيفين والبسطاء والقُضاة والطاعنات فى السن التَقيّات والأمريكان المستعلين. ويقول بوسادا إن على الأجانب أن يأخذوا حَذَرهم من سائقى الدراجات هؤلاء من المهرة؛ فقد كان على الريفى وعلى ابن المدينة أن يسيرا - و لا مناص من ذلك - فى طريق الموت، الموت السعيد بلا شك، الموت الذى يأتى وهو يضع سيجارة فى فمه ويرقص ويتناول شراب مدينة وادى الحجارة، كما يتصرف بطريقة كوميدية ودرامية أيضاً ويضع على وجهه قناع سيدة من سيدات نهاية القرن، أى قناع Mae West المُقبضة والملفوفة فى أردية الحية ذات الريش، كيتزالكواتل Quetzalcoatl، رأسها كث الشعر عليه قبعة باريسية ذات أطراف عريضة ومرصّعة بالزهور. هذه الرؤية غير العادية إنما تعود بالفضل، فى المقام الأول، إلى الموروث التراثى. الإبداع إذن عند بوسادا، مثلما هو الحال عند عظام المبدعين، هو عبارة عن هنيهة تضع أمامها الموروث التراثى فى المقام الأول وتتعرف عليه بشكل عبقرى وتجعله تراسنداليا، وترفضه وتزيده ثراء. هنا تجتمع فى بوسادا موروثات الرقص المُقْبِض خلال العصور الوسطى والذى تجلى فى اللوحة الخالدة على يد هولبن Holbein، ثم قام جويا وأدخل التعديلات اللازمة بعد ذلك، ها نحن نرى لوحة "النزوات" لجويا تحمل بصمات أمريكا اللاتينية ونرى حديقة المتعة المقبضة للأمير أورسينى فى بومارزو Bomarzo بمقابرها التى تفتح أفواهها لتلقى الموتى. كما أننا نجد هنا أيضاً التراث الموروث عن حضارة الأثتيك المسمى Coatepantli، أى ذلك الحائط الذى يضم لوحة من الثعابين والذى اكتشف حديثاً فى "المعبد الكبير" لمدينة المكسيك، وكذا الجماجم المُشكَّلة من السكر التى يأكلها الأطفال المكسيكيون

فى يوم الموتى. كما تعتبر لوحات بوسادا رائدة المونتاج السينمائى؛ وهنا نجد أن سيرج إينشتاين يعترف بأنه مدين لبوسادا فى المشاهد الخاصة بيوم الموتى فى فيلمه المعنون "تحيا المكسيك". هذه الرؤية الجديدة للغاية فى حد ذاتها تتسم بتفردها عندما نرى أن كافة المشاهد السابقة، وخاصة لوحات الموت، تنساب فى طريق رؤية للثورة تم ترجمتها إلى رؤية التاريخ على أنه عنف وموت. إنها رؤية ذات صخب عال، وحيوية ومرحة للموت، وهنا فإن ما قام به بوسادا لم يقتصر على تقديم ذلك للمجتمع، على شاكلة جويا، وكأنه يستخدم المرآة غير المنتظمة فقط بل يقدم رؤية عارية للتاريخ كحطام، والأمر هو أن بوسادا يساعدنا على ربط استمراريتنا الثقافية بنقد دائم وضرورى. لقد دفعنا ثمنًا غاليًا للاعتقاد الخاطئ القائل بأن التاريخ والسعادة يمكن أن يلتقيا بشكل طيب، فبوسادا يذكّرنا بأنه يجب أن نكون انتقاديين دائمًا، فكل سعادة هى سعادة نسبية إذ لا توجد سعادة مُطلقة، والتاريخ هو تاريخى إذا لم يخدعنا بوعد النجاح المُطلق أو العمل حتى درجة الكمال، والحياة قابلة لأن نعيشها إذا لم ننس الوعى المأساوى بما فى ذلك رؤية الموت، مثلما فعل بوسادا.

تجد معضلة التناقضات الثقافية فى عصر الاستقلال حلاً عند بوسادا وهو لقاء الأضداد من خلال المخاطرة والثورة والحياة والموت وهو لقاء يتسم بأنه غير عادى وأنه خطير. أدركنا نحن معشر أبناء أمريكا اللاتينية، فى فجر القرن العشرين، أن علينا أن نجابه كافة هذه المخاطر حتى نتعرف على ملامحنا الحقيقية وأن نفهم جِمَاع ماضينا وأن نرسم الطريق للمستقبل بحيث لا يرفض ما كنا عليه بل يجب أن يتوافق المستقبل مع ماضينا حتى تدب فيه - المستقبل - الحياة. وحتى نصل إلى هذا الحد كان علينا أن نكافح، من جديد وبعنف، التاريخ؛ وسواء كان تاريخنا عنيفًا أو عقلانيًا، ثوريًا أو هادئًا، كان عليه أن ينظر إلى الأمام ويتأمل المعضلة التى نحملها على أكتافنا منذ زمن ما قبل الاستعمار ومعه: إنها مشكلة ملكية الأرض وحقوق الأغلبية، فليس هناك مكان على ظهر الأرض نجد فيه الشعب والأرض يعبران عن أخوتهما العنيفة فى أول ثورة اجتماعية كبرى خلال القرن الجديد ألا وهى ثورة المكسيك.

الفصل الخامس عشر

الأرض والحرية

كانت الثورة المكسيكية، فى واقع الأمر، ثورتين، أولاهما كان على رأسها القادة الشعبيون للمقاومة، فهناك بانشوبيّا فى الشمال، وإيميليانو ثاباتا فى الجنوب، كانت أهدافهما العدل الاجتماعى القائم على الحكم المحلى. أما الثورة الثانية فهى التى قادها أصحاب المهن والمثقفون وأصحاب المزارع والتجار من الطبقة المتوسطة الصاعدة؛ تمثلت رؤيتهم للبلاد فى وجود دولة حديثة وديمقراطية وتقدمية، لكنها تنضوى تحت لواء دولة وطنية قوية.

شعر قادة الحركة الزراعية وحركة الطبقة الوسطى أن آمالهم قد طال انتظار تنفيذها تحت الحكم الفردى لبورفيريو دياث Porfirio، رئيس المكسيك، والذى يكاد يكون قد حكم البلاد بشكل مستمر منذ ١٨٧٦ حتى ١٩١٠م، وصل دياث، الرجل الذى كان يومًا ما من الأيام أحد رجال المقاومة البارزين الذين يعملون تحت لواء بنيتو خواريث، ويناهض التدخل الفرنسى، إلى سدة الحكم تحت رايات الليبرالية اللاتينية الأمريكية، غير أن شعار "النظام والتقدم" لم يكن يضم، طبقًا لمفاهيم بورفيريو دياث، مفهوم الديمقراطية أو العدل الاجتماعى. إذن كان يعنى عنده، ببساطة، تنمية اقتصادية سريعة تزيد من المزايا التى تتمتع بها الصفوة وتقر وسائل غير ديمقراطية للوصول إلى الغايات الاقتصادية المرسومة. فى بداية الأمر، غازل دياث الطبقة المتوسطة التى تشكلت خلال القرن التاسع عشر، قرن الاستقلال، فقد ظهرت على الساحة مجموعات من رجال الأعمال ورجال الجهاز الإدارى وأصحاب المزارع، وأخذ ظهور هؤلاء يتواكب

مع ما قام به دياث من تشجيع الاستثمارات الأجنبية فى كل من قطاع البترول والسكك الحديدية واستيطان الأراضى؛ فقام النظام الحاكم بزيادة خطوط السكك الحديدية المكسيكية من ١٦٦١ كم عام ١٨٨١م إلى ١٤٥٧٣ كم عام ١٩٠٠م. أحدثت هذه السياسات تغيراً جذرياً فى حياة آلاف من الفلاحين والحرفيين التقليديين والعمال الزراعيين وعمال المصانع، وفى الوقت ذاته نجد أن النظام الزراعى الذى جرى تنشيطه من خلال "قانون الإصلاح الليبرالى" قد حرم جموع الفلاحين من آخر ما تبقى لديهم من الأراضى التى ورثوها، والتى كانت تحميها حتى ذلك الحين قوانين كانت قد صدرت قديماً عن التاج الإسبانى.

ها هو توحيد الأراضى أو الملكيات الكبيرة تمتص الأراضى والمياه والغابات، وكلما تزايد عدد الفلاحين الذين فقدوا أرضهم نجدهم وقد تحولوا بالفعل إلى عبيد للإقطاعيين. كان أحد هذه الإقطاعيات ملك أسرة تراثاس فى إقليم **Chihuahua** أكبر مساحة من بلجيكا وهولندا مجتمعتين وكان المرور بها يستغرق يوماً وليلة بالقطار؛ أمر مشابه نجده بالنسبة للملكيات الأجنبية، ففى عام ١٩١٠م بلغت الأملاك الأمريكية فى المكسيك مائة مليون أكر (مساحة هذه الوحدة ٨٦ ,٤٠٨٦م٢)، بما فى ذلك جزء مهم من أراضى الغابات ذات القيمة العالية، وكذا بعض مناطق التعدين والأراضى الزراعية، وكلها تمثل حوالى ٢٢٪ من مساحة المكسيك. كما بلغت أملاك ويليام راندولف هيرست **W.R. Hearst**، أحد كبار أغنياء الصحافة، ثمانية ملايين أكر.

لم يكن القطاع الزراعى فى المكسيك إلا ظاهرة كاملة لنظام العمالة بالدَّين الذى حل محل الأشكال المتعاقبة – منذ العصر الاستعمارى – لاستغلال العمال الزراعيين: فالإقطاعية أولاً ثم يأتى التوزيع على الفور؛ فهناك الدين لقاء الخيمة المخططة، والدين المستحق من جيل إلى جيل، ففى عام ١٩١٠م كان هناك ٩٨٪ من الأراضى القابلة للزراعة فى المكسيك فى يد المَزَارع بينما نجد ٩٠٪ من الفلاحين المكسيكيين لا يملكون أراضى زراعية، ومع هذا كانت جموع الفلاحين تمثل ٨٠٪ من السكان وكانت نسبة الأمية بينهم تبلغ ٩٠٪؛ غير أنه عندما تحول الآلاف من الفلاحين من حرفيين تقليديين

إلى عمال زراعيين وعمال فى المصانع، وجد الرئيس - دياث - نفسه مُجبراً على تكوين قوات أمن ضخمة وذلك لتخويف النقابات العمالية وتفريق مظاهراتها وإضراباتها وضمان أن تستمر البلاد فى تقديم عمالة رخيصة، وإلا فلن تنفع المساندة المحلية التى يقدمها دياث ولن تفيد المصالح الأجنبية المتزايدة من الاقتصاد المكسيكى الذى يعيش توسعًا سريعًا، أو أن تُقدم على الاستثمار فيه.

أضحى بذلك أن التذمر والثورة قادمان لا محالة على مستوى هاتين المجموعتين وهما العمال الذين يعملون فى المصانع والعمال الزراعيين القدامى؛ وكان ردّ دياث على هذا رداً فظيعًا: "اقتلوهم حيث ثقفتموهم". شهدت إدارة دياث إضرابين عماليين متواليين بفارق زمنى لا يكاد يصل إلى ستة أشهر، أحدثا هزة قوية للنظام، ففى يونيو ١٩٠٦م تحدى عمال مناجم النحاس، فى كنانيا **Cananea**، الدكتاتورية المكسيكية وحلفاءها الأجانب، وهنا لجأ دياث إلى **Ranger** فى ولاية أيرزونا للقضاء على تمرد عمال المناجم بالقوة وكانت الحجة "حماية أرواح الأمريكان وممتلكاتهم". وفى شهر ديسمبر من العام نفسه نجد جماعة "دائرة العمال الأحرار" فى مصنع النسيج فى بلدة "ريوبلانكو" فى بيراكروث **Veracruz** تثور على الخيمة المخططة وظروف الإقامة غير الإنسانية واستخدام جوازات السفر الداخلية وبطاقات الهوية والرقابة على المطبوعات. غير أن دياث، هذه المرة، لم يلجأ إلى قوات القمع الأجنبية بل أرسل بالجيش الفيدرالى ليطلق نيرانه على العمال، ويقوم بتكويم جثثهم فى عربات السكك الحديدية التى حملتهم إلى بيراكروث وهناك ألقوا بالجثث فى البحر.

ازداد تباعد الناس أكثر فأكثر عن نظام دياث بما فى ذلك مجموعات الطبقة الوسطى التى تمتعت فى البداية بدعمه، وأخذت هذه الطبقة فى التقلص شيئًا فشيئًا كلما تقلصت دخولهم وزادت المكاسب للشركات الأجنبية، التى أبدت اهتمامًا كبيرًا بالتصدير من المكسيك لكنها لم تُعنَ كثيرًا بتوسيع رقعة السوق المحلية المكسيكية.

أدى هذا النظام المفروض على مجتمع زراعى فى الأساس إلى خلق طبقة من الإقطاعيين تتسم بقوة عاتية، وإلى خلق برجوازية ضعيفة، الأمر الذى أوقف تطور

الحركة العمالية ودهس طبقة الفلاحين، وبعد ذلك نشهد فشل النظام فى استيعاب المجموعات الاجتماعية الجديدة التى خلقها النظام نفسه، مما أدى إلى تباعد عميق عن حكومة دياث. هناك إذن مجموعة من العناصر التى أسهمت فى توحيد صفوف العمال والفلاحين والطبقة المتوسطة وطبقة الصفوة فى المحافظات واتخاذها قرار السير فى طريق الثورة، وهى القمع وعدم توفر الفرص وتأثير الأزمات العالمية والمطالب القديمة المتعلقة بالأرض، وتلك الأخرى المتعلقة بالسلطة والشعور القومى. ومن المعروف أنه يحدث كثيراً أن يتجاوز المجتمع الدولة، بينما لم تكن الدولة تدرك ذلك. والأعمق من كل هذا هو أننا شهدنا المكسيك وباقى أمريكا اللاتينية قد بدءوا يعترضون على القيم التى من خلالها يمكن قياس الحداثة فى مجتمع زراعى، فهل يجب أن تسهم الحداثة أكثر فى النمو الاقتصادى والحريات السياسية، أو الاستمرارية الثقافية؟ هل يعنى دعم عنصر أو اثنين من هذه العناصر التضحية بالعناصر الباقية؟ أو هل كان يمكننا أن نبلغ حد التوازن بين الازدهار والديمقراطية والثقافة؟

عاصفة على المكسيك:

إذا ما تأملنا النشرات السينمائية البدائية فى أوائل القرن العشرين وجدنا أن بورفيريو دياث وفريقه يبدوان أنهما ينسبان إلى ألمانيا القيصر أكثر من نسبتهما إلى العالم الأمريكى، فكان مجلس الحكومة (كان أغلب الوزراء تتراوح أعمارهم بين سن السبعين وما يزيد على الثمانين عاماً) يُطلِق على نفسه "العلميون"، أو بمعنى آخر من يسيرون على هدى فلسفة عالم الاجتماع الفرنسى أوجست كانط التى تؤيده فيها كافة الأنظمة فى أمريكا اللاتينية، والتى كانت تقبل بجدلية تقول بأن الإنسان يمر بثلاثة مراحل للتطور، ابتداء من المرحلة اللاهوتية وانتقالاً إلى الصوفية ثم المرحلة الوضعية، وفى هذه المرحلة الأخيرة نجد مواجهة للواقع بعد تعريته من المفاهيم الخارجة عن إطار الطبيعة أو المثالية؛ ومع هذا فإن الواقع الذى يواجهه "العلميون" كان يعانى من الشيزوفرنيا، فالنصف الأول كان الواقع الذى يريدون رؤيته وهو واقع أفاد من التقدم والتحديث،

أما النصف الثانى فهو واقع جد مختلف وهو الظلم فى القطاع الزراعى الذى يعانى منه أغلب أبناء الشعب.

تلقى بوفيريو دياث فى شهر سبتمبر لعام ١٩١٠م تكريماً وتهنئة من مختلف أنحاء العالم فى الذكرى المئوية الأولى للاستقلال، فقد هب الكثير من رجالات الدول والكُتّاب العالميين لتهنئة الحاكم القوى الذى جعل السلام يحل بالمكسيك ومعه التقدم والاستقرار، وبذلك نرى أن دياث قد اكتسبت صورته الدولية المزيد من الشهرة على المستوى الدولى حيث صرح لأحد الصحفيين الأمريكان بأن "المكسيك أضحت فى نهاية المطاف دولة مهيأة لتطبيق الديمقراطية". وقرر الشعب المكسيكى أن يوجه له كلمته أيضاً.

هناك محام - غير معروف - إقطاعى يدعى فرانثيسكو ماديرو، يبلغ من العمر تسعة وثلاثين عامًا، تلقف هذا المحامى الوعد الذى جاء على لسان دياث بتطبيق الديمقراطية وألف كتابًا موجزًا بعنوان: "الخلافة فى كرسى الرئاسة" - ١٩١٠م -، فقد نادى هذا المحامى، فى كتابه المذكور، بالانتخابات الحرة ووضع حد لإعادة الانتخاب المتكررة للسيد بورفيريو دياث. وإذا ما تأملنا الكتاب وقد نشر وسط أمة تصل نسبة سكانها من الأميين إلى ٩٠٪ من التعداد العام فإننا نجد أن هذا الكتاب الصغير لهذا الرجل غير المعروف قد تحول ليكون بمثابة الشرارة الضرورية لإضرام النار فى تلك الغابة القديمة والجافة لبورفيريو، فقد قرأه كل من استطاع وكرروا رسالته.

من الجنوب جاء رجل شاب كان يرأس وفداً من الفلاحين الذين يمثلون الولاية التى ولد فيها وهى موريلوس، وذلك ليوضح للرئيس المتاعب التى يعيشها الشعب. غير أنه لم يكد يصل إلى موريلوس حتى ذهبوا به إلى الجيش ليؤدى الخدمة العسكرية الإجبارية. وفى عام ١٩٠٩م نجد أن القرى التى كانت تكافح من أجل الحصول على حقوقها قد اختارت الرجل نفسه وهو إيميليانو ثاباتا، الذى كان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثين عامًا مثله مثل قائده. تحول ثاباتا إلى مُرَوِّض ماهر للخيول وعربجى؛ كانت نظراته قوية ومباشرة لكنها حالمة تأسر كل من كانوا يعرفونه. من الشمال هناك رجل

آخر من أبناء الشعب وهو أحد العمال الزراعيين القدامى، متمرد وأحيانًا ما عمل لصًا للمواشى، يدعى دوروتيو أرانجو؛ اتخذ لنفسه اسمًا حركيًا هو بانشو بيّا. استطاع بيًا أن يكون جيشًا من رعاة البقر والعمال الزراعيين والحرفيين للكفاح ضد الدكتاتورية، والتقى فى خِضمّ هذا الكفاح "برسول الديمقراطية"، المتواضع فرانثيسكو ماديرو، ووعد المكسيك بالوصول إلى الديمقراطية الكاملة ليس إلا.

عندما سقطت المدينة الحدودية "ثيوداد خواريث" فى مقاطعة Chihuahua، على "النهر العظيم" على الحدود مع الولايات المتحدة فى يد القوات المتمردة عام ١٩١١م، أدرك بورفيريو دياث أن زمانه قد ولّى ومضى. وعندما رحل صوب المنفى والموت فى باريس لاحظ أن ماديرو كان قد أخرج من القفص نَمِرًا، لكن ما بقى هو ما إذا كان بالإمكان السيطرة عليه. وصل ماديرو إلى الرئاسة وهو يعتلى موجة من الحماس الشعبى، فها هى الجماهير تهذى وتحييه فى كل محطة يمر بها فى رحلته إلى العاصمة. وعندما دخل مدينة المكسيك ظن الناس أنهم يشهدون صعود وظهور "المخلّص الجديد"، تعرضت المدينة أيضًا لهزة أرضية فى ذلك اليوم مما أسهم فى جعل الأحداث أكثر عجبًا، لكن ماديرو كان يريد أن يقدم للمكسيك شيئًا أكثر تواضعًا، ومع هذا يكاد يكون إعجازًا، إذا ما نظرنا إليه فى إطار الموروث التسلطى الذى تعيشه البلاد منذ زمن حضارة الأزتيك وزمن نواب الملوك الإسبان: إنها ديمقراطية وظيفية، أى صحافة حرة ومجلس نواب مستقل وشديد الانتقاد للسلطة التنفيذية وحرية المواطن فى الانضمام إلى التشكيلات الحزبية. قدم ماديرو كل هذا إلى المكسيك، لكنه لم يعن كثيرًا بالأسباب التى تكمن وراء حالة عدم الرضا، فقد ظلت البيروقراطية القديمة فى مكانها ولم يلمس أحدًا الأبعاديات الكبيرة ولم يتمكن الفلاحون من استعادة أراضيهم، وظل جيش الدكتاتورية على ما هو عليه متأهبًا لقمع هؤلاء الذين أرادوا تغيير الأوضاع، وأخذت مجموعات من الفلاحين تغزو الأراضى والقرى وحدثت عمليات تخريب محدودة فى الاشتباكات بين البوليس والتنظيمات العمالية (النقابات). المحصلة هى أن ثاباتًا أدان ماديرو واعتبره خائنًا، وقرر الاستمرار فى كفاحه، ومع عدم الاستقرار فى المكسيك أخذ الضيق يزداد فى الولايات المتحدة فقد حمل الجنرالات

المناوئون السلاح لإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه، وانكمش النشاط الاقتصادى، وفى نهاية المطاف، فى فبراير من عام ١٩١٣م، وعلى مدى عشرة أيام، أى العشرة التى أطلق عليها "العَشْرة المأساوية"، تحولت شوارع مدينة المكسيك إلى ساحة معركة. كان النمر يسير طليقًا.

كان ماديرو شديد البطء فى الإصلاحات التى أدخلها ليرضى أصدقاءه وكان شديد الضعف مع أعدائه، وتعرض لمؤامرة من الجيش والإقطاع والسفير الأمريكى، هرى لان ويلسون، وفى أثناء اللحظات الحرجة التى عاشها هذا التمرد فى مدينة المكسيك نجد أن هناك قائدًا عسكريًا آخر عينه ماديرو، وهو الجنرال بيكتوريانو أويرتا، يخونه ويسانده فى هذا السفير الأمريكى ويلسون الذى نصّب نفسه حكمًا لما أطلق عليه "المكسيكيون غير الناضجين" و"السلالة اللاتينية الانفعالية". كما كان هناك ما هو أبعد من عدم كفاءة الرئيس ماديرو ألا وهو أن إدارة الرئيس **Taft** كانت تخشى الزعماء الشعبيين وهما بيّا وثاباتا، اللذان ظلا على موقفهما فى المناداة بإعادة توزيع الأراضى وممارسة الحكم الذاتى فى المجتمعات الزراعية.

بدم بارد، جرى اغتيال ماديرو الضعيف على يد أويرتا، وطبقًا لرواية صحفى أمريكى فإن ماديرو قد وضع حراسة على نفسه عبارة عن رجل أصم وأعمى وذلك حتى يتفوه بعبارة: "الوضع مستتب".

أدى هذا الاغتيال الفظيع لماديرو إلى توحيد صفوف البلاد، فقد أثبت أويرتا أنه طاغية ودموى ولا يرحم وشديد الارتباط بشرب الكونياك، واجه أمة سُلِبَ منها كل شىء، اتحدت فيها كافة الأطياف المتمردة تحت لواء بينو ستيانو كارّانثا **Venustiano Carranza** ذلك السناتور القديم فى عهد بورفيريو دياث وحاكم الولاية الشمالية **Coahuila**. كان كارّانثا يمثل الطبقات المتوسطة والعالية فى المحافظة، وهى طبقات تتجاوز طلباتها أكثر من الديمقراطية السياسية، إذ كانت تريد دولة مركزية قوية ومفتوحة تحتضن طموحات رجال الأعمال والمهنيين وصغار المُلاك فى الريف الذين كانوا مستبعدين من المزايا التى منحتها دولة المكسيك فى أثناء فترة المُلك الطويلة التى حكم فيها بورفيريو دياث.

كانت هناك ثلاث قوى حربية اتحدت ضد أويرتا، فمن الجنوب نجد إيميليانو ثاباتا الذى قاوم سياسة الأرض المحروقة التى كان يتبعها أويرتا ورد عليه بإحراق المزارع. أما فى الولايات الشمالية فإن بانشو بيّا كوّن جيشًا قويًا، وهو "فرقة الشمال" Division Norte وأحاط نفسه "بالذهبيين" Dorados وكسب المعركة تلو الأخرى فى مواجهة الجيش الفيدرالى واستولى على المزارع وحطّم الإقطاعيين والمُقرضين، وهدد كارّانثا، الرجل الذى نودى به كأول رئيس للثورة، وعندما استولى بيّا على ثاكاتيكاس، فى قلب منطقة المناجم فى المكسيك، استند كارّانثا على أكبر القادة الميدانيين مهارة فى الثورة وهو ألبارو أوبريجون - مزارع من سونورا - الرجل الذى كانت فرقه تضم المحاربين الشجعان من الأجانب (الجانكى) وتسير من أجل الانتقام للتجاوزات التى وقعت ضدهم والتى أمر بها بورفيريو دياث. هُزم أويرتا عام ١٩١٤م واستعدت الجيوش الثورية لدخول مدينة المكسيك، وبعد بلوغ النصر ارتدت سهام الثورة إلى صدرها، فقد كانت ثورة المكسيك فى حقيقة الأمر ثورتين أشرت إليهما فى بداية هذا الفصل، وهما حركة العمال الزراعيين فى القرى، التى يتزعمها كل من بيّا وثاباتا حيث ثبت ذلك فى المخيلة الشعبية. إنها ثورة قائمة - محليًا - حول الأرض والمياه والغابات، وقد ساعد هذا المشروع على نمط من الديمقراطية اللامركزية والجماعية والقادرة على أن تحكم نفسها بنفسها، معتمدة على موروثات محلية مشتركة على مدى طويل. وجدت هذه الثورة نفسها استمرارًا للقيم الزراعية القديمة وكانت فى كثير من الجوانب ثورة محافظة.

أما الثورة الثانية، الأكثر خيالية فى الأيقونات العقلية، فهى الحركة الوطنية المركزية والتحديثية بزعامة كارّانثا الذى وجد دعمًا له فى السلطة من خلال اثنين من الرجال النشطاء من رجالات الدولة هما: أوبريجون، ثم، بعد ذلك، خليفته بلوتاركو إلياس كاييس، وهما رجلان سيطرا على الحياة السياسية فى المكسيك خلال الفترة من ١٩٢٠ حتى١٩٣٥م.

كان الصدام بين التيارين الثوريين من الممكن أن يكون أكثر دموية من الثورة على النظام القديم، وربما كانت كل ثورة حدثًا ملحميًا تتوحد فيه صفوف الشعب ويقف فى وجه الطغيان الآيل للسقوط؛ لكنه سرعان ما يتحول إلى حدث مأساوى عندما تأكل الثورة نفسها: أى يقف الأخ فى وجه أخيه. فقد أُخرِجَ كارّانثا فى غضون زمن قصير من مدينة المكسيك على يد الثورة الثانية التى يتزعمها ثاباتا وبيّا، إذ دخل القائدان الشعبيان سويًا العاصمة؛ كان بيّا متجليًا، وجلس على كرسى الرئاسة، وإلى جواره ثاباتا عكر المزاج ولم يخلع قبعته وهو ينظر بلا مبالاة إلى المشهد الحضرى من حوله؛ نعرف أن جذور هذين الرجلين لم تكن هنا، بل هناك فى عمق أعماق الريف. وهنا قال ثاباتا لبِيّا: "هذه المدينة مملوءة بالمقاعد فى الشوارع، وأنا عندما أسير أتعثر فيها".

عادا إلى عالمهما الريفى وأخذا يوزعان الأراضى وأقاما المدارس وطرحا نمطًا بديلاً للتنمية. وعلى مدار عام كامل (١٩١٤-١٩١٥م) استطاع ثاباتا ومعه بلدة موريلوس أن يطبقوا الحكم الذاتى دون تدخل من الحكومة المركزية وأقاموا واحدًا من المجتمعات القابلة للتحقق والتى لم تشهدها أمريكا اللاتينية من قبل؛ فقد تم توزيع الأراضى طبقًا لرغبة القرى: أى الملكية العامة أو الخاصة، وعاشت الزراعة تحسنًا ملحوظًا وزاد الإنتاج بشكل كبير. ومن المعروف أن ثاباتا ورفاقه كانوا من الفلاحين والعمال ونحو ذلك، أما مصدر سلطته فقد كانت المجالس المحلية التى كانت تستند إلى العمل بالنصوص القانونية المحلية التى كانوا هم أنفسهم المعنيين بتحويلها إلى واقع معيش، كانت تلك هى القاعدة لما يمكن أن نطلق عليه سياسة الثقة. أرّخ جون ويماك **J.W.** لحركة ثاباتا وأشار فى هذا التأريخ النهائى إلى "أن الأمر الذى له دلالته فى هذه الحركة هو أن ثاباتا لم يشكل أبدًا جهاز بوليس حكومى، فقد تكفلت مجالس القرى بتطبيق القانون بشكل مرن"؛ ومُنِعَ الزعماء المحليون الحربيون من التدخل فى شئون القرى، وعندما كان على ثاباتا أن يكون محكِّمًا فى إحدى الأزمات المحلية فإن أقصى ما يفعله هو مساندة القرارات التى اتخذها سكان القرية بمحض إرادتهم.

حوّل فلاحو بلدة موريلوس – تحت التوجه الذى سار فيه ثاباتا – الحلم البسيط والعميق الذى طالما كافحوا من أجله إلى واقع، فبدلاً من أن يركنوا إلى الخنوع وضعوا ثقافة زراعية بوسعها أن تفلت من هذا المصير المشئوم، وأن يكون لها تنظيم مدنى واقتصادى وإنسانى ووظيفى يقوم على الأسس المحلية، ولقد برهن هؤلاء على أن المكسيكيين يمكن أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم بشكل ديمقراطى. ومع هذا فإن تلك القيم الخاصة بتوجهات ثاباتا هى نفسها التى أدانتهما بالموت، فقد كان توجه بلدة موريلوس يسير فى اتجاه معاكس للنمط الوطنى، فالمنظور الخاص بالدولة الوطنية المكسيكية كان يعنى زوال الخصوصيات المحلية وذلك لصالح التوجه الوطنى، وهنا يجب التضحية ببلدة موريلوس الصغيرة على مذبح المكسيك الكبرى، أى القوة الدينامية المسئولة والتى لا تضع فى اعتبارها أية حواجز والمركزية التى أخذت تتشكل حول كارّانثا وطموحات مناصريه وهما أوبريجون وكاييّس.

نجد إذن أن ثورة وطنية تدخل فى مواجهة مع ثورة محلية، وكانت هذه الأخيرة تقوم على التقاليد الموروثة والمقبولة من الجميع، أما الأولى فقد كان أمامها مشوار فى إعداد خطة وطنية للتقدم وفرضها على البلاد، كان اتجاه ثاباتا قادراً على حل المشاكل التى تطرأ: كانت قوانين العرف واضحة ومحددة ولا رجعة فيها، وكانت الثقافة المحلية متجانسة كما أن الحالة العميقة والحميمة التى يعرفها الناس عن بعضهم البعض تحبّذ أشكالاً مباشرة، أما الثورة القومية، فعلى العكس من ذلك، فقد شعرت أن واجبها هو تركيز طاقات البلاد حتى يتم تغيير المجتمع غير المتجانس، وذلك بخلق بنية تحتية حديثة فى بلد كان يفتقر إلى شبكة الاتصالات والطاقة الكهربائية والتنسيق الإدارى. أضف إلى ذلك أن ثورة بلدة موريلوس يمكن أن يُنظر إليها إلى أنها غير مسئولة على المستوى الدولى، وعكس هذا تواجهه الثورة الوطنية، أى مواجهة الضغط المستمر القادم من الولايات المتحدة والتهديد المباشر بالتدخل المباشر مرة أخرى. انتابت البلبلة حكومة ودرو ويلسون فى واشنطن عندما شهدت على حدودها الجنوبية ثورة، فاحتلت بيراكروث عام ١٩١٣م، وفى عام ١٩١٧م أمرت الجنرال جون (بلاك جاك) برشنج **J. Pershing** الانتقال إلى إقليم **Chihuahua** وذلك لإنزال العقارب بسانشو بيّا الذى قام بغارة داخل

الأراضى الأمريكية، فى ولاية المكسيك الجديدة. فشلت كلتا الحركتين إذ إن احتلال بيراكروث لم يزد الدكتاتور أويرتا إلا قوة، إذ كان يدافع عن القومية المكسيكية، كما أن ذلك الجنرال لم يتمكن أبداً من القبض على بانشو بيا نظراً لمهارته فى التفلّت من القوات الأمريكية. غير أن الرئيس الأمريكى ويلسون كان عليه أن يقاوم الضغوط القوية التى تعرض لها من جماعات الضغط الأمريكى التى تأثرت بالثورة والتى كانت تحبذ غزو المكسيك وليس هذا فقط بل ذهبت إلى حد إمكانية ضمها. عندما انتهت الحرب العالمية الأولى نجد أن الولايات المتحدة المنتصرة فى أوربا كان لديها جيش مكون من مليون رجل، وكانت ذات دينامية متحمسة وفى حاجة لدخول المكسيك وحل مشاكلها لصالح الولايات المتحدة. إننا أمام مكسيك منقسمة على نفسها - مثل لبنان فى زماننا - وبالتالى كان من الممكن أن تنتقل من كونها أمة إلى جرح مفتوح لا يندمل، إذ يجب أن تنتهى الثورة، ويجب القضاء على قادة الجماعات المسلحة وأن يكون هناك التزام قانونى وسياسى داخل البلاد وخارجها.

موت ثاباتا:

كانت المعركة النهائية بين الثورتين قاب قوسين أو أدنى، ففى معركة ثيلايا **Celaya**، عام ١٩١٥م تمكن ألبارو أوبريجون، أحد قادة كارّانثا، من هزيمة بانشو بيّا بشكل حاسم؛ كان هذا المحارب يستخدم دائمًا قوات الفرسان ويعتمد عليها فى بلوغ الانتصارات، ويعرف أوبريجون ذلك جيداً، ولهذا وضع مدفعيته على أطراف ميدان المعركة وتحدى بيّا أن يهاجمه بخيله. اختبأ الجنود الأمريكان فى منافذ ضيقة، وعند مرور ثاباتا بخيله فوق رؤوسهم، رفعوا بنادقهم وطعنوا بها بطون الخيل. انتهت المعركة وسط أمطار من الأحشاء والدم والدخان؛ فقد الجنرال أوبريجون ذراعه اليمنى فى المعركة، وتدور التعليقات بأن عدد الجثث كان من الكثرة بمكان لدرجة أن الجنرال لم يستطع العثور على ذراعه المبتورة، وعندئذٍ ألقى فى أرض المعركة بعملة ذهبية وعندئذٍ - كما كان يتوقع - ظهرت ذراعه طائرة ليلتقط قطعة العملة، وهنا يجب أن نَفِى الجنرال أوبريجون حقه فى أنه هو الذى ابتكر هذه الحكاية وقصّها على الآخرين.

كان هو أيضًا الذى قال المقولة الشهيرة وهى أنه لا يمكن لأى جنرال مكسيكى أن يقاوم مبلغًا يبلغ خمسين ألف بيزو، ولا شك أن كارّانثا كان يعرف ذلك جيدًا وهو يعدّ العدة لنصب فخ للتحدى الوحيد المهم للوحدة الثورية وهو ثاباتا الرجل الذى يستعصى على الترويض؛ فقد ظل هذا الأخير الوحيد الذى اختاره شعبه يكافح تحت لواء "الأرض والحرية"؛ فقد قيل له حىّ على السلاح، وحكم حياته وقرر الآن مصيره.

فى العاشر من أبريل لعام ١٩١٩م، امتطى ثاباتا صهوة جواده واتجه نحو مزرعة شينَاميكَا للقاء العقيد خيسوس جواخارادو، أحد الضباط الذين فرّوا من حكومة كارّانثا؛ وعندما دخل ثاباتا من باب المزرعة فى الثانية بعد الظهر حيّاه حرس المكان التحية العسكرية، وعندئذٍ سمع دق الطبول وأطلقت قوات الحراسة دفعتين من النيران على ثاباتا، وسقط المحارب إلى الأبد، وعمره أربعون عامًا لو كان قد عاش حتى شهر أغسطس من العام نفسه.

اتضح بعد هذا أن ذلك العقيد لم يكن من الفارّين بل كان جزءًا من مؤامرة حكومية لاغتيال ثاباتا؛ كافح هذا المحارب الصُّلب والمثير للقلق، والذى لم يُطو له علم أو يُغمض له جفن، حتى النهاية وذلك بالتطبيق الدقيق لمطلب الأرض والحرية، أما العقيد جواخارادو فقد تمت ترقيته إلى جنرال وتلقى مكافأة قدرها اثنين وخمسين ألف بيزو، أى تلك الدفعة المادية القوية التى لا تُقاوم والتى أشار إليها ألبارو أوبريجون.

أُلْقى بجثة ثاباتا على ظهر بغلة وذهبوا بها إلى **Cuautla** ثم ألقى بها على البلاط، أضاءوا المكان حول وجهه والتقطوا صورًا له. كان الأمر عبارة عن تدمير أسطورة ثاباتا، لقد مات ثاباتا، لكن لم يقبل أى من سكان هذا الوادى هذه الرواية، لا يمكن لثاباتا أن يموت، إذ كان شديد الذكاء وبالتالى يصعب أن يقع فى الفخ.

هنا، يمكن أن نرى جواده الأبيض وهو ينتظره دومًا فى أعالى الجبل، فكل سكان وادى موريلوس ابتداءً من قدامى الثوار وانتهاءً بتلاميذ المدارس يؤمنون بأن ثاباتا ما زال حيًا، وربما هم على حق، إذ بينما تكافح الشعوب لتحكم نفسها بنفسها بناءً على قيمها الثقافية وقناعاتها فإن الثاباتية سوف تظل حية.

ثـورة ثقـافية:

فى عام ١٩٢٠م اغتيل كارّانثا بطريقة غامضة وهو يهرب من أزمة جديدة داخلية فى صفوف الثورة. وقام ألبارو أوبريجون، النجم الصاعد فى العالم الجديد الثورى، بتطبيق الدستور الذى صاغته كافة القوى المتمردة عام ١٩١٧م وحاول عناق القوات التى تسير على نهج ثاباتا من خلال الإصلاح الزراعى، وقدم لبانشو بيّا نوعًا من العزاء عبارة عن مزرعة شمال المكسيك (حيث سقط هذا القائد المحارب قتيلاً أيضًا عام ١٩٢٣م). قاوم أوبريجون الضغوط الأمريكية وذلك ليقترح توسعة العمل بالقوانين الأكثر راديكالية حول توزيع الأرض واستغلال المناجم؛ غير أن الأمر الأهم الذى حدث فى عهد أوبريجون هو بداية البرنامج الوطنى للتربية تحت إشراف رجل يتسم بالصرامة وهو أمين عام التربية خوسيه باسكو نثيلوس.

خـرج أوائل المدرسين من مدينة المكسيك واتجهوا صـوب المزارع القديمة، وجرى اغتيال الكثير منهم على الفور، أما الآخرون فقد عادوا إلى العاصمة وقد قُطِعَت آذانهم أو جُدِعَت أنوفهم على يد الحارسات البيضاوات فى المزارع، كما نجد آخرين وقد استطاعوا الدفـاع عن مدارسهم الريفية وأن يقوموا لأول مرة بتعليم الشبان وكبار السن القراءة والكتابة.

من جانبه أيضًا قام باسكو نثيلوس، تحت قيادة أوبريجون، بتسليم المبانى العامة لفنانى الرسم على الحوائط وأعلن ميلاد ثورة فنية ليس فقط فى المكسيك بل فى كافة أرجاء أمريكا اللاتينية؛ كما أن أداء باسكو نثيلوس فى إطار الثورة المكسيكية قد ساعد الكثير من أبناء أمريكا اللاتينية على التساؤل فيما إذا كنا قد بلغنا فى نهاية المطاف نوعًا من التكامل المتسق ونوعًا من التوافق مع الموروث التراثى العظيم الذى نحن عليه دون استبعاد أى من مكوناته الثقافية أو الأخلاقية، فالثورة الثقافية فى المكسيك كانت تبدو وكأنها تشمل أبسط الأنشطة، مثل تعليم الطفل الريفى القراءة والكتابة وحتى أرفع مستويات الإبداع الفنى.

ومع هذا فإن المشاكل الاقتصادية والسياسية المتراكمة فى المكسيك وأمريكا اللاتينية فرضت نفسها على الواقع الثقافى، وأزاحته إلى الظل خلال ثلاثة الأرباع الأولى من القرن العشرين، لكن فى نهاية القرن نجد أن الواقع الثقافى هو الذى يفرض نفسه على السياسة والاقتصاد فى بلادنا.

أما التاريخ الثانى لأمريكا الإسبانية، وهو التاريخ الذى أحيانًا ما يتم دفنه، فقد تفجّر من خلال الكفاح الثورى المكسيكى وهدم حوائط العُزلة بين المكسيكيين وتحول، بشكل خاص، إلى ثورة ثقافية. نحن إذن أمام بلد كان مُنعزلاً عن نفسه منذ فجر التاريخ بالحواجز الجغرافية المتمثلة فى الجبال والصحراء والوهاد، والذى يضم مجموعات بشرية منعزلة عن بعضها؛ هذا البلد أخذ فى نهاية المطاف يتلاحم من خلال المسيرات الرهيبة لرجال ونساء سانشو بيا من الشمال ويتجهون إلى عناق الرجال والنساء التابعين لإميليانو ثاباتا فى الجنوب. ومن خلال هذا العناق الثورى عرف المكسيكيون فى نهاية المطاف كيف كان المكسيكيون الآخرون يتحدثون ويُغنّون ويأكلون ويشربون ويحلمون ويحبون ويبكون ويكافحون.

إذا ما كان ذلك قد حدث فى المكسيك، فلماذا لا يحدث أيضًا فى فنزويلا أو هندوراس أو الأرجنتين أو كولومبيا، وليس بالضرورة أن يحدث عن طريق العنف الثورى بل ربما من خلال التقارب الواعى رغم أنه شغوف بالحاجة الماسة، فى أمريكا اللاتينية، لتحديد التجربة الثقافية وربطها بالمشروعات السياسية والاقتصادية. ولأول مرة فى إسبانوأمريكا نجد كيف كانت المكسيك فظة أحيانًا وبلا مواربة، وأحيانًا ما نراها حنونة شفوقة بشكل يزيد عن الحد؛ إننا كنا نتشارك فى الشعور العميق بالكبرياء الشخصى واحتقار الموت. وتبين الصور الخاصة بالثورة المكسيكية التى التقطها الأخوان كاساسولا هذا التعبير المفاجئ عن الذات، ومن أمثلة ذلك عندما دخلت قوات إيميليانو ثاباتا مدينة المكسيك عام ١٩١٤م واحتلت ميادين الأرستقراطية المناصرة للرئيس بورفيريو التى هربت من الساحة، وشهدت القوات نفسها بشحمها ولحمها فى المرايا الكبرى.

لم تعد وجوه هؤلاء الرجال والنساء أقنعة، بل كانت وجوه نساء تركن قراهن للسير وراء رجالهن سواء فى القطارات أو سيراً على الأقدام، كانت الوجوه التى تحمل التهديد وبها نُدب القتال وهم يتناولون طعام الإفطار فى **Sanborns**؛ كانت وجه الأطفال الذين ولدوا فى الهنيهة بين معركة وأخرى، بعيداً عن القرى، إنهم مواطنون حقيقيون للثورة، وأبناء أمة جديدة تعلمت، من خلال الحرب الأهلية، مواجهة واقع ماضيها سواء من أبناء السكان الأصليين أو الإسبان أو المخلّطين والكاثوليك والليبراليين والتقليديين والحداثيين، وهم مواطنون يضربون بجذورهم فى الأرض وثقافتها.

اكتشفت هذه الأمة صاحبة المشاكل والأزمات كافة مكونات ثرواتها الثقافية وكافحت كفاحًا مريراً كافة التناقضات الموروثة، وأشارت الآن إلى ظهور مجتمع إسبانوأمريكى جديد، وهو مجتمع حديث إذا ما كان من حيث المبدأ قادراً على الوعى بذاته دون استبعاد أى من مكوناته الثقافية.

أوضحت الثورة فى المكسيك هذا الواقع الثقافى، لكن كانت المتطلبات السياسية العاجلة والغامضة فى معظم الأحيان، على المستوى الوطنى والدولى، هى التى تُنَحّى هذا الواقع بشكل دائم وتواريه الظلام، وسرعان ما أصبح معيار حداثتنا هو الفارق بين تفككنا السياسى ووحدتنا الثقافية. أما السؤال الذى وجهه لنا الزمن فهو ما إذا كان من الممكن لنا أن نحدد ملامح السياسة والثقافة ونجعلهما أكثر صدقًا واكتمالاً واستمرارية مع واقعنا العميق. وهنا نجد أن الأزمات المتتالية التى عاشها عالم إسبانوأمريكا طوال القرن العشرين ما هى إلا تحدٍ، باقترابنا أحيانًا وابتعادنا أحيانًا أخرى، لكن ببطء، عن هذا الحلم.

وعندما تدخل أمريكا اللاتينية القرن العشرين بهذا الشكل فإنها اكتشفت أن غايتها هى الجمع بين الثقافة والتاريخ فى معين واحد. هذه المعضلة الأمريكية اللاتينية سوف تكون جزءاً من نقاش كبير مفتوح يتأرجح بين الأمل والعنف.

الفصل السادس عشر

أمريكا اللاتينية

عندما نتطلع إلى لوحة الفريسك التى رسمها الفنان المكسيكى خوسيه كليمنتى أوروثكو والموجودة فى "بوموثا كوليج"، كاليفورنيا، نجد فيها أن شخصية "بروميتيو" تمثل الرؤية المأساوية للبشرية، التى ترجع أصولها إلى العصر الكلاسيكى القديم وإلى حوض البحر الأبيض المتوسط **mare Nostrum** فقد أدان الإله جوبيتر هذا البطل لأنه أعطى للبشر جذوة المعرفة والحرية؛ وكان جزاؤه ربطه إلى صخرة بينما يقوم نسر ينهش كبده إلى الأبد.

هناك لوحة حائطية أخرى لهذا الرسام نجدها فى مكتبة "بيكر" فى دارتموث كوليج، فى ولاية نيو هامشير، حيث نجد أسطورة كيتزالكواتيل، الحية ذات الريش، تواجه الأسطورة المتوسطية لبروميتيو؛ ففى العالم الجديد نجد خالق البشر وربّ الزراعة والفنون وقد تعرض للنفى لأنه اتخذ وجهًا بشريًا، كما أنه اكتشف فى صوره أفراحًا وأحزانًا على شاكلة ما للبشر.

نشير أيضًا إلى لوحة ثالثة، ليست أقل عظمة من اللوحتين السابقتين وهى قبة أوسبيثيو **C.Hospicio** كابانياس فى وادى الحجارة بالمكسيك، حيث يصهر الفنان أورثكو كلتا الشخصيتين، البطل المتوسطى والبطل الهندى الأمريكى - بروميتيو وكيتزالكواتل - فى شخصية واحدة هى الإنسان فى اللهب، وقد أدين بشكل أبدى أن يكون وقود لهب إبداعه وأن يولد منه من جديد.

عند أوروثكو نجد العالم القديم والعالم الجديد، أى الأوربى والأمريكى اللاتينى، ينصهران تحت حرارة اللهب، سواء فى حركة المحيط وتموجاته أو فى صفاء السماء وسط الجبال. هنا تكتسب العناصر صفة الإنسانية لكنها كذلك تتواصل فيما بينها وتتوحد وتتعانق؛ نجد إذن أن الإبداع الفنى عند أوروثكو يكرر القناعة التى تشير إلى أن القليل أو النادر من الثقافات فى العالم هى استمرار للثقافة التى تتسم بأنها هندية وإفريقية وأيبيرية أمريكية فى آن، وهذا هو السبب فى أن عدم استمرارية هذه الثقافة على الصعيدين السياسى والاقتصادى يصيبنا بجرح عميق.

ولا شك أن استمرارية الثقافة لا تستلزم تعادلية سياسية بالنسبة للإبداعات الجمالية، فكل من أسطورة بروميتيو أو أسطورة كيتزالكواتل ولوحات جويا أو أوروثكو ما هى إلا تجليات جمالية كافية فى حد ذاتها. غير أنها تشير إلى منهج فى التفكير وإلى ملامح للذات وطريقة فى الملبس والمأكل والحب ووضع الأثاث والغناء والكفاح والحلم. فأى تجلٍّ ثقافى إنما يرمز إلى كل ملامح ذاتية، فاللوحة والقصيدة والعمل السينمائى إنما تدل كيف نحن وما الذى يمكن أن نفعله وما الذى علينا أن نفعله. الثقافة هى الرّد على التحديات الخاصة بالوجود، والثقافة هى فى المحصلة، الواجهة لهؤلاء الذين يبدعون السياسة والاقتصاد: إنهم المواطنون وأعضاء المجتمع المدنى، وإذا ما كان الأمر كذلك نتساءل: لماذا لا تقدم لنا الثقافة التوافق الضرورى لها مع الحياة السياسية والاقتصادية؟ هل يمكن لنا، خلال القرن الحادى والعشرين، أن توجد فى أمريكا اللاتينية العناصر الثلاثة لوجودنا بادئين بالوحدة السياسية والاقتصادية ابتداءً من قاعدة الوحدة الثقافية؟ يمكننا أن نجيب عن هذا السؤال من خلال تأملنا للمشاكل المحددة - السياسية والاقتصادية - التى تطوق أعناقنا ونحن على مشارف الاحتفال "بالمئوية الخامسة" وعلى أبواب ميلاد قرن جديد. مشاكلنا فى حاجة إلى حلول، والاستمرارية الثقافية تمثل فى آن الشرط والتحدى فى سبيل التوصل إلى عقد اجتماعى قابل للتنفيذ، مشاكلنا هى شغلنا الذى لم ينته. لكن ألسنا جميعًا، رجالاً ونساء، من أبناء أمريكا اللاتينية كيانات إنسانية غير مكتملة؟ وبمقولة أخرى: لم يقل أحد منا كلمته الأخيرة.

أعمال لم تنته:

كان هناك مبنى مرتفع جداً فى الحديقة القديمة التى تسمى لاما **Lama** بمدينة المكسيك وهو مبنى لم ينته العمل فيه أبداً. وعاماً بعد عام أخذ البناء يعلو لكننا يمكننا أن نرى الهواء الذى يتخلل هيكله الخرسانى. ألم نكن نعرف متى سيستقبل هذا الفندق نزلاءه المفترضين، إذا ما حدث ذلك؟ ربما كان هذا المبنى يمثل الرمز المناسب لأمريكا اللاتينية، حيث ينمو ويرتفع ولكنه لم ينته العمل فيه؛ فيه حيوية وقوة لكنه مفعم بالمشاكل التى يبدو ظاهرياً أن ليس لها حل. مرت ثلاثة عقود من التنمية الاقتصادية، ابتداءً من نهاية الحرب العالمية الثانية حيث زاد فيها الإنتاج بنسبة ٢٠٠٪. ثم توقف ذلك فجأة وتلا ذلك عقد من التنمية الضائعة، حيث لوحظ أن معدل دخل الفرد أخذ يتدهور سنوياً ابتداءً من عام ١٩٨٠م حتى وصلت نسبة الانخفاض المتراكمة إلى ٢٠٪ بينما عادت الأجور القهقرى لتصل إلى الأجور التى كانت سائدة عام ١٩٦٠م، وها نحن نرى النتائج الاجتماعية التى ترتبت على هذا الوضع ظاهرة للعيان، فهناك نقص فى السلع الغذائية وهناك تدهور فى التعليم والمسكن والصحة وباقى الخدمات العامة؛ هناك الجريمة، والطبقة المتوسطة التى فقدت الأمل وملايين الأفراد ممن تحت طبقة البروليتاريا فى مهب الريح فى المدن البعيدة. ومع كل هذا نجد حكومات تلك المنطقة وجدت نفسها ابتداء من عام ١٩٨٢م مُجبرة على تصدير رأس المال بمعدل ٤٥٠٠٠ مليون دولار كل عام وذلك لخدمة الدين الخارجى الذى يتجاوز ٤٥٠٠٠٠ مليون دولار. كما أن ٧٪ من إجمالى الناتج القومى فى أمريكا اللاتينية يتم تحويله إلى الخارج كل عام وكذا ما يساوى ٥٠٪ من قيمة صادراتنا.

ومع هذا علينا أن ننسى هذه المشاكل، فما هى إلا محصلة تغيرات عميقة ونموّ رهيب يتسم فى أغلب الأحيان بالفوضوية وأنه غير عادل؛ وتوازناً مع تخلص أمريكا من جلدها الذى كان لها فى العصر الاستعمارى نجدها وقد أخذت تتحول شيئاً فشيئاً إلى جزء من العالم، لكنها تركت وراء ظهرها أغلب أبناء أمريكا اللاتينية. لقد انتقلنا

وأصبحنا على أعتاب المئوية الخامسة وأخذنا نقترب من بداية الألفية الثالثة وتعداد السكان قد تضاعف خلال عشرين عامًا، أى من مائتى مليون نسمة عام ١٩٧٠م إلى ٤٠٠ مليون نسمة عام ١٩٩٢. وسوف يصل تعدادنا عام ٢٠٠٠ ضعف تعداد سكان الولايات المتحدة الأمريكية. لدينا شريحة عريضة من السكان الشبان: فنصفهم يصل إلى ١٥ عامًا أو أقل، وهم مواطنون بحاجة إلى الخدمات الاجتماعية والوظائف والتعليم، ويلاحظ أن كافة أبناء أمريكا اللاتينية من الذين سوف يتقدمون لسوق العمل خلال عام ٢٠٠٠ قد ولدوا ولأول مرة فى تاريخنا نلاحظ أن أغلب مواطنينا قد ولد فى مجتمعات حضرية وصناعية، وأصبحت البرازيل القوة الاقتصادية الثامنة فى العالم، بينما احتلت المكسيك المرتبة الثالثة عشرة.

يتسم التاريخ الحالى لأمريكا اللاتينية بأنه فوضوى ومتسارع ومتناقض، فهناك تعايش بين الحمار والسيارات الفارهة وبين من تضىء الشموع للعذراء ولمبات النيون، وهناك نصف المائتى مليون من شباب أمريكا اللاتينية قد ولدوا بعد أن تولى فيدل كاسترو السلطة فى كوبا عام ١٩٥٩م، كما أن كل طفل فى أمريكا اللاتينية يولد من الآن وحتى عام ٢٠٠٠م سوف يولد مدينًا بألف دولار لبنك أجنبى.

كلما كبُر هؤلاء الشباب وأخذوا ينظرون إلى العالم من حولنا نجدهم يبحثون عن حلول لهذه المشكلات ويراقبون، بنظرة نقدية، آخر المستجدات فى تاريخنا المعاصر. فلماذا لم نكن قادرين على أن نقدم للسياسة والاقتصاد الاستمرارية التى نجدها فى الثقافة؟ تتسم الإجابة عن هذه الأسئلة بالتنوع الذى يتوازى مع تنوع مجتمعات أمريكا اللاتينية نفسها، حيث طرأ عليها، بعد الاستقلال، تنوع غير عادى وأخذت تتطور كدول ذات كيانات قومية، فخلال القرن التاسع عشر ارتبطت أمريكا اللاتينية بالاقتصاد العالمى بصفتها موردة للمواد الخام ومستوردة لرأس المال والسلع المصنعة، وبهذا تركزت ثروات ضخمة، كما أن الفكر الليبرالى وثق فى أن الثروة التى تكدست فى الطبقات العليا سوف يكون مآلها عاجلاً أو آجلاً، التّسرب إلى أسفل، إلى القاعدة،

لكن هذا لم يحدث، لم يحدث على الإطلاق. وحتى تكون هناك تعادلية تعويضية للخلل الناجم عن السياسة الاقتصادية الليبرالية نجد الدول القومية تتجه إلى توسيع رقعة القطاع العام وتتولى هى الإدارة وتصدر القوانين الحمائية للمجتمع وللمصلحة العامة، ورغم هذا، نجد أن الكساد العظيم الذى حل عام ١٩٢٩م قد ضرب أمريكا اللاتينية بقسوة أكبر بكثير مما حدث بالنسبة للمدن الكبرى فى أوربا وأمريكا الشمالية، وتحدى الحكومات فى سبيل إيجاد حلول أفضل، فمن ناحية نجد أن المكسيك.. خلال الفترة اللاحقة مباشرة على الثورة، قد شهدت توزيع الأراضى وتأميم الموارد الأساسية والتربية والتعليم وإقامة بنية تحتية وتأثيث منزل التنمية الرأسمالية من خلال الثورة الاجتماعية، ودعمت شيلى التعددية السياسية والحكومة البرلمانية وتنظيم العمل والإفادة من التجربة غير العادية للأمة خلال القرن التاسع عشر: أى بوجود طبقة عليا مستأنسة وطبقة متوسطة مزدهرة، واستثمرت أوروجواى أرباحها الناتجة عن صادراتها فى إقامة دولة المزايا الاجتماعية، وهى دولة حضرية وبيروقراطية، بينما نجد الأرجنتين آخذة فى حصاد الثروة المترتبة على بيع غلالها وقطعان ماشيتها وصادراتها.

ساعدت الحرب العالمية الثانية أمريكا اللاتينية على الخروج من الكساد وزيادة أسعار النحاس والقصدير والمطاط واللحوم والصوف ونبات السيزال **henequen**، وتزامن ذلك مع آمال وتطلعات الكثير من الفلاحين من المايا **maya** الذين كانوا يدخلون الكنائس ويتضرعون بألا تنتهى الحرب. كانت أمريكا اللاتينية قادرة على أن تُحل واردات محل أخرى وأن تشجع الصناعات الوطنية وتقيم البنى التحتية الاقتصادية، وظهور طبقة متوسطة جديدة؛ أدت إلى استثمارات متزايدة وتوسع فى الرقع العمرانية الحضرية؛ ومع هذا فإن المجتمع والمؤسسات المتعلقة به أخذا فى التباعد والمزيد من التباعد، فقد وعدت الجوانب التربوية الشعب بأكثر مما يقدر الاقتصاد على تقديمه له سواء من الناحية المادية أو السياسية؛ وحقيقة الأمر، هى أن المجتمع تولّدت لديه

مطالب إيقاعها أعلى من إيقاع القدرات السياسية والاقتصادية فى باب القدرة على الرّد؛ نجد إذن أن النتائج تتمثل أحيانًا فى وجود حكومة تسلطية تقمع المجتمع، وأحيانًا ما تحدث الثورة، وأحيانًا ما يتم التحرك صوب الديمقراطية. لكن المستعمرات الإسبانية القديمة فى العالم الجديد قد تحولت لدرجة أصبح معها أنه يصعب التعرف عليها أحيانًا، وجاء هذا من جرّاء التمرد أو القمع أو تحركات الجماهير أو التيارات الشعبية أو الانتخابات أو الثورة وتزامن ذلك مع بداية عقد الستينيات.

هنا نجد، فى الأساس، ظهور طبقة متوسطة نامية وطبقة عمالية مكافحة، حيث طالبت كلتاهما بأن يكون إيقاع توليد الثروة مرتبطًا بالمزيد من العدالة وأن يكون هذا الإيقاع متسارعًا. كانت بعض الدول أحسن حظًا من الأخرى، فرغم توالى الأنظمة الدكتاتورية الحربية نجد أن فنزويلا قد بلغت التنمية المطلوبة من خلال الثروة التى تولدت عن احتياطياتها الهائلة من البترول والحديد؛ فقد استطاعت خلال عقد الخمسينيات هزيمة آخر حكامها العسكريين، وابتداءً من تلك اللحظة أصبحت قادرة على أن توحد بين النمو الاقتصادى والحكم الديمقراطى، وقد حاولت الأزمة الاقتصادية الحالية إحداث طلاق هذه الزيجة المثالية، ونقيض ذلك نجده فى كوستاريكا التى حولت الحاجة إلى فضيلة فقد أفادت من قلة الثروة لديها فى العصر الاستعمارى فى بذل الجهود من أجل التوصل إلى ازدهار متواضع يتم توظيفه بطريقة حكيمة وديمقراطية.

وإذا لم تكن، فى هذا المقام، صيغ عامة أو آمنة فإن حقيقة الأمر هو أن كل بلد يجب أن يتعمق فى خبرته التاريخية حتى يتوصل إلى طريقه الخاص به، فهناك المكسيك فى الشمال والأرجنتين فى الجنوب – وهما الدولتان الأكبر فى إسبانو أمريكا–، إذ تمثلان أفضل دراسة عن التناقضات وما زالتا، استنادًا إلى مساحة الأراضى فيهما وكذا تعداد السكان والثروة، اثنتين من الدول اللتين تمثلان إجمالى دول أمريكا اللاتينية، والاختلافات بينهما يمكنها أن تضىء معالم مجتمعنا ابتداءً من "ريو جراندى" **Rio Grande** وحتى باتاجونيا.

رأس جوليات:

كانت الأرجنتين تبدو، مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكأنها رمز للأمل المضىء لأمة ثرية من أمريكا اللاتينية، أمة مستقرة وقائمة على المبادئ الليبرالية. لكن بعد سقوط روساس أصبحت الأرجنتين نموذجًا لأمة من أمم أمريكا اللاتينية القادرة على تحديث نفسها بنفسها بشكل سريع؛ غير أنه أمام كل ميزة تبدو كأنها لؤلؤة مرصعة على صدر الأفق العريض لهذه الجمهورية العظيمة فى الجنوب، هناك سلبية قوية تفسد طلاوة كل قطعة من القطع المرصعة فى الأفق.

فقد تم مدّ حدود "التقدم" من خلال حرب استئصال الهنود، فى الوقت ذاته امتدت أذرع الإقطاع إلى تلك الأراضى الجديدة، جرى القضاء على القادة من أصحاب الأساليب القديمة مثل فاكوندو كيروجا فى لاريوخا، لكن سرعان ما ظهر مكانهم قادة جدد، ذلك أن نظام الملكية لم تطرأ عليه تعديلات. ثم تكاثرت أنشطة التصدير والاستيراد، ومع هذا فإن الأرجنتين ظلت دولة مصدرة للمواد الخام ومستوردة للمنتجات الصناعية ولرأس المال، كما أنها غير قادرة على تطوير قاعدتها الصناعية، ورغم أن شبكة الاتصالات قد امتدت وتوسعت فإن السيطرة عليها كانت فى أيدٍ إنجليزية (كما أن هذا قد تزامن مع السيطرة الإنجليزية على النشاط التجارى) وبذلك تحولت البلاد إلى شبه مستعمرة تابعة للإمبراطورية الإنجليزية.

كانت الأرجنتين قد فتحت أبوابها أمام ملايين من الوافدين الأوربيين على أمل أن يسكنوا البرارى ويعمروها لكن هؤلاء استقروا أساسًا فى المدن، ورغم أنهم خلقوا فيها فرص عمل مفيدة وجدية فإن المساحات القابلة للزراعة جرى امتصاصها لتصبح فى يد نظام شبه إقطاعى.

وعلى هذا فإن كافة الأرباح الظاهرية للتحديث فى الأرجنتين أخذت تتقلص فى نهاية المطاف بسبب ما عليه المؤسسات السياسية من ضعف وغيبة الهوية الثقافية والتبعية الزائدة للعوامل الخارجية، وفى إطار الأمة نفسها نجد هوة شاسعة بين مدينة بوينوس أيرس الحديثة والنشطة وبين داخل البلاد، فى منطقة البرارى، الأمر الذى أدى

إلى انقسام سياسى وأخلاقى عميق وصفه حزقيال مارتنث استرادا **E.M. Estrada** عندما قال إن بوينوس أيرس هى رأس عملاق هو جوليات فوق جسد هزيل هو جسد دافيد. إنها الأمة الأرجنتينية. والأمر الغريب هو أن هذا البلد الكبير بما له من ثروات من أرض زراعية هى الأكثر خصوبة فى أمريكا اللاتينية وما له من قطعان ماشية وتركيبة سكانية يفترض أنها أكثر انسجامًا وتعليماً، لم يكن قادراً على بلوغ العظمة القومية الحقيقية؛ لا تكمن المشكلة فقط فى وجود مشاكل ضخمة من موروثات الماضى وكانت الأمة غير قادرة على حلها مثلما هو الحال فى بعض الجمهوريات الأمريكية اللاتينية، فرغم أن التركيبة السكانية فى الأرجنتين قد طرأ عليها تغير درامى من خلال وصول أعداد كبيرة من الوافدين واتساع العمران والتعليم والتنمية الاقتصادية، فإن المؤسسات السياسية لم يطرأ عليها تغير مماثل وظلت الهوية الثقافية غير واضحة الملامح ولم تتوصل إلى قرار. ومع هذا ظلت الواجهة الحديثة تلفت انتباه العالم على مدار فترة طويلة، فقد كانت بوينوس أيرس، فى كافة نواحى حياتها الحضرية، مدينة حديثة وأوربية مثل باقى المدن فى أوربا وتبدو أكثر شبهًا بكل من باريس ومدريد وبرشلونة.

استطاعت الميول التحديثية الأرجنتينية أن تطوّر نفسها لأنها كانت تقوم على تقسيم مصطنع بين العالم الحضرى وعالم الريف، وبالتالى فقد ضحت بنصف ثقافتنا - إلا إذا كان أكثر - على مذبح التشبه بالعالم المتحضر فى أوربا وتماثل عالم البربرية مع الداخل - داخل البلاد - الزراعى.

وفى عام ١٩١٦م نجد المجتمع المدنى الأرجنتينى، وعلى رأسه الطبقة المتوسطة النشطة، يطرح على نفسه مطلبه الأساسى فى السلطة السياسية أمام كبار طبقة الإقطاعيين من مُلاك الأراضى وطبقة كبار التجار الذين حكموا البلاد حتى ذلك الحين؛ اختارت الطبقة المتوسطة رئيسًا يكاد يكون رسوليًا، هو إيبوليتو إيريجوين **H.Yrigoyen**، الرئيس الذى لم يكن على قدر وعوده، فقد اتضح أنه غير كفء بالمقارنة بما كانت عليه هذه الطبقات العليا، كما أنه كان يميل للمزيد من القمع، وعندما حلّت آثار الكساد،

العالمى، ١٩٢٩م، بالأرجنتين نجد أن الجيش يقدم لنا أولى فصول انقلاباته المتوالية ضد الأنظمة المنتخبة.

أصبح لدى الأرجنتين خلال الحرب العالمية الثانية فائضًا تجاريًا عظيمًا هو ثمرة الصادرات الضخمة إلى الاقتصاد الأوربى الذى أنهكته الحرب، كان العصر الذهبى قد عاد، وإذا ما نظرنا للرمز الضخم الذى كان لهذه الطبقات العليا، وهو مقابر ريكوليتا، فى وسط العاصمة بوينوس أيرس، لوجدنا استمرار بناء الأضرحة لتكون مقرًا للأبدية للجنرالات وكبار التجار والمزارعين ومُلاّك البرارى.

كان الأمل معقودًا على الأرجنتين هذه المرة أيضًا (وربما كان لهذه المرة على الدوام) فى أن تتحول بفضل العسكريين وازدهار التجارة إلى فردوس لهذه الطبقات العليا، التى تسيطر على مقابر ركوليتا، وتسيطر أيضًا على جماهير ذات عائد مادى جيد نسبيًا وتحظى بالتغذية الجيدة ومن البيض من الذين تلقوا تعليمًا جيدًا، لكن كأن بنا نرى هذا الرمز اليوم وقد حمل شفرة التغييرات التى حدثت فى الأرجنتين المعاصرة، وهى عبارة عن عناصر دخيلة ظهرت للوجود بين مقابر الأرستقراطيين من التجار وبين مُلاّك الأراضى.

كان اسم هذا العنصر الدخيل هو إيبا بيرون Eva P. وها هو يرقد جثمانها فى سلام فى مقابر ريكوليتا، مقابر عِليَة القوم الذين أذلّوها والتى كرهتهم كراهية على قدر شعورهم نحوها. لكن رحلة إيبا بيرون إلى المقبرة تعرضت لبعض العقبات والأحداث، فقد أضيفت عليها هالة القدسية عندما ماتت مصابة بمرض السرطان فى الثالثة والثلاثين من عمرها وهى المرأة الأقوى فى الأرجنتين وأمريكا اللاتينية (١٩٥٢م)، جرى تحنيطها ودفنها وسط هالة كبيرة خرجت من المكاتب الرسمية "للاتحاد العام للعمال"، وعندما تمت الإطاحة بزوجها الرئيس خوان دومنجو بيرون عام ١٩٥٥م، جرى نقل واختطاف رفات إيبا، ومن المؤكد أن من فعل ذلك هو المجلس العسكرى الذى خلف بيرون على مقعد الحكم، وهو المجلس الذى كان يريد محو الأسطورة البيرونية؛ اختار المجلس العسكرى أحد عشر نعشًا وملئت عشرة منهم بالحجارة، أما النعش الحادى عشر

فقد وضع فيه رفات إيبا بيرون، وجرى وضع اسم إيبا بيرون على الأحد عشر نعشًا على أساس أنه رفاتها وأرسل بها إلى أبعد الأماكن على ظهر الأرض، ووصل نعش إيبا بيرون إلى مقابر ميلان، وقد استطاع زوجها استعادته عندما عاد إلى السلطة عام ١٩٧٤م، وابتداءً من تلك اللحظة استقر رفات إيبا دوراتى بيرون فى مقابر لاريكوليتا.

كانت رحلة غير عادية لفتاة غير عادية، ابنة إحدى المحافظات وممثلة من الدرجة الثانية تزوجت بالجنرال بيرون عام ١٩٤٤م وهو جنرال كان نجمه فى الصعود، وتزوجت أيضًا زواجًا أبديًا بالجمهورية الأرجنتينية وجمعت بين الزيجتين - الزوج والوطن - فى إطار الصوفية البيرونية، وهى صنف من الشعبية الذى استولى على الثروة التى تراكمت بسبب الفائض التجارى خلال الحرب العالمية الثانية وقام بتوزيعه بسخاء بين الشعب لكن ذلك لم يكن له مغزى اقتصادى كبير. وتزامن هذا المسلك مع مجموعة من القوانين الاجتماعية السخية أيضًا، لكن ذلك لم يسهم فى خلق بنية تحتية قوية ولم يكوِّن للأرجنتينيين مؤسسات سياسية قوية ولم يسهم فى زيادة الإنتاج والتحديث التكنولوجى. تم تبديد معظم هذه الثروة الأرجنتينية بشكل ديماجوجى، رغم أنه بفضل التوجه البيرونى أمكن لكثير من عامة الأرجنتينيين أن يظهروا للوجود (بشكل كبير وملموس فى نظر الأرستقراطية الإقطاعية والتجارية)، لكن الكبرياء والملامح الخاصة بالهوية لم تغط فراغ وجود مؤسسات سياسية قادرة على توجيه هذه الطاقة الجديدة. وهذا هو التناقض الذى عاشته الأرجنتين؛ أى أمة غنية وبها شريحة عريضة من الطبقة المتوسطة، الأفضل تغذية وملبسًا وتربية، وهى الأمة الأكثر تواؤمًا فى أمريكا اللاتينية، ومع هذا كانت غير قادرة على خلق مؤسسات سياسية تمثلها فى الواقع. والمحصلة، هى أننا أمام دولة ضعيفة وبالتالى لا يمكن أن تصدر عنها استجابة لمطالب الجماهير من الطبقة العاملة المنظمة والطبقة المتوسطة والجيش ورجال الأعمال والمقرضين الأجانب، ثم ينتهى بها الحال أن تُسلم قيادها لبعضهم.

لقد استسلم بيرون للشعب والجماهير، إلى هؤلاء الذين كانوا يشعرون أنهم منسيون ومُهَمّشُون، وغير معروفين ولا قيمة لهم ومحتقرين في دائرة اللعبة الكبرى المتعلقة بالسياسة والثروة. ومن هنا تكمن سر أسطوريتها، وكذا إسهاماتها الدائمة على المستوى التشريعي: أي حق المرأة في التصويت، والطلاق والتأمين الاجتماعي والإجازات المدفوعة الأجر وحماية العامل الزراعي والأجور والحرفيين وكذلك العاملين في الخدمات المنزلية والنقابات العمالية. لكن خوان دومنجو بيرون قدم نمطاً من الحكومة الثابتة والبيروقراطية، والأحزاب السياسية الضعيفة ومجلس نواب ضعيف. أما الجيش، فقد ظل على قوته، ومنه ومن صفوفه خرج بيرون نفسه، كما ظل الجيش قوياً حتى عندما ذهب بيرون وخلف وراءه مؤسسات سياسية هشّة يسيطر عليها الجيش نظراً لغيبة قائد سياسي قوي. وبهذه الطريقة تدور الدائرة من جديد متجهة للمصير المشئوم مرة أخرى.

جرت هزيمة الحكومة المدنية الجديدة والضعيفة بالانقلاب العسكري، وحل الطغيان محل الفوضى، والفوضى محل الطغيان. وها هي مقابر ريكوليتا تظل الرمز - كما أشار إلى ذلك توماس إيلوي مارتنث - على اشتهاء أجساد الموتى، وربما كانت الجثة الأكثر شهرة في الأرجنتين هي الأرجنتين نفسها.

الثورة كمؤسسة:

في المكسيك نجد حالة مخالفة تماماً لما وجدنا في الأرجنتين، فالمكسيك، البلد ذو السلالات المختلطة وذو الجذور الإسبانية وثقافة الشعوب الأصلية، لم يشهد هجرة ونزوح الوافدين الأوربيين إليه اللهم إلا ما ندر، كما لم تزدهر فيه الصادرات ويعاني كثيراً من المشاكل الناجمة عن الضعف التقليدي الذي عليه السكان الأميون الجائعون والذين يتناسلون بشكل كبير. فالمكسيك في الوقت الحالي يبلغ تعداد سكانها ثمانين مليوناً من السكان، لكنها في عام ١٩١٠م كان تعداد سكانها لا يتجاوز الخمسة عشر مليوناً. كما أن المكسيك لم تشهد أية ثورة إلا أنها هي صاحبة أول ثورة وأعمقها بالنظر

إلى حجم البلاد وبالنظر إلى الثورات التى شهدناها فى أمريكا اللاتينية على مدار القرن العشرين. بدأت الثورة المكسيكية عام ١٩١٠م كحركة سياسية تهدف إلى إجراء انتخابات حرة لكن ديناميتها حولتها إلى حركة اجتماعية تهدف للتوصل إلى أقصى قدر من التنمية والعدالة، كما أنها تحولت بشكل خاص إلى تظاهرة ثقافية تتجلى فى اللوحات الحائطية للفنانين المكسيكيين الذين هم ثمار الثورة.

حاولت الأنظمة الثورية إرضاء الفلاحين بأن حطمت النظام الإقطاعى وحررّتهم من نظام السُّخرة لقاء الدين، وسلمتهم الأراضى وسمحت لهم بالهجرة من الريف إلى المدن وإلى المراكز الصناعية الجديدة، حيث تحولوا إلى أيدٍ عاملة رخيصة تعمل فى التصنيع، الذين حققوا نمواً سريعًا بعد أن قام الرئيس لاثارو كارديناس بتأميم البترول عام ١٩٣٨م؛ وقد ساعد هذا على حيوية الطبقة العاملة الوليدة التى أصبحت تنظيماتها تحت رعاية الحكومة، وهنا نلاحظ أن كافة الطبقات، وخاصة الطبقة المتوسطة، أفادت من اتساع مظلة الخدمات التعليمية، وفى الوقت ذاته نجد أن الطبقة الرأسمالية (رجال الأعمال) اكتشفت أنه إلى جوار الطاقة الرخيصة هناك أيضًا الأيدى العاملة الرخيصة والأسواق الداخلية المتنامية رغم أنها تحظى بالدعم الحكومى؛ أى إنها سياسة الأشغال العامة التى بدأها الرئيس بلوتاركو إلياس كاييّس، والذى استطاع أن يصل بين أنحاء البلاد وتمهيد الطرق وإنشاء المستشفيات التلغرافية ونظام الرّى.

كان ثمن هذه التنمية ثمنًا سياسيًا ولا شك أنه كان باهظًا، فقد أنشأت الثورة المكسيكية نظامًا سياسيًا خاصًا بها حيث نجد مكوناته الرئيسية تتمثل فى رئيس الجمهورية والحزب الثورى التأسيسى؛ ويقوم كلا الطرفين بخدمة الحكومة الوطنية التى سوف تقوم فى نهاية المطاف بإنقاذ المكسيك من الفوضى الداخلية والضغوط الخارجية، وتمكنت فى نهاية المطاف من جعل المكسيك تنمو نمواً متوازنًا رغم أن ذلك على حساب تأجيل تطبيق الديمقراطية السياسية. هيأ كارديناس الظروف أمام الرئاسة المكسيكية عندما تمكن من طرد القائد الأعلى والسلطة التى تقف وراء العرش وهو بلوتاركو إلياس كاييّس عام ١٩٣٦م: أصبحت السلطة كاملة فى يد القيصر ولكن ذلك

يظل طوال فترة واحدة هى ست سنوات غير قابلة للتجديد؛ فلا يمكن للقيصر أن يعيد ترشيح نفسه لكنه كان من حقه تعيين من يخلفه، أى القيصر الجديد وبذلك يستمر الأمر إلى الأبد.

هنا نجد أنه بينما تمكنت الأرجنتين من تكوين مجتمع مدني قوى دون مؤسسات سياسية قوية، نجد المكسيك يُحل محل المجتمع المدنى الضعيف دولة قومية قوية تحكمها مؤسستان قويتان هما الرئيس والحزب. غير أنه عندما تدعمت أركان المجتمع من خلال التنمية الاقتصادية والتعليم نجد أن النظام المكسيكي، سوف يتعرض لتحدى أبنائه عاجلاً أم آجلاً؛ وبينما ظل هناك تناغم بين النمو الاقتصادى والمساندة السياسية، أصبحت المكسيك نموذجًا للاستقرار فى أمريكا اللاتينية، لكن عندما حلت الأزمة الاقتصادية بالبلاد وجعلتها تغرق فى الكساد نجد أبناء الثورة والمجتمع المكسيكى يطالبونه باستئناف النمو الاقتصادى غير أنه يجب أن يكون هذه المرة مؤسسًا على الديمقراطية والعدالة الاجتماعية. كان المجتمع المكسيكى الذى تربى على مُثُل الثورة والحرية والديمقراطية يريد الآن بلوغ ما تعلمه فى المدرسة وجعل التقدم حقيقة واقعة، مصحوبًا بالديمقراطية والعدالة سواء فى الشارع أو المصانع أو صناديق الاقتراع.

ميلاد الأمة:

تساعدنا الإبداعات الفنية لرسامى اللوحات الحائطية المكسيكيين على التعرف على ملامح التكوين العقلى والسياسى فى إسبانوأمريكا خلال القرن العشرين، فقد قدم لنا دييجو ريبيرا الحنين الثيوقراطى ذا الأصول الضاربة فى نسيج السكان الأصليين والنسيج الإسبانى وذلك للوصول إلى النظام والتناغم، ففى لوحته الجدارية الضخمة التى يصف فيها تاريخ المكسيك، والموجودة على سلم القصر الوطنى المكسيكى نجده يتوج الجزء الخاص بالثقافة الأصلية على هذه الأرض بهرم يجلس على قمته الإمبراطور وفوقه الشمس، يلى هذا المشهد مشهد آخر للكنيسة الكاثوليكية والصليب فوقها،

ثم تنتهى اللوحة الحائطية بمشهد آخر، لكن تسيطر عليه هذه المرة الكنيسة الشيوعية وفوقها المنجل والقادوم بدلاً من الصليب الكاثوليكى أو الشمس عند السكان الأصليين، ومن المؤكد أن طموحات دييجو دى ريبيرا هى الخاتمة جيدة.

لكن خوسيه كلمنتى أوروثكو كان غير ذلك إذ كان متشائمًا ومتمردًا، فقد أهدانا مجموعة من الإيماءات والغمزات وهو يراقب استعراضًا للبلهاء واللصوص، والموظفين الفاسدين والعدالة العمياء الزائفة وهى تتبختر بينما يقول لنا الفنان: علينا ألا ننخدع: سوف تكون النتائج سيئة مرة أخرى إذا لم نكن يقظين ونفتح عيوننا وننتقد ونحذر ونرى الواقع كما هو.

فى نهاية المطاف نجد دافيد ألفارو سيكيروس، التلميذ النجيب للاتجاه الطلائعى المستقبلى للإيطاليين، يحتفى وببساطة بوفرة الطاقة التى عليها الواقع، فعندما نتأمل لوحته الجدارية فى "قصر الفنون الجميلة" بمدينة المكسيك نجد أن الحرية تكسر قيودها من خلال تعبير فرح ومع هذا مؤلم، وهو تعبير شديد الشبه بتلك المشاعر المتعلقة بالمخاض؛ فابتداءً من المكسيك وحتى شيلى قدم سيكيروس هذا الحشو العام والمولِّد: الأمة تولد. ها نحن نجد أن الولادة والقومية تعانقاننا جميعًا بما لها من طاقة وطنية؛ إذن هناك جدار وبعده جدار، وعليها كلها تتكرر هذه الرسالة وملامحها بشكل واضح وصوت مرتفع.

ومعنى هذا أن أمريكا اللاتينية حاولت أولاً مواجهة ضعفها القومى خلال القرن التاسع عشر وعلى عدم الاستقرار فيها بإقامة دولة قومية قابلة للوجود؛ ورغم الاختلافات الشاسعة فيما بينها (لاثارو كارديناس فى المكسيك ١٩٣٤-١٩٤٠م، وجتينو خارجاش فى البرازيل ١٩٣٠-١٩٤٥م، وخوان دومنجو بيرون فى الأرجنتين ١٩٤٦-١٩٥٥م) كان لها هذا الهدف المشترك، غير أن الذى تمكنت كل من المكسيك والبرازيل من دعمه وتوطيده، نجد أن الأرجنتين قوضته وأفسدته؛ ومع هذا كانت هناك مجموعة من العناصر فى هذه الأمم الكبرى فى أمريكا اللاتينية ألا وهى التعليم والديماجوجية والتنمية الاقتصادية، ساعدت على خلق مجتمعات مدنية حديثة -

رغم ما هناك من ظـلم فى إداراتها - فى ظـل دولة قوية فى المكسيك، ودولة ضعيفة فى الأرجنتين، ودولة متخيلة ومتحولة تكاد تكون دولة سريالية فى البرازيل. مقابل هذا كانت هناك دول أخرى فى أمريكا اللاتينية تتسم بالضعف فى مختلف المجالات وكانت فى حاجة ماسة إلى إقامة الحد الأدنى من الهيئات التأسيسية قبل كل شىء فقد كانت معدومة، كما أنها كانت فى حاجة إلى الحد الأدنى من الاستقلال الوطنى وخاصةً فى تلك الظروف الجيوبوليتيكية التى تبدو أنها تقلل منه؛ هذه الدول هى دول أمريكا الوسطى والكاريبى، فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية هى الإمبراطورية الحامية الجديدة التى ملأت الفراغ الذى خلفه سقوط الإمبراطورية الإسبانية فى نهاية المطاف عام ١٨٩٨م.

د. جيكل ومستر هايدى:

كان تصورنا المتأزّم للولايات المتحدة الأمريكية هو أنها ديمقراطية داخليًا وإمبريالية خارجيًا، أى الدكتور جيكل ومستر هايدى، فقد عبرنا عن إعجابنا بالديمقراطية، وقد أسفنا للإمبريالية وعانينا من تصرفاتها التى تتمثل فى التدخل المستمر فى حياتنا باسم المصير المعلن والهِراّوة الكبيرة ودبلوماسية الدولار والغطرسة الثقافية.

وابتداءً من قيام الولايات المتحدة عام ١٩٢١م، نجد أن أمريكا اللاتينية قد رفضت نظرية مونروى على أساس أنها سياسة تتسم بالنفاق وأنها من جانب واحد، فرغم أن نظرية مونروى تقضى بمنع التواجد الأوربى فى القضايا والمسائل المتعلقة بهذا الجزء من العالم فإنها لا تقول بمنع الولايات المتحدة الأمريكية من التدخل فى شئوننا، فالعدوان المدبّر الذى قام به الرئيس بولك **Polk** على المكسيك عام ١٨٤٦م وما ترتب على ذلك من فقداننا نصف ترابنا الوطنى أكد أن لا شىء يحمينا من العدوان الأمريكى. تعرضت المكسيك بعد ذلك لاحتلال الولايات المتحدة لبيراكروث **Veracruz** عام ١٩١٣م أثناء الثورة بينما كان الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون ينادى قائلاً:

"سوف أُعَلِّم أبناء أمريكا اللاتينية كيفية اختيار رجال أكفاء ليحكموا أنفسهم بأنفسهم".

لم يكن للتدخل الأمريكي مثيل فى العالم مثلما حدث فى الكاريبى، فهناك بويرتوريكو التى تحررت من ربقة السيطرة الإسبانية نجدها وقد تحولت إلى مستعمرة فعلية للولايات المتحدة وظلت على هذا الحال، أما كوبا فقد حصلت على استقلال اسمى حددته "اتفاقية بلات Platt" التى تخول للولايات المتحدة حق التدخل فى الشئون الداخلية للجزيرة، كما قام الرئيس تيودور روزفلت بانتزا ع محافظة بنما من جمهورية كولومبيا وحولها إلى أمة ذات سيادة وسرعان ما شطرها نصفين بإقامة قناة بنما ومنطقة القناة؛ وزيادةً على ما سبق قال روزفلت عن أمريكا اللاتينية: "إننى أشعر بالانزعاج من هذه الجمهوريات الصغيرة التعسة التى تسبب لى الكثير من المشاكل".

هناك أيضًا عمليات التدخل العسكرى والاحتلال الذى تعرضت له كل من هاييتى وجمهورية الدومنيكان وهندوراس باسم الاستقرار والديمقراطية والقانون والنظام وحماية أرواح الأمريكان وأملاكهم (أى أملاك شركة United Fruit C.). وإذا ما تحدثنا عن دول أمريكا الوسطى والكاريبى التى عانت أقصى وأطول قدر من الإذلال لوجدنا أنها جمهورية نيكاراجوا إذ احتلها القرصان الأمريكى ويليام وولكر عام ١٨٥٧م، وبعد ذلك بفترة قصيرة غزتها واحتلتها الولايات المتحدة (١٩٠٩-١٩٣٣م)، أى فى الفترة التى جرى فيها اغتيال الزعيم الوطنى ثيسار أوجوستو ساندينو، وجاء بعد ذلك قاتله - أناستاسيو سوموزا - وجلس على كرسى الحكم فى نيكاراجوا بمساندة البحرية الأمريكية، حيث ساد مُلكه هو وأسرته حتى أسقطته الثورة الساندينية عام ١٩٧٩م. وطوال ما يزيد على أربعة عقود من الزمان نجد أن آل سوموزا قد حصلوا على كل ما يريدون من واشنطن، أو كما قال الرئيس رزفلت: "سوموزا هو ابن قحبة لكنه ابن القحبة الخاص بنا".

ومع هذا فقد أحدث روزفلت تحولاً فى السياسة التقليدية للولايات المتحدة إزاء أمريكا اللاتينية، فقد كان عنصر التحفيز فى العلاقات القائمة بين أمريكا اللاتينية

والولايات المتحدة يتمثل فى مبادئ الثورة المكسيكية. ثم أتى بعد ذلك احتلال بيراكروث والحملة التأديبية التى قام بها الجنرال Pershing ضد فرانثيسكوبيان، حيث كان ذلك تدخلاً مباشراً، ثم تلا ذلك حملة سياسية ودبلوماسية ضد القوانين والسياسات التى وضعتها الثورة، وكان التركيز أساساً على قانون الإصلاح الزراعى، الأمر الذى أحدث تأثيره على أملاك أمريكية فى المكسيك. "المكسيك متهمة بارتكاب جرائم ضد الإنسانية"، كانت هذه العبارات هى التى نطق بها وزير خارجية حكومة الرئيس كوليدج Coolidge، فرانك ب. كيلوج F.B. Kellog، ومن جانبه اتهم الرئيس المكسيك، أمام الكونجرس الأمريكى، عام ١٩٢٧م، بأنها "مصدر للأفكار البلشفية فى أمريكا الوسطى". غير أن الأزمة الأكثر خطورة فى العلاقات المكسيكية الأمريكية ترجع لعام ١٩٣٨م، عندما أقدم الرئيس المكسيكى كارديناس على تأميم الثروات البترولية فى المكسيك وصادر أملاك الشركات الأجنبية. وعندئذٍ تمت ممارسة ضغوط فى واشنطن على الرئيس روزفلت لقطع العلاقات مع المكسيك ومعاقبة ذلك البلد المتمرد وغزوه لو تطلب الأمر، لكن الرئيس روزفلت قاوم كل هذه الضغوط، وجلس للتفاوض مع المكسيك.

افتتح روزفلت بذلك عصراً جديداً فى العلاقات معنا، وأطلق هو على ذلك الاتجاه مسمى "سياسة حُسن الجوار"، وكان هذا يعنى احترام الولايات المتحدة للدينامية الداخلية والحلول التى يتم التوصل إليها فى بلادنا. لا شك أن روزفلت ساند آل سوموزا فى نيكاراجوا، وساند تروخيّو فى جمهورية الدومنيكان وساند باتستا فى كوبا، لكنه لم يعترض على التغيرات الداخلية التى عاشتها الثورة المكسيكية فى ظل حكم كارديناس، أو يعترض على سياسة الجبهة الشعبية التى تم اختيارها فى شيلى من خلال التحالف بين الراديكاليين والاشتراكيين والشيوعيين، كما لم يفعل أى شىء مع ذلك المجلس شبه الفاشى الذى يرأسه جيتوليو فارجاش و "دولته الجديدة" فى البرازيل. ومن خلال ما سبق استطاع روزفلت الوصول إلى كل ما يريد وهو: مساندة أمريكا اللاتينية له فى أثناء الحرب العالمية الثانية، فقد كانت المشاعر الموالية للألمان واليابانيين كثيرة فى المنطقة، لكن، بفضل روزفلت، أصبحنا، خلال هذه الحرب، إلى جانب الحلفاء.

كما حصلنا نحن أيضاً على ما كنا نريده وهو مجموعة من القوانين والاتفاقيات التى بمقتضاها تلتزم كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا اللاتينية بمراعاة مبادئ عدم التدخل، وحق تقرير المصير، وحق التوصل إلى حل تفاوضى للمشاكل. ومع هذا عادت تقاليدنا التشريعية الرومانية القديمة لتطل برأسها من جديد وتدخل فى أزمة حادة مع الموروث البراجماتى لما يسمى بـ"Common Law" الأنجلو أمريكى. فقد أعلن جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة فى عصر الرئيس أيزنهاور أنه لا يوجد للولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية أصدقاء بل مصالح.

بدأت الحرب الباردة مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، ووارى النسيان تلك المكاسب النسبية التى تم التوصل إليها فى عصر كل من الرئيس روزفلت والرئيس ترومان، إذ تمت الإطاحة بالحكومات الشعبية المنتخبة فى كل من جواتيمالا وشيلى وكان ذلك بمباركة ومساعدة الولايات المتحدة، لأنها كانت أنظمة يسارية وربما يمكن أن تتحول إلى رأس جسر للسوفيت فى هذه المنطقة من العالم. وحلت الدكتاتوريات العسكرية محل هذه الأنظمة، وأخذت تمارس التعذيب والاغتيال باسم مطاردة الشيوعية. هنا نجد أن الإرهاب الرسمى الذى مارسته الأنظمة العسكرية المتوالية فى الأرجنتين أخذ يحمل عنواناً له وهو ضحاياه "الذين اختفوا" **Los desaparecidos**. لكن ما اختفى بالفعل كانت الأمة نفسها وهى الأرجنتين؛ كان الجنرالات الأرجنتينيون غاية فى الكفاءة فى اغتيال أفراد شعبهم لكنهم افتقدوا أية كفاءة فى التغلب على القوات المسلحة البريطانية فى جزر مالبيناس. لقد اختفى هؤلاء لكن اختفت الأرجنتين أيضاً؛ ومرة أخرى نعيش مشهد الحكومات المدنية الضعيفة التى تحاول أن تتغلب على التهديدات العسكرية. ومع مطلع عصر الرئيس راؤول ألفونسين، نجد أن السؤال الذى تطرحه الأرجنتين على نفسها هو معرفة ما إذا كانت الحكومات المدنية سوف تتمكن من تحييد الجيش الذى فقد سمعته فى جزر لاس مالبيناس، وفى "الحرب القذرة". عندما ننتقل إلى شيلى نجد أن قوة الموروث السياسى للأمة قد عاش رغم عمليات الاستئصال الجماعى والاغتيالات والنفى التى مارسها الجنرال بينوشيه. لكن هذه الحكومات لم تتعرض أبداً لعدوان مباشر وصريح من الولايات المتحدة الأمريكية.

حدث عكس ذلك فى الكاريبى حيث عارضت واشنطن بشكل قوى النظام الثورى الكوبى، وحاول فيدل كاسترو أن يقضى على هذه التبعية، التى كانت عليها بلاده، للولايات المتحدة، لكنه خلق نوعًا آخر من التبعية للاتحاد السوفيتى. قامت الولايات المتحدة بممارسة سياسات فاشلة بخاصة حملتها فى خليج الخنازير عام ١٩٦١م، والحصار الأمريكى المستمر للجزيرة بالمقاطعة، لكنها جعلت الحياة صعبة أمام نظام كاسترو. ومع ذلك فإن هذه السياسات لا تكفى لتفسير حالات الانشقاقات أو غيبة حرية التعبير والنجاح الاقتصادى فى كوبا، ولا تكفى أيضًا لفهم عدم القدرة على تحويل المكاسب الحقيقية للثورة - محو الأمية والفرص التعليمية وأفضل نظام رعاية صحية فى العالم الثالث والتقدم التكنولوجى الهائل وبخاصة فى المجال الطبى - إلى مؤسسات عاملة وديمقراطية بغض النظر عن الرؤى الذاتية أو نوازع وميول قائد له صفة الزعامة. هناك غيبة الخيال الدبلوماسى والأريحية من الجانب الأمريكى، وهناك غيبة فى الخيال السياسى والكفاءة الاقتصادية فى الجانب الكوبى، الأمر الذى يمكن أن يقود الجانبين إلى مواجهة وحمّام دم. وها هو ظل نومانثيا **Numancia** - إسبانيا - القديم يحوم فوق كوبا: إنه حصار، ثم انتحار جماعى، مثلما حدث فى تلك المدينة الأيبيرية التى دافع عنها أبناؤها حتى آخر رجل ضد الألوية الرومانية. هنا، يجب على أمريكا اللاتينية أن تساعد كلا الطرفين، لتجاوز هذا العداء والبعد عن خطابة الآباء، فى محاولة للتوصل إلى ما رغب فيه خوسيه مارتى فجر الاستقلال الكوبى: "... إذا لم تفتح الجمهورية ذراعيها للجميع وتتقدم بهم، تموت الجمهورية".

فى نيكاراجوا نجد ثورة جديدة وشابة وفقيرة، استطاعت أن تحافظ على استقلالها رغم الضغوط وعمليات النهب والاعتداءات الجسدية التى مولتها الولايات المتحدة. وفى فترة من فترات تدهور علاقاتنا مع الولايات المتحدة ووصولها إلى الحضيض، نجد أن حكومة ريجان تكثف جهودها وأموالها وإرادتها السياسية والتعبئة العالمية للقضاء على ثورة بلد وصفه الصحفى والتر ليبمان، ذات مرة، بأنه "بلد مستقل مثله مثل ولاية **Rhode Island** فى الولايات المتحدة؛ فقد تحدت واشنطن الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن وقرارات محكمة العدل الدولية ودخلت فى عمليات غير شرعية،

مثل عملية Iran-Contra مناهضة إيران، والسبب هو أن نيكاراجوا المستعمرة الافتراضية للولايات المتحدة منذ عام ١٩٠٩م، تحدت الأمريكان واتخذت لنفسها خطًا مستقلاً؛ فقام الجيش المضاد، صنيعة الولايات المتحدة، بهدم المدارس وإحراق المحاصيل وتقطيع أوصال الأطفال، لكنه لم يستطع التغلب على دينامية ثورة نيكاراجوا التي اتجهت إلى تعليم الشعب وإنشاء مؤسسات لم تكن قائمة وتحرير قوى المجتمع المدنى التى تمكنت من تنظيم صفوفها ابتداءً من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، وكان ذلك فى خمسة عشر حزبًا سياسيًا، وكسبت الانتخابات عام ١٩٨٩م وأخرجت النظام الساندنيستا من السلطة وقدمت المثال والنموذج فى السياسة الديمقراطية فى بلد كان فى حاجة إليها على الدوام.

كانت كل هذه مكاسب الثورة على الساندنيستا؛ وفى أثناء ذلك استطاعت أمريكا الوسطى أن تتمكن، لأول مرة فى تاريخها من انتزاع المبادأة السياسية من واشنطن وتدخل فى عقد سلام مستقل رغم أنف الولايات المتحدة. نجد أيضًا أن الرئيس الكوستاريكى أوسكار أرياس حصل على جائزة نوبل بفضل ما بذله من جهود فى السلام الاجتماعى من خلال خطط أطلق عليها كونتادورا، وإسكيبولاس، وخطة أرياس.

الألف الثقافى:

ها قد انتهت الحرب الباردة، وكانت أمريكا اللاتينية فى أزمة حيث أدركت أن كلاً من الرأسمالية والاشتراكية فى طبيعتيهما اللاتينية الأمريكية لم تتمكنا من انتشال أغلب أهلنا من الفقر؛ لقد تهاوت وسقطت على رؤوسنا أنظمتنا السياسية والاقتصادية، سواء كانت يسارية أو يمينية.

هنا نتساءل: هل كانت هذه النماذج هى أنظمتنا بالفعل؟ ألم نكن منذ الاستقلال نقوم بالتقليد الدائم لأفضل النماذج الاقتصادية والسياسية فى العالم؟ هل كانت كارثة أن تجد أمريكا اللاتينية نفسها رهينة "أولاد شيكاغو" و "الأخوان ماركس"، أى بين الرأسمالية العدوانية التى لا تقف عند عدو وبين الاشتراكية غير الفعّالة والمركزية

والبيروقراطية؟ أليس لدينا الموروث التراثي والمعلومات والقدرات الثقافية والتنظيمية لإقامة أنماط التنمية الخاصة بنا والتى تتناغم بالفعل مع ما كنا عليه ومع ما نحن عليه ومع ما نريد أن نَكُونه؟

أدركنا، فى خضم أزمتنا مع المشاكل الأربعة وهى الديون والمخدرات والتنمية والديمقراطية، أننا يمكن أن نرد على هذه الأسئلة انطلاقًا من ذواتنا نحن، أى انطلاقًا من ثقافاتنا. فقد أدركنا أننا كانت لنا سياسة مُبَلْقَنَة، وأن لدينا أنظمة اقتصادية فاشلة وخللاً كبيراً فى ميزان العدل الاجتماعى؛ وكنا فى الوقت ذاته أصحاب قامة ثقافية مستمرة وقائمة وشامخة وسط الأزمة العامة التى أصابت السياسة والاقتصاد.

كانت أمريكا اللاتينية تنتظر - مع انتهاء الحرب الباردة - أن تتحرر من الضغوط التى تمارسها القوى الكبرى وطرحها لخيارات فيها تبسيط شديد: إما أن تكون معى أو أنت ضدى؛ كما كان يبدو أن مناهضة الشيوعية، تلك الذريعة الرئيسية للتدخل الأمريكى، أخذت تتبخر بنفس المعدل الذى كان يجرى فيه تفكك الإمبراطورية السوفيتية. غير أن هذه الوقائع هى التى كانت السبب فى إجبارنا على الأخذ فى الاعتبار أننا كنا مرتبطين بعالم سادته الاتصالات والعولمة، لكن كنا نعيش مشاكل أحيانًا ما ترجع إلى العصر السابق على الغزو (الغزو الإسبانى للعالم الجديد). أجبرنا هذا على أن نعيد تنظيم البيت من الداخل، وحتى نتمكن من ذلك كان علينا أن نفهم أنفسنا وأن نعرف ثقافتنا وماضينا وتراثنا من حيث إنها مصدر إبداع جديد. غير أننا لا يمكن أن نفهم أنفسنا دون الاتصال بثقافات الآخرين وبخاصة الثقافتين اللتين هما امتداد لنا وهما أوربا والولايات المتحدة، وإسبانيا والمهجر المتحدث بالإسبانية فى الولايات المتحدة. مرة أخرى نجد أنه طبقًا لمجريات التاريخ المأساوية خلال القرن العشرين، ألقت أمريكا الإسبانية ببصرها نحو إسبانيا وهناك وجدت الشاطئ الأوربى "للعالم الجديد". وفى حوض البحر الأبيض المتوسط "بحرنا" نجد برجًا آخر لم ينته بعد ويبدو أنه يلقى ببصره نحو أمريكا.

الفصل السابع عشر

إسبانيا المعاصرة

تسيطر أبراج كاتدرائية العائلة المقدسة فى برشلونة على المشهد الخاص بميناء المدينة، فهذا الإبداع الرائع لجاودى **Gaudi** لا يتجه فقط إلى عِنان السماء بل - كما هى العادة فى إسبانيا- إلى الأرض أيضًا. إنها قمة المهارة، ومع هذا تشبه الكهوف وتشبه التكلسات والصخور والوِهَاد فى المناطق الجبلية المنعزلة. تبدو أبراج كاتدرائية العائلة المقدسة قوية ومتينة مثل أبراج الكاتدرائيات القوطية فى برغش أو حى كومبو ستيلا، لكنها هياكل مفرغة وخفيفة وكأنها عبارة عن شمعتين ينزل منهما الشمع السائل.

استغرق بناء هذه الكاتدرائية قرنًا من الزمان، وصحب ذلك توقف الأعمال. وظلت طوال ذلك الوقت محط جدل ونقاش وآمال كبرى. مات أنطونيو جاودى عام ١٩٢٦م وهو فى الرابعة والسبعين من العمر، وخلف وراءه إبداعه الذى لم ينته منه. كما أنه، أى جاودى، الرجل الذى انتشر أسلوبه الثورى والمُحسّ واللافت فى كافة أنحاء برشلونة، قد مات فى حادث تراموای، وعندما ذهبوا به إلى المشرحة لم يتعرف عليه أحد لما كان عليه من تواضع وعدم حب للظهور، وعدم اكتمال. وعندما نقارنه بالمهندسين المعماريين الذين صمموا كاتدرائية سانتياجو دى كومبو ستيلا أو أهرامات "طولتيك **Toltecas**"، نجده فى واقع الأمر فنانًا مجهولاً حاملاً لوعد لم ينته، ونموذج للموت الذى أوقف اكتمال تنفيذ الوعد.

وعلى هذا ظلت كاتدرائية العائلة المقدسة على وضعها ولم تنته بعد، وأصبحت مشروعًا ووعدًا مثل إسبانيا وأمريكا الإسبانية؛ لكن لم يكن الموت هو الذى جعل حيواتنا حيوات لم تنته بل كانت الحياة نفسها: إنها الحياة التاريخية. فى برشلونة نعجب بكاتدرائية العائلة المقدسة لجاودى ونحن فى هذا الميناء الذى هو مركز النشاط التجارى فى حوض البحر الأبيض المتوسط على مدى آلاف السنين، كما أنها، أى برشلونة، مدينة تضرب بجذورها الإقليمية فى قطالونيا، وهنا يمكننا أن نتذكر مرة أخرى ذلك الاستعراض الذى تقوم به الشعوب أمام المرآة بعد أن تم إخراجها من مدفنها: فهم المؤسسون من السلت والأيبيريين وهم البحّارة والتجار الفينيقيون واليونانيون وهم الفيالق الرومانية، والغُزاة من البربر والجيوش الإسلامية و "السيد" وكريستوفر كولومبوس وهم الغُزاة المتجهون نحو العالم الجديد وهم أمراء عائلة هابسبورج وهم الكُتّاب والرسامون خلال العصر الذهبى. يجبرنا كل هؤلاء على القول بأن إسبانيا وأمريكا الإسبانية هما جِماع ملتقيات ثقافية.

ينظر المرء من أعلى منطقة فى أبراج كاتدرائية العائلة المقدسة، إلى البحر الأبيض المتوسط، ويُنظر فى الوقت ذاته إلى اليابسة، نحو إسبانيا الفخورة بنفسها من جديد والتقدمية والديمقراطية التى يبدو أنها استوعبت ماضيها بذكاء. فهل مسموح لنا كافة شعوب إسبانوأمريكا أن نتقدم نحن أيضًا ونحن على وعى عميق بالتراث، وأن نعيش فى عالم الاتصالات أو التكامل الاقتصادى العالمى، لكن دون أن نفقد توجه التاريخ نفسه ومعناه، والجذور الأصلية؟ هل يمكن لنا أن ننتسب إلى القرية الكونية دون أن نتخلى بسبب ذلك عن القرية المحلية؟ يساعدنا هذا المعبد الذى لم ينته والذى بدأه جاودى على أن نتساءل ليس فقط عن هويتنا بل أيضًا عما نحن متحولون إليه وما هى مصالحنا أو تجارتنا التى لم تنته، ولا يقتصر ذلك الأمر على إسبانيا بل يشمل كافة المجتمعات الإسبانوأمريكية والمتحدثين بالإسبانية فى الولايات المتحدة.

لم تكن الإمبراطورية الإسبانية القديمة، التى نرى عظامها متناثرة هنا وهناك بطول وعرض العالم الجديد تعيش أمام كل هذه الشكوك، فلقد نصّبت نفسها

ملكية، وفى جماعة، ومعاصرة وأبدية". وعاشت على ذلك طوال أربعة قرون كاملة ابتداءً من رسوّ سفن كولومبوس فى الأنتيل Antillas عام ١٤٩٢م وحتى الهزيمة التى حاقت بها على يد الإمبراطورية الشابة، الولايات المتحدة، عام ١٨٩٨م. اشتعلت الحرب وقبلها كانت هناك العناوين النارية لصحيفة "نيويورك جورنال"، لصاحبها ويليام راندلف هيرست، وكان باعثها شعور وطنى جارف نرى سماته فى تلك العبارة: "لنتذكر الـ Maine ولتذهب إسبانيا إلى الجحيم"، وانتهت الحرب بأن انتزعت كل من كوبا وبويرتوريكو والفلبين من يد التاج الإسبانى. وقد علق تيودور روزفلت الذى شارك فى هذه الحرب على رأس قوة من "الفرسان الأشاوس" بقوله: "لقد كانت حرباً صغيرة رائعة".

"هنا يرقد نصف إسبانيا":

لم يتبق شىء من إمبراطورية كارلوس الخامس وفيليبى الثانى التى لم تكن تغرب عنها الشمس، وها هى الشمس قد غربت، الأمر الذى أحدث رد فعل كله استغراب فى إسبانيا، لقد انتهى حلم العظمة، فقد خدعت إسبانيا نفسها. هناك عبارة حزينة قالها دون كيخوته وهو عائد إلى قريته لآخر مرة لينتظر على فراش الموت: "لا يوجد فى الأعشاش القديمة طيور فى الوقت الحاضر". وبدا فى تلك اللحظة أن نهاية الإمبراطورية قد أُعلن عنها سلفاً وبشكل حاسم من خلال هاتين الشخصيتين الأدبيتين اللتين صالتا وجالتا بكافة أنحاء إسبانيا المغلقة والمنكفئة على ذاتها، وهما دون كيخوته وسانشوبانثا؛ لكن إذا ما كان ذلك هو الحلم، فماذا كان واقع البلاد؟ هل كان يمكن لإسبانيا أن ترى وجهها فى المرآة وتكتشف ما كان مدفوناً فى مرآتها التاريخية؟ كانت هناك نقطة ضعف سياسية هيأت لإسبانيا فقدان فرصتها فى الديمقراطية والحداثة، وهذه تتجسد فى الدستور الليبرالى الذى تم توقيعه فى قادش عام ١٨١٢م، وهو وثيقة قانونية جسدت آمال جيل كامل من المواطنين سواء فى إسبانيا أو الأمريكتين؛ لكن كان مصير دستور قادش، مثله مثل الكثير من القوانين فى تاريخنا هو الإهمال وتجاوز واقع المصالح له وكذا الممارسات السيادية والإقليمية غير البريئة فى كثير من الأحيان،

وجاء ذلك متزامناً مع فقدان الإمبراطورية هيبتها بغزو نابليون لإسبانيا الأمر الذى يشير إلى أنها لم تعد تملك الطاقة القديمة اللازمة فقد انزاحت عائلة هابسبورج ولم تكن عائلة البوربون على مستوى الحدث. هذه السياسة التى فقدت الاتجاه المرسوم لها عادةً ما تسفر عن حروب بين الإخوة، الأمر الذى جعل الصحفى ماريانو خوسيه لارّا يتحدث مستغرباً وبنغمة شديدة الحزن قائلاً: "هنا يرقد نصف إسبانيا، فقد ماتت عن النصف الآخر". لكن لم يستطع كل من لارّا والإعلامى بلانكو وايت، والروائيون مثل بيرث جالدوس، الرجل الذى كتب الكوميديا الإنسانية الإسبانية فى إطار تناول فيه كافة المستويات الاجتماعية، ولا ليوبولدو ألاس – كلارين – الكاتب الساخر الذى تتسم كتاباته بأنها ذات الطعم المُرّ فى روايته "الوصية"، لم يستطع هؤلاء أن ينقذوا إسبانيا من ضعفها السياسى الذى تركها خارج التيار المركزى للفكر والسياسة والعلوم والاقتصاد فى العالم الغربى.

"إسبانيا البائسة!" هكذا قالها الشاعر أنطونيو ماتشادو: "إسبانيا التعسة، كانت بالأمس المسيطرة وملتفة فى أسمالها تحتقر كل ما تجهله". هذا هو محتوى شاهد قبر مرّ، لكنه ليس الوحيد، فقد كان صوت أنطونيو ماتشادو واحداً ضمن كورس جيل بأكمله هو جيل الـ ٩٨ (١٨٩٨م) أى جيل عام فقدان وضيا ع الإمبراطورية، وكان هذا الجيل يصيح فى إسبانيا أن أصلحى من نفسك واعرفى نفسك وحدثى نفسك... لكن عليك قبل ذلك أن تنظرى فى المرآة، وهذا ما قاله الكاتب المسرحى رامون دل بايّى إنكلان الذى قدم فى بعض أعمال له، مثل "كلمات رائعة"، إسبانيا كجزء من مشهد مشوّه، ومن واقع "جروتسك"، أى حارة المرايا المشوّهة التى كان يمكن أن تعكس الصور الجميلة مشوهة ولا معقولة. هنا نجد رامون دل بايّى إنكلان يكتب أن: "الحسّ المأساوى للحياة الإسبانية، يمكن أن يتجلى فى إطار جمالية مشوهة بشكل متعمد...". ها هو الرجل غير المُتوَقَّع، رامون دل بايّى، الكث الشعر والطويل اللحية وذو النظّارة السميكة كأنها نظّارة المسرحى كيبيدو وعيناه الضيقتان ويده المجروحة أو المقطوعة التى فقدها فى مشاجرة فى أحد الشوارع، إذ ضربه خصمه بالعصا على يده فأدى ذلك إلى دخول الزرار المعدنى للقميص فى جلده فأدى ذلك إلى تلوث فى الجرح وكان

بتر اليد أمراً لا مناص منه. كان هذا المتشاجر الأكتع النقيض للنُّبْل المثالى الذى كان عليه فيلسوف سلمنقة "ميجل دى أونامونو"، بلحيته البيضاء وشعره القصير ونظرته التى تشبه نظرة الفهد الذى يبدو وكأنه جزء من المشهد العام. لا؛ قالها أونامونو: لدى إسبانيا فى واقع الأمر حسّ مأساوى بالحياة لأنها كانت تسلط نظراتها على آلام الماضى ونجاحاته، لكن عليها الآن أن تفيد من هذا الماضى لخدمة حاضرها، فالغاية الوحيدة للتراث هى إلقاء الضوء على الحاضر، فالماضى فى حد ذاته غير موجود، ويمكن فهم تاريخ إسبانيا كاملاً على أنه عيش داخل التاريخ **intrahistoria**، أى سلسلة متزامنة من اللحظات التى تصبح حاضراً من خلال الخيال والانفعال والحياة.

هناك ثالث صاح متعجباً من الموقف وهو الفيلسوف خوسيه أورتيجا إى جاسيت المتوسط القامة والممتلئ والأصلع والمدخن، وجهه مملوء بتجاعيد الزمن كأنه وجه مصارع ثيران. لكن الثمن هو الانخراط فى السياق الإنسانى والعمل على قيام أمة حديثة، وآنذاك لم تكن إلا أمة مفككة الأوصال، نبات فى فردوس زائف؛ فصاح أورتيجا: لنستيقظ بمحض إرادتنا أو أن نتعرض لهزات عنيفة ثم يذهبوا بنا ويجرّونا إلى الحداثة. عندئذٍ حدث شىء من غير المتصور ألا يكون متوقعًا عند الهزيمة التى حاقت بإسبانيا فى خليج مانيلا وخليج سانتياجو، ففى الوقت الذى تمكن فيه أورتيجا وثُلة من العلماء المربين والفنانين يأخذون فيه بتلابيب إسبانيا نحو أوربا ونحو القرن العشرين، نجد أن أوربا والقرن العشرين جلبوا على أنفسهم كارثة ومصيبة أكبر من سقوط الإمبراطورية الإسبانية؛ إنها الحرب الكبرى ١٩١٤-١٩١٨م التى قضت على الآمال التى تدثرت بها أوربا لتبلغ الكمال الإنسانى وتجعل من التقدم والاستقرار أمراً لا مناص منه بقيامه على الاستعمار الخارجى والليبرالية الداخلية. هذه المذابح التى جرت فى الحرب فى الخنادق وضياع جيل من الشباب الأوربى بأكمله (ففى معركة **Somme** التى استمرت أربعة أشهر قتل ٤٢٠ ألف إنجليزى و ١٩٤ ألف فرنسى و ٤٤٠ ألف ألمانى)، الأمر الذى جعل ما تعانى منه إسبانيا المحايدة والمنعزلة يتضاءل كثيراً أمام هول الكارثة. وإذا ما كانت إسبانيا قد باعدت نفسها عن المشاركة فى الحرب فإنها لم تَنجُ من آثارها، وهما أمران من الأمور التى تمخضت عن الحرب، فقبل كل شىء هناك التناقضات

والأخطار التى عاشتها أوربا ما بعد الحرب، من فساد وإرهاق وفقدان الأمل وهذه كلها دخلت إلى إسبانيا. أما الأمر الثانى فهو أن إسبانيا أدركت أن العالم من خارج حدودها مشوه بشكل مأساوى، مثلما كانت تفكر إسبانيا بأن تكون مثله، وهو عالم مشوه وكأنها ساعة تتفكك تروسها فى مشهد رسمه سلفادور دالى، أو عالم مثير للفزع، مثل صورة العين التى يقطعها موسى حلاقة فى المشهد الأول للفيلم الذى أخرجه لويس بونيويل "كلب أندلسى"؛ كما نجد فيدريكو جارثيا لوركا، شاعر الجمال الأندلسى الواهن، الذى ما إن ذهب إلى الخارج فوجد العالم جحيمًا لا جدوى من ورائه؛ "لا ينام أحد فى هذا العالم. لا أحد لا أحد. لا ينام أحد"، هذه بعض أبيات من كتابه "شاعر فى نيويورك"، ثم يضيف وكأنه يرد بذلك على المسرحىّ الإسبانى كالديرون دى لاباركا رغم هُوّة القرون: "الحياة ليست حلمًا. حذار! حذار! حذار!".

يجب أن يكون الحذر أكثر فى إسبانيا من الداخل، فقصائد لوركا وأعماله المسرحية مفعمة بالتشاؤم، فها هو شبح الموت يخيم عليها، وهنا تبرز المرثية الرائعة لوفاة مصارع الثيران إيجناثيو سانشيث ميخيّاس التى كتبها الشاعر قبل عام على موته؛ فلوركا يرجو ألا يُغطى وجه المصارع وذلك حتى يتعود على الموت الذى كان يحمله بين جوانحه. قبل ذلك نجد قصيدة أخرى "موت أنطونيو الكامبوريو" حيث لم يقتصر لوركا على الإنصات لأصوات الموت بالقرب من نهر الوادى الكبير بل أدخل نفسه كشخص ثالث فى القصيدة داعيًا هؤلاء السفاحين الذين قتلوه: "يا فيدريكو جارثيا، استدع الحرس المدنى!". اغتيل الشاعر وعمره ثمانية وثلاثون عامًا، ولما كان قد ضمّن موته، فقد ضمن كذلك الآلام الشديدة التى عاشتها إسبانيا، فلو كانت إسبانيا قد تمكنت من الرد على أسئلته فى إطار ثقافى وغنائى، فإنها لم تفعل ذلك على المستوى السياسى؛ فرأس الأمة، الملك، لم يكن يوحى بأى احترام. فالزعماء القرويون كانوا يحكمون إسبانيا وسط الأميّة السائدة والإقطاع والفقر المدقع الذى يعيش فيه الفلاحون. وفى مدريد تناوب المحافظون والليبراليون مقاعد الحكم، فى الوقت الذى أسفرت فيه آخر المحاولات الاستعمارية الإسبانية فى المغرب عن كارثة كتتويج للهزيمة، كما أن "الدكتاتورية اللينة" التى مارسها بريمو دى ريبيرا خلال العشرينيات بدت عذبة

وكأنها موسيقى الشارثويلا الجميلة التى تطفو فى أجواء شارع جران بيّا. غير أنه عندما أقال الملك ألفونسو الثالث عشر بريمو دى ريبيرا عام ١٩٢٩م، فى أثناء الكساد الاقتصادى العظيم ١٩٢٩م، فإنه كان يؤكد بهذه الخطوة عدم كفاءته ووجد نفسه مُجبراً على التنازل عن العرش عام ١٩٣١م. جاء بعد هذه الملكية الهشة جمهورية على الشاكلة نفسها، ومع هذا استطاعت "الجمهورية الوليدة" محو أمية ملايين من القرويين وإعادة الاعتبار لهم، وتوجه لوركا بفرقته المسرحية - لابارّاكا - لزيارة المناطق الريفية لأول مرة. ومع هذا منعت الحكومة الجمهورية عرض فيلم للويس بونيويل بعنوان - لاس أوردس - حيث عرض فيه المؤلف رؤيته التى تصور أهوال الحياة فى الريف من جهل وزنا محارم وتخلف.

قدمت الجمهورية لإسبانيا تشريعات حديثة، وفصلت الكنيسة عن الدولة وأصدرت قوانين الطلاق وأقامت التعليم غير الدينى وأعطت العمال حق تنظيم أنفسهم، وكانت إسبانيا مسرحًا لإضرابات ضخمة وعمليات تمرد بروليتارية وبخاصة فى إقليم أستورياس. قامت الجمهورية بإدخال المرونة على الثقافة الإسبانية، وارتكبت الكثير من التجاوزات وبخاصة المناهضة للكنيسة الأمر الذى أثار مواجهة المجموعات التقليدية للحكومة الإصلاحية، ونظراً لعدم وجود حكومة قوية فإن الحكومة القائمة عانت التوترات القائمة والمفتوحة بعد أن تحررت من أغلال التسلط، ومن كمّ المشاكل التى لا تجد لها حلاً والصراعات بين التيارات المختلفة فى تاريخ إسبانيا. فالإقطاعيات الضخمة فى الجنوب تثقل بعبئها على الأراضى الزراعية الخصبة والحديثة والمزدهرة فى الشمال، والبروليتاريا الآخذة فى الازدياد والجوع لملكية الأرض فى الجنوب، أما فى الشمال فهناك التصنيع والذكاء فى استخدام رأس المال والتمويل، غير أن الصناعات كانت شديدة الهامشية وكانت غير فعّالة ومكلفة. وبينما يمسك جزء من إسبانيا بتلابيب الجزء الآخر ويجرّه إلى أسفل - كما أن الجزء الأكثر تقدماً كان يلحق الضرر بنفسه - أخذت الأيديولوجيات تزيد من تعقيد الأمور بشكل كبير، فهناك الاتجاهات التنويرية والموالية للتوجهات الأوربية التى اصطدمت بالتقاليد الإقليمية والانعزالية، وهناك الليبرالية العلمانية التى دخلت فى مواجهة مع الكاثوليكية التى دبت

فيها الحياة من جديد وأصبحت عدوانية. وإذا ما كان هناك مجتمع تسلطى مثل المجتمع الإسبانى الذى كان آنذاك، فإنه يغذى أنماطًا راديكالية من الفوضوية، وبالتالى كان يبدو واضحًا أن كلتا الفلسفتين التسلطيتين، وهما الفاشية والشيوعية، كانتا تنتظران من وراء ستار وذلك حتى تحين الفرصة لتؤكد قوتها أمام ضعف السياسة الجمهورية ورجالاتها حسنى النوايا والتوجهات ومن العقليات الفكرية اللامعة مثل رئيس الجمهورية نفسه مانويل أثانيا.

تفككت إسبانيا فى حقيقة الأمر - إسبانيا الجمهورية - وأصبحت متناقضة وواعدة وفوّارة، وفى نهاية المطاف عاشت التمرد الداخلى للقوات المسلحة: أى بقيادة فرانثيسكو فرانكو وجنرالاته الذين قاموا بالانقلاب فى ١٩٣٦/٧/١٧م. كان أونامونو قد طلب من الديمقراطية الإسبانية الغضة "إبراز قوة الأطراف... وذلك حتى يتمكن الوسط من الحياة، وهذا هو محصلة الصراع". لكن لم يكن الأمر على هذا النحو، فقد قام الجنرال ميلان أستراى باحتلال قاعة الدرس لأونامونو فى سلمنقة بطريقة عنيفة وصاح بأعلى صوت "تسقط الفطنة"، بينما ردّد أونامونو: "سوف تنتصرون لكنكم لن تُقنعوا أحدًا"، وبعد ذلك بشهور قليلة مات الفيلسوف وقلبه يدمى مما رأى من أهوال الحرب الأهلية، مات أيضًا فيدريكو جارثيا لوركا الذى كان من الضحايا الأُول للقمع الفاشى، إذ اغتيل بدم بارد فى غرناطة مسقط رأسه بسبب الحرب الأهلية التى توقعها.

وسرعان ما تحولت الحرب الأهلية الإسبانية إلى أزمة عالمية فقد حصل كلا طرفيها (فرانكو والجمهورية) على دعم من الخارج، إذ تلقى الجمهوريون بعض السلاح السوفيتى وحظوا بتضامن بعض أعضاء حكومة لاثارو كارديناس فى المكسيك، وتعاطف المثقفين على المستوى الدولى، لدرجة أنه وصل الأمر ببعض هؤلاء المفكرين للانضمام إلى صفوف المحاربين فى إسبانيا مثل أورويل ومالرو وهيمنجواى، وكافحت الألوية الدولية بقوة وأظهرت قدرتها على التضامن على المستوى الدولى خلال القرن العشرين، ومن بين هذه الألوية لواء لنكولن الأمريكى. كان كل هؤلاء الرجال على وعى تام بأن هناك فى إسبانيا نذير شر سوف يحدث: إنها حرب عالمية جديدة تدور رحى

تجاربها فى سهول وأنهر قشتالة. فقد قدمت ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية دعمهما الكامل - الحربى والسياسى - للانقلاب الفرانكوى؛ ففى ١٩٣٧/٤/٢٦م قامت طائرات هتلر طراز Stukkas بدكّ مدينة جيرنيكا فى إقليم الباسك، كما استمر القصف الجوى ثلاث ساعات. لم تكن هناك أهداف عسكرية فى المدينة، بل كانت عملية تخويف وترهيب للمدنيين، وسوف تكون بلدة جيرنيكا النموذج الذى جرى تطبيقه بعد ذلك ضد لندن أو تدمير Coventry. وابتداءً من هذه اللحظة سوف نجد الأبرياء أيضًا من الضحايا الأول للحرب. غير أن جيرنيكا ولدت من جديد من بين الأنقاض، وذلك من خلال اللوحة الرمز، خلال القرن العشرين، التى رسمها أعظم فنان إسبانى حديث هو بابلو بيكاسو. طلب منا هذا الفنان أن نتأمل وجه المعاناة والموت من خلال الرموز الإسبانية الخالدة وهى الثور والحصان إذ تقطّعا وتفسّخا.

نجد هذه اللوحة شاهدًا على المهارة الإسبانية الأليمة التى تتمثل فى قدرتها على تحويل الكوارث التاريخية إلى انتصار فنى، لكن لا شىء يمكن أن يحمينا هذه المرة فنحن قد خرجنا من كهوف ألتاميرا Altamira، وأصبحنا بعيدين عن المرسم الذى شهد مولد لوحة "لا منيناس"، نحن فى شارع تلتقى فيه كل الأشياء، فالقنابل تتساقط من الجو، ويتحول كل شىء إلى خراب وبؤس؛ وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى وكأننا فى البداية، فى العراء.

أطلال التاريخ، أى أطلال الإنسان، يضيئها شعاع صادر من أداة، هى لمبة الكهرباء، وهى لمبة من لمبات الحارات تحاول أن تحيل الليل إلى نهار، على شاكلة ما تفعله القنابل من تحويل الحياة إلى موت؛ فهل يمكن أن نعيد بناء عالم باستخدام جزازات الفن؟ ها هو أنطونيو ماتشادو الذى لم يجد أمامه مفرًا إلا المنفى، يقف على جبال البرانس ويتنهد قائلاً:

أيها الإسبانى القادم
إلى الدنيا، ليحفظك الرّب
أحد نصفى إسبانيا
سوف يقشعر منه بدنك

أصبحت الجمهورية وحدها - إذ تخلت عنها الديمقراطيات الأوربية الجبانة والقصيرة النظر- وكان عليها أن تواجه الجيوش الفاشية لهتلر وموسوليني؛ غير أن نصفي إسبانيا - في واقع الأمر - كان ينظر كل منهما إلى وجه الآخر، ولا يبدو - ظاهريًا - أي توافق بينهما وكأننا أمام الشمس والظل، مثلما هو الحال في حلبات مصارعة الثيران بين الظل والشمس.

بعد أن انتصر فرانكو شيد مقبرته الضخمة، أي في "وادي من سقطوا في الحرب" Valle de los Caidos في الأسكوريال، وهي عبارة عن كهف ضخم منحوت في الصخر، استغرق بناؤه ستة عشر عامًا، وقامت بالعمل في إقامة هذا الأثر أيدٍ عاملة أغلبها من السجناء السياسيين، وتحول الأثر إلى نوع من الكابوس الفاشي على شاكلة ما يكون هتلر قد فعله لو كسب الحرب.

لم ينتصر فرانكو في الحرب العالمية الثانية، لكنه لم يخسرها، لقد كان بارعًا وماكرًا، إذ لم يستطع هتلر أن يجرّه إلى الحرب؛ وعندما حل السلام استثمر فرانكو موقفه بعدم الدخول في الحرب وجعل ما فعله ميزة إستراتيجية للحلف الغربي؛ فعند مدخل البحر الأبيض المتوسط أجّر للولايات المتحدة قواعد جوية، كما كانت توجهاته المعادية للشيوعية أمرًا واضحًا لا لبس فيه. وهنا نلاحظ أن فرانكو عندما استقبل هتلر حيّاه التحية الفاشية، وتناسى هذه العادة عندما استقبل الرئيس أيزنهاور في مدريد للتوقيع على التحالف الجديد. كانت صورة إسبانيا في عهد فرانكو ضخمة ومتسقة، شبيهة بما عليه الأثر في "وادي من سقطوا في الحرب"؛ لكن كانت البلاد تعاني من الفقر، إذ كانت في حاجة للسياحة والتجارة والاستثمار والقروض، وحصلت على هذا بصفتها أنها جديرة بأن تقوم بدور أحد حراس حلف شمال الأطلنطي. بلغت إسبانيا في أثناء سنوات حكم فرانكو، التنمية الاقتصادية، غير أنه لم تكن هناك حريات سياسية، ولم تعد هذه التوليفة جديدة، فابتداءً من كوريا وحتى شيلي نجد الدكتاتوريات الحديثة قد تعلمت الدرس من فرانكو.

أنقذتها الثقافة:

هناك أمر مهم عندى وفريد فى أن فيما يتعلق بإسبانيا وهو أن فرانكو لم يتمكن أبداً من السيطرة على إجمالى الثقافة، فإذا ما نظرنا إلى ألمانيا هتلر لوجدنا أنه قد استطاع فعل هذا الأمر وهو المصادرة الثقافية، فمن لم يكونوا على اتفاق مع التوجه القومى الاشتراكى كان مصيرهم إما النفى أو الاغتيال ولم يكن فى المستطاع صدور عمل فيه مروق أو خروج على الخط المرسوم فى ألمانيا. غير أن الثقافة الإسبانية أثبتت قدرتها على المقاومة طوال ستة وثلاثين عاماً هى عمر نظام فرانكو، وتمكنت مرة أخرى من إيجاد هامش خطير للمروق من المنجم الإسبانى.

استمر ازدهار الثقافة الإسبانية فى المهجر، كما أنها لم تستسلم أبداً داخل إسبانيا، فهناك الشعر والرواية والصحافة السرية والتنظيمات السياسية غير الشرعية؛ فهناك قصائد لبلاس دى أوتيرو أو خوسيه إيرّو، وسرد قصص لخوان جويتيسولو أو رفائيل سانشيث فيرلوسيو، واللجان العمالية التى يتزعمها مارثلينو كاماتشو، وتجديد الحزب الاشتراكى بزعامة فيليبى جونثاليث؛ كل هذا دلّل على أن الثقافة الإسبانية تعلمت الدروس جيداً وهضمت واستوعبت ما عليه التراث الإسبانى من عظمة وتميز وذلك حتى تتمكن من الدفاع عنه وتضمن استمراريته رغم الكارثة السياسية. تجسد الكثير من هذه التيارات على شاشة السينما، فهناك موضوع الفساد الداخلى الذى مارسه الأغنياء الجدد للفرنكوية فى فيلم "موت سائق دراجة" لخوان أنطونيو باردم، وهناك الأمل الذى يداعب خيال قرية فى أن تَطال شيئاً من "خطة مارشال" فى فيلم "مرحباً يا مستر مارشال" للويس بيرلانجا، وهناك صورة إسبانيا فرانكو التى تتسم بأنها مصيدة لا تنتهى وأنها تدمر ذاتها، فى فيلم "القنص" لكارلوس ساورا، أو فى الفيلم الساخر للمخرج نفسه، بعنوان "حديقة المُتع" حيث تحاول أسرة غنية أن تنتزع من الأب الذى أصابه الخرس والشلل رقم حسابه السرّى فى سويسرا.

فى نهاية المطاف نجد عودة الابن الضال: إنه فيلم بيريديانا Viridiana للويس بونيويل، وهو فيلم رائع كنموذج لاستعادة التراث الثقافى الإسبانى بحلوه ومُرّه وطابعه الانتقادى والمارق وتراث ثربانتس وقصص الشطار، ودون خوان مانويل والقديس خوان دى لاكروث، الجسد والروح، كنوع من الطرائق لمعانقة المهمش والخارج على القانون، وهؤلاء المنسيين. ومكمن قوة سينما لويس بونيويل - سواء أحببنا موضوعاته أم كرهناها - هو أن المخرج شعر دائمًا بالتزامه نحو الوطن التزامًا عميقًا.

انتهزت البلاد البيات الشتوى الفرانكوى لتفكر فى ذاتها وتتأمل أخطاء الماضى وتأسف لموروثها التسلطى والقمعى، كما تذكرت واستدعت الماضى الديمقراطى الذى كان لها: أى حرية المجتمعات خلال العصور الوسطى وثورة محافظات قشتالة والدستور الليبرالى فى قادش وتجربة النظام الجمهورى الفاشلة. كان لإسبانيا تجربة ديمقراطية تتغذى عليها، وهذا هو التراث الذى قررت البلاد توطيد دعائمه بعد موت فرانكو عام ١٩٧٥م، لكن المخيلة الدولية ما زالت تحمل تناقضًا: كيف أمكن لهذه الديمقراطية الشابة والفتية أن تظهر من بين ركام الانحطاط الذى عاشته طوال الدكتاتورية الفاشية؟ نجد الإجابة عن السؤال فى الموروث القريب للتيارات الديمقراطية التى توقفت فى الحياة الإسبانية، مثل تلك الهنيهة من النشاط الثقافى خلال عصر فرانكو، وكذلك التراث الجديد والفورى الذى تجلى فى الألمعيات السياسية فى مختلف مناحى الحياة الإسبانية بعد عام ١٩٧٥م.

كان هناك خلال هذا العام عدم تواؤم بدهى بين التنمية الاقتصادية فى إسبانيا وجمودها السياسى، وتمثل قيام الديمقراطية فى إسبانيا فى إحداث توازن بين النشاط الاقتصادى والمؤسسات السياسية الجديدة به؛ وعلى مدار أحداث هذه الثورة الديمقراطية والسياسية الحقيقية قام الجميع بتحمل مسئولياتهم وأداء أدوارهم، وكان خوان كارلوس، الملك الشاب هو عنصر الوحدة، فأوقف العسكريين الانقلابيين القدامى وداوى جراح الأمس، وانضمت إسبانيا إلى أوربا، واليوم سقطت جبال البرانس كحاجز، وأخذت إسبانيا تشهد أعلى نمو اقتصادى فى السوق الأوربية. إنها أمة شابة

وديمقراطية تقدم لمواطنيها كافة الخيارات السياسية التى هى ثمرة حياة ديمقراطية ناضجة وكذلك ثمرة زوال الهوس بالذات. لكن الخطر قائم وهو أن إسبانيا عندما تدخل "ديزلانديا السوق الأوربية" فقد تصبح مزدهرة بشكل يزيد عن الحد، وتشعر بتراخ شديد وميل استهلاكى مرتفع ويقل فيها النقد الذاتى وتنسى وجهها الآخر وهو ملامحها الإسبانوأمريكية. إسبانيا جزء من أوربا وهذا أمر مشروع وجديرة هى به، لكن عليها ألا تنسى أنها موجودة أيضًا فى إسبانوأمريكا، فـ"أبناء أنثى الأسد الإسبانية" - طبقًا للتسمية التى أطلقها الشاعر روبين داريو - هل يمكن لنا أن نكون بدون إسبانيا؟ وهل يمكن لإسبانيا أن تكون بدوننا؟

الفصل الثامن عشر

الناطقون بالإسبانية

فى الولايات المتحدة

الحدود الممتدة بين المكسيك والولايات المتحدة - ٢٥٠٠ ميل - هى الحدود الوحيدة المرئية بين العالم المتطور والعالم النامى وهى أيضًا الحدود الفاصلة بين أنجلوأمريكا وأمريكا اللاتينية، هى الحدود التى تبدأ هنا. كما أنها حدود غير مكتملة مثلها مثل الحواجز والخنادق والأسوار - المسماة شعبيًا ستارة العِجَّة tortilla - التى أقيمت على عجل لمنع دخول الوافد الناطق بالإسبانية، ثم سرعان ما تركت على حالها غير مكتملة. ومن السهل عبور الحدود حيث جفت مياه النهر وأصبحت الجبال لا زرع فيها ولا ماء، غير أنه من الصعب الوصول إلى الجانب الآخر، فبين الحدّين هناك أرض لا يسيطر عليها أحد، وهناك يجد الوافد رقابة دوريات حرس الحدود الأمريكية؛ هنا نجد أن العامل يتمتع بإرادة قوية. أغلبهم قادم من المكسيك، وهناك منهم أيضًا من أمريكا الوسطى وكولومبيا والكاريبى، أحيانًا ما يكون دافعهم للهجرة هو الملاحقة السياسية، غير أن الأغلبية العظمى منهم وبخاصة الوافدين المكسيكيين مدفوعة بالأسباب الاقتصادية، وينضم هؤلاء الوافدون إلى جيش مكون من ستة ملايين عامل ممن لا يحملون أوراقًا ثبوتية فى الولايات المتحدة؛ يجتمعون فى أماكن متواضعة جنوب الحدود وينتظرون، برفقة عائلاتهم وأصدقائهم، اللحظة المناسبة للعبور. تعمل دوريات حرس الحدود ليل نهار للحيلولة دون ذلك، فرجل حرس الحدود مسلح بكافة المزايا التى هيأتها

له التكنولوجيا الحديثة، إلا أن الميزة التى يحظى بها الوافد هو الكثرة العددية وضغط آلاف الأفراد من ورائه، إذ هم لا يملكون غير إلحاح الحاجة؛ ربما كان هؤلاء - من الرجال والنساء - الأكثر شجاعة وحزمًا فى المكسيك كلها فلديهم الجرأة والإرادة لكسر دائرة الفقر الذى امتد عبر الزمان والمخاطرة بكل شىء فى مقامرة عبور الحدود الشمالية، ويقول الكثيرون من الذين يعبرونها إن هذه الحدود ليست فى واقع الأمر حدوداً بل نُدْبة. فهل التأمت الجراح للأبد؟ أو أنها ستعود وتنزف يومًا ما؟

الوافد هو الضحية الكاملة، فهو أمام أرض غريبة، لا يتحدث الإنجليزية، ينام فى العراء، يحمل معه كل ما يحتاجه، يخشى السلطات وأصحاب الأعمال والمحامين الذين لا وازع عندهم ويمسكون بحيوات الوافدين وحرياتهم. وأحيانًا يتلقى الوافد معاملة قاسية وأحيانًا ما يجرى اغتياله، لكنه ليس مجرمًا. هؤلاء الوافدون هم عمال، وأحيانًا ما يتم توقيف مجموعات كاملة بالأضواء الكاشفة وطائرات الهليوكوبتر التابعة لحرس الحدود، ويلقى القبض على الكثيرين منهم وإعادتهم إلى الطرف الآخر من الحدود؛ غير أن من يتمكن من الدخول منهم يبلغ نصف مليون سنويًا. الوافدون متهمون بأنهم يزيحون العمال الأمريكيين وأنهم يحدثون الضرر بالاقتصاد الأمريكى والإضرار بالأمة ويهددون تكامل هويتها الثقافية. لكن يواصل الوافدون دخولهم والسبب الرئيسى فى ذلك أن الاقتصاد الأمريكى بحاجة إليهم؛ فالولايات المتحدة الأمريكية فى حاجة إلى خمسة ملايين من العمال قبل نهاية القرن العشرين، وهؤلاء هم العمال الذين يقومون بأداء الأعمال الخدمية التى لا يرغب أى من سكان الولايات المتحدة مواصلة القيام بها، ولا يقتصر الأمر على الأعمال الزراعية بل يمتد إلى خدمات النقل والفندقة والمطاعم والمستشفيات، ويمكن أن يتوقف إيقاع العمل فى هذه المهن إذا ما توقف إسهام الوافدين، فبدونهم تتعرض البنية الكاملة للأجور والعمالة فى الولايات المتحدة لتغيرات ضخمة وتهبط عدة درجات وتتهاوى معها ظروف الملايين من العمال وأسرهم.

يأتى الوافدون لأنه يوجد عجز فى العمالة الشابة فى السوق الأمريكية، ويأتون لأنهم يقومون بسد حاجات محددة نشأت عن التغيرات الديمجرافية فى التركيبة

السكانية المتنقلة دومًا فى الولايات المتحدة. هناك حاجة إلى الوافدين لأنه عندما تم الانتقال من الحرب الباردة إلى اقتصاد السلام أصبحت الولايات المتحدة تعانى عجزًا ليس فقط فى عدد العاملين غير المدربين بل فى عدد العمال من أمريكا اللاتينية الذين لهم خبرة فى صناعة الحديد والصلب والبناء والحرف المختلفة، وبفضل الوافدين ظل الاقتصاد الأمريكى منافسًا فى هذه الحقول وتلك من الحقول الاقتصادية، وإلا فإن هذه المصانع كانت ستنتقل إلى الخارج ويزداد عدد العاطلين، يقوم العامل الوافد بالحفاظ على الأسعار المنخفضة ويزيد من الاستهلاك، ورغم أنه يزيح من أمامه بعض العاملين، فإنه غير قادر على المنافسة والوقوف فى وجه فقدان فرص العمل الناجمة عن التقدم التكنولوجى والمنافسة الأجنبية.

وبغض النظر عن العناصر الاقتصادية فإن العمال الوافدين يمثلون تحولاً اجتماعيًا وثقافيًا على مدى واسع ومهم بالنسبة لاستمرارية الثقافة الإسبانوأمريكية، ومعنى هذا أنه رغم أن المكسيك لا تعانى من نسبة مرتفعة فى البطالة فإن هؤلاء العمال يجب أن يَفِدُوا إلى الولايات المتحدة من أى مكان فى العالم، غير أن من الواضح أنهم لا يأتون إلا من الجانب الآخر من الحدود على اليابسة وليس من البحر مثل أصولهم الأولى من الأيرلنديين أو الألمان أو الإيطاليين أو السلافيين.

قارة من الوافدين:

عندما يقوم العامل الناطق بالإسبانية بعبور الحدود المكسيكية الأمريكية، فإنه أحيانًا ما يتساءل: ألم تكن هذه أرضى من قديم الزمان؟ أليس ما أفعله هو العودة إليها؟ أليست هذه الأرض أرضنا بشكل أو بآخر منذ زمن بعيد؟ وهنا يكفى أن يتذوق طعمها ويسمع لغتها ويغنى أغانيها ويصلى لقديسيها. أليست هذه الأرض دومًا أرضًا ناطقة بالإسبانية حتى النخاع؟ غير أنه قبل الرّد على هذه الأسئلة علينا أن نتذكر مرة أخرى أن قارّتنا كانت قارة خالية، فقد أتينا جميعًا من مكان آخر، وكان الأمريكان الأوائل عبارة عن قبائل رُحّل قدمت من آسيا، وتلا هذه القبائل الأسبان بحثًا عن مدن

الذهب السبعة: لم يجدوها في المكان الذى هو اليوم الجنوب الغربى للولايات المتحدة، لكنهم تركوا هناك لغتهم وديانتهم وأحيانًا رفاتهم.

امتدت حدود الإمبراطورية الإسبانية نحو الشمال، أى نحو كاليفورنيا وأوريجون، وأضفت الطابع الدينى للأبد على مسميات هذه المدن مثل لوس أنجلوس وساكرمنتو وسان فرانثيسكو وسانتا باربارا وسان دييجو وسان لويس أوبسبو وسان برناردينو ومونتيرّى وسانتا كروث. ومع مرحلة الاستقلال ورثت الجمهورية المكسيكية هذه الأراضى المترامية الأطراف والمأهولة بعدد قليل من السكان، ثم سرعان ما فقدتها عام ١٨٤٨م أمام التوسع الذى قامت به الجمهورية الأمريكية وأيديولوجيتها المسماة بـ"المصير المعلن".

معنى هذا أن الناطقين بالإسبانية لم يأتوا إلى الولايات المتحدة، بل الولايات المتحدة هى التى أتت إلى العالم الناطق بالإسبانية، وربما كان ما يحدث اليوم نوعًا من التوازن وربما العدل الشعرى، حيث يعود العالم الناطق بالإسبانية إلى الولايات المتحدة وكأنه يعود إلى جزء من موروثه الأبدى فى السياق الأمريكى والذى أحيانًا ما يُنسى.

يواصل الوافدون دخولهم إلى الولايات المتحدة، ولا يقصدون فقط الجنوب الغربى بل يتجهون إلى الشاطئ الغربى، أى إلى نيويورك وبوسطن قبل أن يتوجهوا من جديد إلى شيكاغو ووسط الغرب، وعند العودة يمرون بالشريط الممتد من تكساس فى خليج المكسيك حتى كاليفورنيا، على شواطئ المحيط الهادى. هنا يلتقى الوافد بالصينيين والأمريكان من ذوى الأصول المكسيكية الذين ظلوا هناك دومًا حتى قبل مجيء الأمريكان "الأغراب". غير أنهم جميعًا عضدوا من قوة الأقلية التى أخذت تنمو بسرعة فى الولايات المتحدة: فهناك ٢٥ مليونًا من الناطقين بالإسبانية وهم فى أغلبهم من المكسيك، وهناك منهم من بويرتوريكو وكوبا وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية.

تعتبر مدينة لوس أنجلوس، فى الوقت الحاضر، المدينة الثالثة فى العالم التى تتحدث بالإسبانية، بعد مدينة المكسيك وبوينوس أيرس، كما تسبق فى هذا مدينة مدريد أو برشلونة. وفى جنوب فلوريدا يمكن للفرد أن يعمل وتنشط أحواله دون أن يتحدث

غير الإسبانية، وهذا هو الطابع الكوبى الذى أصبح عليه هذا الإقليم. إلا أن مدينة سان أنطونيو كانت مدينة ثنائية اللغة على مدار مائة وخمسين عامًا حيث يقطنها المكسيكيون. ويُتوقع أنه فى منتصف القرن الحادى والعشرين سوف يكون نصف تعداد سكان الولايات المتحدة من المتحدثين بالإسبانية، وإذا ما كان أجدادهم لم يتمكنوا من العثور على مدن الذهب فإن العمال الجدد الناطقين بالإسبانية يأتون بحثًا عن ذهب "الأمريكى" "الغريب gringe"، كما أن التجمعات الناطقة بالإسبانية فى الولايات المتحدة ترث وتقدم ذهبًا لاتينيًا؛ إنه ذهب يستعصى على الذوبان فى هذه التركيبة الاجتماعية الضخمة فى الولايات المتحدة. إذن نجد أن الولايات المتحدة، كونها الدولة الثالثة من حيث تعداد الناطقين بالإسبانية، إنما تمثل واقعًا ليس سياسيًا أو اقتصاديًا فقط بل ثقافيًا فى المقام الأول، فهناك حضارة كاملة ظهرت للوجود فى الولايات المتحدة وراءها الناطقون بالإسبانية. على هذه الأرض ولد إبداع أدبى يسلط الضوء على العناصر الخاصة بالسيرة الذاتية والسرد القصص الشخصى، وذكريات الطفولة، وألبوم العائلة، وهذا كله إنما يمثل طريقة من الطرائق فى الردّ على هذا السؤال: ماذا يعنى أن يكون المرء "شيكانو" (أى من الأقلية المكسيكية التى تعيش فى الولايات المتحدة) أو مكسيكيًا أمريكيًا، أو من بويرتوريكو لكنه يعيش فى مانهاتن، أو كوبيًا أمريكيًا من الجيل الثانى للمهجر الذى يعيش فى ميامى؟ هذا الأدب يمكن أن يتسم بالتنوع الشديد مثل إبداع رودلف أناى **(Bless Me Ultima)** **R. Anay** ورون أرياس **(The Road to Tamazunchalo)** أو إرنستو جالارثا (حىّ **Boy**) أو أليخاندرو موراليس **(The Brick People)** أو أرتورو إيسلاس **(Rain God)** أو توماس ريبيرا (لم تنشق الأرض وتبتلعه) أو رونالد إينوخوسا **(The Valley)** أو الكاتبات مثل ساندرا ثيسنيروس **(Woman Hollering Greek)** ودولورس بريرا **(Beautiful Senoritas)** وجوديت أورتث كوفر **(The Line of the Sun)** أو الشعراء من أمثال ألورستا وألبرتو ريوس، أو تلك الأعمال ذات البصمة الواضحة مثل إبداع روساريو فيرّى، أو لويس رفائيل سانشيث الذى قرر الكتابة بالإسبانية وهو فى جزيرة بويرتوريكو.

هنا ولد فنّ ارتبط بشكل عنيف أو لافت للنظر بالتراث الذى يمتد عبر الزمان ابتداءً من الرسوم الحائطية فى كهوف ألتاميرا وحتى الحوائط المرسومة بالجرافيت فى الحى الشرقى فى لوس أنجلوس؛ هى لوحات الذاكرة ورسوم دينامية تعبر عن اللقاءات مثل رسم التصادم بين السيارات لكارلوس ألماراث، الفنان الذى كان عضواً فى المجموعة المسماة "مجموعة الأربعة"، ومعه فرانك روميرو، وبيتو دى لاروكا، وجلبرتو لوخان؛ وهنا نجد أن جمال فنه وطابعه العنيف لا يسهم فقط فى عقد اتصال بين الثقافات، التى يجب أن تتخلى عن حالة الرضا التى عليها أو الظلم حتى تُبقى على حيويتها، بل يميل أكثر إلى إعادة تأكيد هوية تستحق الاحترام، وعندما لا نراها رأى العين يجب أن نجسدها، وعندما لا نسمعها يجب أن يكون لها إيقاع وكلمة نقولها، وإذا ما رفضتها الثقافة الأخرى، أى الثقافة الأنجلوأمريكية، من حيث ماضيها (أى ماضى الثقافة الناطقة بالإسبانية) فعليها أن تخترع لنفسها أصولاً إذا ما لزم الأمر، فهل يمكن لأمريكى من أصل مكسيكى أن يكون فناناً فى لوس أنجلوس - على سبيل المثال - ولا يحمل فى مخيلته ذكرى مارتين راميرث، الذى ولد عام ١٨٨٥م؟ كان من العمال الوافدين الذين عملوا فى السكك الحديدية، وجاء من المكسيك، وفى لحظة ذات دلالة رمزية ضخمة، فقد القدرة على النطق، وأدين لهذا بالعيش ثلاثين سنة فى مستشفى للأمراض العقلية فى كاليفورنيا حتى توفى عام ١٩٦٠م. لكن مارتين لم يكن مجنوناً، لم يكن قادراً على الكلام، وبالتالى فقد تحول وهو فى السجن إلى فنان، وعلى مدار ثلاثين عاماً رسم صمته، ومن هنا فإن على الثقافات الناطقة بالإسبانية فى الولايات المتحدة أن تعبر عن نفسها بصرياً من خلال لوحة للوخان **Lujan**، أو بشكل درامى على شاكلة إنتاج مسرحى درامى للويس بالديس، أو من خلال نثر مُعبّر مثلما قدم أوسكار إيخويلوس وملوك رقصة البامبو الكوبية عنده أو الإيقاع الشديد الحيوية مثل الذى يقدمه روبين بلاديس وأغانيه المضمخة بأحزان الحضر فكاهة الحوارى، أو بالطاقة الفياضة مثل الكوبية جلوريا إستيفان فى عملها **Miami Saud Machine**.

يجبر هذا التيار الرافض والمؤكد الذين وصلوا حديثاً وكذا الناطقين بالإسبانية من قدامى الوافدين على التساؤل: ما الذى نسهم به فى المجتمع الأمريكى؟

وما الذى يروق لنا أن نحتفظ به من موروثنا؟ وما الذى نريد أن نقدمه للولايات المتحدة؟ هنا نجد أنهم لما كانوا من نسل عائلات أقامت لفترة طويلة فى الولايات المتحدة أو من الوافدين حديثًا، فإن إجاباتهم توضح لنا تحولا اجتماعيًا كبيرًا يضم العائلات والأفراد وجماعات كاملة وشبكات العلاقة الثقافية التى تقوم بنقل القيم والذكريات والحماية، فإذا ما كان لدينا ما يقرب من ثلاثمائة ألف رجل أعمال من الناطقين بالإسبانية الذين نجحوا فى الولايات المتحدة فإن الوجه الآخر للعملة يتجسد فى شاب أنجلوأمريكى فى مرحلة المراهقة، يبلغ تسعة عشر عامًا من العمر، يطلق النار على اثنين من الوافدين والسبب هو ببساطة "أكره المكسيكيين". وتطالعنا إحدى الإحصائيات بالإشارة إلى تجارة الأملاك لدى الناطقين بالإسبانية فى الولايات المتحدة تسهم فى الاقتصاد الأمريكى بحوالى عشرين ألف مليون دولار سنويًا؛ لكن هذا البعد الذى هو مثار الفخر يقابله بُعد آخر يتمثل فى الشعور بالخجل، فهناك الكثير من الأنجلوأمريكيين الذين يطلقون على الوافدين طلقات محشوة بالدهانات وذلك لتمييزهم عن غيرهم مثلما حدث لليهود خلال العصور الوسطى. وإذا ما أخذنا فى الحسبان بأن كثيرًا من المجتمعات فى المكسيك تعيش على ما يرسل به العمال الوافدون إلى الولايات المتحدة من أموال يصل مقدارها إلى أربعة مليارات دولار سنويًا، وأن ذلك هو المصدر الثانى للعملات الأجنبية فى المكسيك، بعد البترول، علينا أن نضع فى الحسبان أيضًا أن الكثير من العمال من الوافدين تدهسهم السيارات عمدًا فى الطرق القريبة من حقول العمل، كما أننا إذا ما أخذنا فى الحسبان أيضًا - فى نهاية المطاف - بأن أغلب الوافدين المكسيكيين هم عمالة مؤقتة تعود إلى المكسيك بعد ذلك، فإن علينا أيضًا أن نضع فى أذهاننا الاختلافات التى ما زالت قائمة بين الثقافة الأنجلوأمريكية والأيبيرية الأمريكية التى ما زالت قائمة فى إطار هذا التحول وتقف فى منافسة وتأثر وصدام فيما بينهما فى منطقة الحدود.

قام الرسام المكسيكى خوسيه كليمنتى أوروثكو برسم لوحة رائعة لثقافتى العالم الجديد، أى الأنجلوأمريكية والأيبيرية الأمريكية فى "إنجلترا الجديدة" وبالتحديد فى مكتبة بيكر **Baker** فى كوليج **Darmouth**. هناك تعايش بين الثقافتين لكن كل واحدة

تنتقد الأخرى وتضعها موضع جدل ونقاش، ويتمحور ذلك فى قضايا محددة وحاسمة مثل الهوية الثقافية والدين والموت والأفقية والرأسية فى البُنى السياسية وكذلك قدرة كل واحدة منهما على الإنفاق والادخار.

وواقع الأمر هو أن كلتا الثقافتين تعانيان من مشاكل داخلية لا حصر لها وكذا مشاكل مشتركة تتطلب التعاون والتفهّم فى سياق دولى جديد وغير معهود سلفًا. نحن معشر الأنجلوأمريكان والأيبيريين الأمريكان نتعرف على ذوات بعضنا بشكل أفضل من خلال التحديات وكذا المخدرات والجريمة والبيئة وفقدان الحماية فى الحضر، وعندما نعود بأبصارنا لنرى المجتمع المدنى فى الولايات المتحدة، سابقًا، نجد أنه مجتمع متجانس ويواجه هجرات الوافدين الشديدى عدم التجانس (أى الوافدين الجدد الناطقين بالإسبانية والوافدين الآسيويين)، نجد أيضًا نحن معشر الأيبيريين الأمريكيين أن ما كان هناك من تجانس فى السلطة الدينية والعسكرية والسياسية فى الداخل يتعرض أيضًا لهجرات غير متجانسة نحو الرقع العمرانية الحضرية؛ وهنا نتساءل: هل يمكن أن ينتهى الأمر بوجود تفاهم بين أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة سواء فى الأزمات أو فى زمن الرفاهية، وأن يكون هذا التفاهم مكثفًا بشأن المشاكل الجديدة الحضرية والبيئية بعيداً عن الصراع الأيديولوجى الناجم عن ضيق عقيم فى الأفق ناجم عن الحرب الباردة؟ على أية حال نجد أن كلاً من أنجلوأمريكا وأيبيريا الأمريكية تتشاركان فى حركة مشتركة تأخذ كافة الاتجاهات وأنه سوف ينتهى بنا المآل بأن نأخذ لأنفسنا جزءاً ونعطى الطرف الآخر جزءاً آخر: فالولايات المتحدة تحمل إلى أمريكا اللاتينية ثقافتها وتأثيرها من خلال السينما والموسيقى والكتب والأفكار والصحافة والسياسة واللغة، وهذا لا يخيفنا فى أمريكا اللاتينية لأننا نشعر أن ثقافتنا تملك من القوة ما يكفى وأن رغيف العيش المصنوع من الذرة وقطع الفلفل يمكن أن يتعايش مع الهامبورجر، رغم أن الرغيف المذكور هو عندنا أفضل بشكل كبير؛ نجد إذن أن الثقافات إنما تزدهر من خلال الاحتكاك بالثقافات الأخرى وتموت عندما تنعزل.

عندما ننظر إلى ثقافة أمريكا الإسبانية فى اتجاهها نحو الشمال، نجدها تحمل هداياها الخاصة بها، فعندما نسأل هؤلاء الوافدين الجدد وكذا العائلات التى استقر بها المقام منذ زمن عن ما يحملون نجدهم يولون أهمية كبرى للدين، ولا يقتصر الأمر على الكاثوليكية بل الديانة فى ثوب شعور عميق بالقدسية، والاعتراف بأن العالم مقدس: وهذه هى الحقيقة الأقدم والأصح فى عالم السكان الأصليين فى الأمريكتين، كما أنها أيضاً قدسية مُحَسَّة ملموسة، ثمرة حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط فى لقائه مع ثقافة السكان الأصليين فى نصف الكرة الغربى. يتحدث الناطقون بالإسبانية عن قيمة أخرى هى الاحترام والرعاية والتوقير لكبار السن واحترام الخبرة والتجربة والاستمرارية ويولون ذلك الرعاية أكثر من التعبير عن الإعجاب بالتغيير وعن ما هو جديد؛ كما أن هذا الاحترام لا يقتصر فقط على كبار السنّ بل يشمل أيضاً السمة الصوتية للثقافة الخاصة بالناطقين بالإسبانية، وهى ثقافة نجد فيها كبار السنّ يتذكرون الحكايات وهم الذين يتمتعون بميزة الذاكــرة، وهنا يمكن القول إنه كلما مات رجل أو امرأة من الطاعنين فى السنّ من الناطقين بالإسبانية تموت معه أو معها مكتبة كاملة.

ترتبط هذه القيمة ارتباطاً حميماً بالأسرة والتضامن الأسرى والكفاح من أجل الحفاظ على وحدتها وذلك للحيلولة دون الفقر، وحتى عندما ينتصر عليها الفقر فإن الوحدة تحول دون فقر العزلة، أى إن الأسرة هى عبارة عن الدار والدفء الأسرى الأول، أو إن الأسرة هى عبارة عن حزب سياسى وبرلمان للكون الاجتماعى الكبير وشبكة أو مظلة الأمان فى الأوقات الصعبة؛ لكن منذ متى لم تكن هناك أوقات صعبة؟ ما زالت قائمة تلك الفلسفة الأبيقورية القديمة التى كانت سائدة فى أيبيريا الرومانية تسكن حشايا الروح عند الناطقين بالإسبانية.

ما الذى يأتى به الأيبيريون الأمريكيــون إلى الولايات المتحدة؟ وما الذى يروق لهم أن يبقوا عليه؟ تشير الإحصائيات - من جديد - إلى أنهم يريدون أن يبقوا

على لغتهم، اللغة القشتالية. غير أن هناك آخرين يلحّون بالقول: انسوا اللغة، انخرطوا فى تعلم اللغة الإنجليزية السائدة، بينما فريق آخر يقول: الإسبانية هى لغة مفيدة لتعلم الإنجليزية والالتحام بالأغلبية، وأخذ فريق ثالث - أكثر وأكثر - يدرك أن الحديث بأكثر من لغة لا يؤذى أحداً. هنا ملصقات على السيارات فى تكساس تقول: "الحديث بلغة واحدة هو مرض قابل للعلاج"؛ لكن هل الحديث بلغة واحدة هو عنصر من عناصر الوحدة بينما الثنائية اللغوية عنصر من عناصر الفُرقة؟ أو بمعنى آخر هل الحديث بلغة واحدة علامة الجدب والفقر بينما الثنائية اللغوية علامة على الخصوبة والثراء؟ عندما نتأمل المرسوم الصادر فى ولاية كاليفورنيا الذى يشير إلى أن اللغة الرسمية هى اللغة الإنجليزية فقط نجد أنه يوضح شيئًا وهو أن الإنجليزية لم تعد اللغة الرسمية لولاية كاليفورنيا.

تظهر التعددية اللغوية إذن على أنها إعلان عن عالم متعدد الثقافات حيث نجد أن مدينة لوس أنجلوس فى كاليفورنيا هى النموذج العالمى الرئيسى، إنها بيزنطة الحديثة؛ فمدينة لوس أنجلوس تتلقى كل يوم - شاءت أم أبت - اللغات وأصناف المطابخ والعادات الخاصة بالإسبانوأمريكيين وكذلك بالفيتناميين والكوريين والصينيين واليابانيين. هذا هو الثمن - وربما كان الهدية - مقابل عالم يقوم على التبعية المشتركة اقتصاديًا وعلى الاتصالات.

وعلى هذا فإن المعضلة الثقافية الأمريكية ذات الأصول المكسيكية أو الكوبية أو من بويرتوريكو، أصبحت على نطاق عام. التكامل أم لا؟ الحفاظ على الهوية من خلال إثراء التنوع فى المجتمع الأمريكى، أو الذبول والموت فى إطار كون غير موجود؟ الذوبان أو اللاذوبان؟ حسن، ربما كان لب القضية هو، مرة أخرى، نكون أو لا نكون؟ نكون مع الآخرين أو بدونهم؟ كما أن العزلة الثقافية والإنسانية تعنى الموت، أما اللقاء فيعنى الميلاد، وأحيانًا ما يعنى البعث أو النهضة.

اللقاء مع الآخر:

تطرح ولاية كاليفورنيا وبخاصة مدينة لوس أنجلوس المطلة على حوض المحيط الباسيفيكى والتى تعتبر الجسر الأمريكى نحو آسيا وأمريكا اللاتينية - قضية العالم خلال القرن الحادى والعشرين: كيف نتعامل مع الآخر؟ هناك فى فرنسا أبناء شمال إفريقيا وهناك أتراك فى ألمانيا وفيتناميون فى تشيكوسلوفاكيا وباكستانيون فى بريطانيا العظمى وأفارقة سود فى إيطاليا ويابانيون وكوريون وصينيون ومن أمريكا اللاتينية فى الولايات المتحدة، وقد استطاع التطور فى عالم الاتصالات والتبعية الاقتصادية المتبادلة أن يحولا مشكلة الوافدين التى كانت مشكلة معزولة إلى مشكلة تمثل واقعًا كونيًا وحصرًا ومسيطرًا بقوة خلال القرن الحادى والعشرين. كما تكتسب طابع المعاصرة القضية الثقافية التى نحملها من أصولنا الأولى وتسير معنا عبر تاريخنا ونعرض لها على مدار صفحات هذا الكتاب وهى: هل هناك أحد مهيأً أكثر منا معشر الإسبان والإسبانوأمريكيين والناطقين بالإسبانية فى الولايات المتحدة ليعالج هذا الموضوع الجوهرى الخاص باللقاء بالآخر فى إطار ظروف الحداثة التى سوف يعيشها القرن الحادى والعشرين؟

نحن من السكان الأصليين ومن السود والأوربيين، لكن فوق كل هذا مخلطون **mestizos**. نحن يونانيون وأيبيريون ورومان ويهود وعرب ومسيحيون وغجر؛ أى إن إسبانيا والعالم الجديد هما مركزان تلاقت فيهما العديد من الثقافات، فنحن مراكز دمج وليس استبعاد، وعندما نمارس الاستبعاد فإننا نخون أنفسنا ونُفقرها، لكن عندما ندمج نُثرى أنفسنا ونلتقى مع نفسنا.

غير أن هذا الطرح يطلع علينا من جديد بالسؤال الذى هو موضوع هذا الكتاب: من نحن، الذين نتحدث الإسبانية، أعضاء هذه الجماعة الناطقة بالإسبانية، لكنها تضم خطوطًا من الأزتيك والأفارقة والمورو واليهود؟ لست أعرف أى قصة يمكن أن تقدم الإجابة الأفضل عن هذا السؤال بشكل فيه ألمعية وعبقرية تجعلنا نشعر بتزامن الثقافات أكثر من "الألف" للكاتب الأرجنتينى خورخى لويس بورخس؛ ففى هذه القصة

القصيرة يتمكن الراوى من العثور على اللحظة الكاملة فى الزمان والمكان الذى يمكن أن تُرى فيه كل الأماكن فى الدنيا فى لحظة واحدة وبلا لبس ومن كافة الزوايا، ومع هذا فهى موجودة وجوداً كاملاً ومتزامناً.

ما الذى يمكن أن نراه اليوم فى الألف الإسبانوأمريكية؟ إنه الشعور بالقداسة عند السكان الأصليين، وهو الجماعة وإرادة البقاء، وموروث البحر الأبيض المتوسط فى الأمريكتين، أى القانون والفلسفة والبروفيل المسيحى واليهودى والعربى لإسبانيا المتعددة الثقافات، نرى تحدى العالم الجديد لأوربا، واستمرارية الباروك وتشابك الثقافات فى هذا العالم المتعدد الثقافات والعرقيات، من الهنود والأوربيين والسود، ويمكن أن نرى الكفاح من أجل الديمقراطية والثورة التى أتت المدن ذات طابع العصور الوسطى الإسبانية ومن أفكار عصر التنوير الأوربى، لكنها تضم أيضًا تجربتنا الشخصية والجماعية فى قرية ثاباتا وفى سهول البوليفار وفى المرتفعات التى كان فيها توباك أمارو.

نرى أيضًا الطريقة التى تحول بها هذا الماضى إلى حاضر فى عملية إبداع وحيد ومستمرة دون قطيعة، فعالم السكان الأصليين موجود فى اللوحات الحديثة لروفينو تامايو، الفنان الذى ولد فى قرية هندية فى محافظة أواكساكا، وتربى على الفن الحديث الذى هو أيضًا فن الشعوب الأصلية، وهذا نوع من الاحتفالية بالوعى الكونى وحلم يتمثل فى ابتكار طريقة قادرة على الإمساك بتلابيب الحلم. فى الوقت ذاته نجد رسّامًا شابًا أتى من قرية من قرى السكان الأصليين، من أواكساكا أيضًا، وهو فرانثيسكو طليطلة، الذى يكرر الحب القديم للطبيعة والخوف منها - أى الطبيعة التى تحتضننا وتلتهمنا وتحمينا وتنفينا - ويتمكن من تجسيد ذلك وجعله مرئيًا فيما يحيط بنا فى حيواتنا الحضرية والحديثة. وعلى الشاكلة نفسها يتمكن ويلفريد لام الفنان الكوبى من جعل جذوره الإفريقية تنمو وتزدهر من خلال لوحاته، بينما يتمكن المكسيكى ألبرتو خيرونيًا من استعادة تقاليد الفن والتجارة الإسبانية، ولكن بسخرية لاذعة، فى الفن اللاتينى الأمريكى: فهى عملية استعادة للوحات بيلاثكيث فى إطار هو علب السردين.

الثقافة أيضاً هى الطريقة التى نضحك بها بما فى ذلك الضحك من أنفسنا مثلما نرى ذلك فى لوحات الفنان الكولومبى فرناندو بوتيرو؛ وهى الطريقة التى نتذكر بها مثلما فعل ذلك الرسّام الفنزويلى خاكوبو بورخس عندما دخل بنا إلى عالم نفق الذاكرة الذى لا ينتهى. كما أن الثقافة فى المقام الأول هى أجسادنا، أجسادنا التى نضحى بها ونعاملها معاملة سيئة، أجسادنا المقيدة بالأغلال والحالمة والشهوانية مثل جسد الفنانة المكسيكية فريدا كاهو. أجسادنا هى المخلوقات المشوهة التى نراها فى الأحلام مثلما صورها لنا الفنان المكسيكى خوسيه لويس كويباس؛ يقوم هذا الفنان بتقديم مرآة الخيال لنا، كما فعل جويا، على أنها الحقيقة الوحيدة، فشخصياته هى وليدة كوابيسنا، لكنها فى الوقت ذاته إخوة وأخوات رغباتنا، كما أن ارتباط كويباس بأمريكا وجويا بإسبانيا إنما يذكرنا أنه عندما نعانق الآخر فإنما نلتقى بأنفسنا، وليس هذا فقط بل نُدخل فى حياتنا ووعينا الصور الهامشية التى حكم عليها العالم الحديث المتفائل والتقدمى بالنسيان قبل أن يدفع ثمن نسيانه لها؛ فلقد تعرضت القيم التقليدية للطبقات المتوسطة الغربية لتقطيع أوصالها بطريقة كلها غِلظة، وجاء ذلك من خلال حربين عالميتين وعلى يد التجربة التسلطية.

وهنا نقول إن كلاً من إسبانيا وأمريكا الإسبانية لم تنخدعا أبدًا فى هذا الموقف، فلقد حافظنا دائمًا على هامش ما هو مأساوى حيًا. نلاحظ فى هذا المقام أن تحذير نيتشه - نادراً ما يكون هناك توافق بين السعادة والتاريخ - هو جزء من التجربة الملموسة للعالم الإسبانى وإسبانوأمريكا، فاللوحات السوداء لجويا ربما كانت التحذير الأكثر دوامًا بشأن الثمن الذى يتم سداده عندما يفقد المرء الإحساس بما هو مأساوى فى الحياة مقابل تمنى التقدم. جويا فى هذا الصدد يطالبنا المرة تلو الأخرى ألا تكون لدينا أمنيات، فالمجتمع قد أسرنا، والفقر لا يجعل أى امرئ أفضل حالاً بل يجعله أكثرة قسوة، والطبيعة تُصِمُّ آذانها أمام تضرّعاتنا ولا يمكن لها أن تنقذ ضحاياها الأبرياء. التاريخ إذن، هو مثل ساتورنو، أى يتولى التهام أبنائه.

يطلب منا جويا أن نباعد أنفسنا عن الإحساس بالرضا، فالفن فى إسبانيا وأمريكا الإسبانية هو عبارة عن تحذير دائم من القسوة التى يمكن أن نكون عليها

فى تعاملنا مع كائنات إنسانية أخرى. لكن هذا الفن، مثله مثل أى فن مأساوى عظيم، يطلب منا أن ننظر أولاً، عن قرب، إلى نتائج تصرفاتنا وذلك حتى نحترم مرور الزمن، ونتمكن فى نهاية المطاف من تحويل التجربة إلى معرفة. وعندما نتعامل مع المعرفة يمكننا أن نكون واثقين فى أننا لن نقف فقط عند حد الاستمرارية بل ستكون لنا الغلبة، على حد تعبير ويليام فالكنر W. Faulkner.

إن حداثتنا الأكثر أهمية تطالبنا أن نعانق الآخر حتى نوسع من مساحة أفقنا الإنسانى، فالثقافات تموت عندما تنعزل، لكنها تولد أو تنهض من خلال الاتصال برجال ونساء آخرين، أى برجال ونساء ثقافة أخرى وعقيدة أخرى وسلالة أخرى، وإذا لم نتعرف على إنسانيتنا فى الآخرين فلا يمكن أن نتعرف عليها فى داخلنا نحن.

من الأمور البدهية أننا فى أغلب الأحيان لم نكن على مستوى هذا التحدى لكننا استطعنا فقط أن نرى أنفسنا بالكامل فى المرآة التى تم استخراجها من الذات عندما ظهرنا يرافقنا الآخر، وعندئذٍ يمكننا أن نسمع صوت الشاعر بابلو نيرودا وهو ينادى طوال هذه الرؤية: "أنا هنا لأقصّ الحكاية".

المرآة التى تم استخراجها:

بعد خمسمائة عام على مجيء كريستوفر كولومبوس فإننا معشر الشعوب التى تتحدث الإسبانية من حقنا أن نحتفى بالثروة العظيمة والتنوع والاستمرارية فى ثقافتنا، لكن ها هى قد انتهت ذكرى المئوية الخامسة وما زال الكثير من أبناء أمريكا اللاتينية يتساءلون، لا عن كيفية اكتشاف أمريكا أو العثور عليها أو اختراعها، بل كيف كانت؟ وما يجب أن تكون الصورة المتخيلة لها؟ وهنا سنكون بحاجة إلى التخيل لوضع أجندة جديدة وعامة فى أمريكا اللاتينية، وهى أجندة يجب أن نُدرج فيها المشاكل مثل مشكلة المخدرات والجريمة والاتصالات والتعليم والبيئة، هناك مشاكل نتشارك فيها مع أوربا وأمريكا الشمالية. نحن أيضاً فى حاجة إلى الخيال لمعالجة الأجندة الزراعية الجديدة التى تقوم لا على التضحية المستمرة بعالم القرى لصالح عالم المدن وصناعة cellin

بل على تجديد المسار الديمقراطى ابتداءً من القاعدة وذلك من خلال الأنظمة التعاونية. وهذا الصنف من الأجندات يتطلب جهداً مضاعفًا يجب أن يقود المجتمع بأكمله، فقبل كل شيء يجب أن نعرف كيف نغذى أنفسنا ونعلم أنفسنا، وإذا ما فعلنا ذلك ربما أمكننا فى نهاية المطاف التحول إلى مجتمعات تكنولوجية حديثة قائمة على أسس متينة. لكن إذا ما ظل أغلب الرجال والنساء خارج التحولات التنموية، بلا غذاء وأميين فلن نلحق أبداً الحداثة الحقيقية.

أنا متفائل نسبيًا لكن تفاؤلى قائم على أساس، ففى خضم الأزمة نجد أن أمريكا اللاتينية تعيش التحول والحركة، إبداعيًا، من خلال التطور والثورة، ومن خلال الانتخابات وحركات الجماهير، لأن رجالها ونساءها بدءوا يتغيرون ويتحركون، هناك المهنيون والمثقفون والتكنوقراط والطلاب ورجال الأعمال والنقابات والتعاونيات الزراعية والتنظيمات النسائية والمجموعات الدينية وتنظيمات القواعد والجيران وباقى مكونات المجتمع؛ كل هؤلاء أخذوا يتحولون بشكل متسارع إلى الأبطال الحقيقيين لتاريخنا وتجاوزوا الدولة والجيش والكنيسة والأحزاب السياسية التقليدية؛ وبالمعدل الذى يزيد فيه المجتمع المدنى من نشاطه السياسى والاجتماعى، ابتداءً من الأطراف وحتى المركز ومن أسفل إلى أعلى، فإننا سوف نجد أن الأنظمة القديمة المركزية والرأسية والتسلطية فى عالم الناطقين بالإسبانية سوف تنزاح ويحل محلها المساواة والديمقراطية.

هذه هى سياسة الحَراك الاجتماعى الدائم مثلما أطلق عليها الكاتب المكسيكى كارلوس مونسيفايس؛ ولقد كان دراميًا فى حوادث مثل الزلزال الذى تعرضت له مدينة المكسيك فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٥م، عندما تحرك المجتمع بشكل أسرع وأكفأ من الحكومة وكشف عن معدنه وقدراته، غير أن هذا يحدث يوميًا وفى صمت، عندما تقوم جماعة ريفية باللجوء إلى القرض والتنظيم الإنتاجى بُغية التفاوض مع الحكومة أو الإدارات التجارية. ويحدث هذا أيضًا عندما تكتشف مجموعة من العمال، أو إحدى المهن الأخرى، قدراتها الاجتماعية والثقافية المشتركة، وتلجأ إلى العمل الجماعى بشكل ديمقراطى، ويحدث عندما يتلقى أحد زُرّاع الزهور أو خيّاطة قروية قرضًا،

إذ تزدهر أحوالهم ويسددون القرض فى المواعيد المحددة، ونراه فى حركات السكان الأصليين أو الاتحادات الائتمانية للفلاحين والجماعات ذات المصالح المشتركة والاتحادات الإنتاجية الجماعية، حيث تعلن عن نفسها وتنظم صفوفها وتنتشر وتقوى مثلها فى هذا مثلما يحدث فى كافة أنحاء القارّة.

نحن واثقون فى أن المبادرات التى جاءت من رحم الأزمة، من أسفل ومن الأطراف، سوف تمتد، لكننا أيضًا نخشى ألا يكون لدينا من الوقت ما يكفى ونخشى أن تتعرض الهيئات الغارقة فى الديون والتضخم والآمال الكاذبة للهزيمة على يد الجيش أو الانفجارات الشعبية، وأن تقع أمريكا اللاتينية فى يد تنظيمات فاشية أو مجموعات أيديولوجية عنيفة. فالمؤسسات السياسية الحالية، التى هى مؤسسات حقيقية ولو أنها ديمقراطيات هشة، فى حاجة ماسة إلى الاستجابة للمطالب الاجتماعية، وليس فقط للعقلانية التكنوقراطية.

ها هى الدول الديمقراطية فى أمريكا اللاتينية تجد أنفسها أمام تحد لتفعل شيئًا كان حتى الآن منتظراً أن تقوم به الثورات، ألا وهو التنمية الاقتصادية فى تزامن مع الديمقراطية والعدالة الاجتماعية. وخلال خمسمائة العام الماضية كان معيار فشلنا يتمثل فى عدم القدرة على التوصل إلى هذا، وهنا فإن أملنا الوحيد هو أن نفعل ذلك ابتداءً من اليوم.

المراجـــع

قليلاً ما تتاح الفرصة أمام الكاتب ليسطر سيرة ثقافية؛ فكتابة وتصوير المسلسل التليفزيونى "المرآة الدفينة" قد هيأ أمامى هذه الفرصة، ومع هذا فإن الكتاب ليس سرداً لأحداث تصوير المسلسل بل هو عبارة عن سيرة ثقافتى، أى سيرتى (وهذا ما أفهمه)، ولا يوجد فى هذا ما هو غير عادى، فثقافة ما تتكون من كل هؤلاء، التى نحملها ونعرفها ونقدرها ونحاول إثراءها والعمل على استمرارها. وإذا ما تحدثت عن مراجع هذا الكتاب أقول إنه كتاب تغذى على قراءات استمرت على مدار خمسين عامًا، وبالتالى فإذا ما أردنا إدراج كل هذا فى المراجع لن ننتهى، وهنا أقدم عجالة، تميل إلى تقدير ذاتى أكثر من ميلها إلى معايير أكاديمية، وهى عبارة عن مختارات وإشارات إلى أعمال اطلعت عليها وتذكرتها وأنا أكتب المسلسل التليفزيونى والكتاب؛ لكن ما لا يمكن لى أن أضيفه هو الأساطير والحوليات الأسرية والحوارات التى دارت مع الأصدقاء والمدرسين الذين ربما كانوا هم المراجع الحقيقية لهذا الكتاب "المرآة الدفينة".

التاريخ العام:

يعد كتاب ميجل أرتولا جاييجو أحد أفضل الكتب فى تاريخ إسبانيا (تاريخ إسبانيا – مدريد – دار نشر أليانثا)، هناك أيضًا كتب تعرض لتاريخ أمريكا اللاتينية وتاريخ إسبانيا وأمريكا اللاتينية أطرحها فى السطور التالية:

En cinco volúmenes. Leslie Bethell. comp., The Cambrídge History of Latin America (Cambridge, Ingla-terra, Cambridge University, 1984), da un panorama general sobre Latinoamérica; sin embargo, mi libro favorito

respecto de la región sigue siendo el de Bradford Bums. Latin America (Englewood Clifs, N. J., Prentice-Hall, 1972), quien realiza un analisis incisivo de todos y cada uno de los aspectos latinoamericanos. Otras obras que se puedcn agregar a la lista son la de Lewis Hanke, comp., History of Latin America. Sources and Interpretations (Boston. Little, Brown. 1967). una selección de textos desde la Conquista hasta nuestros días: y la de Hubert Herring, A History of Latin America (Nueva York, Knopf. 1968). Asimismo, existen dos excelentes títulos sobre cultura en general y arte en particular: Leopoldo Castedo, Historia del arte y de la arquitectura latinoamericana. desde la época precolombina hasta hoy (Santiago de Chile. Pomaire, 1970); y Pedro Henríquez Urena. Historia de la cultura en la America hispínica (México. FCE. Col. Popular. 1986).

هنــاك خمســة أجــزاء عــن تــاريــخ إســبانيا وأمريكا J. Vicens Vives, comp., Historia de España y América: social y económica (Madrid. Vives Bolsillo). Para un análisis más profundo del aspecto económico. vease el libro de J. Vicens Vicens y Jorge Nadal Oller, Manual de historia economica de España (Barcelona, Vicens- Vives, 1967).

التــاريخ التحليــلى:

الثقافات جميعها تتوفر على مجموعة من التحليلات الخاصة بتاريخها ومكوناتها وملامحها الوطنية، وفى هذا المقام نجد كلاً من إسبانيا وأمريكا اللاتينية قد أنتجتا تراكمًا مرجعيًا هائلاً فى هذا السياق، ومن هؤلاء الباحثين والكتاب نبرز اثنين هما أميركو كاسترو، وكلاوديو سانشيث ألبورنوث. استمر الجدل طويلاً بين هذين الكاتبين؛ كان جدلاً حادًا ومثمرًا، فكاسترو كان من أنصار الديناميكية الثلاثية الثقافية لتاريخ إسبانيا خلال العصــور الوسطى، مبرزًا بذلك قيمــة الإسهام اليهودى والإســلامى. أما سانشيث ألبورنوث فقد كــان يميــل إلى إبراز الطــابع المسيحى لإسبانيا ورأى فى حرب الاسترداد **Recenquista** خطوة نحو الأمام وليس مضيعة للوقت.

هناك كتب أخرى فى هذا الإطار أراها تحفز المرء على المزيد وهى كتاب "تاريخ آخر لإسبانيا" لفرناندو دياث بلاخا (مدريد - دار نشر إسباسا كالبى)، وكتاب "الإسبان فى التاريخ" لرامون مننذث بيدال (مدريد - دار نشر إسباسا كالبى)، وخوسيه أورتيجا إى جاست "إسبانيا المفككة" (مدريد - إسباسا كالبى ١٩٨٩).

وبالنسبة لتاريخ الأيبيريين وإسبانيا الرومانية فقد اعتمدت فى الأساس على نصوص لمؤرخين يونانيين ورومانيين إضافة إلى تاريخ الأندلس وجذورها:

Allen Josephs, The White Wall of Spain: The Mysteries of Andalusian Culture (Ames, Estado de Iowa, 1983), trata sobre los orígenes de Andalucía y su cultura; mientras que Juan Maluquer de Mostos, Tartesos: la ciudad sin historia (Barcelona, Ediciones Destino, 1900), ofrece un buen relato sobre la oscura historia de Tartesos. María Zambrano, en "La cuestión del estoicismo español", Andalucía, sueño y realidad (Granada, Ediciones Annel, 1984), es quizá quien ofrece el mejor análisis de la influencia de Séneca en España.

الثيران والفلامنكو:

ترتبط هذه الموضوعات ارتباطًا وثيقًا بأصول وجذور إسبانيا، وبالتالى فهناك مراجع وفيرة، ورغم أن إشاراتى إليها جاءت معتمدة على تجربتى الشخصية ووجهة نظرى الخاصة فإننى أريد أن ألفت انتباه القارئ إلى:

José María de Cossío, Los toros, Tratado técnico e histórico (Madrid, Espasa-Calpe), quien, en once tomos, recorre la monumental historia del toreo; José M. Cahallero Bonald, Luces y sombras del flamenco (Barcelona, Editorial Luman, 1975), finamente ilustrado con fotografías de Colita. En palabras de AdoFfo Salazar, considerado el mayor musicólogo de España, el flamenco ocupa una gran parte de la historia de la música española, según lo consigna en su libro La música en España (Madrid, Espasa-Calpe, 1953), texto que delinea la historia musical de España desde Altamira hasta el Renacimiento; véase también Félix Grandc, Memoria del flamenco (Madrid, Espasa-:alpe, Selecciones Austral, 1987).

إسبانيا القوطية:

كان الفصل الذى أعددته عن القوط مسلطًا فى الأساس على شخص سان إيسيدورو دى إشبيلية.

انظر أيضـًا:

He Ernest Brehaut. Encyclopedist of the Dark Ages, Isidore of Seville (Nue-va York, Columbia, 1912). Para un estudio especializado sobre san Isidoro véase tambien Jacques Fontaine, Isidore de Seville et la culture classique dans L'Espagne visigothique (Panís. 1959).

إسبانيا الإسلامية والقوطية:

ربما كان "طوق الحمامة" لابن حزم، هو الكتاب الأعظم فى الشعر، الذى يرتبط بتجربتى الشخصية وذكرياتى عن عالم إسبانيا الإسلامية، إضافة إلى كتب أخرى:

Tratado sobre el amor y los amantes (Madrid, Alianza Editorial, El libro de Bolsillo 351,1990, con prólogo de José Ortega y Gasset), obra que ejerció una gran influencia sobre los escritores españoles posteriores. Otra colección de poemas importantes es la de Solomón Ibn Gabirol, a quien considero la figura literaria más grande de la España musulmana, véase su Poesía secular (ed. bilingüe, Madrid, Alfaguara, Col. Clásicos, 1981). Para una excelente introducción a la filosofía árabeespañola, véase Andrés Martíez Lorca, comp., Ensayos sobre filosofía de ElAndalus (Barcelona, Anthropos, 1990). Para un enfoque diferente, véase Ramón Menéndez Pidal, España, Eslabón entre la cristiandad y el Islam (Madrid, Espasa-Calpe, Austral 1280, 1968).

El trabajo más complete sobre los judiños en España es el de Yitzhak Baer, Historia de los judíos en la España cristiana (2 tomos, Madrid, Altalena, Col. Mun-do judío, 1982). Para una breve historia actual, véase Julio Caro Baroja, Los judíos en la España moderna y contemporánea (Madrid, 1962).

حرب الاسترداد فى إسبانيا:

تمتد حروب الاسترداد فى إسبانيا فى مراحل العصور الوسطى الإسبانية كافة، ابتداء من ٧١١ حتى ١٤٩٢م وتشكل جزءًا مهمًا من تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، وهناك كتب كثيرة ومهمة فى هذا السياق مثل:

Marc Bloch, Sociedad feudal (México. UTEHA. 2 vols.) Luis G. Valdeavellano. Orígenes de la burguesía en la España medieval (Madrid. Espasa-Calpe. 1959), trata acerca dc la repoblación: y José Ángel García de Cortázar y Carmen Diaz Herrera. La formatión de la sociedad hispa-no-cristiana del Cant?brico al Ebro en los siglos via a ix (Santander. Ediciones de la Librería Estudio. 1982), proporcionan información sobre la formación de ciudades y la sociedad. Véase también Gabriel Jackson. Introducción a la España medieval (Madrid, Alianza Editorial, El Libro de Bolsillo 555. 1988). Para más datos sobre el nacimiento de las instituciones políticas, véase Esteban Sarasa. Las cones de Aragón en la Edad Media (Zaragoza. Cuara Editorial. 1979); José M Pérez Prendes, Cartas de Castilta (Barcelona. Editorial Ariel. 1974). Finalmente, remito a las obras de José Antonio Maravall. Estado mo demo y mentatidad social. Siglos xv a xvu (Madrid Alianza Editorial, 2 tomos); y Julio González, Reinado y diplomas de Fernando III (Córdoba. Monte de Piedad y Caja de Ahorros de Córdoba. 1980).

هناك شخصية مهمة خلال عصر حرب الاسترداد مثلما كان سان إيسيدورو خلال العصر القوطى، ألا وهو ألفونسو العاشر، الحكيم، الرجل الذى كان وراء العديد من الأعمال الأدبية والتاريخية سواء تعلقت بإسبانيا أو العالم، وبدءًا بالشعر وانتهاء بعلم الفلك، ويمكن أن نقارن إسهاماته بما قام به الموسوعيون خلال القرن الثامن عشر، ومن أفضل المختارات الخاصة بأعمال ألفونسو العاشر:

Antonio Ballesteros, comp., Alfonso el Sabio (Barcelona. Biblioteca de Historia Hispánica); Francisco J. Díaz de Revenga, comp., Alfonso Xel Sabio (Madrid, Taurus, 1985); y Antonio G. Solalinde, comp., Alfonso el Sabio (Madrid, Espasa-Calpe, 1941).

Lecturas literarias importantes de esta época son: Anónimo. El Cantor del Mío Cid (Madrid. Espasa-Calpe. Clásicos Caslellanos): El libro de buen amor. de Juan Ruiz. Arcipreste de Hita; y La Celestina. de Fernando de Rojas. Para un estudio a estas obras. véanse Stephen Oilman. Celestina: arte y estructura (Madrid. Taurus). y España de Fernando de Rojas (Madrid. Taurus). obras maestras de crítica histórica y literaria: ademas del texto de María Rosa Lida de Malkiel. Dos obras maestras españolas: "El libro de buen amor" y "La Celestina" (Buenos Aires. Editorial Universitaria de Buenos Aires. 1971); Ramiro de Maeztu. Don Quijote. Don Juan y la Celestina (Madrid, Espasa-Calpe. Austral 31); y José Antonio Maravall. Mundo social de La Celestina (Madrid. Credos. Biblioteca Románica Hispánica 1985).

ثقافات الشعوب الأصلية :

نظرًا للوفرة الملحوظة فى المراجع الخاصة بهذا الموضوع فإننا يمكن أن نقسمها إلى ثلاثة مستويات وهى تلك التى ترتبط فعلاً بالشعوب الأصلية أى جمع المادة المتعلقة بماضى هذا العالم وقام به الإسبان بعد الغزو وكذلك الكتاب المعاصرون، هناك مستوى آخر يرتبط بالتصنيف الثقافى، الأمر الذى يجعلنا نصنفها حسب الثقافة: المايا والطولتيكا والأثتيك والكيتشوا... من الممكن أيضًا القيام بالتصنيف طبقًا للمناطق الجغرافية، أى قراءات حول المكسيك والبيرو. وحتى نتمكن من الفهم الشامل للموضوع فقد اخترت الجمع بين هذه المستويات البحثية المختلفة.

Los mayas, cuya civilización se estableció en Yucatán. dejaron dos grandes libros de mitos, creación y profecías: El libra de los libros de Chilam Balam (trad, de Alfredo Barrera Vázquez y Silvia Rendón, México, FCE. Biblioteca Americana. 1984). abarca en su contenido todas las fases culturales por las que fue pasando el pueblo maya; y el Popol Vuh. Las antiguas historias del Quiché (trad, de Adrián Recinos, México. FCE. Bi-blioleca Americana. 1953). contiene las historias antiguas de este pueblo

maya que habitaba la región del Quiché en Guatemala. Existe una edición ilustrada con dibujos de los códices mayas (trad. de Albertina E. Saravia. Guatemala. Turismas. 1977).

كانت ثقافة المايا هدف العديد من الدراسات ومن بينها:

Michael D. Coe, Mayas (México. Diana); Sylvanus Griswold Morley, La civilization maya (México. FCE. Obras de Antropología. 1987); John L. Stephens. In-cidentes de viaje en Centroamérica. Chiapas y Yucatán. 2 tomos (San José. Educa. Col. Viajeros. 1983; Madrid. Historia 16. 1989); y John E. S. Thompson. Grandeza y decadencia de los mayas (México. FCE. Obras de antropo-logía. 1985). La cultura toltecaazteca del México central es la más rica en fuentes bibliográficas. empezando por los códices: Códice borbónico (Graz. Akadem. 1974: México. Siglo xxI).* cuyo original se encuentra en la Bibliothéque de l'Assamblé Nationale. en París; Códice Borgia (Graz. Akadem. 1976: México. FCE).* cuyo original está en la Librería del Vaticano: el Códice mendocino puede ser consultado en la Bodleian Library de la Uni-versidad de Oxford; y. finalmente. el Códice Tonalamatl Aubin (México. Librería Anticuaria G. M. Echaniz. 1938) se encuentra en la Bibliothéque National de París.

يمكن البدء ببعض كتاب الحوليات عن العالم الجديد.

Fray Bernardino de Sahagún. Códice florentino e Historia General (José Luis Martínez, ed., México. Archive General de la Nación, 1989); e Historia general de las cosas de Nueva España. 4 tomos (pre-parada por Ángel María Garibay K., México, Editorial Porrua) la más grande recopilación del pasado antiguo de los toltecas-aztecas de Mesoamérica, narrados a Sahagún por informantes indios en los años posleriores a la Conquista (cuando aún teman presence su memo-ria cultural). Otro cronisla, Garcilaso de la Vega, el Inca, Comentarios Reales (México, SEP/UNAM, Col. Clásicos Americanos, 1982; Mexico, Porrua, Col. Sepan Cuan-tos), hijo de conquistador y princesa

inca, narra tanto la historia de los incas como su conquista. Es el primer texto histórico escrito por un mestizo.

هناك عدد مهم من كتاب الحوليات من الإسبان الذين أرخوا للفترة اللاحقة مباشرة على الغزو:

Pedro Cieza de León, Elseñorío de los incas (Madrid. Historia 16,1985; Lima, Universe, Col. Autores peruanos), Diego de Landa, Relatión de las cosas de Yucatán (México, Porrúa, Bi-bJioteca Porrúa, Historia 13); Bernardo de Lizana, Historia de Yucatan (México, Museo Nacional, 1893; Madrid, Historia 1,1988); y fray Toribio de Benavente, Motolinia, Historia de los indios de la Nueva España (Madrid, Historia 16,1985; Madrid, Castalia, Col. Cld-sicos Castalia, 1986).

أريد أيضًا التنويه والختام ببعض أعمال ميجل ليون بورتيا:

Miguel León-Portilla, cuyos estudios van desde las profecías encontradas en el Chilam Balam, hasta las mejores investigaciones modernas del mundo tolteca-azteca: Los antiguos mexicanos a través de sus crónicas y cantares (México, FCE, Obras de Antropolo-gía, 1988), que ofrece una visión innovadora acerca del aspecto humanistico de la vida de los aztecas. Otros libros, interesantes son: Toltecáyotl. Aspectos de la cultura náhuatl (México, FCE, Obras de Antropología, 1987); Literaturas de Mesoamérica (México, SEP, Cien de México, 1984); Literaturas de Anáhuac y del Incario (México, SEP/UNAM, CoJ. Clásicos Americanos, 1982) Lafilosofia ndhuatl (México, UNAM Instituto de Investi-gaciones Historicas, 1979); Trece poetas del mundo azteca (Mexico, UNAM Instituto de Investigaciones Históricas, 1978); De Teotihuacan a los aztecas (México, UNAM Instituto de Investigaciones Históricas, Lecturas Universita-rias, 1972); Visión de los vencidos (México, UNAM, 1984); y El reverse de la Conquista (México, Joaquín Mortiz).

هناك قـائمـة قـصـيـرة من النصـوص الفلسـفـيـة وفى الفن والأدب عن الطولتـيك والأثتيـك بـدءًا بـ:

Justino Fernández. Estética del arte mexicano (México. UNAM. Instituto de Investigaciones Estéticas, 1972); Ángel María Garibay, Historia de la literatura náhuatl (México. Porrúa, 1953); y Laurette Séjourné. Supervi-vencia de un mundo mágico. Imágeries de cuatro pueblos mexicanos. dibujos de Leonora Carrington (México. FCE/SEP. Lecturas Mexicanas 86,1985). En su conjunto, la obra de Ignacio Bernal es uno de los mas brillantes monumentos al estudio de estos pueblos.

هناك نصوص أخرى فى التاريخ العام للأثتيـك:

C. A. Burland, The Gods of Mexico (Nueva York. Capricorn, 1967), que es tal vez el estudio mas complelo sobre el tema: Alfonso Caso. El pueblo del Sol (México. FCE. Obras de Antropología. 1986); Nigel Davies. Los antiguos reinos de Mexico (México, FCE, Obras de Antropología. 1988), y Aztecas (Barcelona, Destino, Col. Nuestro pasado); Jacques Soustelle, El universo de los aztecas (México, FCE, Obras de Antropología, 1986); y George C. Vaillant, La civilización azteca: origen. grandeza y decadencia (México, FCE. Obras de Antropología, 1985).

وبالنسبة لتاريخ الإنك هناك النصوص التالية:

Louis Baudin, Vida coti-diana en el tiempo de los últimos incas (Buenos Aires, Hachette, Col. Nueva Clío); Hiram Binghain, Lost City of the Incas: The Story of Machu Picchu and Its Rulers (Nueva York, Athenaeum, 1963); J. Alden Mason, Las antiguas culturas del Perú (México, FCE, Obras de Antropología, 1978); y Víctor W. Von Hagen, Incas (México, Mortiz, Col. Culturas básicas, 1987). El mejor panorama general de las culturas indígenas sigue siendo el de Frederick Katz, The Ancient American Civilization (Londres, Windfield y Nicholson, 1972). Sobre el arte

indígena se pueden consultar diversos textos: Mary Ellen Miller, El arte de Mesoamérica: desde los olmecas hasta los aztecas (Mexico, Diana, 1988); Salvador Toscano, Arte precolombino de México y de las Américas (México, UNAM, 1952); Paul Westhcim, Obras maestras del México antiguo (México, Era, Serie Mayor, 1977), y Arte antiguo de México (México, Era, 1970).

الاكتشاف والغزو:

ترجع العناوين الأكثر أهمية بالنسبة لموضوع الاكتشاف والغزو الإسباني إلى الفترة من نهاية القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر، وتبدأ بعملية الوصف التفصيلي الذى قام به اليسوعيون مثل جوزيف دى أكوستا، وتستمر الكتب تباعًا لتناول الجوانب المختلفة.

jesuita Joseph de Acosta, Historia natural y moral de las Indias (México, FCE, Biblioteca Americana, 1985). Otra obra escrita también por un jesuita_, que describe las cosas y pobladores de California en el siglo XVIII es la de Miguel de Barco, Historia natural y crónica de la antigua California; adiciones y correcciones a la noticia de Miguel Venegas (México, UNAM, 1973). Algunas relaciones sobre las expediciones al Amazonas se incluyen en P. de Almesto, Caspar de Carvajal y Alonso de Rojas, Las aventuras del Amazonas (Madrid, Historia 16, 1986); y Pedro Cieza dc Leon, Descubrimiento y conqiiista del Perú (Buenos Aires, Jam Kana, 1984). Pero quizá el mcjor compendio sobre la naturaleza de las Indias sea el de Gonzalo Fernández de Oviedo, Sumario de la natural historía de las Indias (México, FCE, Biblioteca Americana, 1979).

La bibliografía continúa con el Diario del primero y último viajes de Cristóbal Colon, resumido por fray Bartolomé de las Casas (tomo 9, Obras completas, Madrid, Alianza Editorial); Bernal Díaz del Castillo, Historia

verdadera de la conquista de la Nueva Espaiña, 2 tomos (Mexico, Porrua, 1960), testimonio sin paralelo de uno de los soldados de la expedición de Cortés; y Ruy Díaz de Guzmán, La Argentina (Enrique de Gandía, ed., Madrid, Historia 16, 1986; Buenos Aires, Lib. Huemul), cronicas de la exploración y colonización del Río de la Plata, usando por primera vez el término Argentina, Podemos añadir: Álvar Núñez Cabeza de Vaca, Naitfragios (México, Porrúa, Col. Sepan Cuántos, 576, 1988; Madrid, Cátedra, Col. Letras Hispánicas, 1989); Francisco Palou, Relatión histórica de la vida y apostólicas [areas del venerable padre fray Junípero Serra, y de las misiones que fundó en California septentrional... (México, Porrúa, 1970); Antonio Pigafetta, Primer vidje en torno del globo (Madrid, Espasa-Calpe, Austral 207); y Jerónimo de Vivar, Crónicas de los reinos de Chile, (Ángel Barral Gómez, ed., Madrid, Histo-ria 16,1988), versión delaconquistade Chile por Pedro de Valdivia.

هناك مصادر أخرى رجعت إليها تتعلق بالاكتشاف والغزو مثل:

Los tres tomos del gran historiador alemán Georg Friederici, El carácter del descubrimiento y de la conquista de América. Introductión a la historia de la colonization de América por los pueblos del Viejo Mundo (México, FCE, Historia 1987), quien describe todos los descubrimientos y conquistas hechos por los europeos, incluidas las de españoles, portugueses, franceses, holandeses, alemanes y rusos. Antonello Gerbi, La disputa del Nuevo Mundo. Historia, de una polémica. 1750-1900 (México. FCE, Historia, 1982), integra la bibliografía con la historia de una polémica; y Edmundo O'Gorman, La inventión de América. Investigatión acerca de la estructura histórica del Nuevo Mundo y el sentido de su deve-nir (México, FCEC, Tierra Firme, 1977), propone la tesis de que América no fue descubierta, sino "inventada" por el deseo europeo de un nuevo mundo. Completan la lista Samuel E. Morison, The European Discovery of America (Nueva York, Oxford, 1971-1974; y El almirante de la mar océano: vida de Cristdbal

Colón, México. FCE. 1991); y Roland Sanders. Lost Tribes and Promised Land (Boston. Little. Brown. 1978), un interesante estudio sobre cómo las actitudes racistas influyeron en el proceso del descubrimiento y colonización. La reflexión europea sobre las Américas – descubrimiento. invención. deseo. proyección de sueños utópicos, consecuencia de la realidad política – puede encontrarse en textos de la época. Nicolás Maquiavelo. El Príncipe; Michel de Montaigne. Ensayos; Tomás Moro, Tomaso Campanella. Francis Bacon, Utopías del Renacimiento (México, FCE, Col. Popular 121. 1987); William Shakespeare. La tempestad Amerigo Vespucio, El Nuevo Mundo. Cartas relativas a siets viajes y descubrimientos (textos en italiano. español e inglés; estudio preliminar de Roberto Levillier. Buenos Aires. 1951), la visión utópica dc América por el hombre que nos dio su nombre; y Pedro Vaz de Caminha, A carta de Pedro Vaz de Caminha (Porto Alegrc. L y PM Editores. 1985). carta dirigida al descubridor del Brasil. Alvarez dc Cabral. conocida como el acta de nacimiento de ese país.

أما معشر القراء الذين يريدون المزيد من التعمق فى الفلسفة العامة للغزو يمكنهم الرجوع إلى:

Silvio Zavala, Filosofía de la conquista. La filosofía política en la conquista de América (Mexico, FCE, Tierra Firme, 1984). Aparte de las crónicas y memorias. los conquistadores ban sido descritos en las siguientes obras, algunas de las cuales dan fe del intense debate acerca de la naturaleza de la conquista.

Albornoz, Miguel, "Hernando de Soto", Madrid, Revista de Occidente, 1985.

Descola, Jean, Herndn Cortés, Barcelona, Juventud.

Hanke, Lewis, La lucha española por la justicia en la conquista de América, Madrid, Aguilar, 1959.

Hemming, John, La conquista de los incas, México, FCE, Historia, 1982,

Kirkpatrick. F. A., Conquistadores españoles. Madrid, Espasa - Calpe, Austral 130.

Larreta, Enrique, Las dos fundaciones de Buenos Aires. Buenos Aires, Sopena, 1965.

Las Casas, Fray Bartolomé de, Historia de las Indias. México. FCE, Biblioteca Americana, 1986, y Brevísima relatión de la destruction de las Indias. México, Fontamara, 1984.

Martínez. José Luis, Hernán Cortés, México, FCE/ UNAM, 1990.

Prescott. William H., Historia de la conquista de México, México, Porrúa, Col. Sepan Cuántos 150,1970, e Historia de la conquista del Peru, Lima, Universe, Col. Autores peruanos.

Quiroga, Vasco de, Don Vasco de Quiroga y sit "Informatión en derecho" México, Porrúa, Turanzas, 1974.

Stevens, Henry, comp., New Laws of the Indians. Londres, Chiswick, 1893.

Suárez, Francisco, Guerra, interventión, paz international, Madrid, Espasa-Calpe, 1956.

Vitoria Francisco de, Relecciones del Estado, delos indios y del derecho de la guerra, México, Porrúa, 1974.

الإمبراطورية الإسبانية:

ما زال جون. إتش. إليوت هو أعظم مؤرخ لسنوات حكم أسرة هابسبورج (١٤٩٢ - ١٧٠٠م).

Su trabajo sobre la España imperial (Barcelona, Vicens-Vives, Vicens Uni-versidad, 1986) es una insuperable interpretatión de la vida y muerte de

la dinastía de los Habsburgo. Refe-rencias incidentales. pero esenciales. de cste periodo pueden consultarse en Paul M. Kennedy, The Rise and Fall of Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000 (Nueva York. Random House. 1987); y Oswald Spengler. Decadencia de Occident? (Madrid. Espasa-Calpe). Otros excelcntes estu-dios son:

Bertrand. Louis. Philippe II ú l'Escoril!. París. L'Artisan du Livre. 1929.

Braudel. Fernand. El Mediterráneo y el mundo mediterráneo en la epoca de Felipe II. México. FCE. His-loria, 1987.

Grierson. Edward. King of Two Worlds: Philip II of Spain. Nueva York, Putnam. 1974.

Lynch. John. España bajo los Austrias. Barcelona. Ediciones Pen?nsula. 1975.

Maravall. José Antonio, Comunidades de Castilla: una primera revolución moderna. Madrid, Alianza Editorial, Alianza Universidad, 1985.

Parker. Geoffrey, Felipe II, Madrid, Alianza Editorial, El Libro de Bolsillo 1024. 1989.

Sigüenza. ftay José de, La fundación del monas-terio de El Escorial. Madrid, Turner. 1988.

كان للجانب الاقتصادى تأثيره فى العلاقات بين إسبانيا وأمريكا، وكذا بين هذه الأخيرة وأوربا:

Rondo E. Cameron las describe en su libro A Concise Economic History of the World, from Paleolitic Times to the Present (Nueva York. Oxford. 1989): véase también John M. Keynes. Teoría general de la ocupación, el interées y el dinero (México, FCE, 1965).

تضم المراجع أيضًا إشارات إلى واحدة من أهم الأحداث فى عصر فيليب الثانى وهى جريمة الأسطول الإسبانى:

Garrett Mattingly. La derrota de la Armada Invencible (Madrid, Turner, 1985).

Para los interesados en la Contrarreforma, una fuente invaluable es A. G. Dickens, The Counter-Reformation (Nueva York, Harcourt, Brace y World, 1969). No hay mejor estudio de la inquisicion espanola que el de Henry Kamen, Inquisiciódn española (México, Consejo Nacional para la Cultura y las Artes/Grijalbo; Barcelona, Critica, 1985).

العصر الذهبى:

تضم مراجع هذا العصر الكثير من الأعمال الأدبية والدراسات لكبار الكتاب فيه مثل كالديرون دى لاباركا وكيبيدو وثربانتس ولوبى دى بيجا وجونجورا وتيرسودى مولينا وكيبيدو وسان خوان دى لاكروث وسانتا تريسا دى أبيلا وخوان لويس بيبس، إضافة إلى سلسلة من الدراسات حول هذه الشخصيات وأعمالها:

En arte, Jonathan Brown, Velázquez, pintory cortesano (Madrid, Alianza Editorial, Alianza Forma). Michel Foucault, Arqueología del saber (México, Siglo xxi, 1984), y Las palabras y las cosas (Siglo xxi, México, 1984), imagina-tiva interpretación de El Quijote, y Las Meninas de Velázquez. Uno de los más innovadores novelistas es-panoles contemporáneos, Juan Goytisolo, analiza las figuras de la Celestina, Cervantes, Don Juan y Qucvedo en su Árbol de la literatura; su novela Las virtudes del pájaro solitario (Barcelona, Seix-Barral, 1988) es una brillante proyección de los poemas de san Juan de la Cruz, tanto en la sexualidad del pasado árabe como en la de nuestros días. Gregorio Marañón, Don Juan (Madrid, Espasa-Calpe, 1940), es otra fuente valiosa. Vease también José Antonio Maravall, Veláazquez y el espíritu de la modernidad (Madrid, Alianza Editorial, Alianza Forma), y La cultura del barroco (Barcelona, Ariel).

وبالنسبة لموروث ثربانتس يمكن الاطلاع على بعض الأعمال المهمة:

Laurence Sterne, Vida y opiniones de Tristram Shandy, y Denis Diderot, Santiago elfatalista y su amo, así como en las heroínas del siglo xix, quienes, como Don Quijote, leían libros y "enloquecían", como Catherine Moreland, en la Abadía de Northanger, de Jane Austen; y Emma Bovary, en Ma dame Bovary, de Gustave Flaubert. La más divertida (y notable) prolongacion moderna del Quijote es, sin embargo, la de una peque?a historia de Jorge Luis Borges, "Pierre Menard, autor del Quijole", en Ficciones (Madrid, Alianza Editorial, El Libro de Bolsillo 320, 1990). Una lista de estudios sobre el Quijote que resaltan su modernidad incluiría obras de Dostoievsky, Thomas Mann, José Ortega y Gasset y Viktor ShJovsky, así como MijaiJ Bajtin, Rabelais and his World (Cambridge, MJT, 1968); Milán Kundera, Arte de la novela (México, Vuelta, 1988; Barcelona, Tusquets, 1987); y Marthe Robert, Novela de los orígenes y onígenes de la novela (Madrid, Taurus).

Bartolomé Bennassar, España del Sigh de Oro (Barcelona, Crftíca); M. Defourneaux, Vida cotidiana en la España del Siglo de Oro, (Barcelona, Argos-Vegara); y Antonio Domínguez Grtiz: Crisis y decadencia de la España de los Austrias (Barcelona, Ariel), constituyen tres fuentes de información general sobre la época. Gran núrnero de textos contienen valiosa información sobre Erasmo de Rotterdam y su influencia en España. Compárense por ejemplo los trabajos de Marcel Bataillon, Erasmo y España, Estudios sobre la historia espiritual del siglo XVI (México, FCE, Historia, 1982), y José Luis Abellan, El erasmrismo español (Madrid, Espasa-Calpe, Austral 1642, 1976). Para un estudio dc perspectiva, véanse John P. Dolan, comp; The Essential Erasmus (Nueva York, Mentor, 1964); Johan Huizinga, Erasmo (Barcelona, Salvat, 1986); y Erika RummeJ, comp., The Erasmus Reader (Toronto, Universidad de Toronto, 1990). Para un acercamicnto a dos de los erasmistas españoles más cercanos a Carlos V, véanse Alfonso de Valdés, Diálogo de Mercurio y Carón (Madrid, Espasa Calpe, 1954), y Juan de Valdés, Di?logo de la doctrina cristiana (México, UNAM, 1964).

العصر الاستعماری:

هناك عدة كتب تتناول الدور الذى قامت به إسبانيا فى أمريكا والتطور اللاحق الذى عاشته أمريكا اللاتينية خلال العصر الاستعمارى، ونشأة الثقافة الجديدة للناطقين بالإسبانية فى العالم الجديد، وهجرة السود، والكتابات الساخرة التى توضح الجانب المظلم لمحاكم التفتيش.

David A. Brading, Orbe Indiana. La monarquía católica, la patrio, criolla y el Estado liberal (México, FCE, Historia 1991), cuyo título indica la amplitud del estudio del autor, pero no así su acuciosidad en la descriptión o en la interrelatión de ideas; el segundo es quizá el estudio contemporáneo más conciso y claro del debate sobre la legitimidad de la Conquista: Anthony Pagden, Spanish Imperialism and the Política1 Imagination (New Haven, Yale, 1990), cuya visión del destino de la América española parte de la paradoja del Imperio español, que pasa de ser una monarquía universal a un Imperio reaccionario.

El estudio clásico de Stanley J. y Barbara H. Stein, La herencia colonial en América Latina (México, Siglo xxi), describe lanlo los onígenes como la permanencia del colonialismo en la vida latinoamericana. Para información acerca de la organización de las tierras y el surgimiento de rasgos nacionales en el periodo colonial, se pueden consultar los siguientes títulos:

Chevalier, Francois. Laformación de los latifundios en México.

Tierra y sociedad en los sighs xvi y xvn, México, FCE, Obras de Economia, 1985.

Gibson, Charles, Spain in America, Nueva York, Harper Torchbooks, 1967.

Liss, Peggy K., Orígenes de la nacionalidad mexi-cana, 1521-1556. La formation de una nueva sociedad, México, FCE, Historia, 1986.

Lockhart, James Marvin, Elmundo hispanoperuano, 1532-1560, México. FCE, Historia, 1982.

Lockhart, Jarnes y Stuart B. Schwarz, Early Latin America: A History of Colonial Spanish America and Brazil, Nueva York, Cambridge University, 1983.

Silvio Zavala, La encomienda Indiana (Mexico, Porrúa, 1973).

Filosofia de la Conquista. La filosofia política en la conquista de América. México, FCE.

وبالنسبة للسود فهناك الدراسات التالية:

José Luciano Franco, La diáspora africana en el Nuevo Mundo (La Habana, Editorial de Ciencias Socia-les, 1986); Esteban Montejo, Biografia de un crimarron (La Habana, Editorial de Ciencias Sociales, 1986); Leslie B. Rout. The African Experience in Spanish America, 1502 to the Present Day (Nueva York, Cambridge University, 1976); y Frank Tannenbaum, Negro en las Américas: csclavo y ciudadano (Buenos Aires, Paidós, Col. América Latina).

درس الكثير من الباحثين أمر ميلاد الثقافة الجديدة الناطقة بالإسبانية:

Una de las grandes poetas de la lengua españnola pertenece a esta época: Sor Juana Inés de la Cruz, Obras completas (México, FCE, Biblioteca Americana). Alonso de Ercilla y Zúñiga, La Araucana (México, Editora Nacional, 1977; Santiago de Chile, Editorial Orbe, 1974), poema épico idealista de la lucha de los españoles contra los indios araucanos, en la que participó el autor. La espléndida biografía de uno de los poetas más importantes de México, Octavio Paz, Sor Juana Inés de la Cruz o las trarnpas de la fe (Mexico, FCE, Lcngua y Es-tudios Literarios, 1988), revela las dimensiones de la vida colonial en la Nueva Espaila. Las Obras completas (Caracas, Biblioteca Ayacucho, 1984) del destacado poeta colonial del Perú, Juan del Valle y Caviedos, le añadc el eleniento satírico a esta bibliografía.

هناك كتابات ساخرة تكشف عن الجانب المظلم لحاكم التفتيش فى المجتمع الاستعمارى:

Fernando Benítez, Los demonios en el convento: sexo y religión en la Nueva Espaha (México, Ediciones Era. 1985). una aguda exploración de los prejuicios sexuales e intelectuales del México colonial; y Procesos de Luis de Carvajal. el Mozo (México, Archive General de la Nación, 1935); véase también Alfonso Toro, La familia Carvajal (México, Patria, 1977). Dos títulos importantes son: Richard E. Greenleaf. La Inquisitión en Nueva España. Siglo xvi (México. FCE, Historia, 1985); y posiblemente el libro más destacado de este periodo, Felipe Guamán Poma de Ayala, Nueva crónica y buen gobierno. ed. John V. Mura, Relena Adorno y Jorge L. Uriestes (Madrid, Historia 16,1987; México, Siglo xxi), escritos y dibujos de un indio peruano sobre la vida colonial de los prime-ros 60 años después de la Conquista.

كتب أخرى تعالج نوعية الحياة فى المستعمرات:

Tanto Arzáns de Orsúa y Vela, Historia de la villa imperial de Polosí (ed. de Lewis Hanke y Gunnar Mendoza, Providence, Brown University. 1965). corao Irving A. Leonard, La época barroca en el México colonial (México, FCH, Col. Popular 129, 1986). son dos bue-nas referencias. Para una perspectiva histórica, véase José Luis Romero, Latinoarnérica; las ciudades y las ideas (México. Siglo XXI. 1976), quien estudia el desarrollo de la vida de las ciudades en Latinoarnérica, desde la Colonia hasta nuestros días. Una obra en particular, David G. Sweet y Gary B. Nash, comps., Lucha por la supervivencia en la América colonial (México, FCE, His-toria, 1987), refiere la dificil vida de las colonias.

Como lo sugiere Irving Albert Leonard, el arte creado en este periodo se ubica dentro de lo que se ha denominado barroco, y es compartido tanto por España como por Latinoamerica, Véanse Guillermo Díaz Plaja, Elespíritu

del barroco (Barcelona, Ediciones Cnticas. 1983); P. Kleemen, Baroque and Rococo in Latin America (Nueva York, Macmillan, 1951); así como trabajos de Gerard de Cortanze, Juan de Contreras y Manuel Toussaint.

الانحطاط الإسبانى:

تتناول معالجة فترة انتهاء حكم آل هابسبورج وبداية أسرة البوربون فى إسبانيا.

Antonio Domínguez Ortiz. fnstituciones y sodedad en la España de los Austrias (Barcelona. Ariel, 1985): y en John Langdon Davies. Carlos. The King Woo Would Not Die (Londres. Jonathan Cape, 1962). Dos ediciones.de la obra.

de Caspar Melchor de Jovellanos: Diarios, ed. de Julián Marías (Madrid, Alianza Editorial. 1967). y Obras completas. edición crítica (Oviedo, Centro de Estudios del Siglo XVHI). se complementan con dos buenas biografías del autor: Manuel Fernández Álvarez. Jovellanos: Un hombre de nuestro tiempo (Madrid. Espasa-Calpe, 1988), y Javier Varela. Jovellanos (Madrid, Alianza Universidad. 1988). Más información sobre la decadcncia española puede enconlrarse en Richard Herr, España y la revolutión del sigh XVIII (Madrid. Aguilar. 1964), y Julián Marías, La España posible en tiempos de Carlos III (Madrid, Planeta, 1988; Madrid. Alianza Editorial, Obras de Juliín Marías, tomo VII), que describe la polémica accrca de la posición de España ante la modernidad y la unión europea.

هناك أعمال أخرى تتعلق بهذا العصر وتتناول إبداعات جويا:

Fernando Díaz-Plaja, Las Españas de Goya (Barcelona, Planeta, 1989); Alfonso E. Pérez Sánchez y Eleanor A. Sayrc, Goya and the Spirit of Enlightenment (Boston, Little Brown, 1989); y, para un estudio sobre la vida y obra de este gran artista, Pierre Gassier, Francisco Josée de Goya y

Lucientes. 1746-1828 (Barcelona, Noguer, 1973). José Ortega y Gasset y André Malraux nos ban dejado, asi-mismo, espléndidos estudios sobre el pintor.

ما بعد العصر الاستعماري:

الدراسة الجيدة لهذه الفترة يمكن أن تبدأ بقراءة كتاب للرحلات الذى يكثر من وصف الحياة فى أمريكا الجنوبية قبل حروب الاستقلال، وإضافة إلى مصادر أخرى.

Alonso Carrió de la Vandera, "Concolocorvo", Lazarillo de ciegos caminan-tes (Caracas, Biblioteca Ayacucho, 1984). Otras fuentes a considerar son: José Carlos Chiaramonte, La ilustración en el Rio de la Plata (Buenos Aires, Punto Sur, 1989); y Alexander von Huraboldt, Ensayos políticos sobre el reino de la Nueva España (México, Porrua, Col. Sepan Cuántos), estudio científico, de una gran influencia, sobre la riqueza de México a finales del periodo colonial.

Peggy Liss, Los imperios trasatlánticos. Las redes del comercio y de las revoluciones de Independencia (México, FCE Historia, 1989), estudia las relaciones comerciales, políticas y culturales entre ambos lados del Atlántico y entre las dos Américas, la del norte y la del sur; con una mirada sobria hacia el aspecto comercial, explica los apuntalamientos de la algunas veces rampante ideología que habría de conducir a las guerras de independencia. Otra referencia acerca de las relaciones económicas y las condiciones sociales es Mancur Olson, Auge y decadencia de las naciones (Barcelona, Ariel).

مصادر أخرى لاستكمال القائمة:

Giovanni Marchetti, Cultura indígena e integratión national: la "Historia Antigua de México", de F. J. Clavijero (Jalapa, Unviersidad Veracruzana,

1986); Magnus Momer, Estado, razas y canibio social en la Hispanoamérica colonial (México. Sepsetentas. 1974); y Arthur P. Whitaker. i comp., Latin America and the Enlightenment (Ithaca, Nueva York, Cornell University, 1958); y Juan Ignacio.

Molina. Historia civily natural de Chile (Santiago. Uni-versitaria). La tendencia a ver las revoluciones de Independencia a través de sus líderes es romántica y comprensible; sin embargo, en lugar de ofrecer una larga lista de textos acerca de los libertadores, quisiera recomendar al lector una obra insuperable que estudia las grandes personalidades, los grandes temas y los hechos históricos y sociales de las luchas de independencia: John Lynch. Las revoluciones hispanoamericanas (Barcelona, Ariel Historia). Otros textos que se pueden incluir en esta bibliografía son: Bolóvar, Simón. Doctrina del Libertador, Caracas, Ayacucho, 1976. una selección completa de textos del Libertador de América.

Columbres. Manuel Eduardo, San Martín y Bolívar, Buenos Aires, Plus Ultra, 1979.

Descola, Jean. Libertadores, Barcelona, Juventud.

Liévano Aguirre, Indalecio, Bolívar, Buenos Aires, Plus Ultra. 1979.

Medrano, Samuel, El libertadorJose de San Martín, Madrid, Espasa-Calpe, 1950.

Páez, José Antonio, Autobiografía del general José Antonio Páez, Caracas, 1973.

Puiggros, Rodoli'o, De la Colonia a la Revolutión, Buenos Aires, Ediciones Cepe, 1974.

Real de Azua, Carlos, El patriciado Uruguayo* Montevideo, Ediciones de la Banda Oriental, 1981.

نبرز هنا أفضل الأعمال الأدبية التى عبرت عن هذه الفترة:

Alejo Carpentier. El Siglo de las Luces, en la que dos símbolos de la Revolución francesa Hegan a el Caribe: la libertad de los esclavos y la guillotina; Arturo Uslar Pietri. Las lamas colo-radas y cientos selectos (Caracas, Biblioteca Ayacucho, 1979); y Gabriel García Márquez. El general en su la-berinto (México, Diana, 1989; Bogotá, Oveja Negra, 1989; Buenos Aires, Sudamericana, 1989; Madrid, Mondadori), una recreación del viaje final de Bolivar hacia el mar. Siglo xix en América Latina.

La lista de referencias a esta época es muy extensa, por lo que la he dividido en dos grandes rubros, his-toria y cultura.

التـاريخ :

هناك كتب تعرض عرضًا بانوراميًا وكتب أخرى تعرض لفترات وأحداث بعينها:

Burgin, MiTon, Aspectos económicos del federalismo argentino, Buenos Aires, Hachette, Col. El pasado argentine. Burr, Robert N., By Reason or Force: Chile and the Balancing of Power in South America, 1830-1835, Berkeley, University of California, 1965.

Calderón de la Barca, Madame. La vida en Méexico, Mexíco, Porrúa, Col. Sepan Cuántos.

Corti, Egon Cesar, Maximiliano y Carlota, México, FCE, Historia, 1971.

Donoso, Ricardo, Las ideas politicas en Chile, Buenos Aires, Editorial Universitaria de Buenos Aires, 1975.

Estrada, José Manuel, Lecciones sobre la República argentina, Buenos Aires, Librería de Colegio, 1898.

Fuentes Mares, José. Miramón, el hombre, México, Joaquín Mortiz, 1974.

Hanighen, Frank C, Santa Anna: The Napoleon of the West, Nueva York, Coward McCann, 1934.

HasJip. Joan. The Crown of Mexico. Nueva York. Holt. Rinehart y Winston. 1971.

Muñoz. Rafael F. Santa Anna. El dictador resplandeciente. México. Botas. 1945; México. FCE. Historia. 1987.

Quesada, Ernesto. La época de Rosas. Buenos Aires. Instituto de Investigaciones Históricas. 1923.

Roedcr. Ralph Lederc. Juárez y su México. México. FCE. Hisloria. 1984.

Además de dos extraordinarios trabajos sobre historiografía: Daniel Cosío ViJJegas, et al.. Historia moderna de México: "La República restaurada" (México, El Colegio de México, 1958); y Jesús Reyes Heroics, El liberalismo mexicano (México. FCE. Obras de Pot?ti-cay Derecho. 1982).

وبعد الاستقلال، اتخذ الكتاب فى إسبانوأمريكا رؤى جديدة للماضى، وهناك أعمال مختلفة لمؤلفين مثل دييجو باروّس أرانا وبارتولوميه ميترى وبنيامين بيكونيا تشهد على هذا العصر، هناك أيضاً بعض أفضل المؤرخين المكسيكيين الذين يمثلون العقلية الجديدة:

Lucas Alamán, Historia de México desde losprimeros movimientos queprepararon su independencia en el año de 1808. hasta la época presents (México, Institute Cultural Helénico, 1985), quien personifica el punto de vista conservador que elogia la Conquista y el vínculo con España. condenando el poder expansionista protestante de los Eslados Unidos; Lorenzo de Zavala, Ensayo histórico de las revoluciones de México desde 1808 hasta 1830 (México, SRA. CEHAM, 1981), quien expone el punto de vista liberal, en favor del progre-so e identificado con los Estados Unidos. El punto intermedio lo representa José María Luis Mora, México y sus

revoluciones (México. Institute Cultural Helénico. 1986). quien cree en la juste milieu, la cual se traduce en tener un conocimiento cabal de los hechos antes de actuar o hablar, evaluar dicho conocimiento y aplicarlo en favor de la construcción de las naciones.

الثقافة:

هناك كتب تاريخ مثل كتاب "من الغزو إلى الاستقلال: ثلاثة قرون من التاريخ الثقافي الإسبانوأمريكي" (المكسيك Fce Col. Populan G5 – لعام ١٩٨٥)، ونصوص مثل تلك التي كتبها خيرمان أرثينيجاس (أمريكا في أوربا – بوينوس أيرس – Suameicana) وبدرو إنريكث أورنيبا (تاريخ الثقافة في أمريكا الناطقة بالإسبانية – المكسيك – FCE – السلسلة الشعبية لعام ١٩٨٦، تيارات أدبية في أمريكا الناطقة بالإسبانية ١٩٧٨)، وهذه مصادر مفيدة للبحث في مسألة الحياة الثقافية في أمريكا اللاتينية؛ ومع هذا فإن الكتابين المهمين في أدب أمريكا اللاتينية خلال القرن التاسع عشر هما قصيدة ومقال، وكلاهما من الأرجنتين، أما القصيدة فهي "مارتين فيرّو (بوينوس أيرس – Eudelsc) لخوسيه إيرنانديث، أما المقال فهو "فاكوندو: الحضارة والبربرية" لدومجو فاوستينو سارمينتو (المكسيك – الكلاسيكيون – UNAM)؛ وحول هذين العملين نشهد العديد من الدراسات الرائعة؛ فالإسهام الذي جاء به سارمينتو ليس مجرد عمل جوهري فحسب، في إطار الدراسات التاريخية، بل من خلاله يبدأ تقليد هو التحليل الذاتي الوطني والثقافي، ويأتي هذا في قوالب مثل المقالات والأعمال الإبداعية التي تتعلق بالطاغية سواء كان على المستوى الوطني أم المستوى المحلي. ويبدأ مع أندرس بيّو، المتخصص الفنزويلي العظيم في الدراسات الإنسانية الذي قدم لإسبانوأمريكا قاعدة ثقافية متينة خلال السنوات الأولى للاستقلال؛ اتصالنا بالنصوص الرئيسية.

هناك إيوخينيو ماريا دي أوستو – أعمال – (هافانا – بيت أمريكا – ١٩٧٦)، وهو روائي وعالم اجتماع وفقيه قانوني كما كان مؤسساً لتوجهات بويرتوريكو

فى الحفاظ على ثقافة الناطقين بالإسبانية. نجد عملاً آخر لخوان مونتالبو "الكتب السبعة: نسخة مقلدة لصوفى شبه كاثوليكى (مدريد - الدار القومية للنشر - ١٩٧٧) وهو عبارة عن مجموعة مقالات على طريقة مونتين، لكنها مكتوبة بأسلوب رشيق له بصمات أمريكية جاءت من لدن أبرز كاتب فى الإكوادور خلال القرن التاسع عشر، للبيروانى مانويل جونثاليث برادا عمل آخر هو "صفحات حرة، ساعات الكفاح" (كاراكاس - Ayacucho ١٩٧٦) وهو كاتب محارب وناقد للعيوب التى تعانى منها بلاده ويصل به الأمر إلى حد الراديكالية، كما أنه الذى بدأ التأويل المتشدد للثقافة فى أمريكا اللاتينية خلال زماننا. وعلى الطرف الآخر نجد خوسيه إنريكى رودو الذى احتفى بالروحية فى أمريكا اللاتينية وقابلها بالمادية فى الولايات المتحدة، ويفسر هذا التناقض النجاح غير المتوقع لكتابه بعنوان Aril (المكسيك Fce/ Crea - مكتبة الشباب - ١٩٨٤م) وهو عبارة عن درس بلاغى يحاول من خلاله أن ينقل لنا تصوّره للواقع إلى الحياة المستقبلية الحضرية للأمريكتين. هناك القليل من القصص الجيدة التى كتبت فى أمريكا الإسبانية خلال القرن التاسع عشر؛ وكانت الموضوعات التى تتناولها هذه القصص الفوضى السياسية الخانقة والدكتاتوريات، وهى موضوعات ظلت قائمة حتى أيامنا هذه، أى عندما تحولت شخصية الطاغية فى نهاية المطاف إلى شخصية أدبية؛ وهنا أود أن أبرز من بين تلك الأعمال وهؤلاء الكتاب ما يلى: ميجل أنخل أستورياس وروايته "السيد الرئيس" وهى أول عمل فى أمريكا اللاتينية تظهر فيها شخصية الرئيس - الدكتاتور (التى تقوم على قصة الطاغية إسترادا كابريرا من جواتيمالا)، هناك ألخو كارينتير فى "اللجوء إلى المنهج" التى تقوم على سرد ما قام به الطاغية المستبد جوثمان بلانكو فى فنزويلا. هناك جابريل جارثيا ماركيث و"خريف البطريرك"، العمل القمة فى هذا الموضوع، حيث يقدم ماركيث الملامح العامة للدكتاتوريين ممن ينسبون إلى الماضى وإلى الحاضر ابتداء من ميلجاريخو فى بوليفيا، وجومث فى فنزويلا، وانتهاء بـ"تروخيّو" فى جمهورية الدومنيكان، وسالازار، وفرانكو فى إسبانيا. هناك روايات أخرى لاستكمال هذه القائمة وهى: "أنا، الأعلى" لأوجوستو روا باسكوس،

وهى عبارة عن وصف رائع لدكتاتور الباراجواى، رودريجيث دى فرنسا، ورامون دل بايّى إشكلان "تيرانو بانديراس" وهى رواية سابقة للروايات التى تناولت حياة الحكام الدكتاتوريين. كانت إمبراطورية ماكسيمليانو وكارلوتا فى المكسيك موضوعًا لرواية رائعة لفرناندو دل باسو "أخبار الإمبراطورية" (المكسيك - ديانا).

تمثل قصيدة مارتين فيرّو ما هو محلى، أى الثقافة الشعبية واستمراريتها، "مارتين فيرو" (مدريد أليانثا - كتاب الجيب ١٩٨٣). يرى أفضل مبدعينا أن كلا الطرفين المتشددين يعنيان الهزيمة المتبادلة ويجدون خلاصة إبداعية تتمثل فى خلطة الثقافتين الأمريكية والأوربية، ومن بينهم المؤرخ براد فورد بونس، من كاليفورنيا، الذى قام من خلال عمله "فقر التقدم" (المكسيك - دار نشر ق ٢١) بتحليل الاتجاهات الثقافية، ويسلط الضوء على الأزمة القائمة بين النموذج الغربى الذى يتعبد فى محراب التقدم وبين النموذج البديل والوطنى فى أمريكا اللاتينية.

نجد أيضًا كتاب "صفحات مختارة" لروبين داريو (مدريد - كاندرا - ١٩٨٢) وهو عبارة عن مختارات أعدها ريكاردو جويّون من أشعار هذا العظيم ابن نيكاراجوا، الذى ترك بصماته فى أمريكا اللاتينية وأوربا. وفى كتاب آخر بنفس العنوان (صفحات مختارة) هافانا - دار نشر العلوم الاجتماعية ١٩٧٤، ودار نشر أسباسا كالبى - مدريد - سلسلة أوسترال رقم ١١٦٣) نجد الوطنى والمثقف الكوبى خوسيه مارتى يطرح علينا حلاً ديمقراطياً لأمريكا اللاتينية: الاحتياجات الضرورية، والتراث والموارد، وسلط الضوء على مطالب الشعب بمختلف فئاته وتوجهاته.

حمل الفنان المكسيكى خوسيه جوادالوبى بوسادا الفن الشعبى إلى العالمية وهو أدب الأحلام والموت، انظر:

véase Posada. Messenger of Mortality. conipilación de Julián Rothenstein (Londres. Redstone. 1989). Horacio Salas. El tango (Buenos Aires, Planeta, 1986). es otro Jibro sobre cultura popular que también puede ser consultado.

Finalmente, el extraordinario libro dc Claudio Véliz, La traditión centralista de América Latino (Barcelona, Ariel, Col. Historia), ofrece el mejor análisis de la ideología y política del siglo XIX, remarcando lo pue el autor considera ha sido una inalterable tradiciín centralista desde la Conquista.

الثـورة المكسيكيـة :

هناك عمل من أفضل الإسهامات عن تاريخ الثورة هو ذلك الخاص بـ:

John Mason Hart, Revolutionary Mexico: The Coming and Process of the Mexican Revolution (Berkeley, University of California, 1987), que, además, contiene un análisis profundo acerca de las relaciones entre los gobiernos revolucionarios y los Estados Unidos. Otra obra que analiza la dinámica internacional es la de Friedrich Katz, Guerra secreta en México (México, Era, 1982). Andrés Molina Enríquez, Los grandes problernas nacionales (México, Era, 1977), describe los problernas y demanda soluciones.

Entre los estudios enfocados sobre la figura de Porfirio Díaz, se encuentran Francisco Bulnes, El ver-dadero Díaz y la Revolución (México, Ediciones COMA, 1982); y Daniel Cosfo Villegas, Historia moderna de México (México, Editorial Hermes, 1955). Un estudio clásico sobre los fundamentos ideol?gicos del régimen de Porfirio Díaz es el de Leopoldo Zea, El positivismo en México, apogeo y decadencia (México, FCE, Obras de Filosofía, 1984), Otros libros son: Héctor Aguilar Camfn, La frontera nómada: Sonora y la Revolución mexicana (México, Siglo XXI Editores, 1977); Daniel Cosío Villegas Historia mínima de México (México, EJ Colegio de México, 1983); John Kenneth Turner, México bárbaro (México, Mexicanos Unidos, 1983); y John Womack, Zapata y la Revolucion mexicana (México, Siglo XXI 1986).

Jean Mcyer, La cristiada (3 tomos, Mexico, Siglo XXI), es otro clásico, pero éste en relatión con las rebcliones catoólicas. Finalmente, Anita Breriner, La revolutión en blanco y negro: la historia de la Revolución mexicana entre 1910-1947 (México, FCE, 1985), que incluye excelentes fotografías sobre la Revolución. Las memorias de los participantes en la Revolución creó un género dentro de la literatura: la novela de la Revolución. Una de las más famosas es la de Mariano Azuela, Los de abajo (México, FCE, Colección Popular 13,1988). Posteriormente, obras como la de Juan Rulfo, Pedro Páramo (México, FCE, Col. Popular, 1987), ofrecen impresiones detalladas de la sociedad y el ambiente que existían poco antes de la Revolución. Fascinantes son las memorias del filósofo y educador José Vasconcelos, Ulises criollo (México, FCE, Letras mexicanas, 1984), las que se sitían entre la fictión y la realidad. Por último, las obras plásticas más importantes de la Revolución, los murales, puden documentarse en diversos libros y catálogos.

القرن العشرون:

تعرض المسار الأدبى لجيل عام ١٩٢٧ فى إسبانيا، ومعه إبداعات الشاعر والمسرحى فيدريكو جارثيا لوركا لضربة درامية بسبب الحرب الأهلية الإسبانية، هذه الحرب نجد وصفًا لها فى بعض الأعمال، ومنها:

Gabriel Jackson en su Breve historia de la guerra civil (Barcelona, Grijalbo); y por Hugh Thomas, Guerra civil española (Barcelona, Grijalbo). Un panorama general sobre la historia de España en el siglo xx se puede encontrar en Raymond Carr, Modern Spain (Nueva York, Oxford, 1980).

هناك رؤية جميلة، ربما الأجمل، لإسبانيا نراها عند:

Gerald Brenan, El laberinto español; antecedentes sociales y políticos de la guerra civil (París, Ruedo Ibérico, 1962). La guerra generó también una

serie de ensayos y novelas escritos por autores extranjeros, como André Malraux, Esperanza (Barcelona, Edhasa); George Orwell, Homenaje a Cataluña (Barcelona, Planeta, 1983); y Ernest Hemingway, Por quién doblan las campanas (Barcelona, Planeta). Otro autor que habría que destacar es Ian Gibson, quien ha realizado una biografía definitiva del poeta: Federico García Lorca (Barcelona, Grijalbo).

وبالنسبة للتاريخ المعاصر لأمريكا اللاتينية انظر:

Véase Tulio Halperin Donghi, Historia contemporénea de América Latina (Madrid, Alianza Editorial, El Libro de Bolsillo). Información más específica sobre las condiciones sociales y económicas, analizadas desde la perspectiva de la teoría de la dependencia, se encuentra en el libro clásico de Celso Furtado, La economía latinoamericana (México, SigJo xxi); y en Fernando Car-doso y Enzo Faletto Dependencia y desarrollo en América Latina (México, Siglo XXI).

هناك أعمال أخرى تتعلق بالماضي القريب الخاص بأمريكا الإسبانية:

Hugh Thomas, Historia contemporánea de Cuba (México, Grijalbo); John V. Lombardi, Venezuela: la búsqueda del orden, el siteño delprogreso (Barcelona, Cr?tica, 1985); James R. Scobie, Argentina: A City and a Nation (Nueva York, Oxford, 1971); y Brian Loveman, Chile: The Legacy of Hispanic Capitalism (Nueva York, Oxford, 1988). Entre las referencias a México, se incluyen Howard F. Cline, Mexico, Revolution to Evolution, 1940-1960 (Nueva York, Oxford, 1962); Pablo González Casanova, Democracia en México (México, Era, 1967); Frank Brandenburg, The Making of Modern Mexico (Englewood Cliffs, N.J., Prentice Hall, 1964); y Charles C. Cumberland, Mexico: The Struggle for Modernity (Londres, Oxford, 1968).

وفيما يتعلق بالعلاقات بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية:

T. D. Allman, Unmanifest Destiny (Nueva York, Dial, 1984); Albert O. Hirschman, Desarrollo y América Latina. Obstinación por la esperanza (México, FCE, Lecturas de El Trimestre Econ?mico, 1973); y Abraham Lowenthal. Socios en conflic-to: los EVA y América Latina (México, Nueva Imagen, 1988). Las dificultades que ha habido en estas relacio-ncs se estudian con profundidad en Richard Fagen, Forging Peace: The Challenge of Central America (Oxford, Blackwell, 1987); Stephen Kinzer y Stephen Schlesinger. Fruta amarga. La CIA en Guatemala (México, Siglo XXI); Raymond Bonner. "Weakness and Deceit. U.S. Policy and El Salvador" (Nueva York, Times, 1984); Peter Davis, Where Is Nicaragua[1]? (Nueva York, Simon y Schuster, 1987); Robert Pastor y Jorge G. Castañeda, Limits to Friendship: The United States and Mexico (Nueva York, Knopf, 1988); y Wayne Smith, The Closest of Enemies (Nueva York, Norton, 1987). Dos destacadas biografías sobre líderes latinoamericanos, escritas por nortearnericanos, son Tad Szulc, Fidel: A Critical Portrait (Nueva York, Morrow, 1986); y Joseph Page, Perón (Nueva York, Random House, 1983).

وبالنسبة لأحوال أبناء أمريكا اللاتينية في الولايات المتحدة:

Edna Acosta-Belen y Barbara Sjorstrom, comps., The Hispanic Experience in the United States (Nueva York, Praeger, 1988); y Juan Gómez-Quinones, Al norte del río Bravo (México, UNAM-Siglo xxi, 1980. Los trabajos de Jorge Bustamante y Wayne Cornelius son esenciales para entender los problemas tan-to de la frontera corno migratorios.

هناك أيضاً تحليلات تتعلق بالذات الأمريكية اللاتينية كتبها أبناؤها:

Véanse el excepcional ensayo de José Lezama Lima, La expre sión americana (Santiago de Chile, Editorial Universitaria, 1969; Madrid, Alianza Editorial, El Libro de Bolsillo); José Carlos Mariátegui, Siete ensayos de interpretatión de la realidad peruana (México, Era, 1979; Barcelona, Crítica);

Ezequiel Martínez Estrada, Radiografía de la pampa (Buenos Aires, Losada, 1983); Al-fonso Reyes, Position de América (México, Nueva Imagen, 1982); y Octavio Paz, El laberinto de la soledad (México, FCE, Tierra Firme, 1986).

ومع القرن العشرين نجد أن أمريكا اللاتينية قد دخلت مسرح الأدب العالمى، وهناك قراءات لأعمال إبداعية مثل أعمال نيرودا وثيسار باييخو وخورخى لويس بورخس وأليخو كاربنتير وخوليو كورتاثار وخوسيه دونوسو وجابريل جارثيا ماركيث وخوان كارلوس أونتى وماريو بارجاس يوسا؛ وهذه بداية طيبة للدخول إلى العالم الأدبى المعاصر فى أمريكا اللاتينية.

شكـــر واجـــب

بادئ ذى بدء أتقدم بالشكر لابنتى ثيثيليا فوينتس التى تكبدت مشقة معظم المراسلات التى تمت بين نيويورك ولندن ومدينة المكسيك وفعلت ذلك بحماس ودقة والتزام بالوقت، أتقدم بالشكر للوكلاء الأدبيين وهم كارمن بالسيل (برشلونة) وكارل براندت (نيويورك) وجون إسترلينج وبيتسى ليرند وليز دوقال وجيست برّى وكارين هولزمان وليزا ساكس وإيريكا مانصوريان ودنيس فولبروك من دار نشر Houghton Mifflin (نيويورك - بوسطن) لما قدموه من مساعدة لا تقدر بثمن فى طبع النسخة الإنجليزية للكتاب. أتوجه بالشكر أيضًا إلى آدولف كاستانيون من دار نشر "Fondo de Cultura ecenomica" (المكسيك) على قيامها بطبع النسخة الإسبانية، وإلى ليوبولدو كاستيرو. ومن جهة أخرى أريد أن أعبر عن شكرى لكل هؤلاء الذين ساهموا فى هذا المسلسل التليفزيونى الثنائى اللغة بعنوان "المرآة الدفينة ,The Buried Mirror" وهم خيسوس دى بولانكو وخوان لويس ثبريان وإيوخينيو جالدون وميجل ساتروستيجى دى سوختيل (مدريد) وميشيل جيل المنتج التنفيذى وبيتر نيو نجتون وكريستوفر إلنج مديرو شركة Malone Caill Productions (لندن) وألان يونتوب من BBC (لندن) ورووث أوت رئيس قناة ديسكفرى (واشنطن .D.C) وبيجى ليز المساعدة التاريخية للسلسلة (واشنطن .D.C) وشارك بنتون من Public Media inc (شيكاغو) وروبرت آدم ومارك بكتر وأليثيا جونثالث من Smith soniqu intitntion (واشنطن D.C).

المؤلف فى سطور :

كارلوس فوينتس ماثياس (١٩٢٨)

- كاتب من المكسيك وأشهر كتابها فى الوقت المعاصر.
- ألف العديد من الأعمال الروائية والمقالات، نبرز من بينها: موت أرتيميو كروث، والإقليم الأكثر شفافية فى العالم، وأرضنا، والمرآة الدفينة.
- هو ابن لدبلوماسى مكسيكى، وقد مكنته وظيفة الأب من التنقل بين مختلف المدن والبلدان فى أنحاء العالم وبخاصة أمريكا اللاتينية، الأمر الذى أسهم فى تكوينه الثقافى وصقله ودفعه للغوص فى أعماق هذه الثقافة بأفرعها المختلفة وقراءتها وقراءة نقدية مثل القراءة التى نراها له فى بعض أعماله ومن بينها المرأة الدفينة.
- مارس لعبة السياسة وشارك فى إعداد الكثير من السيناريوهات لبعض الأفلام.
- بلغ عدد رواياته ثنتين وعشرين رواية، إضافة إلى عدد مماثل أو يزيد من القصص القصيرة والمقالات.

المترجم فى سطور :

على إبراهيم منوفى

- أستاذ بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر، متخصص فى الأدب الإسبانى المعاصر (الشعر).
- له عدد من الأبحاث المنشورة بالإسبانية والعربية فى مجالات الشعر والسرد القصصى.
- قام بترجمة العديد من الكتب عن الإسبانية فى مجالات مختلفة يصل عددها إلى ما يقرب من أربعين عنوانًا.

يدلف كتاب "المرآة الدفينة".. إلى أعماق مكونات الثقافة المعاصرة فى أمريكا اللاتينية، باحثًا عن جذورها التى تتكون - فى رأى كارلوس فوينتس- من الموروث الإسبانى، ذلك الموروث هو خلاصة تيارات حضارية وثقافية كثيرة، ضربت بجذورها فى البحر الأبيض المتوسط: الحضارة الفرعونية واليونانية والرومانية والفينيقية والعربية الإسلامية، بالإضافة إلى حضارة إفريقيا السوداء، وهى حضارات اختلطت كلها بالثقافات المحلية وتفاعلت وتناغمت معها.

ونحن نأمل أن يساهم هذا الكتاب التحليلى، الذى يغوص فى الماضى ويستشرف المستقبل، فى تقديم قراءة جديدة لأدب أمريكا اللاتينية، يفيد منها القارئ العربى وتكون عونًا له على اكتشاف ثراء هذا الأدب.

تصميم الغلاف: نسرين كشك